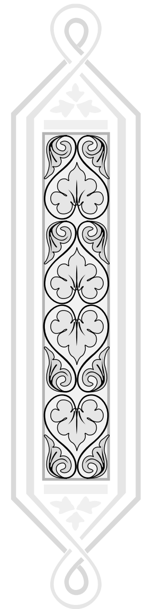
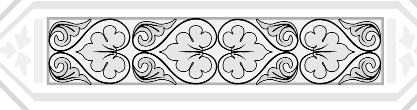
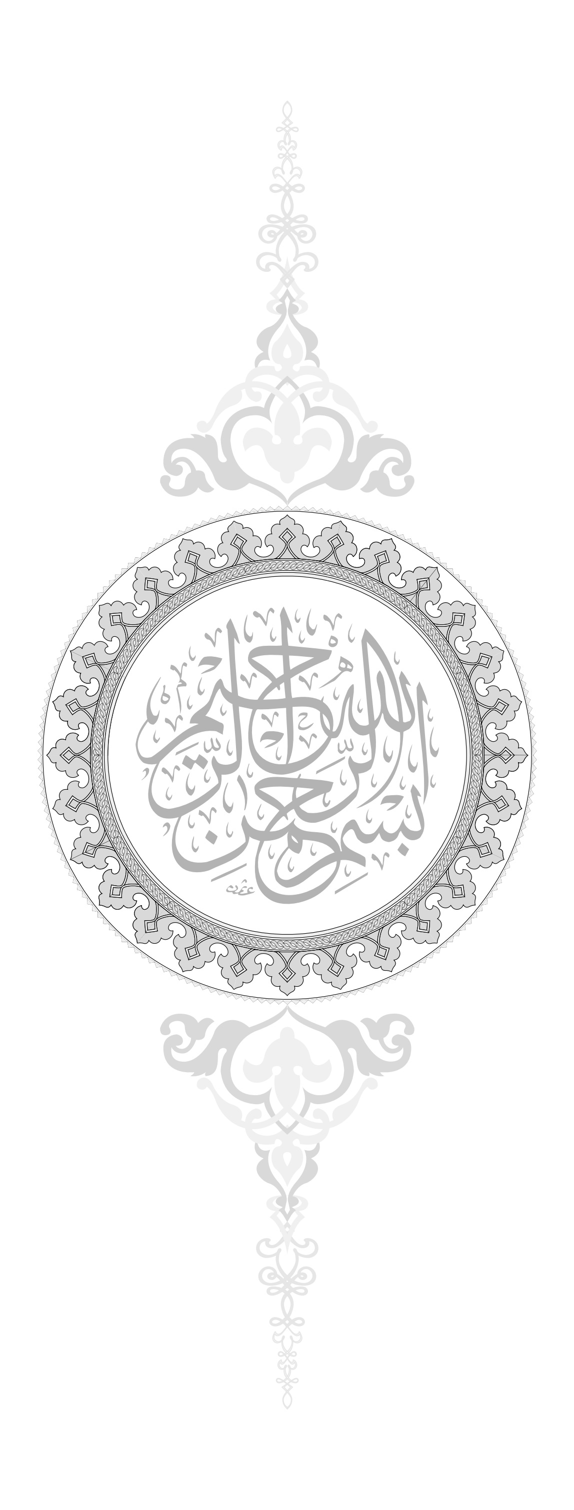




السيرة النبوية
للقرية العالمية




بسم الله الرحمن الرحيم



للقرية العالميّة

بقلم

الدّكتور محمّد الهاشميّ الحامديّ

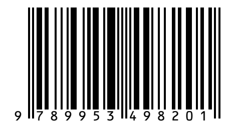


الطَّبْعَة الرَّابعَة
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

اسم الكتاب : السيرة النبوية للقرية العالمية
المؤلف : **الدكتور** محمد الهاشمي الحامدي
الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي
موضوع الكتاب : السيرة النبوية
مقاس الكتاب : (٢٤ سم)
تصنيف ديوي الموضوعي : (٢٣٩)

عدد الأجزاء : (١)
عدد المجلَّدات : (١)
نوع الورق : شاموا فاخر
نوع التجليد : مجلَّد كرتوناج
عدد الصفحات : (٤٤٨ صحيفة)
عدد ألوان الطباعة : لون واحد

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني



الرقم المعياري الدولي
ISBN: 978 - 9953 - 498 - 20 - 1



لبنان ـ بيروت ـ فاكس : 786230

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب

عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين

عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزّعون المعتمدون داخل المملكة العربيّة السّعوديّة

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة

هاتف 6570628 ـ 6510421

جدة

مكتبة الشنقيطي

هاتف 6894558 ـ فاكس 6893638

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي

هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز

هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي

هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان

هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف

مكتبة المزيني

هاتف 7365852

الدمام

مكتبة المتنبي

هاتف 8413000 ـ فاكس 8432794

الرياض

دار التدمرية

هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض

مكتبة الرشد

هاتف 2051500 ـ فاكس 2052301

الرياض

مكتبة جرير

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان

وجميع فروعها داخل المملكة

هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية



فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت
هاتف 417130 ـ فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة
هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي
هاتف 22616490 ـ فاكس 22616490

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي
هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت
هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت
هاتف 707039 ـ جوال 03662783

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي
هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي
هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
هاتف 2211949 ـ فاكس 2225137

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة
هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة
هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء
هاتف 022306240 ـ فاكس 022447666

دار الأمان ـ الرباط
هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

قَالُوا فِي هَـٰذَا الكِتَابِ

الدكتور الهاشمي من خلال كتابه البديع الرائع يرسلُ للناس رسالةً ملؤها المحبَّة والمودَّة لرسول الناس ، وأفضل الناس ، وهادي الناس صلى الله عليه وسلم ، وأنت حينما تطالعُ كتابه ؛ تقرأ آثارَ هـٰذا الحبِّ الصادق العميق ، والودِّ الراسخ المتين ؛ عن صفوة الله من خلقه ، وحبيبه من عباده ، فاستحقَّ الدكتور الهاشمي بهـٰذا العمل تاجَ القبول ، ووسام الشرف ، وتحيَّة الإجلال علىٰ طهر الضمير ، وصحَّة النهج ، وصدق العاطفة .

الدكتور الداعية عائض القرني

* * *

إنه ليبهرُ مطالعه بمحاسنه ، ويرفد مسامره بالجديد ، فهو صدىً لحكمة اللبيب ، وبراعة الأديب ، وترسُّل الكاتب .

عرض السيرةَ النبويَّةَ العطرة ببراعةِ العصر ، ودبَّجها بتحليلات المفكر ، فهنا تجد محاسنَ التشريع الإسلامي منتشرة ، ومكارم الأخلاق المحمديَّة في أبهىٰ صورها متجلية ، وعبقريةَ إمامِ العظماء تتراءىٰ في أجمل حللها ، كما ترىٰ في سطورِ هـٰذا الكتاب شُبَهَ المبطلين تتهاوىٰ ، حين ردَّها ببراهينَ بينةٍ لا تدفع ، مكشوفةٍ لم تتقنَّعْ .

فالكتاب جديرٌ بالاقتناء ، قمنٌ بالاعتناء ، فدعاؤنا المتواصل لمحبِّر هـٰذا السفر المبارك ، وخلد الله تعالىٰ له ذلك في صحائفه البيضاء .

الدكتور محمد عبد الرحمـٰن شميلة الأهدل

جامعة الطائف ـ قسم الشريعة

* * *

لم يحل وجود النصِّ الأصل لإلياذةِ هوميروس دون أن يعيدَ مفكرو أوروبا صياغتها عشرات المرات ، ويضعوا لها عشراتِ المختصرات في اللغة الواحدة ، فضلاً عن شتى اللغات ، وغايتهم خدمة أفكارهم ورؤاهم للحياة من خلال تلك الأسطورة .

ولذلك فلا غرابة في أن يعيد مفكرو المسلمين صياغةَ سيرة الإنسان الأسوة ؛ لاستجلاء جوانبها المثلىٰ ، والتعريف بالدين الحقِّ من خلالها .

وكان الأخ الدكتور محمد الهاشمي الحامدي موفقاً في عرضه للسيرة في خطاب نحتاج إليه ، موجَّه لمتلهف للتعرف على الإسلام من خلال سيرة نبيه ، ولناشىء مسلم في بلاد الغرب يريد أن يُعرِّف هناك برسول السلام ، ولشاب عصريِّ الثقافة يتشوَّف لفهم السيرة فهماً يشفي صدره من شبه العصر .

الدكتور محمد السعيدي

أستاذ أصول الفقه ـ ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى

وعضو الجمعية الفقهية السعودية

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ عبده ورسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين .

أما بعد :

فهٰذه كلمات موجزة أخطها توطئة للطبعة الرابعة من كتابي « **السيرة النبوية للقرية العالمية** » الذي يروي حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي طبعة فيها بعض الإضافات والتنقيحات والتصحيحات البسيطة ، مقارنة إلى الطبعات السابقة .

كنت بينت في مقدمة الطبعة الأولىٰ خاصة ، والطبعتين الثانية والثالثة بعد ذلك الدوافع التي جعلتني أهتم بتأليف هٰذا الكتاب ، وإنني أرجو أن يتكرم القارىء الكريم بالعودة إلىٰ هٰذه المقدمات في ملاحق هٰذه الطبعة الجديدة ؛ لأنني لا أريد أن أكرر هنا ما ذكرته هناك .

أقول للقارىء الكريم : إن الكتابة عن سيرة عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم هي بالضرورة كتابة عن أعظم موضوع في تاريخ الكون والإنسانية ؛ لأن الأمر يتعلق بمعرفة الأجوبة الصحيحة علىٰ أهم الأسئلة التي طرحها الإنسان في مسيرته الطويلة .

محمد صلى الله عليه وسلم جاء يتوج الجهود العظيمة الضخمة التي بذلها قبله عدد كبير من الأنبياء والمرسلين ، وينفض الغبار عن جوهر ما دعوا إليه ، ويجدد القيم والمبادىء والمفاهيم التي لا سعادة للبشرية بدونها .

قصة محمد صلى الله عليه وسلم ويوميات كفاحه النبيل من أجل نشر تعاليم الإسلام هي الفصل الأخير من قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وسائر من سبق من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

جميع هـٰؤلاء الرسل الكرام كانوا مبعوثين من خالق الناس ورب العالمين ، يهدون البشرية إلى الصراط المستقيم ؛ الذي يقوم على الإيمان بالله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له ، وطاعته فيما أمر به وفيما نهىٰ عنه ، والاستعداد للحياة الآخرة ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا يجب أن تكون موضع اهتمام المسلمين فقط ، وإنما جميع سكان العالم ؛ لأنه بعث رحمة للعالمين ، وفي تعاليمه ما يهدي البشرية بأسرها إلى السلام والخير والسعادة .

وعندما يقرأ الإنسان هـٰذه السيرة بتمعن ، فإنه يجد في ثناياها أدلة كثيرة قاطعة تطمئنه إلىٰ صدق الرسول وصحة الرسالة ، ويجد فيها أيضا الرد علىٰ جميع الشبهات التي أطلقها المبغضون لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم قديماً وحديثاً ، يحاولون بذلك صد الناس عن الخير الكبير الذي جاء به .

تدل سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن طالب ملك أو جاه أو مال أو شهوة أو نفوذ ، وأنه لم يكن كاهناً أو شاعراً أو فيلسوفاً ينسب أقواله زوراً إلىٰ رب العالمين ، لقد كان رسولاً من عند الله حقاً ، وداعية خير وهدىٰ ، وزاهداً في مباهج الدنيا ، وصاحب خلق عظيم ، بين للناس جميعاً أن الحياة ليست صدفة ، وأن الإنسان لم يخلق عبثاً ، ودعا البشر كافة إلىٰ ما دعا إليه نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وسائر المرسلين من قبل : الإيمانِ بالله وحده لا شريك له ، وطاعته ، وعبادته ، وإعمار الدنيا والآخرة بقيم العدل والحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان ، وجميع مكارم الأخلاق .

وأقول للقارىء الكريم : إنني كتبت هـٰذه الفصول في السيرة النبوية كإنسان يؤمن بفكرة القرية العالمية ، ويشعر بانتمائه العميق لهـٰذا العالم الرحب الفسيح ، ولشعوبه وثقافاته ، ويدعو إلى التعاون والتقارب بين جميع أبناء المعمورة ، وإلى الحوار بينهم بالكلمة الطيبة والتي هي أحسن .

كلنا في الحقيقة إخوة ، أبونا آدم وأمنا حواء ، وربنا واحد ، خلقنا جميعاً أحراراً متساوين ، وكرّمنا ، وبعث لنا أنبياءه ورسله ، بكرمه ولطفه ورحمته ، يهدوننا إلىٰ صراطه المستقيم ، وهو في نفس الوقت دستور السعادة لنا أفراداً وشعوباً .

وقد بذلت كل ما في وسعي لتقديم المحطات الأساسية في سيرة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة سهلة مبسطة تخاطب جميع الناس ، وتوضح لهم باختصار ودون تعقيدات حقيقة التعاليم التي دعا إليها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

ذلك ما حاولت أن أنجزه في فصول هـٰذا الكتاب ، فما أصبت فيه فبفضل الله تعالىٰ وتوفيقه ، وما أخطأت فيه وقصرت فمن نفسي ، أستغفر ربي الكريم منه ، وأرجو ممن لديه تصحيح أو تصويب أن يتكرم بإرساله لي على البريد الإلكتروني **لدار المنهاج** حتىٰ أستفيد منه في طبعات مقبلة إن شاء الله .

وعلىٰ ذكر **دار المنهاج** ، أغتنم الفرصة لأثني كثيراً علىٰ صاحبها الهمام المجتهد أخي **عمر سالم باجخيف** ، وأشكره علىٰ حماسه لإخراج الطبعة الرابعة من هـٰذا الكتاب في أسرع وقت ممكن ، وإني لأدعو له بمزيد من النجاح والتوفيق في خدمة الإسلام والمكتبة العربية والعالمية .

مرة أخرىٰ أذكِّر القارىء الكريم أنني دونت بعض الأفكار المهمة التي تصلح في مقدمة هـٰذا الكتاب ونشرتها في مقدمات الطبعات الثلاث الأولىٰ ، وهي منشورة كلها ضمن ملاحق هـٰذه الطبعة ، فلعل من يعود إليها يجد فيها

بعض الفائدة وفهماً أفضل لدواعي كتابتي في السيرة النبوية .

أخيراً أحمد الله تعالىٰ حمداً كثيراً علىٰ أن وفقني لتأليف هٰذا الكتاب ، وأتضرع إليه أن يتقبله مني قبولاً حسناً ، ويغفر لي ما فيه من خطأ وسهو وتقصير ، ويؤمّنني ووالديّ وزوجتي وذريتي وإخوتي وأخواتي وبقية أهلي وجميع من يقرأ هٰذه السطور يوم القيامة ، ويجعلني وإياهم من مرافقي عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في عليين ، إنه تعالىٰ كريم سميع مجيب .

اللهم ؛ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد ، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

لندن : ٢ رجب ١٤٣١ هجرية

١٤ يونيو ٢٠١٠ ميلادية

الفَصْلُ الأَوَّلُ
حُلْمُ عَبْدِ المطّلب وأُمْنِيتُهُ

تبدأ فصول هـٰذه القصة النادرة التي صححت مسار التاريخ البشري وغيرت وجه الدنيا بأسرها ، بميلاد آخر الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، في النصف الثاني من القرن السادس بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام ، إنها القصة التي غيرت وجه الدنيا كلها لما هو خير وأحسن وأجمل ، كما سنرىٰ بالأدلة الحاسمة التي لا شك فيها ولا غموض .

ولد محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب في عائلةٍ عريقة كريمة من أبرز العائلات العربيَّة ، في مكة عام (٥٧٠) للميلاد ، تنتسب عائلته إلىٰ فرع بني هاشم ، ضمن قبيلة قريشٍ ، أبرز القبائل العربيَّة وأكثرها شهرةً .

ومنذ البداية ظهرت علامات تشابه ووشائج قربىٰ بين المولود الجديد وبين عدد من أشهر الأنبياء والرسل ، لقد تربىٰ موسىٰ عليه السلام وترعرع في قصر فرعون ، وولد عيسىٰ عليه السلام لمريم العذراء بأمر الله من غير أب ، أما بطل هـٰذه السيرة خاتم النبيين ؛ فإنه ولد يتيماً أيضاً ، حيث مات أبوه عبد الله في المدينة المنورة بعد شهور قليلة من زواجه بآمنة بنت وهب أم النبي ، وهي أيضا سيدة كريمة من فرع كريم في قبائل قريش ، فرع بني زهرة .

عين زمزم والنذر الخطير

لنتوقف قليلاً مع قصة الوالد :

كان عبد الله بن عبد المطلب والد النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام قد واجه الموت في مكَّة المكرَّمة قبل زواجِه من آمنة ، ثم وفاته في المدينة المنوَّرة .

المواجهة الأولىٰ لها علاقة بموقف عبد المطَّلب قبل حوالي عقدين من الزَّمن أو أكثر ؛ أي : في العقد الرَّابع أو الخامس من القرن الميلاديِّ السَّادس ، كان عبد المطلب يحاول مع ابنه الوحيد آنذاك واسمه الحارث حفرَ بئر زمزم من جديد ؛ لتوفيرِ مصدرٍ دائم للمياه العذبة بجوار الكعبة المشرَّفة .

ترْمِز عين زمزم هي أيضاً إلى التَّاريخ الطَّويل الذي يربط بين الإسلام وبين أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السَّلام ؛ ففي مكَّةَ المكرمة وقبل آلاف السِّنين كادت السيدة هاجرُ زوجةُ إبراهيم عليه السلام أن تموت عطشاً مع ابنها الرَّضيع إسماعيل لولا أن فجَّر الله لهما عينَ زمزم تجري بماءٍ عَذْبٍ زُلالٍ يروي ظمأ الأمِّ الكريمةِ زوجةِ النَّبيِّ الكريم وأمِّ النَّبيِّ الكريم ، وينقذُها وابنَها من موتٍ محقَّقٍ .

وإلى اليوم ونحن في الثُّلث الأوَّل من القرن الهجريِّ الخامس عشر وبدايات القرن الحادي والعشرين للميلاد ما زال المسلمون يحيون قصَّة آلِ إبراهيم هـٰذه عبر ركنٍ أساسيٍّ من أركان فريضة الحجِّ وسنَّة العمرة ، هو ركن السَّعي بين الصَّفا والمروة سبعة أشواط ، الجبلان المتقاربان اللَّذان جرت بينهما السيدة هاجرُ وهي تبحث عن قطرة ماءٍ إلىٰ أن جاءها الفرج وتفجَّر نبع زمزم بين يديها في سفح جبل الصَّفا وعلىٰ بعد أمتارٍ قليلة من الكعبة المشرَّفة .

طمست القرون المتعاقبة علىٰ صحراءِ مكَة آثارَ بئر زمزم ، غير أن عبد المطَّلب الذي يعرف خبرها وقصَّتها ، رأىٰ في منامه موضعَ هـٰذه البئر بالتحديد في مكان بين صنمين مشهورين يقدسهما أهل قريش هما إساف ونائلة ؛ فأراد أن ينقِّب عنها من جديد . مكة وأهلها وحجاجها في حاجة إلى الماء ، وبعد هـٰذه الرؤية تحمس عبد المطلب لفكرة التنقيب عن عين زمزم ، ورأىٰ فيها خدمة عظيمة الشأن لزوار مكة الكثيرين ، الذين كانوا يحجُّون للكعبة كلَّ عام ، يقدِّمون القرابين للأصنام الكثيرة التي اتخذوها آلهةً تقرِّبهم إلى الله زلفىٰ حسبَ ظنِّهم ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالمشركين ؛ لأنَّهم كانوا في

أغلبهم يؤمنون بالله ، ولكن لا يوحِّدونه في العبادة ، وإنَّما يشركون في عبادته اللاَّت والعزىٰ وأصناماً كثيرة أخرىٰ ، اعتقدوا فيها أنَّها واسطةٌ بينهم وبين الله ، وأنَّها تنفعُ وتضرُّ وتسمعُ منهم الدَّعاء وتجيبه .

للوهلة الأولىٰ لم يكن في مشروع عبد المطلب للتنقيب عن بئر زمزم ما يزعج قادة قريش ، غير أن التفاصيل التي رآها في منامه لم تساعده ؛ إنه يريد أن ينقب عن زمزم بين وثني إساف ونائلة ، وهـٰذا الأمر أخاف قريشاً ؛ لأنها تخشىٰ من غضب الصنمين المقدسين عندها ، فاعترض قادتها علىٰ خطط عبد المطلب رغم أنه كان زعيماً من كبار زعماء القبيلة ، ولم يكن مع عبد المطَّلب آنذاك إلا ابنه الوحيد الحارث ، وما كان الحارث قادراً علىٰ نصرة والده وحمايته في مجتمع تؤدِّي فيه العصبيَّة العائليَّة والقبليَّة دوراً مؤثِّراً وقوياً .

غضب عبدُ المطَّلب من اعتراض قومه وتألَّم ، وأدرك حاجته الماسَّة للأنصار من صُلبه وذريَّته ، فنذر لله نذراً أنَّه إن أعطاه عشرة أولادٍ قادرين علىٰ حمايته ونصرته ؛ لينحرنَّ واحداً منهم أمام الكعبة المشرَّفة قرباناً لله تعالىٰ واعترافاً بفضله .

مرَّت الأيام مسرعةً كما هو شأنها منذ أوَّل الدَّهر ، وما هي إلا سنواتٌ قليلة حتىٰ تحققَّ لعبد المطَّلب مراده ؛ رزقه الله عشرة أولادٍ يتمتَّعون بالصِّحة والفتوَّة والقوَّة ، وما إن اكتمل عقدهم بأصغرهم بالابن العاشر عبد الله حتىٰ قرَّر عبد المطَّلب أن يوفِّي بنذره ، ويقدِّم واحداً من أبنائه العشرة قرباناً لله تعالىٰ .

والد الرَّسول

أخبر الوالد أبناءه بما عزم عليه فلم يعارضوا ولم يتمردوا ، تلك كانت أعراف عصرهم وعاداته ، والْتَأَم شمل الجميع عند الكعبة المشرَّفة لإتمام هـٰذا الاختبار القاسي العسير ، بحضور جمهور كبير من قريش .

اختار عبد المطلب اعتماد القرعة على الطريقة السَّائدة في عصره لتحديد مَن مِن أبنائه سيكون القُربان ، وضعت عشرة قداح ، وكتب علىٰ كل قدح اسم من أسماء الأبناء العشرة ، وقام شخصٌ محايدٌ بإجراء القرعة ؛ فكانت النَّتيجة أن وقعت علىٰ أصغر أبناء عبد المطَّلب وأحبِّهم إلىٰ قلبه عبدِ الله .

كلُّ الآباء يعرفون ما لأصغر الأبناء من موقع مميَّز في القلب ومن المحبَّة والدلال ، ولم يكن عبدُ المطلب مختلفاً عن بقية الآباء ، كان حبُّه لعبدِ الله قويّاً ، ولعله كان يتمنَّىٰ لو وقعت القُرعة علىٰ غيره ، لكنَّ الأمر حُسِم علناً ، وزعيم مثل عبد المطَّلب لا ينقضُ نذراً نذره لربِّه ، ولا يمكنه أن يطلب إجراء القرعة من جديد .

جرىٰ كلُّ هـٰذا أمام أعيان مكَّة وعامَّتها ، فكبر عليهم جميعاً أن يموت هـٰذا الشاب اليافع وفاءً بالنذر القديم .

وبحثوا عن حل مستساغ في تقاليدهم وأعرافهم ، وتوصلوا لاقتراح قبل به عبد المطلب ، طلبوا من الوالد تأجيل ذبح ابنه ؛ حتىٰ يستشيروا امرأة حكيمة كانوا يترددون عليها في خيبر ويستعينون بها لمثل هـٰذه الأمور ، وبذلك أصبحت قريش بأسرها طرفاً في هـٰذا الموقف العائلي المعقد ، كما هو شأن القبيلة العربية في تاريخها الطويل ؛ إذ لطالما قامت بأدوار اجتماعية عظيمة وهي وما تزال تفعل ذلك في المجتمعات التي بقي فيها للقبيلة دور وشأن .

سمعت المرأة الحكيمة تفاصيل القصَّة ، ثمَّ سألت زعماء قريشٍ عن دِيَة الشَّخص عندهم ، فقالوا : إنها عشرة من الإبل ، والدِّية عند العرب : هي ما يدفعه أهلُ القاتل لأهل القتيل إذا رضي أهلُ القتيل بدية ماليَّة بدلاً من القِصاص الكامل ، الذي يعني : النَّفس بالنَّفس .

نصحت المرأة الحكيمةُ أهلَ قريشٍ أن يعودوا إلى الكعبة ويجروا القرعة مجدّداً بين عشرة من الإبل وعبد الله ، فإذا وقعت القرعة علىٰ عبد الله ؛ فإنَّ

عليهم مضاعفة الدِّية إلىٰ أن تقع القرعة على الدِّية ، رضيت قريش بالاقتراح ، وعادت من عند الحكيمة العرَّافة من أهل خيبر راضيةً مسرورةً بهـٰذه التَّسوية ، وهي تسويةٌ قبلها عبد المطَّلب أيضاً .

جرت القرعة الأولىٰ بين عبد الله وبين عشرة من الإبل فخرجت علىٰ عبد الله ، قدَّمت قريشٌ عشرةً أخرىٰ من الإبل ، وجرت القرعة بين عبد الله وعشرين من الإبل فخرجت مرَّة أخرىٰ علىٰ عبد الله ، وأضافت قريشٌ عشرةَ إبل أخرىٰ لكن النَّتيجة لم تتغير ، وبقيت قريشٌ تزيدُ وتزيدُ حتَّىٰ قدَّمت تسعين من الإبل ، لكنَّ القرعة خرجت مرَّة أخرىٰ علىٰ عبد الله .

لم تتغير النَّتيجة إلا عندما وصلت الدِّية إلىٰ مئة من الإبل ؛ آنذاك فقد خرجت القرعة على الإبل وليس علىٰ عبد الله ، هلَّلت قريشٌ مبتهجةً بالنَّتيجة ؛ فقد استطاعت أن تُنقِذ من الموت شابّاً من أنبل شبانها وأكرمهم ، لكنَّ عبد المطَّلب أصرَّ علىٰ أن يتأكَّد وأن يجريَ القرعة مرَّةً ثانيةً بين الإبل المئة وابنه عبد الله ، فخرجت مجدّداً على الإبل ، ثم أصر عبد المطَّلب علىٰ إجراء القرعة مرّةً ثالثةً .

كان يأخذ نذره لله علىٰ أعلىٰ درجات الصِّدق والجدِّيَّة ، وكان يريدُ أن يطمئنَ أنه لم ينكثْ عهدَه أمام الله ، ويثبتَ لخالقه أنَّه مستعدٌّ لتقديم أيِّ تضحيةٍ مطلوبةٍ لتأكيد صدقه ، ووسط هـٰذا الحرص الشَّديد من عبد المطلب على الوفاء بعهده لربه كانت روحُ عبد الله في الميزان ، عبد الله الذي سيصبح من بعد زوجاً لآمنة بنت وَهْب وأباً لخاتم النبين .

أجريت القرعة للمرَّة الثَّالثة فخرجت مرّة أخرىٰ على الإبل ، وتنفَّس عبدُ المطَّلب الصُّعداء ، وغمرت الفرحةُ أهل قريشٍ الذين وقفوا كلهم وقفةَ رجلٍ واحدٍ لإنقاذ عبد الله ، أحسَّ الجميع أن العناية الإلهية تدخلت مباشرة لحفظ هـٰذا الشَّاب اليافع النَّبيل .

وربما طافت بخاطر عبد المطَّلب قصّةٌ أخرىٰ مشابهةٌ جرت في التَّاريخ البعيد ، قصّةٌ لم ينسها العرب ، ولم يهملها التاريخ وقد جعلها الإسلام من بعدُ العيد الأكبر من بين العيدين الدينيين الوحيدين للمسلمين : عيد الفطر في نهاية رمضان ، والعيد الأكبر ؛ أي : عيد الأضحىٰ في نهاية موسم الحج .

كانت قصة واقعيَّة شديدة الشَّبه بما جرىٰ لعبد الله ، وكان لها بَطَلان ؛ الأول : هو إبراهيم الخليل ، والثاني : هو ابنه اسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام .

قصَّة فداء إسماعيل

في تلك الحقبة البعيدة من حقب التَّاريخ كان إبراهيمُ عليه السَّلام قد مرَّ بامتحانٍ عسيرٍ ونجا من مؤامرةٍ كبرىٰ دبَّرها له خصومه الذين رفضوا ما دعا إليه من توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام ، أراد إبراهيم أن يُظهر لقومه سخافة اعتقادهم في أصنامهم وبطلانه فاغتنم فرصةَ غيابهم وانشغالهم بواحدٍ من احتفالاتهم واتجه إلى المكان الذي توجد به الأصنام ، فحطَّمها كلَّها إلا الصنم الأكبر منها .

وعندما انتبه القوم إلىٰ ما أصاب آلهتهم وأجروا بعض التحقيقات الأوَّليَّة التي أشارت بأصابع الاتهام إلىٰ نبيِّ الله ؛ جاؤوا إلىٰ إبراهيم مستفسرين في نبرةِ استنكارٍ وتهديدٍ ، فكان جوابُه لهم جوابَ تهكُّمٍ وسُخريةٍ بما وصلوا إليه من دركات التخلُّف في التفكير : إنَّ الصَّنم الأكبر هو من حطَّم بقية آلهتكم ، فاسألوهم جميعاً لتتأكدوا من ذلك ، ولتعرفوا منهم الحقيقة .

مثل هـٰذا الموقف حَريٌّ وجدير بأن يردَّ كثيرين إلىٰ نهج الحقِّ وطريق الإيمان ، لكن ما أكثر ما عرفنا وقرأنا عن نزعة كثير من البشر إلى العناد والمكابرة ، وقد اختار قومُ إبراهيم هـٰذا النهج ، وزادوا عليه بأن قرَّروا تصفية صاحب الرَّأي المخالفِ لهم بأبشع وسائل التَّصفية ، هـٰكذا كشفوا عن روح

التعصب والتشدد التي سيطرت عليهم ، فلم تجد سبيلاً لمواجهة الرَّأي الآخر إلا برمي أصحابه في النار ، وقد نفذوا قرارهم لكن الله تعالىٰ أبطل مكرهم ، وذكر قصتهم في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٨ـ٧٠] .

نجا إبراهيم عليه السَّلام بأمر الله وحفظه ، وكانت نجاتُه معجزةً من المعجزات التي خصَّه اللهُ بها ، وبعد هٰذه المرحلة من حياته تبدأ القصَّة التي تحمل شبهاً بما جرىٰ لعبد الله والد الرَّسول محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، دعا إبراهيمُ ربَّه أن يهب له ذريَّة صالحةً تخفِّف وحدته وتقبل منه دعوته للتوحيد ، فبشَّره الله بغلامٍ يَسرُّ خاطره ويحقِّق مراده ، وصدق وعد الله ، ورزق إبراهيم من السيدة هاجر بغلام كريم هو إسماعيل عليه السلام .

نشأ تحت عناية والده ورعايته ، تغمره محبَّة النَّبيِّ الكريم وعطفه ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى اشتد عوده قليلاً وغدا قادراً على السَّعي والعمل مع أبيه وظهرت منه أماراتُ الفتوَّة والشَّباب والمستقبل الواعد ، الأماراتُ التي يحلم بها ويرجوها كلُّ والدٍ علىٰ وجه الأرض لولده ، والتي أصبحت مصدرَ سرورٍ غامرٍ كبيرٍ من إبراهيم .

عندئذ جاء الوحي من السماء بما لم يتوقَّع الوالد الحنون العطوف ولا ابنه الشاب المتوثب الممتلىء بالحيوية والحياة ، رأىٰ إبراهيم في منامه رؤيا ـ ورؤيا الأنبياء وحيٌ من الله ـ رأىٰ أنَّ عليه أن يذبح ابنه قرباناً لله تعالىٰ ، لعل هٰذا كان أصعبَ اختبارٍ مرَّ به أبو الأنبياء ، ولعلَّه أحسَّ أنَّ الله تعالىٰ أراد أن يمتحن إيمانه وإخلاصه الكامل لربِّه من بعد أن أصبح ابنُه الفتىٰ قطعةً من روحه وقلبه .

ولا شكَّ أنَّ موقف إبراهيم عليه السلام من هٰذا الاختبار هو واحدٌ من أبرز أسباب علوِّ مقامه في تاريخ الأنبياء والرِّسالات السَّماوية والتاريخ الإنساني

كله ، إنَّه لم يسأل ولم يعترض ولم يتردَّد ، وإنَّما مضىٰ قُدماً يخبر أحبَّ النَّاس إلىٰ نفسه ابنه إسماعيل ، يخبره ويستأذنه في تنفيذ أمر الله راجياً ألا يواجه بالثَّورة والاعتراض ، وجاء موقفُ ابنه الكريم النَّبيل معادلاً له في السُّموِّ والرِّفعة والطَّاعة المطلقة لأمر الله لقد قبل أمر ربه دون جدال ، وكما يقول العرب : (هٰذا الشِّبل من ذاك الأسد) .

وقف الرَّجلان موقفَ الذَّبح الذي لا يحتمل كلُّ الناس مجردَ التفكير به ، وبينما السِّكين توشك أن تفصل الرَّأس عن جسد الفتى المؤمن الصَّابر إسماعيل ؛ جاءت البشرىٰ من الله أكرم الأكرمين تعلن أنَّ الله افتدىٰ إسماعيل بكبشٍ عظيمٍ ، من بعد أن نجح إبراهيمُ الخليلُ وابنه نجاحاً باهراً في الاختبار ، واتَّضح جليّاً أنَّ الله تعالىٰ أحبُّ إليهما من كلِّ شيءٍ آخر ، أحبُّ لإبراهيم من نفسه وولده ، وأحبُّ لإسماعيل من نفسه وأبيه .

دوّن القرآن الكريم هٰذا الموقف المهيب في عدة آيات كريمة : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الصافات : ١٠٢ـ١١١] .

إنَّه لموقفٌ عظيمٌ ونادرٌ في تاريخ الإنسانيَّة ، حريٌّ وجدير بأن يبقىٰ مخلَّداً في ذاكرة المؤمنين إلىٰ يوم القيامة ، وقد خلَّده الإسلام فعلاً ، وجعله في موقع القلب من شعائر عيد الأضحى المبارك ، العيد الأكبر عند المسلمين ، حيث تضحِّي كلُّ عائلةٍ مسلمةٍ بأضحية من الخرفان في الغالب تتذكَّر به قصَّة فداءِ إسماعيل ، وتعلن تمسُّكها بدرب الإيمان من خلال معايدة الأهل والجيران والتبرُّع باللَّحم والطَّعام للفقراء والمحتاجين .

زواج والد الرسول من آمنة ثم وفاته

نعود الآن إلىٰ عبد الله بن عبد المطَّلب ونروي ما كان من أمره بعد أن أنجاه الله من الذَّبح ، بلغ الفتى النَّبيل عمر الزَّواج وكان وسيماً في وجهه نورٌ جلب إليه إعجاب الكثير من نساء قريش حتَّىٰ بادرن بطلب الزَّواج منه ، لكنَّ شرف الحمل بآخر الأنبياء وخاتم المرسلين كان مكتوباً لآمنةَ بنتِ وَهْب ، تزوجها عبدُ الله في عرس احتفت به قريشٌ كلُّها ، وعاش معها قرابة ستة أشهر قبل أن يسافر ضمن إحدى القوافل التِّجارية التي درج علىٰ تسييرها أهلُ مكَّة باتجاه الشَّام لبيع بعض منتجاتهم ، وتوريد مؤونتهم وحاجة أسواقهم خاصّةً وهم يستقبلون الحجيج إلىٰ مكَّة سنويّاً من أنحاء كثيرة من جزيرة العرب .

مرض عبدُ الله في طريق العودة فانفصل عن القافلة عند أخواله بني النَّجار في يثرب يطلب الرَّاحة والعلاج ، يثرب التي ستشتهر لاحقاً بعد هجرة نبيِّ الإسلام إليها باسم المدينة المنوَّرة ، لكنَّ عبد الله كان علىٰ موعدٍ مع ربِّه هناك ؛ فقد مات من مرضه ذاك ، ونزل الخبر كالصَّاعقة علىٰ زوجته آمنة ، وعلىٰ والده عبد المطلب وعلىٰ أهل قريش الذين فعلوا المستحيل لإنقاذه من النَّحر قبل سنوات قليلة وفدوه بمئةٍ من الإبل ، وهي فديةٌ ضخمةٌ بمعاييرِ ذاك الزَّمانِ ومعايير هـٰذا الزَّمان أيضاً .

لا يردُّ الموتَ أحدٌ ، وليس من دواءٍ لمن مات له حبيبٌ أو قريبٌ إلاَّ الصَّبر ، ولم تكن آمنة بنت وَهْب ممن يجهل هـٰذا الأمر ، فصبرت وكان أعظمَ شيء هوَّن عليها مصابها في عبد الله أنَّها كانت حاملاً منه ، إنَّ ما في بطنها سيعوضها عن الحبيب الذي مات شابّاً يافعاً قبل أن يتمَّ العام الأول من زواجه ، وبالطَّبع لم تكن آمنة تعلم الغيب ، ولم تكن تعلم أن الجنين الذي تحمله هو دعوة إبراهيم ونبوءة موسىٰ وبشارة عيسىٰ ، وأنَّه هو النَّبي المنتظر الذي يبلغ عن ربِّه رسالته الخاتمة للنَّاس أجمعين .

ميلادُ الرَّسول وقصّة عام الفيل

انقضت أيامُ الحمل ، وأطلَّ على البشرية في ليلةٍ مقمرةٍ في الثَّاني عشر من ربيع الأول عام (٥٧٠) للميلاد مولودٌ ذو شأنٍ عظيمٍ ، اختار له أهله من الأسماء اسم محمَّد .

يورد المؤرِّخون السَّنة الميلاديَّة التي ولد فيها رسول الإسلام صلَّى الله عليه وسلَّم ، وتشير إليها طائفةٌ منهم باسمٍ آخر هو عامُ الفيل استناداً للتَّسمية التي اعتمدها لها أهلُ قريش وعرب ذلك الزمان ، فما قصة هٰذه التسمية ؟

عام الفيل هو العام الذي خرج فيه أبرهةُ الحبشيُّ من اليمن علىٰ رأس جيش يقصد مكَّة المكَّرمة وهدفه هدم الكعبة وإجبار أهل مكة وبقية العرب على الحجِّ إلىٰ معبدٍ بناه في صنعاء وزيَّنه بأحسنِ الرُّخَام وأجملِ الذَّهب والجواهر ، كان أبرهة في تلك الفترة والياً على اليمن ، من قبل حاكم الحبشة ، ولعله كان يريد من عدوانه علىٰ مكة أن يوظف الورقة الدينيَّة ؛ ليعلي من مركزه وحظوظه عند ملكه في الحبشة ، وما أكثر ما رفعت الرَّايات الدينيَّةُ في حروبٍ ليس للدِّين بها صلةٌ من قريبٍ أو من بعيدٍ ، ويجوز أيضاً أن يكون الدَّافع اقتصاديّاً ، وأنَّ أبرهة كان يطمح إلىٰ مضاعفة العائدات الماليّة لولايته من الحجاج العرب الذين خطَّط لإجبارهم على القدوم إلىٰ صنعاء بدلاً من مكَّة .

اتَّجه أبرهة بجيشٍ كبيرٍ إلىٰ مكَّة ، ووصل إلىٰ ضواحيها ، وأدخل في الحرب عنصُراً جديداً لم يعرفه العرب من قبل ، هو الفيل الذي استحضره ليهجم على الخصوم ويروعهم ويدخل الفزع في قلوبهم ، علم القرشيُّون بالحملة ، ومع أنَّ التَّاريخ يشهد بشجاعتهم النَّادرة ؛ فإنَّهم أدركوا أنَّه ليس بوسعهم الصُّمود عسكريّاً أمام الجيش الغازي الذي يفوقهم كثيراً عدداً وعدّةً .

حاول زعيمهم عبدُ المطَّلب أن يتوصَّل إلىٰ تسويةٍ سياسيّةٍ مع أبرهة ، لكنه لم ينجح ، وبدا أبرهةُ مصمِّماً علىٰ تنفيذ خطَّته وهدم الكعبة ، وعند يأسه من

التَّوصُّل لحلٍّ سياسيٍّ طلب عبدُ المطَّلب من أبرهة أن يردَّ إليه زهاء مئتين من إبله صادرها الجيشُ الغازي عند أطراف مكة ، تعجَّب أبرهةُ كثيراً من هـٰذا الموقف وقال لعبد المطَّلب : إنه يستهجن منه أن ينشغل بإبله بينما مدينته كلُّها توشك أن تتعرَّض للهدم والتَّدمير ، فأجابه عبد المطلب بأنه هو ربُّ الإبل أي صاحبها ولذا فهو المكلَّف بالدِّفاع عنها ، أمَّا فيما يتعلق بالكعبة وبيت الله ؛ فإن للبيت رباً يحميه .

وصدق عبد المطَّلب ؛ فقد دافع الله سبحانه وتعالىٰ عن بيته ، ذلك أنَّه عندما قرَّر أبرهة أن يتقدم لتنفيذ خطَّته الهجومية أبى الفيل أن يطاوعه ، كان يرفضُ التَّقدم باتجاه مكَّة ولكنه يقبل السَّيرَ والتَّقدُّم في أيٍّ اتِّجاهٍ آخر .

وبعد امتناع الفيل عن تنفيذ الأوامر ظهر معطىً آخر لم يتوقعه أبرهة ، لقد تغيَّرت الظُّروف الجويَّة فجأةً ، وادلهمت السَّماء على الجيش الغازي المسكون بالطَّمع والجشع وإرادة التَّدمير ، وأقبلت مع الغيوم طيورٌ رمت أبرهة وجنوده بحجارةٍ أهلكتهم وشتَّتت شملهم ، قال بعضُ المؤرِّخين : إن الطُّيور نشرت بين الغزاة وباءً قضىٰ عليهم ، لعلَّه وباء الحصبة والجدريِّ ، والصحيح دون شك قول القرآن الكريم ، واتَّفقت الرِّوايات أن الفوضىٰ عمَّت صفوف الجيش الغازي ، فتفرَّقوا كلُّ واحدٍ منهم يطلب النَّجاة والهرب ، لكنَّهم هلكوا وماتوا مشتَّتين في الصَّحراء بمن فيهم قائِدُهم أبرهة الذي أعماه الطَّمع والجشع والتَّعصب عن احترام حقوق الآخرين وحرِّيَّاتهم ، وفي القرآن الكريم عرضٌ موجز مختَصرٌ لهـٰذه القصَّة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾
[سورة الفيل : ١ـ٥] .

كان عام الفيل إذن هو العام الذي ولد فيه محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه

وسلَّم ، ولد ليكون قُرَّة عين لأمِّه التي ترمَّلت في عزِّ شبابها ، ولجدِّه الذي فُجِع في أحبِّ أبنائه إليه عبدِ الله ، وأعطي الوليد علىٰ عادة قريشٍ في ذلك الزَّمان لإحدى المرضعات لترضعه في بادية مكَّة ، وكانت الحكمة من هـٰذا : أن الصَّبيَّ ينشأ في هواءِ البادية النَّقيِّ فيكونُ أصحَّ وأقدرَ علىٰ تحمُّل مناخ الجزيرة العربيَّة ، وقد حفظ التَّاريخ إلى الأبد اسم تلك المرضعة المحظوظة حليمة السَّعديَّة .

أيام الصبا ووفاة أم الرسول وجده

قضىٰ محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم سنوات صباه الأولىٰ في ديار بني سعدٍ غير بعيدٍ من مكَّة المكرَّمة ، وفي عامه الخامس عادَ إلىٰ بيت جدِّه عبد المطَّلب وأمِّه آمنة التي لم تغب عن ذاكرتها صورةُ زوجها الرَّاحل عبد الله ، وبعد ذلك بشهور قرَّرت آمنةُ أن تصطحب ابنها معها لزيارة قبر أبيه في يثرب ، وللتَّعرُّف علىٰ أخواله بني النَّجار ، وتبعد يثربُ عن مكَّة ما يقرب من خمس مئة كيلو متراً .

بقيت آمنةُ وابنُها وخادمةٌ لهما في المدينة حوالي شهر قبل أن يسلكوا طريق العودة إلىٰ مكَّة ، وفي بداية الطَّريق مرضت آمنةُ ، ولم يمهلها مرضُها فماتت ودفنت في قرية تسمَّى الأبواء .

وهكذا اكتمل يُتْم النبي محمد صلى الله عليه وسلم الإسلام ؛ رحل أبوه قبل أن يراه ، وها هي أمُّه تلبي داعي ربها وهو ما زال في العام السَّادس من عمره .

عاد الصَّبي اليتيم إلىٰ جدِّه عبد المطَّلب في مكَّة ؛ فلقي منه الكثير من العطف والحنان ، وواضحٌ أنَّ الجدَّ كان يبذل كلَّ ما في وسعه لتعويض محمَّدٍ عن فقد والديه ، حتَّىٰ إنه كان يصطحبه معه إلىٰ مجالسه مع أعيان مكَّة حول الكعبة .

لكنَّ هـٰذا الجد العطوف كان آنذاك رجلاً كبيراً في السِّنِّ قد جاوز المئة ، وبعد عامين فقط من وفاة آمنةَ أمِّ النَّبيِّ توفيِّ عبدُ المطَّلب أيضاً .

هنا يدخل التَّاريخَ من بابه العريض عمٌّ من أعمام النَّبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم ، عمٌّ سيكونُ له فضلٌ كبيرٌ لا يُنكَر على النَّبيِّ وعلىٰ دعوة الإسلام ، إنَّه أبو طالب بن عبد المطلب ، قرَّر أبو طالب كفالةَ ابن أخيه اليتيم ، وبذل له من الرِّعاية والحنان والعطف والحماية ما عوَّض النَّبيَّ كثيراً عن فقد والديه وجدِّه ، وفي الحقيقة لم يعامل أبو طالب محمَّداً مثل أولاده فقط ، لقد قدَّمه عليهم ، ودعمه بقوَّةٍ حتَّىٰ آخرِ لحظةٍ من عمره .

لم يدخل محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم مدرسةً ولا معهداً ولا مركزاً دينيّاً من أيِّ نوع .

كان تعلُّم الكتابة آنذاك متاحاً علىٰ نطاقٍ محدودٍ ، ومحصوراً تقريباً علىٰ أولاد النُّخبة الغنيَّة من زعماء قريش ، ومع أن أبا طالبٍ كان اسماً بارزاً في تاريخ قريشٍ ؛ فإنه لم يشتهر بغناه ، وقد أدرك ابن أخيه ذلك ، فسرعان ما انخرط فيما يتاح له من تجارةٍ وعملٍ لمساعدة عمّه ، وعندما بلغ النَّبيُّ عامه الثَّالث عشَر سافر مع أبي طالبٍ في قافلة تجاريَّة إلى الشَّام يساعدُه ويتعلَّم منه ومن التَّجربة نفسها .

بحث الفتى اليتيم عن عملٍ آخر يساعد به عمه فقد كان أبيَّ النَّفس يكره أن يكون عبئاً علىٰ عمِّه ، ولم يستنكف من أن يرعى الغنم لقريشٍ مقابل أجرٍ زهيد .

وهنا تحضر إلى الذَّاكرة تجربةُ نبيٍّ آخرَ مع الرَّعي ، هي تجربة موسىٰ عليه السَّلام بعد أن فرَّ من سلطة فرعون أوَّل مرَّة ولجأ إلىٰ أهل مدين ، وما أكثر وأوثق وأقوىٰ ما يربط بين هـٰذين الاسمين الجليلين في تاريخ الإنسانيَّة : موسىٰ ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام .

لم يعرف عن الفتى اليتيم ميلٌ للَّهوِ العابث والاستهتار ، لقد تميَّز بالجدِّيَّة منذ صباه ، ولم يكن ممن يسرفون في الحديث بمناسبةٍ وبغير مناسبةٍ ، كان سَمْتُه منذ صباه مطبوعاً بالوقار ، وبالميل إلى العُزلة والتَّأمُّل فيما حوله ، ولم يُعرَف عنه أبداً أنَّه انخرط في مجالس اللهو التي كان أندادُه يرتادونها في نوادي قريش .

وعندما بلغ العشرين من العمر حضر الفتى اليتيم مع أعمامه مجلساً له شأنٌ في تاريخ العرب وفي تاريخ حركةِ حقوق الإنسان العالميّة ، مجلس حلف الفضول ، فقد ذكر المؤرِّخون أنَّ تاجراً من قبيلة بني زبيد باع سلعةً إلىٰ أحدِ القرشيِّين العاصِ بن وائل السَّهميِّ ، لكنَّه عجز أن يحصل منه علىٰ ثمنها ، طلب التَّاجر الزَّبيديُّ من بعض أعيان قريش وبعض الوجوه القبليَّة البارزة الأخرىٰ أن يساعدوه في الحصول علىٰ حقِّه لكنَّهم لم يكترثوا به كثيراً ، ولمَّا يئس منهم ؛ وقف وسط النَّاس عند الكعبة المشرَّفة حيث يلتقي الأعيان والعامَّة وألقىٰ أبياتاً من الشِّعر شَكَا فيها ممَّا تعرَّض له من ظُلمٍ ، وشَكَا فيها غربته وفقد من ينصره ويعينه على استرداد حقِّه .

تحرَّكت الغيرة ونزعة الإنسان الكارهة بفطرتها للظُّلم عند عددٍ من الحاضرين ، واتَّفقوا علىٰ أن يجتمعوا لإعلان معاهدةِ شرفٍ بينهم ، مضمونها : الاتفاق علىٰ رفضِ الظُّلم ، وعلىٰ نصرةِ المظلوم ، وإقامةِ العدل في مكة ، وتمَّ الاجتماع فعلاً في بيت عبد الله بن جدعان أحدِ وجهاءِ قريشٍ وشيوخها المحترمين ، وحضر ممثلون لأبرز العشائر والقبائل ، منهم بنو هاشم ، وبنو المطَّلب ، وبنو أسد بن عبد العزىٰ ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فتحالفوا وتعاقدوا ألاَّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر النَّاس إلا قاموا معه ، وتحالفو علىٰ من ظلمه إلىٰ أن تردَّ مظلمته .

حضر الفتى اليتيم ضمن وفد بني هاشم هـٰذا المجلس التَّاريخيَّ الذي سمَّته قريشٌ حلفَ الفضول ، وعندما أكرمه الله بالنُّبوة تذكَّر هـٰذا الحلف ومدحه : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم ، ولو دعيت به في الإسلام ؛ لأجبت »[1] .

بلغ الفتى اليتيم الخامسة والعشرين من العمر ، وقد اشتهر بين قريش بأنه الشَّاب العفيف النَّبيل ، والصَّادق الأمين ، وقد جَلَبت له هـٰذه السُّمعة الطيبة اهتمام سيَّدةٍ غنيَّةٍ من سيِّداتٍ مكَّة ، سيَّدةٍ عريقةٍ في النَّسبِ والشَّرفِ وذاتِ اهتمامٍ بالتِّجارة .

قال محمد ابن اسحاق ، أشهر رواة السيرة النبوية ، فيما نقله عنه عبد الملك بن هشام صاحب أشهر كتب السيرة النبوية على الإطلاق ، قال عن هـٰذه السيدة : (كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرةً ذات شرفٍ ومالٍ تستأجرُ الرِّجال في مالها وتضاربُهم إيَّاه بشيءٍ تجعلُه لهم منه ، وكانت قريشٌ قوماً تجّاراً ، فلمَّا بلغها عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ؛ بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشَّام تاجراً ، وتعطيه أفضلَ ما كانت تعطي غيره من التُّجَّار مع غلامٍ لها يقال له : مَيْسَرة)[2] .

قَبِل الفتى اليتيم بالعرض ، وحقَّقت رحلتُه التِّجاريَّة إلى الشَّام نجاحاً معتبراً ، وعندما عاد إلىٰ مكة قدَّم الحساباتِ الكاملةَ لصاحبة رأس المال ، فسرَّها كثيراً ما تحقَّق من ربح ، وأعطته حقَّه المتَّفق عليه ، وبعد أن انصرف محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم لشأنه أتيح لخديجة أن تتأمَّل في

---

(١) صحيح ابن حبان حديث رقم (٤٣٧٣) ، وسنن البيهقي الكبرىٰ (٦/ ٣٦٦) ، ومسند أحمد (١/ ١٩٠) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٧) .

شخصيَّته ، وأن ترىٰ من واقع احتكاكها به فيما يتعلَّق برحلة الشَّام الكثيرَ من صفات الأمانة والشَّرف والخُلُق الرَّفيع والرُّجولة التي تتمنَّاها كلُّ امرأةٍ في شريكِ حياتها .

لا شكَّ أن خديجة التي بلغت الأربعين من عمرها آنذاك قد فكَّرت طويلاً في أمر الزَّواج بمحمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولا شكَّ أنَّها استشارت من تثقُ به من صديقاتها ، وأنَّها ما أقدمت علىٰ خطوتها التَّالية إلا بعد أن تأكَّدت أنَّها خطوةٌ سديدةٌ موفَّقة .

وقد وصفت كتب السِّيرة النَّبوية خديجة بأنَّها كانت امرأة حازمةً شريفةً لبيبةً ، مع ما أراد الله بها من خيرٍ وكرامة ، كما أنَّها كانت يومئذٍ أوسطَ نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كلُّ قومها كان حريصاً علىٰ ذلك لو يقدر منها[1] .

أخذت خديجة قرارها الحاسم الذي عاد منه خيرٌ كثيرٌ على الإسلام وعلىٰ نبيِّه وعلىٰ رصيد المرأة المؤمنة علىٰ مدى التَّاريخ ، فأرسلت خادمها أو إحدىٰ صديقاتها إلىٰ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تعلمه بأنَّها معجبةٌ بأمانته وصدق حديثِهِ وحُسْنِ أخلاقه فضلاً عن نسبه وقرابته منها ، وأنها تعرض عليه الزواج .

كانت خديجة رمزاً للمرأة العربيَّة صاحبةِ القرار المستقل ، وقد لقي عرضُها القبول من النَّبيِّ وهو في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك ومن أعمامه الذين جاؤوا معه يَخْطِبونها ، والذين تحدث باسمهم أبو طالب مبيّناً فضل العروس : (إن محمَّداً لا يُوازن به فتىً من قريشٍ إلاَّ رَجَح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً)[2] .

مع خديجة الحازمة الشَّريفة اللَّبيبة عاش النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أيامَ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٨ـ ١٨٩) .

(٢) الروض الأُنف (ص١٧٤) .

شبابه مستقرَّةً لا يكدِّر صفوها شيءٌ ، لم يتزوج عليها النَّبي امرأةً أخرىٰ حتَّىٰ ماتت بعد نزول الوحي إليه ببضع سنوات ، ورزق منها ولدين من الذكور : القاسم وبه كان يكنىٰ ، وولداً ثانياً هو عبد الله ، (ويقال له أيضاً : الطاهر والطيب) ، وأربع بنات : زينبَ ، ورقيَّة ، وأمَّ كلثوم ، وفاطمة ، وقد مات إبراهيم وعبد الله وهما طفلان صغيران قبل نزول الوحي على النبي ، أما بناته ؛ فعشن إلىٰ ما بعد البعثة .

وورد في بعض الروايات أن عبد الله ولد بعد البعثة ، وأنه إنما سمي بالطيب والطاهر لهٰذا السبب ، وقد مات صغيراً هو أيضاً .

أما ابن اسحاق وابن هشام ؛ فذكرا أن النبي صلى الله عليه وسلم رزق من خديجة ثلاثة من الذكور هم : القاسم ، والطيب ، والطاهر ، وروى ابن اسحاق أنهم ماتوا جميعاً صغاراً قبل البعثة .

يورد المؤرِّخون بعد ذلك موقفاً مهماً آخر يسلِّط المزيد من الضَّوء علىٰ شخصيَّة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : قبل نزول الوحي عليه كان عمره آنذاك في الخامسة والثلاثين ، وكان قومه يرغبون في إعادة بناء الكعبة ؛ لإعلاء جدرانها وبناء سقفٍ عليها ، ومع أنَّ النِّية طيِّبة فإن النَّاس تردَّدوا مهابةً من الكعبة ، وخافوا أن ينالهم عقابٌ من هدم بنيانها الأوَّل .

وبعد خوف وتردُّدٍ قام واحدٌ من زعمائهم هو الوليد بن المغيرة بضربها الضَّربة الأولىٰ بمعوله وهو يخاطب ربه بنيَّته ونيَّة قومه ، وأنَّها نيَّة الإعمار والتَّجديد لا الهدم والتخريب ، صبر النَّاس يوماً أو يومين ولم ينل الوليدَ سوءٌ من صنيعه ، فتشجَّعوا علىٰ إكمال المهمة ، وتعاهدوا أن يعيدوا بناء الكعبة بمالٍ حلال ليس فيه مهر بغيٍّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٤) .

شاركت قبائل قريش كلُّها في بناء الكعبة إلىٰ أن استقام أكثر بنيانها ، ثمَّ وصلوا إلىٰ موضع الحجر الأسود من الكعبة ، وهو حجرٌ متوارثٌ في تراثِ العرب من عهد إبراهيم عليه السَّلام ، وله مكانةٌ رفيعةٌ وخاصّةٌ عندهم جميعاً ، تنافس المشاركون في البناء حول من يرفع الحجر الأسود إلىٰ مكانه من البناء الجديد ، وسرعان ما تحول التَّنافس إلىٰ خصومةٍ وتهديدات متبادلةٍ ، وما أسرع ما توتَّرت الأجواء حتىٰ غدت تنذر بحرب طاحنة بين الإخوة أبناء القبيلة الواحدة .

وقبل أن تسل السُّيوف من أغمادها وتشتعل نار الحرب ، نطق أحدُ الحكماء بحلٍّ استثنائيٍّ يبتغي منه حقن الدِّماء ، قال أبو أميَّة المخزومي وهو أكبر المجتمعين حول البناء الجديد سنّاً : يا معشر قريش ؛ اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل من يدخل من باب هـٰذا المسجد يقضي بينكم فيه .

فكر الحاضرون فيما سمعوا فوجدوه اقتراحاً مفيداً يحل الخلاف ويحقن الدماء ، فرضوا به .

ترىٰ من يكون أوَّل داخل ؟ وهل يستطيع أن يقضي في هـٰذه المسألة المعقَّدة برأيٍ منطقيٍّ مقبول من الجميع ؟

حبس أشراف مكَّة أنفاسهم وهم يتطلَّعون إلىٰ أوَّل قادمٍ من باب المسجد ، وفجأة علت أصواتُهم : هـٰذا الأمين ، رضينا ، هـٰذا محمَّد .

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو أول من دخل المسجد ، وكان قومه يلقبونه آنذاك بالأمين ؛ لصدقه وكرم أخلاقه .

بمقدم الصادق الأمين تبخرت أجواء التوتر وسادت أجواء الرضا .

حدَّثوه بالخبر ، فألهمه الله حلاً بسيطاً وعبقريّاً في آن واحد ، طلب ثوباً يقدر علىٰ تحمل ثقل الحجر ، فجيء به ، فوضعه فيه ، ثمَّ دعا ممثلي القبائل إلىٰ أن يأخذ كلٌّ منهم بناحيةٍ من الثَّوب ، ويرفعوا الحجر مجتمعين ، فلمَّا

وصلوا بالحجر إلىٰ موقعه من البناء؛ أخذه الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ووضعه في مكانه وبنىٰ عليه ، وانتهت بذلك أزمةٌ كبيرةٌ كادت تشعل حرباً بين النَّاس .

لا تدلُّ هٰذه القصَّة علىٰ حكمة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وحسن تصرُّفه وقدرته علىٰ معالجة المواقف الصَّعبة المعقَّدة فقط ، ولكنَّها تدلُّ أيضاً علىٰ نظرةِ زعماء القبائل في مكَّة وأهلها إليه ، كان بالنِّسبة إليهم رمزاً للصِّدق والأمانة ، والصدقُ والأمانةُ أمران مهمَّان للغاية في شخصٍ سيتلقَّىٰ بعد خمس سنواتٍ فقط أمانةً عظيمة من ربِّه ويكلَّف بإبلاغها إلى النَّاس في كلِّ أنحاء العالم .

بلغ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام سنَّ الأربعين ، وهو رجلٌ لم تُعْرَف عنه منقصةٌ قطُّ ، كان محبّاً لزوجه برّاً بها وبأطفاله ، وكان معيناً لأعمامه ، وخاصَّة لأبي طالبٍ الذي كفله يوم كان صغيراً في السادسة من عمره ، ودفعته أخلاقه الكريمة ليردَّ جميل عمِّه الذي كفله في سنيِّه الأولىٰ ، وذلك بأن قام هو نفسه بكفالة واحدٍ من أبناء أبي طالب الكُثُر ، وهو عليٌّ الذي تزوَّج لاحقاً بفاطمة بنت الرَّسول وغدا له شأنٌ عظيمٌ في تاريخ الإسلام ، وكان محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم أيضاً برّاً بقومه في مكَّة يحبُّهم ويحبُّونه ، ويرون فيه مثالاً للصِّدق والأمانة .

ولم يُعْرَف عن النَّبيِّ قطُّ أنَّه عبدَ الأصنام قبل نزول الوحي عليه ، كانت فطرته تأبىٰ عليه أن يسجد لأصنامٍ يصنعها النَّاس بأيديهم ، ثمَّ يتوهَّمون أنَّها قادرةٌ علىٰ نفعهم أو ضرِّهم ، وقد عوَّد نفسه في تلك المرحلة من عمره على التحنُّث في جبالِ مكَّة ، وخاصّةً في شهر رمضان من كلِّ عامٍ في غارٍ هناك يدعىٰ غارَ حراء ، كان يعتزل النَّاس ويخلو إلىٰ نفسه متأمِّلاً فيها وفيما حوله من جبالٍ وسهولٍ ووديانٍ وفيما يحيط به وبالعالم من أحداث .

لكن تهيئة الأنبياء لحمل رسالة الله إلىٰ عباده لا تأتي في الأساس بعلمٍ

خاصٍّ يتعلَّمه الإنسان أو بتربيةٍ روحيَّةٍ من أيِّ نوع ، إنَّها في البداية والنِّهاية اصطفاءٌ من الله سبحانه وتعالىٰ ، هو سبحانه الذي اصطفىٰ نوحاً وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقيَّة الأنبياء ليكونوا رسلاً بينه وبين النَّاس ، وهو سبحانه من اصطفىٰ عبده محمَّداً بن عبد الله ليكون خاتَم الأنبياء والمرسلين .

* * *

الفَصلُ الثَّاني

عَوْدَةُ الاتِّصالِ المُباشَرِ بَيْنَ الأَرْضِ والسَّماءِ

جاءت اللَّحظة الحاسمة في تاريخ البشرية كلِّها ليلةَ السَّابع والعشرين من شهر رمضان عام (٦١٠) للميلاد ، قضىٰ محمَّد تلك اللَّيلة متحنِّثاً في غار حراء ، وهناك كان موعده الأوَّل مع الوحي الصادر عن الله عز وجل ، نقله إليه الملاك جبريل عليه السَّلام بأمر الله سبحانه وتعالىٰ .

تروي السيدة عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها قصَّة الوحي فتقول : (أول ما بُدِىء به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم ؛ فكان لا يرىٰ رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصَّبح ، ثمَّ حُبِّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّث فيه ـ وهو التعبد ـ اللَّيالي ذات العدد قبل أن ينزع لأهله ويتزوَّد لذلك ، ثمَّ يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها ، حتَّىٰ جاءه الحقُّ في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارىء » ، قال ـ أي النبي صلى الله عليه وسلم ـ : « فأخذني فغطَّني حتَّىٰ بلغ مني الجهد ، ثمَّ أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىءٍ ، فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّىٰ بلغ مني الجهد ، ثمَّ أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىءٍ ، فأخذني فغطَّني الثَّالثة ، ثمَّ أرسلني فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾)[1] [سورة العلق : ١ ـ ٥] .

تلك كانت الآيات الأولى التي أوحى الله تعالىٰ بها لرسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم في ليلةٍ تاريخيَّة من ليالي رمضان في العام العاشر من القرن السَّابع

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣) .

للميلاد ، وتلك كانت اللَّيلة التي عاد فيها الاتصال المباشر بين السَّماء والأرض من بعد أن انقطع طيلة ما يقرب من ستَّة قرونٍ كاملة .

وبأمر واضح وحازم وبسيط : « اقرأ » ، أعطيت إشارة الانطلاق في تلك الليلة التاريخية لمهمة سامية نبيلة لا نظير لها في التاريخ ، كلف بها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ مهمة هداية الناس إلى التوحيد والحق والخير ، إلى المعرفة والعلم النافع ، وإكمال البناء الرائع الجميل الذي تعاون علىٰ تشييده إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقية الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . تلك كانت الليلة التي نزل فيها أول آيات القرآن الكريم ، تضيء أركان المعمورة وتحمل بشارة نصر حاسم للمؤمنين المحبين لله وأنبيائه ومكارم الأخلاق ، الكارهين للطغيان والفساد وعبادة الأصنام .

خرج محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم من غارِ حراء إلىٰ رحاب الجبل الذي كان يتحنَّث فيه وهو ما يزال تحت تأثير اللقاء الاستثنائي مع جبريل عليه السلام ، ومع هـٰذا الموقف الضخم الحاسم الذي سيتغيَّر به تاريخ الإنسانية ، قال : « فخرجت حتَّىٰ إذا كنت في وسط من الجبل ؛ سمعت صوتاً من السَّماء يقول : يا محمَّد ؛ أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى السَّماء أنظر ؛ فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السَّماء يقول : يا محمَّد ؛ أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدَّم وما أتأخَّر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحيةٍ منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدَّم أمامي وما أرجع ورائي حتَّىٰ بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلىٰ مكَّة ورجعوا إليها وأنا واقفٌ في مكاني ذلك ، ثمَّ انصرف عنِّي »[١] .

كيف يتصرف النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم تجاه الحدث الضَّخم الذي جرىٰ له

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٧) .

في غار حراء ؟ هل يحدِّثُ به النَّاس أم يكتمه ؟ وإذا قرر الحديث عنه ؛ فبمن يبدأ : هل يرويه لزوجته أولاً ، أم لعمِّه ، أم لواحدٍ من أصدقائه ، أم يفاجىء به أهل مكَّة كافةً في مقرِّ اجتماعاتهم حول الكعبة ؟ إن خديجةَ أقربُ النَّاس إليه ، لكن هل ستصدِّقه وتؤيِّده إذا حدَّثها بقصَّته مع الملاك جبريل ؟

إنَّ ما حدث في السَّاعات الأولىٰ بعد نزول الوحي أمرٌ مهم جداً يستحق أن يتوقف عنده الناس ، ودليلٌ عظيم وموثَّق على الدَّور التَّاريخي للمرأة في نصرةِ دين الله وسبقها الآخرين في طريق الحقِّ والخير والإيمان .

عاد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلىٰ بيته يرْجُف فؤاده كما روت أمّ المؤمنين عائشة : (فدخل علىٰ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : « زمِّلوني زمِّلوني » ، فزمَّلوه حتَّىٰ ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت علىٰ نفسي » ، فقالت خديجة : كلاَّ والله ؛ ما يخزيك الله أبداً ، إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ ، وتُكْسِب المعدوم ، وتُقْرِي الضَّيف ، وتُعين علىٰ نوائب الحقِّ .

فانطلقت به خديجةُ حتَّىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى ابن عمِّ خديجة وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ فيكتب من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عمِّ ؛ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ؛ ماذا ترى ؟ فأخبره رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خبر ما رأىٰ ، فقال له ورقة : هٰذا النَّاموس الذي نَزَّل ـ بتشديد الزاي ـ اللهُ علىٰ موسىٰ ، يا ليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أو مخرجيَّ هم ؟! » قال : نعم ، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك ؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً)[١] .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤) .

لنتوقف لحظاتٍ أخرىٰ نتأمَّل فيها موقف هـٰذه السَّيدة العظيمة في تاريخ الإسلام والإنسانيّة ، كان يمكن لامرأة أخرىٰ أن تشك بزوجها وتهينه وتسفِّه قوله ، وكان يمكن أن تسخر منه في سرِّها حتَّىٰ لو خافت إبداء رأيها صراحةً في وجهه ، وكان يمكن ألاَّ تعبأ بما قال ، وتنصرف لخاصَّة أمرها وأمر أهلها ، لكنَّ هـٰذه السَّيدة التي كانت أوَّل إنسانٍ يقبل الإسلام ويؤمن برسالة النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم عن إيمان طوعيٍّ حرٍّ اتَّخذت الموقف الصَّحيح المبنيَّ علىٰ درايةٍ عميقةٍ بشخصيَّةِ الرَّسول الموحىٰ إليه ، إنَّها تعرفه جيِّداً ، وهي أفضل من يستطيع الحكم عليه ، وقد دونت موقفها أمامه وأمام التَّاريخ ؛ فهي لم تؤمن به لأنه زوجها ووالد أطفالها ، ولكن لأنَّ نزول الوحي عليه كان موافقاً في رأيها لما لمسته فيه من خصال نبيلةٍ كريمةٍ هي من صميم خصال الأنبياء ، البرُّ بأهله وأقاربه ، ومساعدةُ الضُّعفاء والمحتاجين والفقراء والمظلومين ، وإكرامُ الضَّيف ، ونصرةُ القضايا العادلة .

لم تكتف خديجة رضي الله عنها باتخاذ هـٰذا الموقف الرَّائع النَّبيل ، وإنَّما اتجهت مع زوجها إلىٰ شيخٍ كبيرٍ وعالمٍ بارزٍ يقرأ كتب الأديان ويكتب بالعربية والعبرانية ، شيخ اعتنق المسيحيَّة ، وهو رجلٌ تربطه بها قرابةٌ عائليَّةٌ ، أرادت أن تطمئنَّ بسؤالِ عالم تثق به ، وأرادت أن يطمئنَّ زوجها الموحىٰ إليه ؛ إذ لا شك أبداً أنَّها صدَّقت النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم من أول وهلة ، وبالفعل جاءها الجواب الذي توقعته من عالمٍ مطلعٍ يدين بدين عيسى المسيح عليه السَّلام .

وهـٰذه أيضاً قصةٌ جميلةٌ تؤكِّد الرابطة القويَّة الوثيقة بين آل إبراهيم كافة ، وبين عيسىٰ ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام بوجهٍ خاصٍّ ، إنَّ العالم النَّصرانيَّ لم يجحد بعلمه علىٰ نبي الإسلام ولم يحسده على الكرامة العظمى التي جاءته ، وإنَّما طمأنه إلىٰ أنه هو النبيُّ فعلاً ، وأنَّ الملاك الذي جاءه هو نفسه

الملاك الذي كان يأتي موسىٰ عليه السَّلام ، وزاد العالم النَّصرانيُّ المخلص بتعهُّدٍ صادقٍ من عنده أنَّه سينصر النَّبيَّ نصراً قويّاً لا تردُّد فيه عندما يتعرَّض للظُّلم والأذىٰ من قومه ، ومع أنَّ ورقة بن نوفل لم يعش كثيراً بعد هٰذه الحادثة ، لكنَّ كلماته بقيت محفورةً في ذاكرةِ المسلمين وذاكرة التَّاريخ .

لسان حال كلِّ مسلمٍ يقرأ عن خديجة بنت خويلد أمِّ المؤمنين هو الامتنان المطلق الدَّائم لها علىٰ فضلها العظيم الكبير في تاريخ الإسلام .

ولسان حال كلِّ مسلم يقرأ عن موقف ورقة بن نوفل هو التقدير العميق لعالمٍ ورجلٍ مسيحيٍّ صادق شهد بالحقِّ في اللَّحظات الحاسمة الأولىٰ من تاريخ الإسلام ، وتعهَّد بمناصرة الرَّسول محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم .

إعلان الرِّسالة . . . وعرض بالملك والسِّيادة

اطمأنَّ محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم لما نزل عليه من الوحي وقبل التَّكليف الجليل من ربِّه ، كانت خديجة هي أوَّل إنسانٍ دخل في دين الإسلام ، ولحكمةٍ من الله كان أوَّل مسلمٍ بعد النَّبيِّ امرأة ، بما ينسجم مع طبيعة الرِّسالة الإسلاميَّة التي خاطبت الرِّجال والنِّساء معاً ودافعت بقوَّة عن كرامة المرأة .

كان علي بن أبي طالب الذي كفله النَّبيُّ بعد زواجه من خديجة صبيّاً متحفِّزاً للحياة ، وقد سمع الحديث عن الإسلام في بيت النُّبوَّة فاعتنقه ، ولم يبخل عليٌّ على الإسلام وعلى النَّبيِّ بشيءٍ طيلة حياته ، وهو أصبح لاحقاً الخليفة الرَّابع في تاريخ المسلمين ، ثمَّ أسلم زيد بن حارثة ، وكان يعيش في بيت النُّبوة أيضاً منذ عدَّة سنوات ، كان عبداً فحرَّره النَّبيُّ وتبنَّاه ، ويوماً ما جاء والده حارثة إلىٰ مكَّة والتقى ابنه بعد غياب طويلٍ ، عندها أعطى النَّبيُّ لزيدٍ حريَّة الاختيار بين أن يبقىٰ معه أو أن يرحل مع والده ، فاختار زيدٌ البقاء مع النَّبيِّ ، ولمَّا نزل الوحي ؛ أسلم وناصر النَّبيَّ ، ولا شكَّ أنَّ زيداً ما كان ليختار

البقاء مع محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ويفضِّلَه علىٰ أبيه إلاَّ لأنَّه وجد فيه من العطف والحنان والمحبَّة والرِّعاية والخُلُق الكريم ما لم يجده عند أيِّ شخصٍ آخر .

ثم أسلم صديق النبي المشهور أبو بكر الصديق ، وهـٰذا رجل صاحب شأن عظيم في تاريخ الإسلام ، وأول خليفة للمسلمين بعد وفاة النبي .

قال فيه المؤرخون : (كان أبو بكر رجلاً مَأْلفاً لقومه ، محبباً ، سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه)[١] .

وبالفعل أقنع أبو بكر الصديق عدداً من الأسماء المشهورة الأخرىٰ في تاريخ الإسلام بدخول الدين الجديد منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ؛ أبو بكر هنا يقدم المثال والقدوة للتاجر الذي لا يتحول عبداً لماله ومصالحه الضيقة .

ركز النبي صلَّى الله عليه وسلَّم على الاتصال الفردي بالناس ، وساعده في ذلك المسلمون الجدد الذين سبقوا باتباع الرسالة الإسلامية ، واستمر النبي علىٰ هـٰذا النهج قرابة ثلاث سنين ؛ حتىٰ شاع ذكره وذكر دينه في أوساط قريش وخارج حدود مكة ، كانت خلاصة دعوته للناس هي أن يكفوا عن عبادة الأصنام ويتوقفوا عن تقديسها وتعظيمها ، والاعتقاد بأنها تنفع وتضر أو أنها واسطة بينهم وبين الله عز وجل ، وأن يؤمنوا بدلاً من ذلك بالله سبحانه وتعالىٰ وحده رباً لا شريك له ، وأن يعبدوه ويطيعوه ويدعوه في السراء والضراء

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠) .

ولا يشركوا بعبادته أحداً ، صنماً كان أو بشراً ، وأن يؤمنوا بالبعث بعد الموت ، وباليوم الآخر ، ويستعدوا ليوم القيامة بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ومكارم الأخلاق .

بعد ثلاث سنواتٍ من نزول الوحي أمر اللهُ تعالىٰ رسوله محمَّداً بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم بإعلان دعوته بين عموم النَّاس : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٤ـ ٩٩] .

صدر الأمر بالجهر بدعوة الإسلام ، فاستجاب النَّبيُّ لأمر الله ، واستجاب معه أصحابه ، وبدأت حملة علنية لبيان حقيقة الدين الجديد لسكان مكة ، لكنَّ زعماء المشركين في قريش لم يرحبوا بهٰذه الدعوة التي تدين عبادتهم للأصنام ، وتدعوهم لعبادة الله وحده وطاعته والعمل بهديه ، بالنسبة إليهم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ثورة على الأوضاع الاجتماعية السائدة والتقاليد القديمة والمفاهيم والأفكار الموروثة عن الآباء والأجداد من قديم الزمان ، ولا شك أن الدعوة الجديدة كانت حدثاً ضخماً في حياتهم ولا شك أنهم فكروا في هٰذا الحدث وتأملوا في مغزاه ، لكنَّهم فضَّلوا في النِّهاية أن يحافظوا على القديم الذي عندهم ، وخافوا من ممارسة النقد والاجتهاد والتجديد ، ومن أن يتَّبعوا ديناً يهدِّد بتغيير الأسس الفاسدة لحياتهم ولمجتمعهم .

اختارت الأغلبيَّة من قريش أن تسلك الدرب ذاته الذي سلكه خصوم الرُّسل في تاريخ الإنسانية ، أولـٰئك الذين أعلنوا الحرب في حقب تاريخية سابقة علىٰ نوحٍ وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ وإخوانِهم من الأنبياء عليهم السَّلام ؛ لذلك رفضوا تصديق النَّبيِّ رغم أنَّه كان الصَّادق الأمين عندهم قبل البعثة ، وقالوا

عنه : إنه ساحرٌ وكاذب ومجنون وشاعر ، وسلَّطوا عليه وعلىٰ أتباعه الكثير من الظُّلم والحصار والأذىٰ ، وفي تلك الظروف الصَّعبة اختار أبو طالب أن يقف سنداً وحامياً لابن أخيه رغم أنَّه لم يعتنق دعوته .

كان موقف أبي طالب موقفاً نبيلاً ومؤثِّراً وعظيماً في تاريخ الإسلام ، وعندما اشتدَّت الخصومة بين زعماء المشركين والنَّبيِّ جاء وفد من أعيان قريش إلىٰ أبي طالب وقالوا له : (يا أبا طالب ؛ إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر علىٰ هـٰذا من شتمِ آبائنا وتسفيهِ أحلامنا وعيبِ آلهتنا حتىٰ تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتَّىٰ يهلك أحد الفريقين)[1] .

كان المشركون يرفضون دعوة الإسلام علىٰ أساس أنَّهم لا يريدون مخالفة ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، ولو أنَّ هـٰذا المنطق اعتمد في كلِّ وقت ؛ لما تجددت الحياة البشريَّة أصلاً ، ولما كان هناك دورٌ في التَّاريخ للأنبياء وكبار القادة والمفكِّرين والعلماء والأدباء والمبدعين ، وكان ردُّ النَّبيِّ علىٰ قومه هو رفض هـٰذه الحجَّة رفضاً قاطعاً ، ودعوة القرشيين لاتخاذ موقف حرٍّ متجرِّدٍ غير مرتهن لثقافات الماضي وعقائده ؛ لذلك قالوا لأبي طالب أن ابن أخيه شتم آباءهم وسفَّه أحلامهم ، أمَّا ما أشاروا إليه من عيبِ آلهتهم ؛ فيعنون به رفض الإسلام لعبادة الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم .

اشتدَّ الضَّغط علىٰ أبي طالب ، ولا شكَّ أنَّه أدرك جدِّيَّة التَّهديد الذي جاء به وفد قريش ، التهديد له ولابن أخيه ، ولبني هاشم قاطبة ، فدعا محمّداً صلَّى الله عليه وسلَّم وحدَّثهُ بالأمر ، وطلب منه أن يجنح للسَّلامة وأن يبقي علىٰ نفسه وعمِّه ، وألاَّ يُحمِّل عمَّه ما لا يطيق ، وجاء جواب النَّبيِّ قاطعاً : « يا عمّ ؛ والله لو وضعوا الشَّمس في يميني ، والقمر في يساري ؛ علىٰ أن

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٥) .

أترك هـٰذا الأمر ـ حتَّىٰ يظهره الله أو أهلك فيه ـ ما تركته »[1] .

أيقن أبو طالب أنَّ معدن ابن أخيه هو معدن الرُّسل الذين نزل عليهم الوحي من قبل من جهة التَّصميم والعزم والثَّبات على المبدأ والاستعداد الكامل للتَّضحية في سبيل ما يرضي الله ، وفي سبيل نشر الإيمان الصَّحيح وقيم الحريَّة والمساواة والعدالة ومكارم الأخلاق ؛ لذلك قال للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله ؛ لا أسلمك لشيءٍ أبداً)[2] .

ازداد الضَّغط على النَّبيِّ وأصحابه من دون أن تحرز قريشٌ نجاحاً كبيراً يذكر ، وفي يومٍ من الأيَّام تجرّأ أبو الحكم بن هشام على النَّبيِّ وسبه سباً فاحشاً ، شهدت امرأةٌ ذلك الموقف وتألَّمت له ، وفي طريق عودتها مرَّ بها فارسٌ من أشهر فرسان قريشٍ عائداً من رحلة قنص فحدَّثته بما جرىٰ ، لم يكن الفارس مسلماً حتَّىٰ تلك اللَّحظة ، لكنَّه كان عمّاً لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ، كان اسمه حمزة بن عبد المطَّلب ، وسينال في التَّاريخ الإسلاميِّ لقباً لا نظير له : سيِّد الشُّهداء .

اشتدَّ الغضب بحمزة فتوجَّه إلى الكعبة مباشرة ، وهناك لقي أبا الحَكم بن هشام فوبَّخه ورفع قوسه فجرحه بها ، ولأبي الحكم بن هشام لقبٌ مشهورٌ في التَّاريخ الإسلاميِّ هو أبو جهل كناية لتعصبه الشَّديد ورفضه أن يدرس العقيدة الجديدة دراسةً موضوعيَّةً علىٰ أساس الحجَّة والدَّليل ، وتزعُّمهِ حملة القمع والإرهاب التي سُلِّطت على المسلمين ، أعلن حمزة لأبي جهل وللحاضرين أنَّه قد غدا علىٰ دين محمَّد ، فنزل عليهم الخبر نزول الصَّاعقة .

فكَّر بعض الحاضرين في الرَّد عليه ومصادمته ، لكنَّ أبا جهل صدَّهم معترفاً بأنَّه سبَّ النَّبيَّ سبّاً قبيحاً ، وأقبل حمزةُ من الغد على الرَّسول محمَّد صلَّى الله

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٦) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٦) .

عليه وسلَّم معلناً إسلامه ، فكان ذلك كسباً كبيراً للصَّفِّ المؤمن ، ونكسةً مدوِّيةً لحزب المشركين الطُّغاة .

اجتمع عدد من الزُّعماء المرموقين لهـٰذا الحزب الكاره لدعوة النَّبيِّ عند الكعبة وتبنَّوا خطةً جديدةً ، قرَّروا توجيه دعوة للنَّبيِّ ليتفاوضوا معه ، فجاءهم علىٰ حرصٍ وأمل يتطلَّع إلىٰ أن يقبلوا منه دعوة الإسلام ولا يكونوا عَقَبَةً في طريق التَّوحيد والإيمان الصَّحيح ، قالوا له : (يا محمَّد ؛ إنا قد بعثنا إليك لنكلِّمك ، وإنَّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل علىٰ قومه مثل ما أدخلت علىٰ قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعِبت الدِّين ، وشتمت الآلهة ، وسفَّهت الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فما بقي أمرٌ قبيح إلاَّ قد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهـٰذا الحديث تطلب مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنَّما تطلب الشَّرف فينا ؛ فنحن نسوِّدك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ؛ ملَّكناك علينا ، وإن كان هـٰذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه قد غَلَب عليك ـ وكانوا يسمُّون التَّابع من الجنِّ رَئِيّاً ـ فربما كان ذلك ؛ بذلنا لك أموالنا في طلب الطِّب لك حتَّىٰ تُبرئك منه أو نُعْذِر فيك)[1] .

هكذا تحدَّث خصوم النَّبيِّ ذات يومٍ في مكَّة المكرَّمة ، وقد بقيت قلَّةٌ متطرِّفةٌ من الخصوم الآخرين له ولدعوة الإسلام علىٰ مدى التَّاريخ يزعمون أنَّ محمَّداً بن عبد الله لم يكن نبيّاً ، وأنَّه كان طالب ملكٍ ومجدٍ وسيادةٍ ، يا لسخافة هـٰذا القول ! ها هو المُلك يُعْرَض علىٰ محمَّدٍ من زعماء قومه ، الملك والشَّرف والمال والسِّيادة لو كان هـٰذا قصده ؛ لما كانت أمامه فرصةٌ أفضل من هـٰذه ولا عرضٌ أحسن من هـٰذا العرض الذي سمعه من أشراف مكة ، فماذا كان الجواب ؟

قال لهم الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم : « ما بي ما تقولون ، ما جئتُ بما

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٥) .

جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشَّرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغتكم رسالات ربِّي ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به ؛ فهو حَظُّكم في الدُّنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ ؛ أصبر لأمر الله حتَّىٰ يحكم الله بيني وبينكم »[1] .

هـٰذا جواب نبيٍّ مرسلٍ لا جواب طالبِ مُلكٍ ومَجدٍ ومالٍ ، إنَّ الخطَّة التي أُعدَّت لرشوته كي يتخلَّىٰ عن أداء الرِّسالة لم تنجح ، وقد غدت قريش أكثر توتُّراً وأكثر غضباً علىٰ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه ، زاد التَّضييق على المؤمنين ، وضرب أحدُهم عبدَ الله بن مسعود ؛ لأنه قرأ آياتٍ من القرآن علناً في نادٍ من نوادي مكَّة ، كانوا يريدون لكلمة الله أن تبقىٰ حبيسةً محجوبةً عن النَّاس ، وهم كانوا أعلم أهل الأرض باللُّغة العربيَّة وفنونها ، وكانوا واثقين أنَّ القرآن الذي يريدون حجبه عن النَّاس لونٌ جديدٌ من البيان لم يعرفوا مثله من قبل قطُّ ، ولا يمكن أن يكونَ من قول بشرٍ ؛ لذلك تآمروا علىٰ حرِّيَّة التَّعبير وحرِّيَّة الاعتقاد بكلِّ وسائل البطش المتاحة لهم .

ولمَّا لم تنفعهم أساليبهم هـٰذه ؛ صعَّدوا الموقف وقرَّروا اللُّجوء إلى التَّعذيب .

امرأة شهيدة ، ورجلٌ أسودُ حرٌّ ، وهجرة اضطراريَّة

إذا كان أوَّل من آمن بالإسلام امرأة ؛ فإنَّ أوَّل من استشهد في سبيل الإسلام امرأة أيضاً .

تبنَّت قبائل قريش سياسة التَّعذيب المنظَّم ضدَّ المؤمنين ، وفرضت عليهم الجوع والعطش ، ووقع الأذى الأكبر على الفقراء والأرقاء من المسلمين ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٦) .

أراد وجوهُ قبيلة بني مخزوم أن يُظهِروا حماسهم الزَّائد لحملة التَّعذيب ؛ فاستهدفوا عائلةً كاملةً اختارت الإسلام عن حريَّة واقتناع ، أخرجوا ياسراً ، وزوجته سُميَّة ، وابنهما عمَّاراً ، إلىٰ رمال الصَّحراء المحرقة بعد منتصف النَّهار بقليل عندما يكون لهيب الشَّمس في صحراء العرب أقوىٰ منه في أيِّ وقتٍ آخر خلالَ اليوم ، وهناك تداول الطُّغاة علىٰ ضرب المؤمنين لإجبارهم على التخلِّي عن عقيدتهم والعودة إلىٰ عبادة الأصنام .

مرَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذات يومٍ بآل ياسر وهم بين أيدي جلاَّديهم ، فما كان عنده من تأييدٍ لهم إلاَّ قوله المشهور : « صبراً آلَ ياسر ؛ موعدكم الجنة » إنَّ مشهد قمع المؤمنين يتكرَّر في فتراتٍ كثيرةٍ من التَّاريخ ، كذلك فعل فرعون بالشَّعب اليهوديِّ من قبل ، وكذلك فعل الكثير من الطُّغاة بالمسيحيِّين ، وها هم المتسلِّطون المتعصِّبون من زعماء مكَّة ينهجون النهج ذاته الفاسد في مواجهة الإيمان وفي مواجهة الإرادة الحرَّة للإنسان .

وقف أحد المعذِّبين علىٰ رأس المرأة المؤمنة الحرَّة يخيِّرها بين مزيد من التَّعذيب وبين أن ترتدَّ عن الإسلام وتمدح الأصنام ، فنظرت إليه بثقة وشموخ وردَّت عليه بالرَّفض ، لقد رفضت هـٰذا العرض من قبل وأكَّدت موقفها من جديدٍ بلهجةٍ لا تحتمل الشَّكَّ ، ثار الجلاَّد واستشاط غضباً وهو يرىٰ عجز قوَّته الباطشة عن إثناء هـٰذه المرأة النَّبيلة عن محبَّة الله والإيمان به ، فما كان منه إلا أن رفع سلاحه ووجه لها طعنة قاتلة .

وكتب التَّاريخ آنذاك اسم أوَّلَ شهيدةٍ من شهداء الإسلام : سُميَّةَ زوجة ياسر ، وأمُّ عمار بن ياسر ، وقد خلَّد التَّاريخ اسمها رمزاً للإيمان والدِّفاع عن حرِّية العقيدة ، ورمزاً للارتباط الوثيق بين المرأة والشَّريعة الجديدة التي أنزلها الله علىٰ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، ارتباط المرأة الحرَّة في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بشريعة الحرِّيَّة والكرامة الإنسانيَّة .

وغير بعيدٍ من الموقع الذي استشهدت فيه سميَّة كان جلاَّد آخر من جلاَّدي قريش يتفنن في تعذيب مؤمنٍ آخر من أنصار محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، اسمُ الجلاَّد أميَّة بن خلف بن وهب ، واسمُ المؤمن بلال بن رباح .

بلالٌ رجلٌ أسود ، من الرجال والنِّساء الذين لبَّى الإسلام أشواقهم إلى المساواة والحرِّيَّة ؛ إذ لا فرق في الإسلام بين أبيض ولا أسود إلاَّ بالتَّقوىٰ ؛ أي : بمحبة الله وطاعته وبالعمل الصَّالح كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

وقد جاء في القرآن الكريم أيضاً أن كرامة الإنسان عطاءٌ إلـٰهيٌّ ثابت للإنسان بقطع النَّظر عن لونه وعِرقه ودينه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٧٠] .

فَهِم بلالُ بن رباح رسالةَ الإسلام الواضحة التي لا تعقيد فيها ، وعرف أن تكريم الله لبني آدم يشمله ويشمل كلَّ إنسانٍ علىٰ وجه الأرض ، وأدرك أن كلَّ الذين ينتقصون من حقوق الإنسان بسبب اللَّون عنصريون ضالُّون معادون لشريعة الله ، لماذا إذن يستمر مؤمناً بديانة قريش التي لا يقبلها العقل السَّليم ، والتي تجيز اضطهاده واستعباده ؟!

أراد طغاةُ قريش أن يجعلوا من بلال عبرةً لكلِّ عبدٍ أسود ولكل رجل أسود ولكل امرأة سوداء في مكة ، وأرادوا أن يغلقوا أمامهم باب الحرِّيَّة الذي فتحه الإسلام علىٰ مصراعيه ، هـٰذا ما فعلوه ببلال (كان أميَّة بن خلف بن وهب يُخْرجه إذا حميت الظَّهيرة في بطحاء مكَّة ، ثمَّ يأمر بالصَّخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره ، ثمَّ يقول له : لا تزال هـٰكذا حتَّىٰ تموت أو تكفر بمحمَّدٍ وتعبد اللاَّت والعزَّىٰ ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أَحدٌ أَحدٌ)[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٧) .

الله واحدٌ أحد ليس له شريك ولا ند ، هـٰذا هو جواب بلال للجلَّاد ، والجلَّاد الذي أعمى التَّعصُّب قلبه وعقله يريد أن يردَّه بالقوَّة والتَّعذيب إلى الاعتقاد باللاَّت والعزَّىٰ وتقديس بقية أصنام قريش ، لكن بلالاً ثبت وصمد ولم يَسْتسلم أبداً حتىٰ نجح أبو بكر الصِّديق في افتدائه وتحريره .

بعد عشرين عاماً من تلك الواقعة وصل جيشُ الإسلام بقيادة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلىٰ مكَّة محرِّراً ، وهدمت الأصنام التي كانت موجودةً داخل الكعبة وحولها ، وأمر النَّبيُّ برفع الأذان وإعلان النِّداء للصَّلاة في المسجد المطهَّر ، وكان المؤذِّن الذي صَعِد فوق الكعبة ونال شرف ترديد أوَّل أذان في عصر الحرِّيَّة هو ذات الشخص الذي عذبه أميَّة بن خلف بن وهب في صحراء مكَّة ذات يوم من الأيام ، كان بلالٌ مؤذناً للصَّلاة في المدينة المنوَّرة أيضاً ، وقد حفظ له التَّاريخ موقفه الرَّائع في الدِّفاع عن حرِّيَّة العبادة ، والتَّمسُّك بالإسلام ، وسمِّي بين المسلمين بمؤذِّن الرَّسول ، وبقي علىٰ مدى الزَّمان رمزاً للإنسان الحرِّ مهما كان لونه ، وإذا كان هناك من يودُّ أن يفهم سرَّ جاذبيَّة الإسلام للرَّجل الأسود وللمرأة السَّوداء علىٰ مدى التَّاريخ وعلىٰ مدى القرون المقبلة ؛ فإن قصَّة بلالٍ واحدة من القصص التي تكشف السِّرَّ .

عذَّبت قريشٌ أعداداً كبيرةً من المسلمين والمسلمات وأصرَّت علىٰ مصادرة حرِّيَّتهم في العقيدة والتَّعبير ، ولم يستطع النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يضع حدّاً لهـٰذه المعاناة التي يواجهها أتباعه ، صحيحٌ أنَّه هو نفسه استمرَّ محميّاً من عمِّه أبي طالب وعددٍ من أقاربه الآخرين ، ولكنه وصل إلىٰ قناعة مفادها أنَّ من الضَّروريِّ إيجاد حلٍّ ينجي المسلمين الأوائل من التَّعذيب والإبادة .

من يا ترىٰ يستطيع نجدة المسلمين في محنتهم الشَّديدة هـٰذه ؟ فكَّر النَّبيُّ مليّاً ، وألهمه ربُّه عز وجل حلاً يرمز إلىٰ أمورٍ عظيمةٍ في تاريخ العلاقات المسيحيَّة الإسلاميَّة ، أبلغ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابه بالحلِّ : « لو

خرجتم إلىٰ أرض الحبشة ؛ فإنَّ بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحدٌ ، وهي أرض صدقٍ ، حتَّىٰ يجعل لكم فرجاً »[1] .

كانت تلك إشارة الانطلاق للهجرة الأولىٰ في تاريخ الإسلام ، ولواحدةٍ من أشهر قصص اللُّجوء السِّياسيِّ في التَّاريخ ، غادر العشرات من المسلمين مكَّة متَّجهين إلى الحبشة وهي أثيوبيا حالياً ، كانوا رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ومن بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عمِّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وعثمان بن عفان وزوجته رقيَّة بنت الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم عددٌ آخر من كبار الصَّحابة ، والصحابي : هو اللَّقب الذي يطلق علىٰ كل مسلم رأى الرَّسول وعاصره وآمن بدعوته ، والصحابة هم الجيل الإسلامي الأوَّل الذي نصر النبي صلى الله عليه وسلم وآزره في نشر رسالة الإسلام بين الناس ، وبيان أركانها وتعاليمها وغرس قيمها الكبرىٰ ، وعلىٰ رأسها التَّوحيد والحرِّيَّة والمساواة والعدالة ومكارم الأخلاق في قلوب البشر وعقولهم .

ومن الأسماء المشهورة التي هاجرت إلى الحبشة أيضاً : مصعب بن عمير ، والزُّبير بن العوَّام ، وعبد الرَّحمـٰن بن عوف ، وكان مجموع المهاجرين من الرِّجال والنِّساء والأطفال أقلَّ من المئتين .

وصل اللاَّجئون المسلمون إلى الحبشة فوجدوا فيها حسن الاستقبال والأمن وحرِّيَّة العبادة ، وهـٰذا هو تحديداً ما كانوا يطلبونه ، وصَفَت لهم الأَيَّام بعد ما نالهم من ظلمٍ وتعذيبٍ في مكَّة ، فانصرفوا لحياتهم يعبدون الله ويعملون لكسب الرِّزق وإعاشة أنفسهم ، لكنَّ الطُّغاة من زعماء قريشٍ علىٰ نهج الطُّغاة قبلهم وبعدهم أرادوا مطاردة المسلمين حتَّىٰ في منفاهم ، لقد منعوا عنهم حريَّة العبادة في مكة ، ثم قرَّروا أن يسعوا لمصادرة حرياتهم الدينية في الحبشة أيضاً ، وأن يطلبوا من حاكمها تسليم المسلمين إليهم علىٰ أساس

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢١) .

أنَّهم مطلوبون للسُّلطات القرشيَّة .

ولكن كيف يستطيعون إقناع الملك المسيحي الأثيوبيِّ الذي مدحه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وقال : « إنه لا يُظلَم عنده أحدٌ » ؟!

قرَّروا أن يرسلوا اثنين من الزُّعماء الدُّهاة ذوي المهارة الدِّيبلوماسيَّة العالية ؛ لتنفيذ هٰذه المهمَّة الحسَّاسة ، وأمدوهما بمالٍ كثيرٍ للصَّرف علىٰ هٰذه المهمَّة ، وسافر الوفد محمَّلاً بالكثير من الهدايا الثَّمينة ، ادخروا أفضل هداياهم للحاكم ، لكنَّهم بدؤوا أوّلاً بكبار مساعديه ومستشاريه ، وأغدقوا عليهم بقية الهدايا مقابل أمر واحدٍ ، قالوا لهم : إنهم جاؤوا يطلبون تسليم اللاَّجئين المسلمين إليهم ، وهم يريدون من هٰؤلاء المساعدين والمستشارين أن يؤيِّدوا الطَّلب إذا عُرِض على الحاكم في مجلسه الرَّسميِّ ، وحصلوا من الجميع علىٰ وعودٍ قويَّةٍ بالتَّأييد والدَّعم لهٰذا الطَّلب .

استقبل الملك الأثيوبي وفد قريش وسمع منهم تقريراً حافلاً بالاتِّهامات ضدَّ اللاَّجئين المسلمين ، وعلىٰ رأسها أنَّ هٰؤلاء تخلَّوا عن دينهم من دون أن يدخلوا في النَّصرانيَّة ، أراد الوفد أن يستغلَّ العاطفة الدِّينيَّة المسيحيَّة للملك ويؤلبه على اللاَّجئين المسلمين ، وأعطاه الانطباع أنَّ قريشاً ما كانت لتمانع لو أنَّ هٰؤلاء اللاَّجئين اعتنقوا المسيحيَّة ، ثمَّ أضاف أنَّ زعماء مكَّة يطلبون استعادة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ؛ لأنَّهم أدرىٰ بالأسلوب الأمثل للتَّصرُّف معهم ، وقد عرفنا جيِّداً حقيقة هٰذا الأسلوب الذي يعنيه الوفد القرشيُّ ، إنه أسلوب التَّعذيب والقمع والقتل ، ثمَّ تحدَّث عدد من المساعدين والمستشارين فأيَّدوا مطلب قريشٍ ؛ تصديقاً لوعودهم التي قدَّموها للوفد الزَّائر عندما تسلَّموا منه الهدايا الثَّمينة .

لكنَّ الملك رفض أن يتخذ قراره بناء علىٰ وجهة نظر الوفد القرشيِّ المشرك وحدها ، كما أنَّه لم يستجب لدواعي التَّعصُّب الدِّينيِّ التي راهن عليها وفدُ

قريش ، واعتذر للضُّيوف بأنَّه لا يستطيع أن يسلِّمهم لاجئين اختاروا طلب الأمن والحرِّيَّة في بلاده من دون أن يسمع منهم مباشرةً ويعطيهم الفرصة للرَّدِّ على الاتهامات التي كَالَها لهم عمرُو بن العاص وعبدُ الله بن أبي ربيعة ، وهـٰذان هما الرَّجلان اللذان أرسلتهما قريشٌ إلى الملك الأثيوبي .

تسلَّم اللاَّجئون المسلمون دعوة السُّلطات الأثيوبيَّة للحضور إلىٰ مجلس الملك والرَّدِّ على الاتهامات الموجَّهة إليهم ، وعرفوا أنَّ الملك سيسلِّمهم إلى الوفد القرشيِّ الرَّسميِّ إذا ثبتت عليهم التُّهم ، فتشاوروا واتَّفقوا أن يعرضوا عليه حقيقة أمرهم دون زيادةٍ أو نقصان ، ويتحمَّلوا تبعات مبادئهم مهما كانت مؤلمةً .

فُتِحت الجلسة الحاسمة من طرف الملك الأثيوبي وقد مضىٰ مباشرة إلىٰ صُلب الموضوع ، وسأل المسلمين عن دينهم الجديد المخالف لدين قريش والمخالف لدين الملك أيضاً ؛ أي : للديانة المسيحيَّة .

في ذلك اليوم في قصر الحاكم الأثيوبيِّ في العقد الثاني من القرن السَّادس الميلاديِّ ، سمع الحاضرون وسمعت الدُّنيا كلُّها جيلاً من بعد جيلٍ واحدةً من أفضل المرافعات عن الإسلام في التَّاريخ وأكثرها قوَّة ووضوحاً وتأثيراً على العقول وعلى القلوب .

محاكمة عادلة في أثيوبيا

قال جعفر بن أبي طالب يخاطب ملك أثيوبيا ، ويخاطب الدُّنيا بأسرها : (أيُّها الملك ؛ كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا علىٰ ذلك حتَّىٰ بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه وصِدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من

الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش وقولِ الزُّور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحدَه لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام ، فصدَّقناه وآمنا به ، واتَّبعناه علىٰ ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله تعالىٰ ، وأن نستحل من الخبائث ، فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلىٰ بلادك ، واخترناك علىٰ من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألاَّ نُظلم عندك أيُّها الملك)[1] .

أيُّ قاضٍ عادلٍ يسمع مثل هـٰذه المرافعة العظيمة المفعمة بالصدق والوضوح ونبل المعاني ثمَّ لا ينصف أهلها ؟ ملك الحبشة الذي استمع إلىٰ جعفر بن أبي طالب باهتمامٍ لم يكن ممثِّلاً للسُّلطة القضائيَّة فحسب ، وإنَّما كان رأس السُّلطة التَّنفيذيَّة أيضاً ، وأمره ينفذ دون تردُّدٍ ، وقد سبق أن ظهرت نزعته للعدل عندما رفض أن يحكم على اللاَّجئين المسلمين قبل أن يسمع منهم ، وها هو يوجِّه إليهم سؤالاً آخر بعد أن سمع مقالتهم الأولىٰ : هل عندكم شيءٌ من القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيِّكم ؟

أجاب جعفر : نعم عندنا ، فطلب الملك أن يسمع ، فقرأ جعفر بن أبي طالب آيات كريمة من صدرِ (سورة مريم) : ﴿ كٓهيعٓصٓ ۞ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۞ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٣٣٦) .

وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم : ١ـ٩] .

ما كان أن قرأ جعفر هٰذه الآيات الكريمة حتىٰ تجلت الحقيقة للملك المسيحي العادل . إن صاحب القلب السليم إذا سمع كلام الله ؛ فرح به وخشع له واطمأنت نفسه . وقد خشع الملك الحبشي لما سمع إلىٰ درجة أنه لم يستطع أن يحبس دمعه . بكى النجاشي حتىٰ بلل الدمع لحيته ، وبكى الأساقفة من حوله ، ثمَّ أصدر الملك حكمه العادل : إن هٰذا ـ يعني القرآن ـ والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ ، انطلقا ـ الحديث هنا موجه لعمرو بن العاص وصاحبه ممثلي قريش ـ فلا والله ؛ لا أسلِّمهم إليكما)[١] .

إنَّ عظمة هٰذا الملك النَّصرانيِّ العادل لا تتوقَّف عند إنصافه للمسلمين ، وعند خشوعه لكلماتِ الله عندما تُليت عليه من القرآن الكريم ، وإنما تكمن أيضا في تمسكه بموقفه وعدله ، حتىٰ عندما تآمر وفد قريش من جديد وروَّجوا بحق المسلمين فرية كبيرة واتهاماً خطيراً ، وزعم أنهم يسيؤون لشخص عيسىٰ عليه السلام .

قال عمرو بن العاص وصاحبه للنجاشي : إن المسلمين يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، ويزعمون أنه عبد مثل سائر الناس . وعاد المسلمون مجدداً إلىٰ مجلس الملك يحاصرهم اتهام يتصل بعقيدة الملك الذي لجؤوا له يطلبون الأمان والحرية . أدلىٰ جعفر بن أبي طالب بالجواب الصَّحيح عند المسلمين دون زيادةٍ أو نقصانٍ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول ، والراجح أنه استلهم جوابه مما جاء في (سورة مريم)

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .

التي قرأها بالأمس عن هـٰذا الموضوع وبالتحديد في هـٰذه الآيات الكريمة :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة مريم : ١٦ـ٣٥] .

بالنسبة للذين يقرؤون هـٰذه الآيات الكريمة باللُّغة العربية ؛ فإنَّ من المستحيل على الأغلبيَّة السَّاحقة منهم ألا يأسرهم جمالها وإيقاعها وسجعها ، بالإضافة طبعاً إلىٰ وضوح المضمون والقدرة المعجزة علىٰ رواية قصَّة طويلةٍ في فقرة صغيرةٍ من (٢٠٩) كلمة ، وبالنِّسبة للذين يقرؤونها مترجمة إلى الإنجليزيَّة والفرنسيَّة وإلىٰ أيِّ لغةٍ أخرىٰ قد يطبع بها هـٰذا الكتاب ، فإنَّ أغلب الظَّنِّ أيضاً أنَّهم سيصلون إلىٰ ما وصل إليه ملك الحبشة عندما قُرِئت عليه قبل حوالي أربعة عشر قرناً من الزَّمان ، لقد أنصت إلى الآياتِ مترجمة ، ثمَّ أخذ

من الأرض عوداً صغيراً وضعه في يده وأجاب بكلماتٍ مضيئةٍ أخرىٰ في تاريخ العلاقات الإسلاميَّة المسيحيَّة متوجِّهاً بالحديث إلىٰ جعفر : (والله ؛ ما عدا عيسى ابنَ مريمَ ما قلتَ هـٰذا العُودَ)[1] أي : أن التَّصوُّر الذي جاء في القرآن الكريم عن عيسى بن مريم لا يختلف عن التَّصوُّر المسيحيِّ الذي يؤمن به الملك حتىٰ بحجم عُود ثقاب أو أقل ، أصدر الملك بعد ذلك حكمه النِّهائيَّ في القضيَّة المرفوعة أمامه ، فرفض طلب وفد قريشٍ باسترداد اللاَّجئين المسلمين ، وردَّ إليهم هداياهم التي جاؤوا بها ؛ مبيِّناً أنَّه لن يقبل الرِّشوة منهم ، ثمَّ جدَّد ترحيبه بالمسلمين ، وأخبرهم أنهم آمنون في بلاده ، وأكَّد لهم أنَّ من عاداهم ؛ فقد عاداه هو شخصيّاً ، وأنَّه لن يقبل أن يمسهم إنسان بأذىً مهما كان الثمن في إشارة لرشاوىٰ عمرو بن العاص حتىٰ لو بلغ ذلك عرض جبل من ذهب على الملك .

قالت الصحابية الجليلة أمُّ سلمة بنت أبي أميَّة بن المغيرة ، وكانت ضمن وفدِ اللاَّجئين المسلمين الذين حضروا هـٰذه الجلسات في قصر الملك الأثيوبيِّ ، وهي ستصبح بعد هـٰذا الموقف بسنواتٍ زوجةً للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم وأمّاً للمؤمنين ، قالت تلخِّص ما آلَ إليه أمر هـٰذه المحاكمة بالنِّسبة لمبعوثي قريش من جهة ، وإلى اللاَّجئين المسلمين من جهة أخرىٰ : (فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخيرِ دارٍ مع خير جار)[2] .

يا لروعة التَّرابط والتَّضامن بين المسلمين والمسيحيِّين وبين آل إبراهيم كافةً حين تصفو القلوب ويغيب التَّعصب .

❊ ❊ ❊

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٧) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٨) .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

إِسْلامُ عُمَرَ ، عامُ الحُزْنِ ، وَرِحْلَةُ الطَّائِفِ

عاد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من الحبشة إلىٰ مكة يجران أذيال الخيبة ، وسلّم الله اللاجئين المسلمين وحفظهم من مكرهما . وكان فشلهما بالطبع خبراً سيئاً لزعماء قريش ، لكنه لم يكن الخبر الوحيد من نوعه .

لقد فوجئوا بخبر آخر لم يكونوا يتوقعونه ، هو إعلان أحد زعمائهم المشهورين بالإقدام والشجاعة والمكانة الرفيعة دخوله في الإسلام . اسم هٰذا الزعيم الكبير عمر بن الخطاب ، وسيحفظ التاريخ بعد ذلك مكانته الرفيعة ودوره الاستثنائي بوصفه الخليفة الثاني للمسلمين ، ومثال الحاكم العادل ، وداعية الحرية وحقوق الإنسان الذي حكم لمواطن مسيحي بسيط من رعيته ضد نجل وال مشهور من ولاة الدولة ، ثم قال قولة مشهورة سبق بها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمئات السنين : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!

كان عمر في أول أمره عدواً لدوداً للدعوة الإسلامية الجديدة وقد بلغت به العداوة حد التخطيط لقتل النبي صلى الله عليه وسلم .

أراد عمر أن يحسم أمر الدعوة الجديدة بقتل رمزها الأول خاتم النبيين ، وعزم على التوجه إليه في دار الأرقم لتنفيذ جريمته ، غير أنه في خضم هٰذه الفورة المعادية للإسلام ونبيه ، وصل إليه خبر بأن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو دخلا في الإسلام ، فلم يستطع تحمل ذلك ، وتوجه إليهما يريد بهما شراً .

وصل عمر إلىٰ بيت أخته وزوجها فسمعهما يقرآن آيات من القرآن الكريم ، وزاده هـٰذا غضباً وحنقاً . حاولت أخته الإنكار أول الأمر لكنه هاج واعتدىٰ علىٰ زوجها ، وعندما تدخلت فاطمة لحمايته ضربها فجرحها ، عندها واجهته أخته بشجاعة وتحد : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فافعل ما بدا لك[1] .

أدرك عمر سوء ما فعل بأخته وزوجها فتراجع وهدأ ، ثمَّ طلب من أخته طلباً واحداً أن تعطيه الصحيفة أو الورقة التي كانت تقرأ منها القرآن ؛ فهو يريد أن يطلع بنفسه علىٰ نموذجٍ مما جاء به النَّبيُّ الجديد ، ثمَّ إنَّه تعهَّد لأخته ألاَّ يمزِّق الصحيفة بعد أن أبدت خوفها عليها ، لمحت الأخت بصيصاً من الأمل في ثنايا هـٰذا اللِّقاء العاصف ، فقالت لأخيها : إن القرآن الكريم لا يمسك صفحاته باليد إلا المطهَّرون ، فلماذا لا تغتسل احتراماً لكلام الله ؟! أجابها عمر إلىٰ ما أرادت ، وكل مطلبه أن يرىٰ ويقرأ بنفسه ما يقول محمَّد أنَّه كلام الله الذي يوحىٰ إليه ، كان عمر متعلِّماً كاتباً واثقاً من نفسه ومن قدرته على الحكم والتَّمييز .

وأخيراً استلم عمر بن الخطَّاب الصَّحيفة بين يديه ؛ فإذا فيها (سورة طه) وهي سورةٌ من سور القرآن الكريم تتضمن عرضاً مفصلاً لقصة موسىٰ عليه السلام وجهوده في دعوة فرعون للدين الحق ومطالبته له بإنهاء طغيانه وتسلطه على الشعب اليهودي . تبدأ (سورة طه) هـٰكذا : ﴿ طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۞ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۞ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۞ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة طه : ١ـ٨] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤) .

قرأ عمر الجزء الأول من السُّورة ، وتأمَّل فيه ، ثمَّ قال : (ما أحسن هـٰذا الكلام وأكرمه) ، أدرك صهره أنَّ آيات القرآن الكريم قد بدَّدت ظلمات الشِّرك والوثنيَّة في عقل عمر وقلبه ، فأخبره أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم دعا ربَّه أن يعزَّ الإسلام بأحد العمرين بعمر بن الخطاب ، أو بعمرو بن هشام ، فلم لا يسبق هو إلى الحقِّ والشَّرف فيكون إسلامه دعوة الرَّسول المستجابة ؟

ما هي إلا ساعة أو ساعتان حتَّىٰ كان عمر يدقُّ علىٰ باب بيت في الصَّفا الجبل المشهور بمكَّة يطلب الإذن بالدُّخول للحديث مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مجتمعاً آنذاك بعددٍ من أنصاره من المسلمين ، خاف حارس الباب ، لكنَّ حمزة بن عبد المطلب الفارس الشجاع والذي كان مع الرَّسول في مجلسه طَمأن الحارس ورأىٰ أن يفتح الباب لعمر ؛ فإن جاء محاوراً ؛ سمع منه الرَّسولُ ، وإن جاء معتدياً ؛ منع من العدوان .

أذن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لعمر بالدُّخول ، فلمَّا دخل ؛ وقف الرَّسول يلتقيه في وسط الدَّار وأمسك بردائه ، ثمَّ سأله :

« ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ؛ ما أرىٰ أن تنتهي حتَّىٰ ينزِّل الله بك قارعة ؟ » .

قال عمر : يا رسول الله ؛ جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبَّر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ عمر قد أسلم[1] .

كان يوم إسلام عمر بن الخطَّاب يوماً جميلاً وعظيماً في تاريخ الإسلام ، فرح به النبي وأصحابه ، وأثبتت الأعوام اللاحقة أن ذلك الفرح كان في محله تماماً .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٦) .

سياسة الحصار الشَّامل ضدَّ المؤمنين

درس زعماء قريش المستبدُّون أكثر من خيار للتَّعامل مع رسول الإسلام صلَّى الله عليه وسلَّم وأنصاره ، خاصّةً بعد أن قوِيَ جانب المسلمين كثيراً بدخول عمر بن الخطَّاب في صفوفهم ، وبعد أن انتشرت الدَّعوة الوليدة بين أبناء القبائل المجاورة ، الخيار الوحيد الذي رفضوا بحثه والتفكير فيه بجدية هو الإقرارُ بصدق ما جاء به النبي ، وتحرير عقولهم وقلوبهم من العبودية للأصنام والأوهام والبشر ، وعبادةُ الله الواحد الأحد وإفراده بالعبادة من دون شريك .

وكان ملفتاً للانتباه أن ملك أثيوبيا المسيحي أدرك أن القرآن الكريم وحي من الله منذ اللحظة الأولى التي سمع فيها مقاطع من (سورة مريم) ، فمنح حمايته إلى اللاجئين المسلمين ، رغم أنه سمع الآيات من خلال مترجم . أما زعماء قريش الذين وصلهم القرآن بلسانهم ، بلسان عربي مبين ، وتيقنوا أنه لا يمكن أن يصدر عن بشر ؛ فقد كابروا وعاندوا واختاروا الإمعان في سياسة البطش والظلم والقمع .

قرر زعماء قريش اعتماد خطة جديدة مثلت تصعيداً نوعياً في الحرب على المؤمنين وعلىٰ حرية العقيدة وعلى الإسلام ، وتبنوا سياسة العقاب الجماعي ضد بني عبد المطلب ـ أي : أقارب رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ـ بسبب الحماية التي وفروها للنبي . شمل العقاب بني عبد المطلب وبني هاشم بصفة عامة ، تحت الزعامة الفعلية لأبي طالب ، الرجل الذي لم يعلن إسلامه لكنه لم يتخل عن تأييد النبي بقوة وتصميم حتىٰ آخر لحظة في حياته .

فرض قادة قريش بمقتضىٰ خطتهم الجديدة حصاراً اقتصادياً واجتماعياً علىٰ بني هاشم ، وقرروا ألا يبيعوا لهم أو يشتروا منهم شيئاً وألا يتزوجوا منهم أو يزوجوهم . وكتبوا ذلك في صحيفة علقوها وسط الكعبة ، لتكون سياسة

الحصار الجديدة رسمية وعلنية وملزمة لعامة الناس .

امتدَّ الحصار ثلاث سنوات عانىٰ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأقاربه والعديد من أنصاره معاناةً شديدةً . إنَّ حريَّة الاعتقاد التي ينعم بها أكثر البشر في هٰذا العصر لم تكن من القيم والمبادىء التي يؤمن بها زعماء الكفر في مكة ، ولذلك بذلوا كلَّ ما في وسعهم ليكون الحصار محكماً ومؤِّثراً بشدَّةٍ ، وكان عمرو بن هشام المشهور بأبي جهل واحداً من أنشط زعماء قريشٍ في مجال فرض الحصار وإغلاق أيِّ منفذٍ يستطيع المسلمون من خلاله الحصول على الغذاء وعلىٰ حاجاتهم الضروريَّة الأخرىٰ ، حتىٰ إنه لقد دخل يوماً في خصومةٍ شديدةٍ مع حكيم بن حزام بن خويلد ؛ لأنَّه وَجَده مع خادمٍ له يحاول تهريب قمحٍ إلىٰ عمَّته خديجة بنت خويلد زوجةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

خديجة أم المؤمنين ، ها هو اسمها يظهر في قصَّة الإسلام من جديد ، تلك السَّيدة العظيمة مع زوجها فيما سمَّاه المؤرخون شِعبَ بني هاشم ، أو حيَّ بني هاشم المحاصر ، لم تتخل عنه في أيَّةِ لحظة ، ولم تشكَّ في وعد الله له ، ولم تبخل عليه أبداً بمحبَّتها وعطفها وتأييدها .

صمد النبي الكريم وأهله طيلة فترة الحصار وبالرغم من كل تلك الظُّروف الصَّعبة لم يتوقَّف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن محاورة قومه ودعوتهم إلىٰ نور الإسلام ، كان واثقاً من قدرة الكلمة الصَّادقة والحجَّة القويَّة على النَّفاذ إلى العقول والقلوب ، وكان كلُّ ما كان يريده من زعماء قريش هو أن يسمعوا منه ، ويسمحوا له بشرح تعاليم الإسلام للنَّاس علىٰ أن يبقى القرار النِّهائيُّ لهم ، من أراد الإيمان ؛ فأهلاً به ، ومن رفضه ؛ فلا إكراه في الدِّين .

لكنَّ زعماء قريش رفضوا بإصرار منح حرية الدعوة للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . الحقيقة أنَّهم كانوا يخشون من الحرِّيَّة ؛ لأنَّهم يدركون سلفاً

أنَّ عقيدة الشِّرك السَّائدة في صفوفهم ، والظلم المستشري في مجتمعهم ، والتَّعدي الكبير علىٰ حقوق المرأة ، وغير ذلك من المفاهيم والأوضاع السائدة لا يمكنها أن تصمد أمام جاذبيَّة عقيدة التوحيد الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم .

في تلك الفترة من الحصار عاد إلىٰ مكة عدد كبير من المسلمين الذين لجأوا إلى الحبشة ، وانضموا إلىٰ إخوانهم المحاصرين ، ويبدو أن الأخبار التي وصلتهم عن إسلام عمر بن الخطَّاب وانتشار الإسلام بين القبائل قد شجَّعتهم على العودة ، ولكنَّهم وجدوا الحصار قائماً فتحمَّلوا منه ما كان يتحمَّله المؤمنون الآخرون .

من جهة أخرىٰ كان عدد من القرشيين غير مقتنعين بما يفعله زعماؤهم المستبدُّون الرَّافضون لمبدأ الحوار الموضوعيِّ مع النَّبيِّ وأصحابه ، هـٰؤلاء القرشيون لم يدخلوا في دين الإسلام لكنهم لم يكونوا راضين عن سياسة الحصار الشامل التي كانت سابقةً غير معهودةٍ في أعرافهم ، ومع امتداد فترة الحصار بدأت التَّشقُّقات تظهر في معسكر المشركين ، بينما حافظ معسكر المؤمنين علىٰ وحدته وتماسكه .

كان من بين الرَّافضين سرّاً لسياسة الحصار هشام بن عمرو بن ربيعة ، كان رجلاً شريفاً انعقدت بينه وبين بني هاشم صلاتٌ وثيقةٌ ، فلم يرتح أبداً لفكرة أن يكون شريكاً في تجويعهم وعزلهم ، لذلك حاول في مرحلة أولىٰ أن يخرق الحصار سرّاً ، وكان يحمل الطَّعام علىٰ جَمَله في العديد من اللَّيالي ، ويتسلل به إلىٰ مكان قريب من شعب بني هاشم ثمَّ يرسله ، فيصل الجمل بتلك الإمدادات الغذائيَّة الضَّروريَّة جدّاً للمسلمين المحاصرين .

لكنَّ تلك المحاولات السِّريَّة لاختراق الحصار لم ترض طموحه ؛ فكان أن انتهج سياسةً جديدةً ، ذهب أوَّلاً إلىٰ قريبٍ من أقرباء بني هاشم اسمه زهير بن

أبي أميَّة بن المغيرة وأمُّه من بنات عبد المطَّلب وفاتحه في أمر إفشال سياسة الحصار ، حاول هشام أن يستفزَّ عوامل النَّخوة والمروءة في مخاطَبه ، فسأله كيف يرضىٰ لنفسه أن يعيش هانئاً مطمئنّاً يرفل في أحسن الثِّياب ويأكل أحسن الطَّعام بينما أقاربه محاصرون لا يقدرون علىٰ شراء حاجياتهم من أحدٍ ، ولا يستطيعون بيع ما عندهم لأحد ، حتَّى الزَّواج منعوا منه ، وأبناؤهم وبناتهم ممنوعون من الزَّواج ببقية شباب قريش ، وزاد هشام فحلف بالله أنَّ أبا جهل أشهر أنصار سياسة المقاطعة ما كان ليقبل بها لو كان الضَّرر واقعاً علىٰ أقاربه هو ، فكيف يرضىٰ زهير بمقاطعة أقاربه ؟! كيف يرضىٰ بما لا يرضىٰ به أبو جهل لنفسه وأهله ؟!

اقتنع زهير بما قاله هشام ، غير أنه أعرب عن شكه في قدرة شخص واحد أن ينجح في إقناع قريش أو إجبارها علىٰ نقض صحيفة المقاطعة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة للمسلمين .

كسب هشام أول مؤيد له ، ثم عرض الأمر على المطعم بن عدي ، وسأله إن كان يرضى الهلاك لبني عبد المطلب وبني هاشم تحت وطأة حصار هو شريك فيه وراض به . أنكر المطعم أن يكون راضياً بالمقاطعة ، لكنه اعتذر بأن نقضها أمر يصعب علىٰ شخص بمفرده .

وعندما حدثه هشام بما كان من زهير بن أبي أمية ، اقترح المطعم علىٰ هشام أن يحاول كسب نصير رابع .

وخلال أيام قليلة كسب هشام تأييد رجلين مؤثرين آخرين : البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، ثم عقد هشام وزهير والمطعم والبختري وزمعة اجتماعاً مسائيّاً حاسماً في بيت من بيوت مكة ، وهناك (أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّىٰ ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أوَّل من يتكلَّم ، فلمَّا أصبحوا ؛ غدوا إلىٰ أنديتهم ، وغدا زهير بن

أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثمَّ أقبل على النَّاس فقال : يا أهل مكة ؛ أنأكل الطَّعام ونلبس الثِّياب وبنو هاشمٍ هلكىٰ لا يُباع ولا يُبْتَاع منهم ؟! والله ؛ لا أقعد حتَّىٰ تُشقَّ هـٰذه الصَّحيفة القاطعة الظَّالمة .

فقال أبو جهل وكان في ناحيةٍ من المسجد : كذبت ، والله ؛ لا تشق ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضىٰ ما كتب فيها ولا نُقرُّ به ، قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كُتِب فيها ، قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل : هـٰذا أمرٌ قضي فيه بليل ، تُشُوِّرَ فيه بغير هـٰذا المكان ، وأبو طالب جالسٌ بناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصَّحيفة ليشقَّها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم »)[١] .

وهكذا تكللت مساعي هشام بن عمرو بن ربيعة وأصحابه الأربعة بالنجاح الباهر ، وسقطت بشكل رسميٍّ سياسة الحصار الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ التي استهدفت بني هاشم وأنصارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لمدَّة ثلاث سنوات .

ومع نجاح هـٰذه المساعي تبين أيضاً أن الأغلبية الصامتة في مكة المكرمة لم تكن كثيرة الحماس لسياسات زعمائها المستبدين ، وأن عدداً من قادة قريش كانوا ذوي خلق كريم ومروءة ، مما جعلهم يتحركون لنقض الحصار رغم خلافهم الديني مع المسلمين .

وبقدر ما كشفت سنواتُ الحصار الظَّالمة حقيقةَ السِّياسات الاستبداديَّة الظَّالمة لزعماء المشركين في مكَّة ؛ فإنَّها أثبتت أيضاً تمسُّك المسلمين بعقيدتهم والتفافهم القويَّ حول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، كما بيَّنت مجدَّداً شجاعةَ أبي طالب وأكثرِ زعماء بني هاشم ومروءَتهم بمن فيهم غير المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٧٦) .

منهم الذين ناصروا المسلمين ودافعوا عن حقِّهم في عبادة الله الواحد الأحد والدَّعوة إلىٰ دينهم .

ولم يشذ من بني هاشم عن هـٰذا السلوك النبيل غير شخص واحد من أعمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو عبد العزى بن عبد المطلب ، المشهور باسم أبي لهب . كان عبد العزىٰ يتبجح بمعاداته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويفتخر بأنه خرج عن معسكر أهله وأقاربه من بني هاشم انتصاراً للات والعزىٰ ، أبرز صنمين عند قريش . وكان يسخر مما جاء في القرآن الكريم وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث بعد الممات والحياة الآخرة ، ويطلب علىٰ ذلك دليلاً حسياً يلمسه بيديه . وكانت زوجته علىٰ ذات النهج ، تنافسه في العداوة للإسلام ، كانت تجمع الشوك وتضعه في طريق النبي . وقد سقطت سياسة الحصار بعد ثلاث سنوات من إعلانها ، وانتصرت دعوة الإسلام في نهاية المطاف ، وبقي أبو لهب وامرأته رمزين مشهورين في التاريخ بعداوتهما للمؤمنين ولحرية الاعتقاد .

انتهى الحصار واختلط المسلمون بقومهم من جديد في شِعَاب مكَّة ، لكنَّ الحرب الإعلاميَّة والسياسيَّة والأمنيَّة ضدَّهم لم تتوقَّف ، وقد خُيِّل لزعماء قريش المستبدِّين أنَّهم وجدوا فرصةً ذهبيَّةً لردِّ المسلمين إلىٰ دين اللاَّت والعزَّىٰ وبقيَّة الأصنام الأخرىٰ عندما أخبر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابه بقصَّة الإسراء والمعراج ، الإسراءِ به إلىٰ بيت المقدس ، والمعراجِ به إلى السَّماوات العُلىٰ .

قصة الإسراء والمعراج

الإسراء والمعراج معجزتان من معجزات نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم . صلى النبي العشاء ذات مساء في مكة ، ثم صلىٰ فيها فجر اليوم

التالي . وفي الساعات القليلة التي فصلت بين العشاء والصبح ، شاء الله له أن يزور بيت المقدس ويصعد إلى السماوات العلىٰ ثم يعود إلىٰ مكة . قال عدد من علماء المسلمين : إن ما حدث كان رؤيا حق في المنام . وقال أغلب العلماء: إن الإسراء والمعراج حدثا للنبي صلى الله عليه وسلم بروحه وجسده.

تفاصيل الحدث : أنَّ الملاك جبريل جاء النَّبيَّ ومعه دابَّةٌ ذات سرعة خياليَّةٍ ، فركبها من مكة إلىٰ بيت المقدس ، هناك وجد جمعاً من الأنبياء الذين سبقوه علىٰ رأسهم إبراهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السَّلام جميعاً ، فصلَّىٰ بهم إماماً ، ثمَّ عُرِض عليه خمرٌ ولبن كلٌّ واحدٍ منهما في آنية منفردة ، فاختار النَّبيُّ أن يشرب من آنية اللَّبن ، وأعرض عن الخمر التي نزل في شأنها بعد سنوات وحي من الله يحرم شربها .

ثم شاءت الإرادة الإلهية أن يصعد محمَّد إلى السَّماوات العلىٰ ، حيث أسرار الغيب التي حجبها الله عن عامَّة النَّاس ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : « فانطلق بي جبريل حتىٰ أتى السَّماء الدُّنيا فاستفتح ، فقيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح فلمَّا خلصت ؛ فإذا فيها آدم ، فقال : هـٰذا أبوك آدم فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ السَّلام ثمَّ قال : مرحباً بالابن الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صَعِد ـ أي : الملاك جبريل ومعه النَّبيُّ ـ حتَّىٰ أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح ، قيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح فلمَّا خلصت ؛ إذا يحيىٰ وعيسىٰ وهما ابنا الخالة ، قال : هـٰذا يحيىٰ وعيسىٰ فسلِّم عليهما ، فسلَّمت ، فردَّا ثمَّ قالا : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثمَّ صَعِد بي إلى السَّماء الثَّالثة فاستفتح ، قيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح فلمَّا خلصت ؛ إذا يوسف ، قال : هـٰذا يوسف فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثم قال : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثم صَعِد بي حتَّىٰ أتى السَّماء الرَّابعة فاستفتح ، قيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح فلمَّا خلصت إلىٰ إدريس ؛ قال : هـٰذا إدريس فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثمَّ قال : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثم صَعِد بي حتَّىٰ أتى السَّماء الخامسة فاستفتح ، قيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت ؛ فإذا هارون ، قال : هـٰذا هارون فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثم قال : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح .

ثم صَعِد بي حتَّىٰ أتى السَّماء السَّادسة فاستفتح ، قيل : من هـٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت ؛ فإذا موسىٰ ، قال : هـٰذا موسىٰ فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثم قال : مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح »[١] .

لم تنته القصَّة بعد ، ولكنَّ هـٰذا التَّرابط الجميل في القصَّة بين عدد من أنبياء الله يذكِّر من جديدٍ بالشَّجرة الإبراهيمية خاصّةً ، وبوحدة الأسرة البشرية

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٩) .

عامَّة ، إنَّ واحداً من أعظم وجوه جاذبيَّة الإسلام هو هٰذا الإيمان العميق الذي ينطق به القرآن الكريم ، وتؤكده أحاديث الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، بأن النَّاس كلُّهم من عائلةٍ واحدة ، كرامتهم واحدة ، وأنبياؤهم ينهلون من مصدرٍ واحد ، أبوهم واحد ، ومعادهم في النِّهاية إلىٰ خالقهم الواحد الأحد الذي لا شريك له ، لا تمييز في الإسلام بين النَّاس علىٰ أساس اللَّون أو العِرق أو الجنسيَّة ، والأديان التي يتَّخذها البعض ستاراً لإشعال الحروب والسَّطو علىٰ ثروات الفقراء وتهديد السَّلام العالميِّ أصلها واحد ، وأنبياؤها إخوة ، وأتباعها مدعوُّون إلى التَّعبير عن هٰذه الأخوَّة في حياتهم إن كانوا مخلصين حقّاً لتعاليم أنبيائهم .

نعود الآن إلىٰ قصَّة المعراج وقد وصل جبريل ومعه النَّبيُّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماء السَّابعة ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ثم صَعِد بي حتَّىٰ أتى السَّماء السَّابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هٰذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنِعْمَ المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت ؛ فإذا إبراهيم ، قال : هٰذا أبوك فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه فردَّ السَّلام ، قال : مرحباً بالابن الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح »[1] .

ثم رفعت الحجب أمام النبي ليجد نفسه في سدرة المنتهىٰ ، وهي عبارة تدل علىٰ شدة القرب من الله تعالىٰ . وهناك عرض عليه الخمر واللبن والعسل فاختار اللبن من جديد ، ثم أبلغ بأن عدد الصلوات المفروضة عليه وعلىٰ أمته خمسون صلاة في اليوم .

هنا يتجدد اللقاء والتواصل بين موسىٰ عليه السلام الذي آتاه الله عز وجل التوراة وأشهر أنبياء بني اسرائيل ، ومحمد بن عبد الله خاتم النبيين صلى الله

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٩) .

عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن الكريم واختاره خاتماً للنبيين . وهما وجميع الأنبياء الآخرين تعاقبوا علىٰ بيان الدين الحق الذي يرضاه الله تعالىٰ لعباده وسماه الإسلام ، وسمّىٰ أهله بالمسلمين ، حتىٰ في العهود السابقة لنزول الوحي علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم . دليل ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٣] .

يتضح من هـٰذه الآيات أن كلمة (الإسلام) لها معنيان أساسيان ، فهي من جهة اسم لكل الرسالات السماوية في التاريخ ، وهي من جهة أخرى اسم يطلق على التعاليم التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وينتسب إليها المسلمون . وربما جاز القول أن المعنى الثاني اشتهر بين الناس والمؤرخين أكثر من المعنى الأول .

نواصل رواية الحديث النبوي الشريف عن قصة الإسراء والمعراج . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فرجعت فمررت علىٰ موسىٰ ، فقالَ : بم أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كلَّ يوم ، قال [موسىٰ] : إن أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي والله ؛ قد جرَّبت النَّاس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجع إلىٰ ربِّك فاسأله التخفيف لأمَّتك ، فرجعت فوضع عنِّي عشراً ـ يعني : أن الله تعالىٰ أنقص عدد الصَّلوات المفروضة على المسلمين إلىٰ أربعين ـ فرجعت إلىٰ موسىٰ ، فقال مثله ـ أي : أنَّه بيَّن له أنَّ العدد ما زال فوق طاقة المسلمين ـ فرجعت [إلى الله] فوضع عني عشراً ، فرجعت إلىٰ موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلىٰ موسىٰ ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلواتٍ كلَّ يومٍ ،

فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يوم ، فرجعت إلىٰ موسىٰ ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، قال إن أمَّتك لا تستطيع خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجع إلىٰ ربِّك فاسأله التَّخفيف لأمتك ، قال ـ أي : النَّبيُّ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ـ سألت ربِّي حتَّى استحييت ، ولكن أرضىٰ وأسلِّم ، فلمَّا جاوزتُ ؛ نادىٰ منادٍ : أمضيتُ فريضتي وخفَّفت عن عبادي »[١] .

الصلاة في الدين الإسلامي هي الركن الثاني من أركانه الخمسة ، وتأتي مباشرة بعد الشهادتين ، شهادةِ أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتأتي بعدها بقية الأركان : الزكاة والصوم والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

وتبين قصة الإسراء والمعراج أن هـٰذا الركن العظيم من أركان الإسلام ، ركن الصلاة ، فرض على المسلمين في رحلة الإسراء والمعراج ، وشارك في تحديد عدد الصلوات المفروضة نبي اليهود موسىٰ من خلال نصائحه لخاتم النبيين محمد عليهما الصلاة والسلام .

لله تعالىٰ حكمته في هـٰذا التدبير ؛ إذ من يستطيع أن يعترض علىٰ إرادة الله لو فرض على النبي وأمته خمس صلوات منذ البداية ؛ أي : قبل أن يستمع محمد إلىٰ نصائح أخيه موسىٰ ، عليهما الصلاة والسلام ؟ لا أحد يقدر على الاعتراض طبعاً .

إن حكمة الله بأبعادها الكاملة أمر لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ ، ولكن ما يبدو لنا من ظاهرها أن الله تعالىٰ أراد أن يذكر اليهود والمسلمين معاً بالأرضية المشتركة بينهم ، وبالأخوة الوثيقة بين موسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وبالتقارب في شريعة الملتين . وربما جاز للباحث أيضاً أن يستنتج

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٢٠٧) .

من القصة أن اليهود والمسلمين مدعوون للحوار والتعاون والتقارب في ضوء التعاليم والمبادىء التي جاء بها موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ثم جددها وأتمها وأكملها محمد عليه الصلاة والسلام .

كل مسلم يقرأ قصة الإسراء والمعراج يزداد حبه لموسىٰ أشهر أنبياء بني اسرائيل ، ويشهد أنه صدق في نصحه لخاتم النبيين عليهما السلام . عدد كبير من المسلمين يتقاعس في أداء الصلوات الخمس ، فكيف بهم لو كانت خمسين ؟!

الرَّسول والصِّدِّيق

حفظ القرآن الكريم قصة الإسراء ، ونزلت سورة كاملة باسمها ، للدلالة علىٰ ضخامة الحدث وأهميته . تبدأ السورة بهـٰذه الآية :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة الإسراء : ١] .

وعندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته إلىٰ مكة عامة الناس بهـٰذه القصة المثيرة ، والمعجزة الكبرىٰ ؛ لم يصدقها كثير منهم ، ووجد فيها كفار قريش فرصة للتشكيك في صدق النبي صلى الله عليه وسلم والقول ببطلان نبوته .

حتىٰ داخل الصف المسلم ، حصلت بلبلة ، وارتد بعض المسلمين غير مصدقين لما جرىٰ . لم يكن المرتدون من مشاهير المسلمين ، فحرص كفار قريش علىٰ تشكيك كبار الصحابة ، وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

جاء عدد منهم إليه وقالوا له : (هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنَّه قد جاء هـٰذه اللَّيلة بيت المقدس وصلَّىٰ فيه ورجع إلىٰ مكَّة ، فقال لهم أبو بكر :

إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلىٰ ، ها هو ذاك في المسجد يحدِّث به النَّاس ، فقال أبو بكر ، والله ؛ لئن كان قاله ؛ لقد صدق ، فما يُعْجِبكم من ذلك ؟ فوالله ؛ إنه ليخبرني أنَّ الخبر ليأتيه من السَّماء إلى الأرض في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ فأصدقه ، فهـٰذا أبعد مما تعجبون منه)[1] .

عند عموم المسلمين قديماً وحديثاً يعتبر أبو بكر الرَّجل الثَّاني مقاماً واحتراماً وتبجيلاً في تاريخ الإسلام ، مباشرةً بعد النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّ جوابه على المشكِّكين كان حاسماً ؛ لأنَّ من يصدِّق نزول الوحي على النَّبيِّ ؛ لا يجد مشقَّةً في تصديق واقعة الإسراء والمعراج ، مضىٰ أبو بكر إلى النَّبيِّ وسأله إن كان ما يقوله النَّاس صحيحاً فأكَّد له الخبر ، عندئذٍ طلب منه أن يصف له بيت المقدس ؛ لأنه سبق أن زارها من قبل ، ورفعت الحجب أمام الرَّسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه العزيز القدير ، فبدأ في وصف بيت المقدس وصفَ مَن يراه أمامه ، كلَّما أتمَّ وصف قسمٍ منه قال أبو بكر : صدقت ، أشهد أنَّك رسول الله . (حتَّىٰ إذا انتهىٰ ؛ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصِّدِّيق ؛ فيومئذ سمَّاه الصِّدِّيق)[2] .

هـٰذا هو سر تسمية أول البالغين إسلاماً وأول الخلفاء الراشدين بلقب الصدِّيق . آمن بأن محمَّداً رسول الله ، وبأن الوحي يأتيه من عند الله ، فلم يرتبك ولم يتشكك عندما جاءه خبر الإسراء والمعراج ؛ لأنه يثق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عزز هـٰذه الثقة بالدليل بعد سماعه مباشرة من خاتم النبيين . وبقي هـٰذا نهجه طيلة صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ، مصدِّقاً له ومؤازراً ونصيراً .

استمر النبي في دعوة الناس للإسلام كما كلفه ربه ، واستمر يقرأ عليهم ما يوحىٰ به إليه من القرآن الكريم . مرت بنا (سورة الإسراء) قبل قليل ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩) .

ولعله من المفيد أن نتوقف معها للحظات ؛ لأن بعض آياتها الأخرىٰ تساعد كثيراً علىٰ فهم طبيعة الرسالة التي كلف محمد صلى الله عليه وسلم بإبلاغها لقريش وللناس كافة في كل زمان ومكان .

جاء في هـٰذه السورة الكريمة :

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ❊ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ❊ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ❊ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ❊ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ❊ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ❊ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ❊ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ❊ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ❊ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ❊ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ❊ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ❊ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ❊ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ❊ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ❊ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ❊ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ❊ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٢٢ـ٣٩] .

هـٰذه ملامح مهمة من رسالة الإسلام : دعوة لعبادة الله وحده لا شريك له ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، ومساعدة المحتاجين ، واجتناب الكبائر

مثل القتل والزنا ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وحفظ حقوق اليتامىٰ ، والعدل والنزاهة في المعاملات التجارية ، والتواضع .

هـٰذا دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي خاطب به أهله في مكة . غير أن طغاة قريش كانوا قد أسلموا عقولهم إلى الماضي الموروث والمصالح الدنيوية الزائلة ، وإلا فكيف يقبل عاقل علىٰ نفسه أن يعبد صنماً يصنعه بيديه ، أو أن يجعل بينه وبين الله شفيعاً ووسيطاً ؟! وأبواب الله مفتوحة لعباده جميعاً ، وآياته البينات تدعو الناس جميعاً للتوجه بدعائهم لله وحده : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر : ٦٠] ، كما تؤكد هـٰذا المعنىٰ في موضع آخر بلسان عربي مبين : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٨٦] .

طغاة قريش أسلموا عقولهم إلىٰ ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم . وقد سجل القرآن الكريم موقفهم هـٰذا وأدانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٧٠] .

ليست المفاهيم والتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد صحيحة دائماً كما تدل هـٰذه الآية الكريمة . ولا يكفي للإنسان أن يقول لكل من يدعوه إلى التوحيد والتجديد والإصلاح : إنه ملتزم بالقديم والموروث ، فأحياناً كثيرة يكون الموروث بعيداً جداً عن الحق وواضح البطلان .

عام الحزن

استمر طغاة قريش يدافعون عن قديمهم ، ويزيدون من كيدهم وحملتهم المعادية للدين الجديد ونبيه وأنصاره ولما دخلت دعوةُ الإسلام عامها

العاشر ؛ زادت الحملة واشتدت ، سمَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاك العام عام الحزن .

فماذا جرىٰ يا ترى ؟

أوَّلاً : ماتت أعظم امرأةٍ في تاريخ الإسلام ، وثانياً : مات الرجل الهاشميُّ القرشي الشَّهم الشُّجاع أبو طالب .

ماتت أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من بعد أن سطَّرت في تاريخ الإسلام والإنسانيّة مواقف لن ينساها المسلمون ولن ينساها التَّاريخ ، كيف لا وهي أوَّل من آمن بالنَّبيِّ وآزره وأيَّده ، وأخلص له ونصح له ، ووقف معه بشموخٍ وصمودٍ في كلِّ الأوقات الصَّعبة ، لم يحفظ عليها التَّاريخ موقف شكٍّ أو لحظة تردُّدٍ ، إنَّ مواقفها الكريمة ومكانتها الرفيعة عند الله عز وجل وعند النبي صلى الله عليه وسلم وعند المسلمين كانت دائماً وستبقى الرَّد المفحم علىٰ كل من يحاول إيجاد فجوةٍ أو جفوة بين المرأة والشَّريعة الإسلاميَّة .

عاشت أم المؤمنين خديجة مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ربع قرنٍ من الزَّمان في أجواء الحبِّ العميق والثِّقة الكاملة ، ولم يتزوَّج عليها أبداً بأيِّ امرأةٍ أخرىٰ طيلة هـٰذه الفترة رغم أنَّ تعدُّد الزَّوجات كان قاعدة ذاك الزَّمان ، ولما تزوَّج الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بنساءٍ أُخر بعد وفاتها ؛ قالت أقرب امرأة إلىٰ نفسه منهن أم المؤمنين عائشةُ بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنها وعن أبيها : (ما غِرتُ على امرأةٍ ما غرت علىٰ خديجة من كثرةِ ذِكر الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم إيَّاها ، قالت : وتزوَّجني بعدها بثلاث سنين ، وأمره ربُّه عزَّ وجل أو جبريل عليه السَّلام أن يبشرها ببيتٍ في الجنَّة من قصب)[١] .

وقال عنها الكاتب المصري المعروف العالم الأزهري الشَّيخ محمَّد الغزالي

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٨١٧) .

رحمه الله : أمَّا خديجة ؛ فهي صدِّيقة النِّساء ، حَنَت علىٰ رَجُلِها في ساعة قلق ، وكانت نسمة سلام وبرٍّ ، رطَّبت جبينه المتصبب من آثار الوحي ، وبقيت ربع قرن معه تحترم قبل الرِّسالة تأمُّله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرِّسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدَّعوة ، وماتت والرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم في الخمسين من عمره وهي تجاوزت الخامسة والستين ، وقد أخلص لذكراها طوال حياته)[1] .

وفي العام ذاته الذي ماتت فيه خديجة أمُّ المؤمنين مات أبو طالب ، مات الرَّجل الذي حمى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم طيلة حياته علىٰ مقتضى الأعراف القبليَّة التي كانت سائدةً في عصره بحيث حال بين زعماء الشِّرك والاستبداد في مكة وبين أن يستهدفوا الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم مباشرةً بعدوانهم وظلمهم ، كان في شهامته ومروءته وكرامة نفسه يَغْرِف من بحرٍ بلا قرار ، ولا يوجد في تاريخ الإسلام أبداً أنه ساوم النَّبيَّ على الحماية التي وفَّرها له أو طلب مقابلها ثمناً من أيِّ نوع .

جاءه زعماء الشِّرك والاستبداد في قريش يوماً يحملون عَرْضاً عجيباً لفكِّ التَّحالف بينه وبين الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، جاؤوا ومعهم واحدٌ من أبناء العائلات العريقة المشهورة بينهم ، شابٌّ وسيمٌ فيه أمارات الذَّكاء والشَّخصية المستقلَّة ، وعليه دلائل النِّعمة ، اسمه عمارة بن الوليد بن المغيرة ، ثمَّ قالوا لأبي طالب : خذه فَلَك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هـٰذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامهم فنقتله ؛ فإنما هو رجل برجل ، فقال [أي أبو طالب] : والله ؛ لبئس ما تسومونني ، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟! هـٰذا والله ما لا يكون أبداً ، فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله

(١) فقه السيرة (ص١٤٣) .

يا أبا طالب ؛ لقد أنصفك قومك وجهدوا على التَّخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ؛ ما أنصفوني ، ولكنَّك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ فاصنع ما بدا لك[1] .

لكلِّ هٰذا كان موت أبي طالب مصاباً عظيماً للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم وللمسلمين ، وبعد وفاته أسرفت قريش في عداوتها للرَّسول .

ذات يوم تجرَّأ أحدُ السُّفهاء فنثر تراباً علىٰ رأس النَّبيِّ ، دخل النَّبيُّ بيته وساعدته إحدىٰ بناته في تنظيف رأسه وهي تبكي ، فأمرها بالصَّبر وأكَّد لها أنَّ الله سيحفظه ، وأضاف شهادة صريحةً في حقِّ الرَّجل العظيم الذي رحل : « ما نالت منِّي قريشٌ شيئاً أكرهه حتَّىٰ مات أبو طالب »[2] .

تغيرت الظروف تغيراً كبيراً بعد وفاة أم المؤمنين خديجة وأبي طالب وأصبح واضحاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لن يجد في مكة من يعوضه عن حماية عمه ، لذلك بدأ في البحث عن البديل ، وخطط للاتصال بزعماء عدد من القبائل الأخرىٰ غير قريش .

وفي هٰذا السياق جاء قراره بزيارة أهل الطائف لعرض الإسلام عليهم وطلب الدعم والحماية منهم .

رحلة الطَّائف

الطَّائف مدينةٌ حصينةٌ في أعالي الجبال ، تقع في الجنوب الشرقي لمكة المكرَّمة ، وتبعد عنها أقلَّ من مئة كيلومتراً ، هواؤها المنعش العليل جعل منها قبلةً للمصطافين الفارِّين من الحرِّ في مكَّة والرُّطوبة في جدَّة ، أهلها ينتسبون لقبيلة ثقيف ، وهم مشهورون بالشَّجاعة ، ولهم في الجزيرة العربيَّة مقام مبجَّل

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٧) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦) .

محترم ، وقادرون إن اقتنعوا وتحمسوا علىٰ حماية النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من حملة القمع التي يتعرَّض لها هو وأصحابه من قبل الكفَّار المتسلِّطين في قريش .

قصد النبي الكريم الطائف وحده ، وهناك تعرف إلىٰ ثلاثة إخوة من أبناء مسعود بن عمرو بن عمير ، عبد ياليل ومسعود وحبيب ، وكلهم كانوا من وجهاء قبيلة ثقيف وقادتها . جلس إليهم وحدثهم عن الإسلام وما فيه من رحمة للعالمين ، ودعاهم إلىٰ توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة ، وتحرير العقول والنفوس من تقديس غيره ، وعبادة غيره ، ودعاء غيره من حجر وبشر . ودعاهم إلىٰ فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وطلب منهم النصرة والحماية والتأييد .

وعندما نطق أبناء مسعود بن عمرو بن عمير بردودهم ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أنه خاطب عقولاً سيطر عليها التعصب الأعمىٰ ، وأفقدها حتى الأساسيات من آداب التعامل مع الضيف أو الغريب .

قال واحدٌ منهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال آخر في عناد وقلَّة أدب : والله ؛ لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ؛ لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ؛ ما ينبغي لي أن أكلِّمك .

عجيبٌ أمر خصوم الإيمان وخصوم دعاة العدل والحرية في كلِّ عصر ، إنَّ السِّمة التي تميِّز أكثرَهم هي أنَّهم لا يتيحون فرصةً لصاحب الحقِّ كي يدافع عن نفسه ويشرح رأيه ، ويكرهون بشكلٍ خاصٍّ أن يدخلوا معه في حوارٍ موضوعيٍّ ، كأنَّهم يعرفون سلفاً أنَّ نتيجة الحوار لن تكون لصالحهم ، وقد حاول النَّبيُّ أن يدخل في حوارٍ جادٍّ مع هٰؤلاء الإخوة الثَّلاثة ومع آخرين من أهل ثقيف ، لكنَّهم صدُّوه بجفاءٍ ، ثمَّ لم يكتفوا بذلك ، وإنَّما فعلوا ما هو

أسوأ ؛ حرَّضوا عدداً من خَدَمِهم وسفهائهم على التَّهجم على النَّبيِّ ، فأحاطوا به وهو في طريق العودة إلىٰ مكَّة بعد أن قرَّر مغادرة هـٰذه المدينة التي أغلقت عقلها وسمعها عن دعوته .

ثمَّ بدأوا يسبُّونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة ، وقد جلب المشهد فضول أناسٍ آخرين حتَّىٰ كَبُر الجمع المناهض للنَّبيِّ وهو عليه الصلاة والسلام صابرٌ يتحمَّل الأذىٰ ، وقد دَمِيت قدماه من حجارة أولـٰئك المتعصِّبين المتشدِّدين وأعوانهم من السُّفهاء والمجرمين ، واستمر أولـٰئك السفهاء في فعلهم الشنيع ، إلىٰ أن لجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ بستان بعيد ، يملكه عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة ، وجلس يستريح مما لحق به تحت ظل شجرة في ذلك البستان .

إن طريقه في إبلاغ الإسلام لقومه وللناس كافة لم يكن ممهداً بالأزهار والورود . هـٰذا هو العام العاشر من عمر الدعوة ، وها هي التضحيات المطلوبة منه ومن أتباعه تزيد وتكبر . أما الذين اتهموه في عصره ، أو في العصور اللاحقة ، أو في هـٰذه الفترة التي علت فيها بعض الأصوات المتطرفة الكارهة للإسلام والمعادية لنبيه ، والذين روجوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان طالب ملك وزعامة ومال ومتعة ؛ فقد عصفت الحقائق علىٰ أرض الواقع بأكاذيبهم .

ألم يعرض عليه قومه السيادة والملك ؟ ألم يعرضوا عليه ما يريده من المال ليكون أغنىٰ شخص فيهم ، مقابل أن يتخلىٰ عن دعوته ؟ كل ذلك حصل ، ورفضه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان نبياً من عند الله وليس طالب ملك وسيادة ومال .

لا شكَّ أنَّ اللَّحظة التي عاشها النَّبيُّ بعدما جرىٰ له من سفهاء الطَّائف كانت لحظةً عصيبةً وحزينةً ؛ فإلىٰ من يلجأ يا ترى ؟ لقد لجأ إلى الرَّحمـٰن الرَّحيم

الذي يسمع ويرىٰ ، وفي تلك السَّاعة دوَّن المؤرِّخون واحداً من أجمل الأدعية في تاريخ الرِّسالات السَّماويَّة ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو ربه : « اللَّهم ؛ إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقلَّة حيلتي ، وهواني على النَّاس ، يا أرحم الرَّاحمين ؛ أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلىٰ من تَكِلُني ؟ إلىٰ بعيدٍ يتجهَّمني ؟ أم إلىٰ عدوٍّ ملَّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ ؛ فلا أبالي ، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلمات ، وصلح عليه أمر الدُّنيا والآخرة ، من أن تنزِّل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبىٰ حتَّىٰ ترضىٰ ، ولا حول ولا قوَّة إلا بك »[1] .

لو طلب من الطلاب الممتحنين في سنة التَّخرُّج في شعبة الفلسفة أو شعبة التَّاريخ في جامعات القاهرة وتونس وكامبريدج وهارفرد وبكِّين وجاكرتا وطوكيو ونيامي ومراكش وباريس أن يتخيلوا دعاء نبيِّ الإسلام في تلك السَّاعة ؛ أكانوا يتخيَّلونه علىٰ هـٰذا الوجه يا ترى ؟ أكانوا يتخيَّلونه من دون كلمة ذمٍّ واحدةٍ لأهل الطائف ، ومن دون دعوة سوء واحدةٍ على الذين طاردوه وسبُّوه وأدموا قدميه بالحجارة ؟ أكانوا يتخيَّلون أن أكبر ما كان يشغل النَّبيَّ في تلك اللَّحظة هو ألاّ يكون العناء الذي لقيه علامة غضب من ربه عليه ؟

هـٰذا الدُّعاء الجميل يجلِّي شخصيَّة نبيِّ الإسلام عليه الصلاة والسلام في ساعات الشِّدَّة ؛ إنه عبدٌ من عباد الله ، راضٍ بأنْ يقدِّم كلَّ ما في وسعه من أجل تبليغ الرِّسالة التي كلَّفه الله بها ، وأن يتحمَّل في سبيل ذلك كل ما يلقاه من الأذىٰ ومنتهىٰ رجائه ألاَّ يغضب الله منه أو يسخط عليه ، ليس فيما قال دعوةٌ واحدةٌ علىٰ خصومه الذين آذوه إذاية شديدةً ، وحتَّىٰ عندما واساه الملاك جبريل وأبلغه أنَّ الله تعالىٰ قادرٌ أن يطبق الجبلين المحيطين بالطَّائف علىٰ أهل ثقيف ؛ لم يطلب النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك وبيَّن ما كان يرجوه ويتطلع

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠) .

إليه قال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » وقد تحقَّق فعلاً ما تطلَّع إليه النَّبيُّ ، وغدت الطَّائف بعد سنواتٍ قليلةٍ من تلك الحادثة مدينةً من مدن الإسلام ، وعوَّضت أجيالُها المتلاحقة بخدماتها الكثيرة المتَّصلة للإسلام وقيمه النَّبيلة عن ذلك الموقف السَّيِّء لأبناء عمرو بن عمير وسفهائهم .

شعر أصحاب البستان عتبةُ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة بالعطف على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فأمرا خادماً لهما اسمه عدَّاس بأن يحمل إليه طبقاً من العنب ، قال النَّبيُّ قبل أن يأكل : « بسم الله » فاستغرب الخادم وعلَّق بأن أهل ثقيفٍ لا يقولون هـٰذه العبارة عند أكلهم ، عندئذٍ سأله النَّبيُّ عن بلاده ودينه ، فأخبره أنَّه مسيحيٌّ من أهل نينوىٰ في العراق ، فقال الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم : « من قرية الرَّجل الصَّالح يونسَ بنِ متَّىٰ » فقال له عدَّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « ذاك أخي ، كان نبيّاً وأنا نبيٌّ » فأكبَّ عدَّاس علىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقبِّلُ رأسه ويديه وقدميه[1] .

هـٰذا رجلٌ مسيحيٌّ كريمٌ آخر يظهر في ثنايا سيرة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، يلقى النَّبيَّ للحظاتٍ فيعرف صدقه وقدره ، وحتَّىٰ عندما صدَّه الرَّجلان اللذان يعمل عندهما عن تقبيل رأس النَّبيِّ ويديه وقدميه ؛ فإنَّه أجاب أحدهما : يا سيِّدي ؛ ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هـٰذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ[2] .

لقد نطق عدَّاس بالحقيقة الكبرىٰ في عصره ، ما كان في الأرض في تلك اللَّحظة خيرٌ من محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ولا من الرِّسالة التي كلَّفه الله

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١) .

بإبلاغها للنَّاس ، وما أجمل أن تصدر مثل هـٰذه الشَّهادة الصَّادقة في نهاية رحلةٍ دامية محزنةٍ للنَّبيِّ ، وأن ينطق بها رجلٌ منصفٌ من أتباع المسيح عيسىٰ عليه السَّلام ؛ ليؤكِّد مرَّةً أخرى الرَّابطة القويَّة الوثيقة بين عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وبين من يؤمن بالمبادىء العظيمة التي دعا لها هـٰذان النبيان الكريمان ، وليدحض ويسقط حجج كل الذين يحاولون تهديد السلام العالمي عبر إشعال الفتنة والحروب بين المسلمين وأهل الكتاب .

عرض بني عامر

عاد النبي إلىٰ مكة لا تراوده ذرة من يأس على الرغم من التجربة المؤلمة التي واجهها في الطائف ، واستمر يعرض أمره علىٰ زوار مكة من رؤساء القبائل وغيرهم ، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والكف عن عبادة الأصنام ، ويدعوهم إلى الصلاة والزكاة وصلة الرحم ومساعدة المحتاجين وحفظ حقوق اليتامىٰ والصدق والوفاء بالعهود ، وكل الأخلاق الكريمة الجميلة ، ويدعوهم أيضاً إلىٰ نصرته حتىٰ يبلِّغ رسالة ربه إلى الناس . لكنه كان كلما تحدث إلىٰ وفد من الوفود الزائرة لمكة ، سلطت قريش واحداً من قادتها ليكذب ما قال وليحذر الناس من الاستماع له ومن اتباع دعوته .

وكان من بين من تحدَّث إليهم وفدُ قبيلة بني عامر بن صَعْصَعة ، فلمَّا سمعوا منه ما قال ؛ توسَّموا فيه الصِّدق وتوقَّعوا له النَّجاح ورأوا أنَّ تحالفهم معه قد يجعلهم يوماً ما في صدارة القبائل العربيَّة ، فعرضوا على النَّبيِّ أن ينصروه ويكونوا له قوَّةً وسنداً ، واشترطوا لذلك أن يتعهد لهم بأن يجعل لهم الملك والسيادة من بعده إذا انتصر علىٰ خصومه ، هـٰؤلاء أيضاً ظنُّوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم باحثاً عن ملكٍ وسيادةٍ فساوموه بظنهم ، والنَّبيُّ أبعدُ ما يكون عن هـٰذا ، تشغله الرِّسالة العظيمة التي كلف بإبلاغها للناس عن اللهاث وراء مجدٍ سياسيٍّ زائلٍ ناله حُكَّام كثيرون من أول الدَّهر حتَّىٰ يومنا هـٰذا

وحتَّىٰ آخر الدَّهر ، ولم يكن لهم أثرٌ إيجابيٌّ يذكر علىٰ حياة معاصريهم ، أو في مسيرة بلدانهم من بعدهم ، ولم يكتب التَّاريخ عنهم سطراً واحداً أو سطرين .

رفض النبي عرض وجهاء بني عامر بن صعصعة ، وبيّن لهم أن المُلكَ من علم الله وأمره ، يضعه حيث يشاء ، فنكصوا علىٰ أعقابهم وأعرضوا عن فكرة الدخول في الإسلام .

ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ كان هو الرابح بتراجع أمثال هٰؤلاء الباحثين عن السّلطة والملك ؛ ففي تلك الظُّروف العصيبة من تاريخ الإسلام كان واضحاً ومؤكَّداً أنَّ النَّبيَّ لن ينتصر بالانتهازيين الذين تحرِّكُهم دوافع مصلحيَّة لا تساوي شيئاً في ميزان التَّاريخ وفي ميزان المعركة الفكريَّة والأخلاقيَّة التي كانت تدور بين الإسلام والشرك ، بين رسالةٍ تجدد مبدأ الإيمان بالله الواحد الأحد ، وتدعو إلى العدل والحرية والإيمان ، وبين ثقافة تستعبد الناس للأصنام ، أو لبعض البشر الذين تنسب إليهم القداسة ، وتميز بين الناس علىٰ أساس ألوانهم وأموالهم وقبائلهم .

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في حاجةٍ إلىٰ أنصارٍ أقوياء يقبلون دعوة الإسلام بعقولهم وقلوبهم ؛ ليكونوا له السَّند الذي يحتاجه من أجل تغيير مجرى التَّاريخ .

وفي تلك المرحلة وبعد أكثر من عشر سنوات من الدَّعوة والتَّبليغ والكفاح والتَّضحيات كانت الظُّروف والشُّروط الضرورية قد اجتمعت ليظهر فيها مثلُ هٰؤلاء الأنصار .

* * *

الفَصْلُ الرَّابِعُ

إِسْلامُ أَهْلِ المَدِينَةِ ، وقِصَّةُ الهِجْرةِ الحاسِمَةِ

جاء موسم الحج إلىٰ مكة كما يأتي كل عام ، وجاءت قبائل العرب تحج إلى البيت العتيق ، تطلب مرضاة الله بما لا يرضاه منها . كان أول بيت يعبد فيه الله علىٰ وجه التاريخ قد فقد وظيفته الأسياسية الذي بني من أجلها . بني من أجل أن يكون مسجداً للمؤمنين بالله وحده ، الذين يعبدونه ولا يشركون به شيئاً ، وها هو تحت سلطان مشركي قريش قد غدا مزدحماً بالأصنام التي تعبد من دون الله ، أو يقدسها الناس لتكون واسطة بينهم وبين خالقهم ، مع أن أبواب الخالق مفتوحة لجميع خلقه من دون وسيط ولا حاجب .

جاء موسم الحج والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثابتون علىٰ نهج الإيمان ، صامدون في وجه حملة الظلم والقمع التي يتعرضون لها ، يدعون للتوحيد والصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق ومبادىء الحرية والمساواة والعدالة .

وكعادته كلَّ عامٍ وعلىٰ نهج إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقيَّةِ الأنبياءِ عليهم السَّلام من قبله أقبلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ وفود الحجيج يخبرهم برسالة الإسلام ويدعوهم للتوحيد ويطلب منهم النصرة والتأييد .

النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم داعيةٌ في المقام الأوَّل ، ورحمةٌ للنَّاس ، ونورٌ يتسلَّل إلىٰ قلوبهم فيبدِّد عنها ظلمات الجهل والشِّرك والتَّعصُّب .

ليس للشَّجرة الطَّيِّبة أن تحمل ثماراً رديئةً ولا للشَّجرة الرَّديئة أن تحمل ثماراً طيِّبةً ، إذن فمن ثمارهم تعرفونهم ، فمن غنى القلب يتدفَّق الخير ، ومن غزارة القلب الشرِّير يتدفَّق الشَّر ، هٰكذا خاطب المسيح عليه السَّلام قومه قبل

حوالي ستَّة قرون ، وهٰكذا كانت حالة الاستقطاب بين محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وبين زعماء الشِّرك والدِّيكتاتوريَّة في مكَّة ، كان يخاطبهم بدعوة الإيمان والعمل الصَّالح ، ونصرة المظلومين ، واحترام المرأة ، والكفِّ عن أكل أموال اليتامىٰ واستغلال الفقراء ، وكانوا يردُّون عليه بأنَّهم وجدوا آباءهم علىٰ مذهبٍ في العقيدة والحياة ولن يقبلوا بتغييره رغم تواتر الأدلة علىٰ فساده وبطلانه .

التقى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في موسم الحجِّ بعد حوالي أحدَ عشرَ عاماً من بعثته مع وفدٍ قادمٍ من يثرب وعرض عليهم ثماره الطَّيِّبة ، لقيهم النَّبيُّ في مكانٍ بمكَّة وعرف منهم أنَّهم وفد من الخزرج ، والخزرج يشكِّلون مع الأوس أهمَّ قبيلتين عربيَّتين في يثرب ، قال لهم : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : نعم .

هنا أزيحت العقبة الرَّئيسة الأولىٰ أمام الرَّسول ، فلطالما رفضت وفودٌ أخرىٰ من قبيلته ومن قبائل أخرىٰ عرضه للحوار والمناقشة ، أمَّا هٰؤلاء النَّاس من وجوه قبيلة الخزرج في يثرب ؛ فقد قبلوا أن يسمعوا منه وأن يناقشوه ، وهٰذا مكسبٌ كبيرٌ لصاحب الرِّسالة ، صاحب القلب الخيِّر والثمر الطيِّب .

وبالفعل حدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعاليم الإسلام وما يدعو إليه وما ينهىٰ عنه . قال ابن هشام : فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[1] .

حصل هٰذا اللقاء والتواصل في العام الحادي عشر من عمر الدعوة الإسلامية ، وقبل عامين من الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة . في تلك الأعوام ، كان المسلمون من أهل مكة قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من السور القرآنية التي نزلت عليه في مكة

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٨) .

تشرح حقيقة الإسلام وتبين أوامره ونواهيه .

وأستأذن القارىء الكريم لنتوقف معاً في هٰذا الموضع لقراءة بعض الآيات القرآنية الكريمة التي تساعد علىٰ فهم رسالة الإسلام وبيان ما كان يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هٰذه آياتٌ من (سورة الأنعام) :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١ـ١٥٣] .

ومن السُّورة نفسها هٰذه الآيات :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

[سورة الأنعام : ١٦٠ـ١٦٤] .

ومن (سورة الأعراف) هٰذه الآيات :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢ـ٣٥] .

ومن (سورة يونس) هـٰذه الآيات :

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۞ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [سورة يونس : ١٠٤ـ١٠٩] .

ومن (سورة هود) هـٰذه الآيات :

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۞ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود : ١١٢ـ١١٥] .

وهـٰذه آيات من (سورة يوسف) :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف : ١٠٩ـ ١١١] .

وهـٰذه آيات من (سورة إبراهيم) :

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۞ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۞ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٣ـ٢٧] .

وهـٰذه آيات من (سورة الحِجْر) :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر : ٩٤ـ٩٩] .

وهـٰذه آيات من (سورة النَّحل) :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٨٩ـ٩١] .

تلك كانت نماذج قصيرة من آيات القرآن الكريم ، كلماتٌ مضيئةٌ تبدِّدُ

الظُّلمات والأوهام ، وتقدِّم الجواب لكلِّ الأسئلة المحيِّرة التي جالت بخاطر الإنسان وتبحَّر فيها الفلاسفة .

من خلق هـٰذا الكون الفاتن العجيب ؟ الجواب الصحيح من القرآن الكريم : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [سورة الزمر : ٦٢] .

مَن خلق الإنسان ؟ وهل هو مصادفة مثيرةٌ من مصادفات الوجود ؟ الإنسان ليس صدفةً ، بل خلقه الله وجعله من أكرم مخلوقاته ، أرسل إليه الأنبياء ، وأعطاه الحرِّيَّة ليؤمن أو يكفر ، وليختار طريقه في الحياة .

هل تعني عبادة الله أن يعرض المؤمن عن الحياة ومباهجها وزينتها ؟ كلاَّ ، القرآن الكريم يوضح الأمر : ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

ما سرُّ السَّعادة ؟الإيمان بالله والعمل الصَّالح .

وما العمل الصَّالح ؟ إنَّه ما ذكر في هـٰذه الآيات ، وما ذكر في القرآن الكريم بوجهٍ عامٍّ : الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الصَّلاة ، والزَّكاة ، والصَّوم ، والحجُّ لمن استطاع إليه سبيلاً ، والبرُّ بالوالدين ، وصلة الرحم ، وقول الصِّدق ، والعدل ، والإحسان ، ومساعدة الفقراء والمحتاجين ، والوفاء بالعهود ، والإكثار من الحسنات ، وترك الفواحش وكل مظاهر الإثم والبَغْي .

هل توجد حياة بعد الموت ؟ نعم ، وللذين يؤمنون بالله وحده ولا يشركون به شيئاً ويعملون الصَّالحات جنات النَّعيم ، يسكنونها خالدين فيها أبداً بأمر الله ومشيئته .

ونعود بعد هـٰذه الوقفة الموجزة مع بعض آيات القرآن الكريم لقصة اللقاء بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد الخزرج من أهل المدينة في موسم الحج .

لم يكن أعضاء الوفد من المؤمنين الموحدين ، ولكنهم كانوا علىٰ علم بمبدأ توحيد الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادة من خلال احتكاكهم بجيرانهم اليهود الذين استوطن عددٌ منهم يثرب في تلك الحقبة من التَّاريخ ، فلما عرض عليهم الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ما عنده وحاورهم وأجاب علىٰ أسئلتهم ؛ تيقَّنوا أنه لا يحدثهم برأيٍ فاسدٍ أو قولٍ زائفٍ ، وربطوا بين ما عرفوا عن رسالته وما سمعوه من علماء يهود في منطقتهم عن اقتراب موعد بعثة نبيٍّ جديدٍ يستكمل ما بدأه إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقيةُ الأنبياء السَّابقين عليهم السَّلام ، وبناءً علىٰ هـٰذه الحيثيات صدَّقوا ما حدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وقبلو بالإسلام ودخلوا فيه .

كانت تلك لحظةً حاسمةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ؛ لأنَّه سيكون لهـٰذه الخطوة ما بعدها من التَّطوُّرات الكبرىٰ ، ومن أجمل تفاصيلها الأخرىٰ أنَّ أعضاء الوفد الخزرجيِّ تذكَّروا ما تعاني منه يثرب منذ عقود من التَّناحر والاقتتال بين القبيلتين الرَّئيستين فيها ، ولمسوا رسالة السَّلام في دعوة الإسلام ، فقالوا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : (إنَّا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشَّر ما بينهم ، فعسىٰ أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلىٰ أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هـٰذا الدِّين ؛ فإن يجمعهم الله عليه ؛ فلا رجلَ أعزُّ منك ، ثمَّ انصرفوا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم راجعين إلىٰ بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا)[١] .

أوَّل سفير في تاريخ الإسلام :

عاد وفد الخزرج إلى المدينة وقد قبلت عقولهم الإسلام ومالت له قلوبهم عن اختيارٍ حُرٍّ طوعيٍّ لا إكراه فيه ولا ضغط ، ومن أسماء هـٰذا الوفد :

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٩) .

تيم الله ، وأسعد بن زُرارَة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وعامر بن الأزرق ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، ، وجابر بن عبد الله ، ومنهم أيضاً امرأة اسمها : عفراء بنت عبيد ، وجميعهم من أفرعٍ شتَّىٰ من قبيلة الخزرج مثل بني النَّجار ، وبني مالك بن النَّجار ، وبني زريق ، وبني سلمة ، وبني حرام بن كعب ، وبني عبيد بن عدي .

وكان بوسع الوفد أن يتحلل من التزامه بالإسلام عند العودة لو كان ما صدر منه في مكة ناجماً عن لحظة انبهارٍ ظرفيٍّ مؤقَّتٍ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما قرأه عليه من القرآن الكريم ، لكنَّ الوفد لم يتراجع ولم يندم ، على العكس تماماً ، حمل العائدون من مكَّة دينهم الجديد محمل الجِدِّ الكامل ، فحدَّثوا به أهلهم ، ونقلوا لهم ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فانتشر الخبر في كل أحياء المدينة .

ولم ينته العام حتَّىٰ أصبح للإسلام عددٌ معتبر من الأتباع في يثرب ، فلمَّا جاء موسم الحجِّ الجديد إلىٰ مكَّة ؛ التقىٰ وفدٌ منهم تشكَّل من اثني عشر شخصاً بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في مكانٍ يسمَّى العقبة ، وهناك بايعوه علىٰ جملةٍ من التَّعهُّدات والالتزامات ؛ أي : أنَّهم قدَّموا له عهدَ ولاءٍ طوعي للالتزام بعدَّة مسائل طلبها منهم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : « تبايعونني علىٰ ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف ، فمن وفَّىٰ منكم ؛ فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدُّنيا ؛ فهو كفَّارةٌ له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ؛ فأمره إلى الله ؛ إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه »[(١)] .

إنَّ كلَّ إنسانٍ نشأ في بيئةٍ معاديةٍ للإسلام أو تأثَّر بخطاب (الإسلاموفوبيا)

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٧٢١٣) .

وثقافة كراهية المسلمين سيشعر بنوعٍ من الصَّدمة إذا قرأ نصَّ البيعة الأولىٰ في تاريخ الإسلام ، إنَّها كما تدلُّ عباراتها الواضحة بيعةٌ من أجل صلاح الفرد وصلاح المجتمع ، تنهىٰ من يلتزم بها عن الشِّرك بالله وعن السَّرقة والزِّنا والقتل والكذب والقذف ، بيعةٌ تؤسِّس لمجتمعِ الأمن والأخلاق الكريمة منذ اللَّحظة التَّاريخيَّة التي صدرت فيها أوَّل مرَّة في مطلع الثَّلاثينات من القرن الميلاديِّ السَّابع ، وفي عصرنا هـٰذا وفي كلِّ عصرٍ مقبل ، والحقُّ أنَّه توجد أدلَّةٌ قويَّةٌ كثيرةٌ تبيِّنُ كلُّها أنَّ الدِّعايات المعادية للإسلام لا يكون لها شأنٌ أو تأثيرٌ على الفرد إلاَّ إذا حجبت عنه الحقائق الموضوعيَّة والصَّحيحة بشأن دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ويمكن القول : إن هـٰذه البيعة الأولىٰ في تاريخ الإسلام جاءت تأكيداً لانتشار الإسلام خارج مكَّة المكرمة ، ولتزايد ثقة المسلمين بأنفسهم ، ولبدايات التَّوجه نحو تأسيس الجماعة السِّياسيَّة الإسلاميَّة الأولىٰ في التَّاريخ كما يوحي بذلك تضمين التَّعهُّد بعدم المعصية في معروف في نصِّ البيعة ، ويعني هـٰذا التعهد : أنَّ المسلمين الملتزمين بها سيطيعون أوامر النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المعروف ، وهـٰذه مسألة أخرىٰ عظيمةُ القدر في الخطاب الإسلاميِّ ، ذلك أن الطَّاعة لا تقبل ولا تجوز إلا فيما هو معروف ، أي : إلاَّ فيما هو حقٌّ وخيرٌ منسجمٌ مع تعاليم الدِّين ، وكلُّ أمرٍ يخرج عن المعروف بهـٰذا المعنىٰ من الحاكم المسلم ، وحتىٰ من النبي صلى الله عليه وسلم هو أمرٌ لاغٍ لا يُعتَدُّ به .

يؤمن كلُّ مسلمٍ طبعاً ويوقن أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لا يصدر عنه أمرٌ إلاَّ وهو من أفضل أنواع المعروف ، لكنَّ النَّبيَّ أثبت الشَّرط المشار إليه في نصِّ البيعة الأولىٰ ؛ ليكون سُنَّة من بعده وحجَّة يستقوي بها المسلمون أنصارُ الحرِّيَّة السِّياسيَّة والشُّورىٰ والدِّيمقراطيَّة في كلِّ عصرٍ .

وافق الوفد القادم من المدينة علىٰ هـٰذه التَّعهُّدات كلِّها ، وبايع النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما عُرِف ببيعة العقبة الصغرىٰ ، فلمَّا استعدَّ للعودة ؛ بعث النَّبيُّ معهم واحداً من خيرة أصحابه ، هو مصعب بن عمير رضي الله عنه (وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلِّمهم الإسلام ويفقههم في الدِّين)[1] .

ربما جاز لنا أن نصف مصعب بن عمير في هـٰذا السِّياق بأنه أوَّل سفيرٍ في تاريخ الإسلام ، علماً بأن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان النَّاطق الرَّسميَّ باسم اللاَّجئين المسلمين إلى الحبشة ولم يكن موفداً رسميّاً من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلىٰ ملكها ، كان مصعب في أوَّل عهده فتىً مدلَّلاً ترمقه الأبصار في مكَّة لما عُرِف به من شرفٍ ومن أناقةٍ كبيرةٍ فيما يلبس ، فلمَّا دخل في الإسلام ؛ تغيرت أولوياته ، وعرف أن في الحياة ما هو أهم كثيراً من المباهاة بالمال والملابس والزينة ، عَرَف مصعب أنَّ هناك أموراً أخرىٰ في الحياة أعظم شأناً ؛ منها هدايةُ النَّاس إلىٰ محبَّة الله وعبادته وحده من دون شريك ، ومساعدتهم لاكتشاف السَّعادة العظيمة التي يدخلها الإيمان بالإسلام إلى القلوب ، وإصلاحُ أحوال المجتمع كلِّه بنشر تعاليم الإسلام وأنوار القرآن الكريم .

أدرك مصعب كل هـٰذه المعاني السامية الجديدة فتجلت في حياته وسلوكه اليومي ، وكان من المقربين والموثوقين لدى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لم يكن أمراً مستغرباً أن يختاره سفيراً وممثلاً للإسلام في يثرب . وهناك عمل هـٰذا الصحابي الجليل بهمة عظيمة وصدق وإخلاص ، واستطاع أن يكسب ثقة الناس بأخلاقه العالية وبتواضعه الجم ، وبالإضافة إلىٰ هـٰذه المؤهلات الشخصية الرفيعة ، كان السلاح الأقوىٰ بيد مصعب هو صدق الرسالة التي جاء يدعو الناس إليها ، وآيات القرآن الكريم التي تخاطب العقل

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٤) .

والوجدان . لذلك كانت تعاليم الإسلام تستهوي المزيد من الناس في يثرب كل يوم ، الناس الذين أدركوا أن الوثنية ليست خياراً يناسب كرامة العقل البشريِّ ، وأنَّ الكونَ الفاتنَ العجيبَ المحيطَ بهم لا يمكن أن يوجد صدفةً ، وأنَّ القلب الخالي من الإيمان يشبه القصر الرَّائع الذي لا سكَّان فيه .

دخل كثير من أهل يثرب في الإسلام وأقيمت الصَّلوات ، وتقارب الإخوة المتشاكسون من الأوس والخزرج بسبب الرَّابطة الدِّينيَّة الجديدة التي ألفت بين قلوبهم ، ومع ذلك لم يتوقف مصعب بن عمير عن أداء واجبه في الاتِّصال بكلِّ فردٍ وكلِّ حَيٍّ يمكنه الوصول إليه من أجل توسيع دائرة انتشار الإسلام في يثرب .

كان مصعب مقيماً مع أسعد بن زُرارة ، وقد سبق ذكر اسمه ضمن الوفد الأوَّل من أبناء الخزرج الذين لقوا النَّبيَّ في مكَّة واقتنعوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام ، وذات يوم من الأيام اقترح أسعد علىٰ مصعب زيارة دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، وتعريف الناس في هـٰذين الحيين المهمين من أحياء يثرب بتعاليم الإسلام .

لكنَّ هـٰذه الخطوة لم ترق لزعيمين كبيرين من زعماء الحيَّين ومن زعماء يثرب كلِّها بشكلٍ عامٍّ : سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وكلاهما مشرك ، قال سعد لأسيد إنَّه لا يرحب بزيارة الوفد الإسلاميِّ للمنطقة ، ويخشىٰ من تأثيرهما على السُّكان ، واقترح عليه أن يتوجَّه نحو مصعب بن عمير وأسعد بن زُرارة ويطردهما ويحذِّرهما من مغبَّة تكرار الزِّيارة ، واعتذر سعدٌ عن عدم قيامه هو نفسه بهـٰذه المهمة بسبب علاقة القرابة التي تجمعه مع أسعد .

أقبل أسيد بن حضير بنفسه على الوفد المسلم الزائر متوشِّحاً سلاحه ، وكان أسعد قد قدَّم لمصعب تعريفاً سريعاً بالرَّجل وبيَّن له أنَّه سيِّدٌ بارزٌ مطاع في قومه ، استعدَّ مصعبٌ وكان هدفه الأوَّل والأساسي أن ينجح في إقناع الزَّعيم الغاضب بالدُّخول في جلسة حوارٍ ، هـٰكذا كان شأن المسلمين في أغلب

الأحوال قديماً وحديثاً طلاَّبَ حوارٍ بالحجَّة والدَّليل ؛ لأن دخول الإسلام بالإكراه باطل لا قيمة له ، وأساس العقيدة في الإسلام أن يختارها الإنسان الحرُّ بقناعته الحرَّة ، وليس تحت الضغط والإكراه . قال أُسيد في نبرةٍ غاضبةٍ يخاطب مصعب بن عمير وأسعد بن زُرارَة ويهدِّدهما بالقتل : (ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً ؛ قبلته ، وإن كرهته ؛ كفَّ عنك ما تكره ؟ قال ـ أي : أسيد ـ : أنصفت ، ثمَّ ركز حربته وجلس إليهما ، فكلَّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله ؛ لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهُّله ، ثمَّ قال : ما أحسن هـٰذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هـٰذا الدِّين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهِّر ثوبيك ، ثمَّ تصلي ، فقام واغتسل وطَهَّر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحقِّ ، ثم قام فركع ركعتين ، ثمَّ قال لهما : إنَّ ورائي رجلاً إن اتبعكما ؛ لم يتخلَّف عنه أحدٌ من قومه وسأرسله إليكما الآن سعدَ بن معاذ ، ثمَّ أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعدٍ وقومه وهم جلوسٌ في ناديهم)[1] .

في ساعة حوارٍ تحوَّل عدوٌّ بارزٌ من أعداء الإسلام إلىٰ داعيةٍ من دعاته ، عندما أزيحت الحواجز التي أقامتها أمامه الدِّعايات الزَّائفة المضلِّلة ؛ تقبل عقله دعوة التوحيد وانفتح له قلبه . إن رد فعله يذكر بمواقف كثير من الذين يدخلون دين الإسلام في القرن الهجري الخامس عشر ، القرن الحادي والعشرين للميلاد ، رغم ضخامة الحملة الإعلامية التي تهدف إلىٰ تشويه الإسلام والتشنيع عليه ، إلىٰ درجة أن بعض الساسة المتعصبين في النرويج دعوا صراحة إلىٰ منع الإسلام في أوروبا وتجريم معتنقيه ! !

بالرغم من هـٰذا التشويه وهـٰذا التشنيع ، تأتي الأخبار منتظمة عن إقبال كثير

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٥) .

من الناس على الإسلام ، وهم من ثقافات وطبقات اجتماعية مختلفة . وفي الكثير من الأحيان يبدأ العديدُ من المسلمين الجُدُد رحلتهم متأثِّرين بالدِّعايات المضادَّة وبثقافة الكراهية ضدَّ الإسلام ، لكنَّهم عندما يعطون عقولهم فرصةً لتأمُّل الأدلَّة ، ولسماع دفاع الإسلام عن نفسه ، فإنَّ شمس الحقِّ والإيمان تسطع في نفوسهم وفي محيطهم من حولهم .

بعد إسلام أسيد بن حضير ، تركز الاهتمام علىٰ سعد بن معاذ ، الزعيم الذي كان يحرض قبل قليل علىٰ طرد الداعيتين المسلمين ، مصعب وأسعد ، ويهدد باستخدام العنف ضدهما . كان سعد جالساً مع عدد من أصدقائه ، فلما رأىٰ أسيداً قادماً ؛ تلفت لمن حوله وأقسم أن صديقه عاد بغير الوجه الذي ذهب به . لم يكشف أسيد ما دار بينه وبين مصعب وأسعد ، ولم يخبر الناس بإسلامه ، ولكنه حرض سعداً علىٰ أن يتولىٰ هو بنفسه الاتصال بالوفد المسلم والتعامل معه مباشرة .

قام سعد متحفزاً لتحقيق مراده ، والتقى الداعيتين المسلمين وطلب منهما الكف عن نشر الدين الجديد بين الناس وهددهما وتوعدهما إن لم يستجيبا لطلبه . فكان جوابهما أن طلبا منه أن يجلس فيسمع منهما ويتحاور معهما ؛ إن وجد في حديثهما ما يفيد ؛ فهٰذا مايطمحان إليه ، وإن وجد غير ذلك ؛ استجابا لطلبه وغادرا المكان فوراً .

قبل سعد بن عبادة الطلب ، وجلس إلىٰ مصعب وأسعد فلم يسمع منهما إلا ما يقنع العقل ويسعد القلب ، فأعلن اقتناعه بالدين الجديد ودخل فيه . ومن لحظة إسلامه ، أصبح سعد داعية ينصح أهله بدخول الدين الجديد . ولأن قومه يعرفون حكمته ورجاحة عقله ، ومكانته الرفيعة بينهم ، فإنهم ناصروه في موقفه ، وقبلوا ما قبله من تعاليم الإسلام ، وتجددت حياتهم وأضاءت وأشرقت بأنوار الإيمان .

وهكذا انتشر الإسلام بين أحياء يثرب انتشاراً واسعاً ، وحقَّق مصعبُ بن عمير نجاحاً منقطع النَّظير في مهمته التي كلَّفه بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأعانه عليها أسعد بن زُرارَة وآخرون ، كان مصعب رضي الله عنه علماً لامعاً من أعلام تلك الحقبة من تاريخ الإسلام ، وبعد سنواتٍ قليلةٍ سينال هـٰذا السَّفيرُ الناجح اللاَّمعُ الشَّهادةَ دفاعاً عن الإيمان بالله الواحد الأحد وحريَّة العقيدة وكرامة الإنسان ، فقد قتل في معركة أحد ، وهو يصد مع المؤمنين حملة عسكرية شنتها قريش بهدف استئصال الإسلام ، ومصادرة حقوق المسلمين في الحياة الكريمة وفي عبادة الله الواحد الأحد بحرية وأمان . وقد بقيت ذكراه الجميلة وستبقىٰ حية في قلوب المسلمين جيلاً من بعد جيل .

بيعة تاريخيَّة في العام الثَّاني عشر من عمر الدَّعوة الإسلاميَّة

جاء موسم حجِّ العرب إلىٰ مكَّة في العام الثَّاني عشر من عمر الدَّعوة الإسلاميَّة ، فعاد السَّفير النَّاجح مصعب بن عمير إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يقدِّم له تقريراً عمَّا أنجزه في يثرب ، لكنَّه لم يأت وحده ، وإنَّما جاء معه وفدٌ كبيرٌ من المسلمين المتشوِّقين إلىٰ لقاء الرَّسول ، والذين اتخذوا قراراً حاسماً بتأييده وتأييد دينه ، ولا شكَّ أنَّ التَّطوُّرات الضَّخمة التي حصلت في يثرب ودخول أكثر أهلها في الإسلام ، قادت إلىٰ بروز خيارٍ استراتيجيٍّ جديدٍ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، هو الهجرة من مكَّة إلى المدينة الجديدة التي آمنت به ؛ ليتخذها عاصمةً يوفر فيهما مكاناً آمناً للمسلمين ، وينشر انطلاقاً منها أنوار الإسلام في العالم ، ومع أنَّ مكَّة قبلة العرب ومسقط رأس النَّبيِّ وأهله ؛ فإنَّه قد قضىٰ فيها الآن اثني عشر عاماً منذ نزول الوحي إليه ، ولم يجد من زعمائها الكبار إلا الصَّدَّ والظُّلم والتَّشويه .

كانت مكة مزدحمة بمشركي العرب الذين توافدوا للحج ، وكان كثير منهم

يؤمنون بأن الله تعالىٰ هو خالق السماوات والأرض والكائنات جميعاً ، لكنهم يشركون في عبادته ، ويعظمون الأصنام ، ويعتقدون في قدرتها على النفع والضر ، ويرون فيها واسطة تقربهم من الله زلفىٰ . كانوا يكررون أخطاء أمم أخرىٰ كثيرة ، عرفت دعوة التوحيد وآمنت بها ، ثم مالت مع مرور الزمن لتقديس عدد من الصالحين فيها ، والغلو فيهم ، واعتقاد قدرتهم على النفع والضر ، وتخليد ذكراهم بعد موتهم بنحتهم في أصنام وتماثيل . وهٰكذا دخل الشرك إليهم من تعظيم الصالحين .

وكان المسلمون يختلطون بالحجاج ويدعونهم إلى الإسلام ويعرفونهم بتعاليمه .

في الوقت نفسه ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ الترتيبات الضرورية للاجتماع بأعضاء وفد يثرب الذين قدموا مع مصعب بن عمير ، بعيداً عن أعين أعدائه من مشركي قريش . فلما كانت إحدى الليالي الأخيرة من أيام التشريق ، وهي المرحلة الأخيرة من الحج ؛ نام المسلمون القادمون من المدينة مع بقية حجاج العرب المشركين أول الليل ، حتَّىٰ إذا مضى الثُّلث الأوَّل منه واطمأنُّوا إلىٰ أن العيون التي ترصدهم نامت أو غفلت ؛ خرجوا متسلِّلين إلىٰ موعد سبق تحديده لهم مع الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين ، هما نسيبة بنت كعب ، وتدعىٰ أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو ، وتدعىٰ أم منيع .

كان ممن رافق النَّبيَّ لهٰذا اللقاء عمُّه العباس بن عبد المطَّلب ، وهو لم يكن قد دخل في الإسلام آنذاك ، ولكنَّه كان نصيراً للنَّبيِّ مُهتمّاً بأمره ؛ بسبب القرابة العائليَّة بينهما ، حتَّىٰ إذا اكتمل نصاب المجتمعين ؛ قام العباس مخاطباً أهل يثرب وقد أدرك أنَّ ما يدور أمام عينيه اجتماعٌ حاسمٌ وتاريخيٌّ ، وستترتَّب عليه أوضاعٌ سياسيَّة وأمنيَّة وعسكريَّة جديدةٌ .

قال العباس : (إن محمداً منَّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو علىٰ مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من قومه ومنعةٍ من بلده ، وإنَّه قد أبىٰ إلا الانحياز إليكم واللُّحوق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنَّكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممَّن خالفه ؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنَّكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ؛ فمن الآن فدعوه ؛ فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده)[1] .

تدلُّ كلمة العبَّاس أنَّ القرار الاستراتيجي بالهجرة إلىٰ يثرب قد تمَّ اتخاذه من جهة المبدأ ، لكنَّ تأكيده كان يتطلب بيعةً رسميّةً من أهل يثرب المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم ، بيعةً تتضمَّن بوضوح التَّبعات التي يمكن أن تنجرَّ علىٰ أهلها حتىٰ يمضوا فيها واثقين مصمِّمين ، أو ينسحبوا منها منذ البداية إن كانوا غير قادرين على الوفاء ببنودها .

قال وفد يثرب للعبَّاس : إنَّهم يريدون أن يسمعوا من النَّبيِّ مباشرة ويعرفوا منه ما يطلبه لربه ولنفسه ، فتحدَّث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لهم عن دعوة الإسلام ومبادئها وحثَّهم على التَّمسُّك بها ، وقرأ عليهم من القرآن الكريم ، وأوضح لهم أنَّ البيعة التي يطلبها تشمل التزامهم بأن يحموه ممَّا يحمون منه نساءهم وأبناءهم .

عرض النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مطالبه علىٰ أهل يثرب بشفافيَّة كاملة ، فهو كان يعرف أنَّ طغاة مكَّة لن يسمحوا للنَّبيِّ والمسلمين بتأسيس مركزٍ إسلاميٍّ مستقلٍّ في الجزيرة العربية وسيشنون الحرب من أجل استئصاله ، ولن تكون الحرب في هٰذه الحالة موجَّهةً ضد النبي والمؤمنين به من أهل مكَّة وحدهم ، وإنَّما ستستهدف أيضاً أهل يثرب والمسلمين كافةً ، ومن هنا لزم أن يعرف أهل يثرب المخاطر التي يقدمون عليها بمبايعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وتبنيهم لدعوته .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤١) .

ويبدو أنَّ العبَّاس عمَّ الرَّسول كان حريصاً جدّاً على استكشاف مدى استعداد أهل يثرب للتَّضحية في سبيل الإسلام والرَّسول صلى الله عليه وسلم ، فعاد وبيَّن لهم أنَّ قبائل كثيرة ستستهدفهم بالحرب إن هم مضوا في بيعتهم وأنَّ أشرافهم سيلقون القتل وأموالهم ستنهب من القوى المعادية للإسلام ، فقال أهل يثرب في موقفٍ تاريخيٍّ حاسمٍ : (إنا نأخذه علىٰ مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا يا رسول الله إن نحن وفَّينا ؟ قال : « الجنَّة » ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه)[1] .

ينظر الإنسان في هـٰذه الجملة الأخيرة فيرىٰ عجباً ، أهل يثرب أعلنوا قبولهم بيعة النَّبيِّ حتَّىٰ لو قادت إلىٰ قتل زعمائهم ونهب أموالهم ، ثمَّ طلبوا من النَّبيِّ أن يوضِّح لهم الثَّمن الذي يحصلون عليه من مثل هـٰذا الالتزام ، والنَّبيُّ محاصرٌ في مكَّة مُستَهدفٌ من طغاتها ، وفي أمسِّ الحاجة لأنصارٍ وحلفاء أقوياء ، أليس من الذَّكاء إذن أن يعرض مغانم دنيوية كبيرة لأهل يثرب في هـٰذه اللَّحظة ، كأن يعدهم بالملك والمال الوفير والسِّيادة في الجزيرة العربية ؟!

أبداً ، إنه لم يشر إلىٰ شيءٍ من هـٰذا من قريبٍ أو من بعيدٍ ، لم يتعهَّد لهم بأمرٍ واحدٍ من أمور الدُّنيا ، كانت كلمته الوحيدة لهم : « الجَنَّة » ، والجنَّة أمرٌ من أمور الغيب ، يؤمن بها من آمن بالله ورسوله وبالبعث بعد الموت ، وقد قبل أهل يثرب هـٰذا الثمن وفرحوا به ؛ لأنهم يعرفون قيمته العظمىٰ منذ أن دخلوا في دين الإسلام . لقد سمعوا القرآن الكريم وخشعت له قلوبهم ؛ لأنه من عند الخالق الرازق الذي يقول للشيء كن فيكون . قال الله عز وجل : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٦) .

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾
[سورة الحشر : ٢١ـ٢٤] .

مرضاة الله عز وجل وجنته هو ما سعىٰ إليه قادة يثرب في ذلك اللقاء التاريخي العظيم ، وكانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم وأموالهم من أجل هـٰذا الهدف . فإن انتصروا في الدنيا أيضاً ؛ فإن كل ما يعنيهم من مغانم الدنيا أن تبقىٰ لهم صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وجواره . كانوا معذورين في حبهم لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وها هم ملايين المسلمين جيلاً من بعد جيل يصلّون علىٰ نبيهم في كل يوم فتفيض أعينهم من الدمع لذكراه ، محبة وإعزازاً وامتناناً لما قام به من أجل تبليغ رسالة الخير والحرية والإيمان للعالم . هـٰؤلاء جميعاً ينظرون بإعجاب لأهل يثرب ، ويقولون معهم : صحبة النبي صلى الله عليه وسلم خير من الدنيا وما فيها .

وهاهم بعض خصوم الإسلام منذ ظهوره حتىٰ هـٰذا العصر ، يحاولون مرة من بعد مرة أن يصوروه مجرد دعوة بشرية سياسية مصطنعة هدفت إلىٰ تحصيل الحكم والمجد والثراء . لو كان الإسلام دعوة دنيوية مختلقة ؛ لما نجح هـٰذا اللقاء الحاسم في مكة المكرمة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقادة يثرب . غير أن العداوة التي تسكن عقول وقلوب بعض المتشددين الكارهين للإسلام تحول بينهم وبين رؤية الحق والاعتراف به ، هي عداوة شبيهة إلىٰ حد كبير بالعداوة التي أبداها فرعون وأتباعه لموسىٰ عليه السلام ، وبالعداوة التي لقيها عيسىٰ عليه السلام وحواريوه من قبل الخصوم والكارهين . عداوة لا سند لها إلا الأكاذيب والأوهام ، وهي أكاذيب وأوهام لا تصمد أمام الحقائق التاريخية لحظة واحدة .

تمت البيعة ، ثم طلب أهل يثرب لأنفسهم شيئاً . أيكون أمراً من أمور

مغانم الدنيا يا ترى ؟ هل أعادوا النظر في موقفهم السابق الذي اكتفىٰ بالجنة مقابلاً لبيعتهم ؟

كلا ، لقد قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : إنهم يخشون أن يتركهم إذا انتصر علىٰ معسكر الشرك والاستبداد ويعود إلىٰ موطنه الأصلي مكة . هـٰذا ما كان يقلقهم ؛ أن يبتعد عنهم النبي العظيم الذي آمنوا به وأحبوا صدقه وتواضعه وخلقه العظيم . فأكد لهم الرسول أنهم منه وهو منهم ، ذمته ذمتهم ، وحرمته حرمتهم . وبذلك تمت أركان البيعة واكتملت .

طلب الرسول من الوفد الزائر أن يختاروا اثني عشر نقيباً ليكونوا في عداد ما يشبه الهيئة القيادية للمسلمين من أهل يثرب ، وحثهم علىٰ أن يكونوا مثل الحواريين أنصار المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . هي ذي سيرة الإسلام والمسيحية ، وسيرة محمد وعيسىٰ وموسىٰ وإبراهيم وبقية الأنبياء عليهم السلام ؛ سيرة أعظم وأنبل مشروع في تاريخ الكون ، مشروع واحد متكامل ، أنجز علىٰ مراحل .

تناهىٰ خبرُ بيعة العقبة الثَّانية إلىٰ مسامع السُّلطات القرشيَّة من دون تفاصيل كثيرةٍ عن هوية زعماء الوفد المسلم القادم من يثرب ، فتحرَّكت علىٰ عجلٍ تهدِّد الزَّائرين بالحرب إن هم وقفوا مع النَّبيِّ وحالفوه ، ولكن أغلبيَّة المسلمين الذين حضروا ليلة البيعة كانوا قد غادروا عائدين لديارهم ، فلم يقدر طُغاة قريشٍ إلاَّ على اعتقال سعد بن عبادة الزَّعيم المعروف في يثرب ، وقد لحقوا به في طريق عودته ، اعتقلوه وعادوا به إلىٰ مكَّة فضربوه وأهانوه وجذبوه من شعره ، لكنَّ الأعراف القبليَّة السَّائدة ساهمت في حسم الأمر ؛ فقد تدخَّل لصالح سعد بعض الأشراف المكِّيِّين الذين كان لسعدٍ فضل عليهم خلال رحلاتهم التِّجاريَّة إلى الشَّام ، وهي رحلاتٌ تقودهم إلىٰ يثرب أو إلىٰ أطرافها ، فكان تدخلهم للإفراج عن سعد بن عبادة من باب ردِّ الجميل .

دل هٰذا التصرف على الغطرسة التي كان قادة مشركي قريش يتعاملون بها مع الإسلام وأهله . كان خيارهم الوحيد هو العنف في مواجهة الإيمان . لقد تمادت السلطات القرشية علىٰ مدىٰ أكثر من عقد من الزمان في حربها على الإسلام والمسلمين ؛ صادرت منهم حرية الاعتقاد ، وحرية العبادة ، وسخرت من النبي صلى الله عليه وسلم وكذبته ، وآذته وحاصرته سياسياً واقتصادياً ، وعذبت أنصاره وقتلت بعضهم ، وطاردتهم حتىٰ في المنافي مثلما فعلت مع من لجأ من المسلمين بدينه إلىٰ أثيوبيا .

وطيلة هٰذه السنوات ، صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الأذىٰ وصبر أصحابه . كان يمر علىٰ آل ياسر وهم يعذبون ، في الواقعة التي استشهدت فيها سمية رضي الله عنها ، فلا يملك إلا أن يقول لهم : « صبراً آل ياسر ؛ موعدكم الجنة » .

لكن سنن التاريخ من قبل ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن بعده ، أظهرت دائماً أن الصبر على الأذىٰ من قبل المؤمنين ومن قبل أنصار الحق والحرية هو خيار من خيارات كثيرة . يصبر المؤمنون علىٰ أمل أن تنصاع سلطات الظلم والفساد والتعصب لصوت المنطق يوماً ما ، وتقبل باحترام حقوق الآخرين . أما عندما تمعن هٰذه السلطات في تنفيذ سياساتها القمعية ، وتزيد من إجراءاتها الرامية لمحاربة دعاة الإيمان والعدالة والمساواة ، ولقمعهم واستئصالهم ؛ فإنها تجبر المؤمنين إجباراً على البحث عن خيارات أخرىٰ .

في حالة النبي موسىٰ عليه السلام ، أسرف فرعون في طغيانه وفي ظلم الشعب اليهودي . وفي النهاية نجا صف الإيمان ، وأحاطت أمواج البحر الأحمر من كل مكان بفرعون وجنوده ، فابتلعتهم في ساعة من الزمان . وفي حالة أخرىٰ ، قاتل النبي داوود مع المؤمنين بزعامة الملك طالوت ، وتمكن

داوود من قتل الطاغية جالوت ، وانتصر معسكر الإيمان رغم قلة العدد والعدة ، كما تبين هـٰذه الآيات من القرآن الكريم : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩-٢٥٢] .

وفي غير حالات الأنبياء توجد أمثلة كثيرة في الماضي والحاضر تدلُّ علىٰ صواب الوقوف في وجه سلطات التَّعصب والقمع والاستبداد ، لكنَّ النبي محمّداً صلَّى الله عليه وسلَّم ما كان له أن يقرِّر وحدَهُ تغيير منهج الصَّبر على الظُّلم إلىٰ منهج الدِّفاع الفعليِّ عن النَّفس إلا بإذنٍ من ربِّه ، وبالفعل نزل الوحي بقولٍ فاصلٍ في هـٰذه المسألة .

قصة الهجرة النبوية إلى المدينة

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝ وَإِن يُكَذِّبُوكَ

﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سورة الحج : ٣٩ـ٤٤] .

بهـٰذه الآيات بدأ فصلٌ جديدٌ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ؛ لأنها تضمَّنت إذناً للمؤمنين بحمل السِّلاح واستخدامه ؛ دفاعاً عن أنفسهم في وجه العُدوان المستمرِّ الذي شنَّته السُّلطات القرشيَّة المستبدَّة ضدَّهم منذ اليوم الأوَّل لنزول الوحي ، وتضمَّنت الآيات بيان الحكمة من الحرب وتحديداً واضحاً لما يكون من نتائجها وآثارها إذا انتصر المؤمنون .

أمَّا الحكمة ؛ فخلاصتها : أن حرِّيَّة الاعتقاد وحرِّيَّة العبادة للمؤمنين كافةً ستصادر وتختفي بالجملة إذا مُنِع المؤمنون من الدِّفاع عن أنفسهم ، وسيتَّخذ الطُّغاة المتعصِّبون صمتَ المؤمنين وقبولهم بالأمر الواقع نوعاً من الموافقة الضمنيَّة للتَّمادي في سياساتهم القمعيَّة ، بما يؤدي لتدمير المزيد من دور العبادة اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلاميَّة .

وأمَّا أهداف الحرب إذا تحقَّق النَّصر للمؤمنين فهي : تأمين المناخ الضروريِّ لممارسة حرِّيَّة الاعتقاد ، وحرِّيَّة العبادة ، وطاعة الله بأداء فرائضه كالصَّلاة والزَّكاة والأمر بالمعروف ؛ أي : بكل أمرٍ فيه مرضاة الله تعالىٰ وخير المجتمع والأفراد ، والنَّهي عن المنكر ؛ أي : النَّهي عن كلِّ ما فيه غضب الله تعالىٰ وإضرار بمصالح المجتمع والأفراد .

إنه إذنٌ بالحرب من أجل الحرِّيَّة ، ومن أجل هزيمة قوى التَّعصُّب والتَّشدُّد والإرهاب التي توظِّفُ وجودها في الحكم لمحاربةِ حرِّيَّة الاعتقاد والعبادة ومصادرة حقِّ الاختلاف وحكم الشَّعب بقوَّة السِّلاح .

وقد حاول بعض خصوم الإسلام المتعصِّبين في الماضي والحاضر أن يضعوا هـٰذا الإذن بالحرب خارج سياقه ويصوِّروه دليلاً علىٰ وجود نزعة

عدوانيَّة في الإسلام ، فإذا طلب منهم الباحث المحايد أن يفسروا صبر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين على القمع الذي سُلِّط عليهم لثلاثة عشر عاماً ؛ كابروا وعاندوا وحاولوا تغيير مجرى الحديث ، وإذا سئلوا عن موقفهم من الحروب الاستعمارية والإمبريالية التي خاضتها العديد من الدُّول في أفريقيا وآسيا ، وأدت إلىٰ خضوع كثير من الدول الإسلامية وغيرها للاستعمار المباشر ؛ وجدتهم من المتحمسين لها أو المبررين لها . إنهم مستعدُّون لمنح الشَّرعية لحروبٍ تمَّ خوضها من أجل نهب ثروات الشُّعوب ، ويقبل بعضهم حتَّىٰ تبرير ما جرىٰ في جنوب إفريقيا في القرن العشرين من تمييزٍ عنصريٍّ رسميٍّ ضدَّ السُّكان الأصليِّين ، ولكنَّهم لا يبدون أي استعداد لتفهم حقِّ المسلمين في الدِّفاع عن أنفسهم وعن حريتهم في الاعتقاد والعبادة .

وبعضهم يميِّز بين أنبياء الله ؛ فيقبل الآيات التي عرضناها في تمجيد دور النَّبيِّ داوود في الحرب تحت قيادة الملك طالوت ، لكنَّه يتخلىٰ عن المنطق إذا تعلَّق الأمر بالنَّبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم عليه وعلىٰ داوود .

الله تعالىٰ أحكم وأعدل علىٰ كلِّ حال من بعض خلقه الذين أعماهم التَّعصُّب والنَّزعات العنصريَّة أحياناً عن التَّعرُّف على الحَقِّ والشَّهادة به ، وهو خاطب النَّبيَّ في الآيات من (سورة الحجِّ) يذكِّره بأن ما لقيه من تكذيب قوى التَّعصُّب والاستبداد سُنَّةٌ سابقةٌ في تاريخ الأنبياء ، فقد لقي التَّكذيبَ مثله نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ وأنبياءُ آخرون كُثُر ، لكنَّ النَّصر النِّهائيَّ كان دائماً في جانب صفِّ المؤمنين .

في سياق هـٰذا التوجيه القرآنيِّ الكريم حدثت البيعة الثَّانيَّة من أهل يثرب للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، والتي تضمَّنت التزاماً واضحاً منهم بحماية النَّبيِّ مما يحمون منه أنفسهم وأبناءهم ، بما يعني تعهُّداً واضحاً بالقتال ؛ دفاعاً عن الدَّعوة الإسلاميَّة .

وبعد بيعة العقبة الثانية تمثل التَّطوُّر الحاسم الآخر في الأمر الذي أصدره النَّبيُّ لأصحابه بالهجرة إلىٰ يثرب مبيِّناً لهم أنَّ الله تعالىٰ جعل لهم فيها إخواناً وداراً يأْمَنُون بها ، هٰذه هجرةٌ جديدة أقرب وأقلُّ مشقَّةً من الهجرة الأولىٰ إلى الحبشة ، وأغلب المسلمين كانوا بحاجة إليها ؛ لأنَّهم كانوا متمسِّكين بدينهم صابرين علىٰ ما يلحقهم من ظلمٍ وأذىً في مكَّة ، حالهم حال القابض بيده على الجمر ، وها هي يثرب تتيح لهم خياراً جديداً لم يلقوا مثله منذ نزول الوحي على النَّبيِّ أول مرَّة قبل ثلاثة عشر عاماً : أن يكون لهم مركزٌ حرٌّ مستقلٌّ ترفع فيه رايات الإسلام ، ويستطيعون فيه ممارسة عبادتهم دون التَّعرُّض للعسف والقهر ، بدأ مسلمو مكَّة في الهجرة بالعشرات ، يتركون مواطن طفولتهم وبيوتهم وممتلكاتهم ، ويفضِّلون علىٰ ذلك كله نسائم الحرِّيَّة في يثرب علىٰ بعد ما يقرب من خمس مئة كيلو متراً ، وعلى الطَّريق الرئيس للتِّجارة بين مكَّة والشَّام ، حاولت السُّلطات القرشيَّة منع من تقدر علىٰ منعهم من الهجرة ، ومنهم أبو سلمة بن عبد الأسد ، كان من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، وبعد عودته منها وسماعه بانتشار الإسلام في المدينة ؛ أراد أن يكون سابقاً في الانتقال إليها ، كانت معه في طريق هجرته زوجته أم سلمة وابنه سلمة ، لكنَّ بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وهم من رموز صفِّ الشِّرك والتَّسلُّط ـ اعترضوا طريقه ، وافتكُّوا منه زوجته وابنه بالقوَّة ، وفرضوا عليه المغادرة من دونهما بقيت أمُّ سلمة حبيسةً عند بني المغيرة مدَّةَ عامٍ كاملٍ تقريباً . تبكي زوجَها ورفيقَ عمرها الذي فُصِلت عنه بقوَّة السِّلاح ، وبقيت كذلك حتَّىٰ توسَّط لها أحدُ أقاربها لما رأىٰ من سوء حالها ، فسمح لها سجانوها بالمغادرة ، وفقد العديد من المهاجرين أموالهم أيضاً ، ومنهم صهيب بن سنان ، قال له عدد من أعداء الإسلام المتعصِّبين من أهل قريش : (أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغتَ ، ثمَّ تريد أن

تخرج بمالك ونفسك ؟ والله ؛ لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي)[١] وبلغ الخبر إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فما كان له من تعليق إلا قوله : « ربح صهيب ، ربح صهيب » ، وهٰذا تعليق لا يروق كثيراً للذين يرون أنَّ المال أهمُّ شيءٍ في الحياة ، ويقبلون التَّضحية بكرامتهم وحرِّيَّتهم وعقيدتهم من أجله ، لكنَّ المسلمين والنَّاس الأسوياء الذين يعرفون أهمِّيَّة الإيمان في الحياة وأهمِّيَّة التزام الإنسان بمبادىء شريفة يدافع عنها في كل الظروف ، كلُّ هٰؤلاء يفهمون مغزى التَّعليق الموجز والرَّائع من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

نعم ؛ خسر صهيب ماله ، ولكنَّه ربح إيمانه ، وربح مصيره الحرَّ الذي سيجمعه في يثرب بمواطني أوَّل دولة إسلاميَّة علىٰ وجه الأرض ، وقبل ذلك كله وبعده مرضاة ربه عز وجل .

وفي فترةٍ قليلةٍ اكتملت هجرة الأغلبيَّة السَّاحقة من المسلمين ، وهناك في يثرب نزل المهاجرون عند إخوانهم المسلمين من أهل المدينة وسكنوا معهم في بيوتهم عن طيب خاطر ، إن عقيدة الإسلام جعلت منهم أمَّةً واحدةً متماسكةً ، وأبرزت في كلِّ واحدٍ منهم أجمل ما في الإنسان من خصالٍ وأخلاقٍ حميدةٍ .

لم يبق بمكَّة إلاَّ الذين منعتهم السُّلطات القرشيَّة من المغادرة بالقوَّة ، أو قلةٌ من الذين أجبرتهم على التَّخلِّي عن دينهم بالقوَّة والبطش أيضاً ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطبع وابن عمه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبقي أخلص أصدقائه أبو بكر الصِّدِّيق ، كان أبو بكر قد خطَّط للهجرة إلىٰ يثرب من قبل مراراً ، لكنَّه كان في كلِّ مرَّة يستأذن الرَّسول صلى الله عليه وسلم في المغادرة ؛ يسمع منه ما يدفعه للتَّريُّث والانتظار ، كان يقول له :

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٧) .

« لا تعجل ، لعلَّ الله يجعل لك صاحباً » .

كان المسلمون وأعداؤهم متفقين علىٰ أن هجرة المسلمين إلى المدينة لن تأخذ مداها الكامل ولن تحقق التوقعات المرتقبة منها إلا إذا هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم والتحق بأنصاره في يثرب . ولذلك ، حرص الأعداء علىٰ عمل كل ما من شأنه منع الرسول صلى الله عليه وسلم من الهجرة . وبما أن وسائلهم في السنوات السابقة لم تنفع ، فقد قرروا التصعيد ، واعتمدوا خطة جديدة ظنوا أنها ستحسم الأمر وتوقف عجلة التاريخ . لقد قرروا التحرك بسرعة لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر إلىٰ يثرب .

أما كيفية الاغتيال ؛ فقد اقترحها أبو جهل بن هشام في اجتماع رفيع المستوىٰ عقده زعماء قريش في دار الندوة في مكة . قال لهم : أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك ؛ تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل ـ أي : بالدية ـ فعقلناه لهم[1] .

جمع طغاة قريش الشبان المكلفين بالمشاركة في الاغتيال ، ثم مضوا في تنفيذ خطتهم . تحركت كتيبة الاغتيال ذات ليلة فأحاطت ببيت النبي صلى الله عليه وسلم في جنح الظلام ، وبقوا ينتظرون منامه ليهجموا عليه ويقتلوه . غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأىٰ مقدمهم وعرف مقصدهم ، وكان قد خطط للهجرة من ليلته تلك ، فطلب من ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام في فراشه ، وطمأنه بأنه لن يصيبه مكروه .

لم يتردد علي لحظة واحدة في الموافقة على الطلب ، فهو كان مؤمناً صادق

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٢) .

الإيمان ، وشجاعاً من أشهر الشجعان . وطلب النبي صلى الله عليه وسلم من علي أيضاً أن يبقىٰ بعده في مكة أياماً ليرد أمانات وضعها عدد من الناس عنده . ما أعجب أمر كثير من كفار قريش ! كانوا يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يقوله عن ربه ، ويرفضون القبول برسالة الإسلام ، وفي الوقت نفسه كانوا يضعون أماناتهم عنده ؛ لأنهم يعرفون صدقه وأمانته وما شهدوا عليه كذباً قط .

ثم تحرَّك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بتوجيهٍ وحماية من ربِّه ، وخرج من بيته رغم وجود المهاجمين الذين يحاصرونه أخذ النَّبيُّ حَفْنةً من التُّراب في يده ونثرها في ثبات وشجاعة علىٰ رؤوس أفراد كتيبة الاغتيال ، لم يجزع منهم ولم يهبهم وكان موقناً أنَّ الله تعالىٰ حافظه من كيدهم ، ثم قرأ من كتاب الله عز وجل هـٰذه الآيات : ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة يس : ١ ـ ٩] غشيت أبصار المهاجمين فعجزوا عن رؤية النَّبيِّ وهو يغادر منزله ، وعندما طال عليهم الوقت ؛ قرَّروا اقتحام المنزل ، رفعوا الغطاء عن الرَّجل الذي كان نائماً مطمئناً في فراش النَّبيِّ فوجدوا عليّ بن أبي طالب ، وأدركوا أنَّ خطَّتهم الشَّيطانيَّة قد آلت إلىٰ فشلٍ ذريعٍ .

أين محمد ؟ أين محمد ؟ كان ذاك هو سؤال السُّلطات القرشيَّة بعد أن نجا النَّبيُّ من محاولة الاغتيال ، وبالطَّبع لم يكن السُّؤال يصدر عن نفوسٍ أنَّبها ضميرها علىٰ ما سعت إليه من جريمةٍ شنيعةٍ ، وإنَّما كان يصدر من أناس لم يعد لديهم رادع من عقلٍ أو خُلقٍ أو ضميرٍ يردعهم عن فعل الشَّرِّ ، كانوا يريدون إلقاء القبض على النَّبيِّ حياً أو ميتاً قبل أن يهاجر إلىٰ يثرب .

لحظاتٌ عصيبةٌ في الغار

خرج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من بيته مباشرة إلىٰ بيت صديقه أبي بكر الصِّدِّيق ، ومن هناك خرج الرَّجلان معاً واختفيا عن الأنظار في غار بجبل ثور ، وهو جبلٌ من جبال مكَّة ، كان أبو بكر قد رتَّب تفاصيل رحلة الهجرة مع النَّبيِّ إلىٰ يثرب علىٰ أحسن ما يكون الإعداد والتَّرتيب ؛ فقد كلَّف ابنه عبدَ الله بأن يرصد ما يدور في مكَّة من أخبار وتحرُّكات وينقلها إلى النَّبيِّ كلَّ مساءٍ ، كما كلَّف ابنته أسماء بتأمين الطَّعام ، وكلَّف راعيه عامرَ بن فهيرة بالمساعدة في تأمين الغذاء وفي الحماية ، واستئجر دليلاً من الخبراء بالطُّرق الصَّحراويَّة المؤدِّية إلىٰ يثرب ، واستوثق من كتمانه السِّرَّ ، وأمدَّه بناقتين ليركبهما مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في رحلة الهجرة ، لم ينجز أبو بكر كل هٰذه الترتيبات علىٰ حينِ غفلةٍ ، أو لحظةَ وصول النَّبيِّ إليه بعد خروجه من بيته ونجاته من مؤامرة الاغتيال .

كان النَّبيُّ قد خطَّط للأمر جيِّداً قبل ذلك ، وتوجَّه مرَّةً إلىٰ بيت صديقه أبي بكر في وقتٍ لم يعتد زيارته فيه ، قالت عائشة أمُّ المؤمنين : (أتانا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلمَّا رآه أبو بكر ؛ قال : ما جاء رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هٰذه السَّاعة إلا لأمر حدث ، فلمَّا دخل ؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أخرج عنِّي من عندك » ، فقال : يا رسول الله ؛ إنَّما هما ابنتاي ، ما ذاك ؟ فقال : « إنَّ الله قد أذن لي في الخروج والهجرة »، فقال أبو بكر: الصُّحبةَ يا رسول الله ، قال : « الصحبة »، قالت ـ عائشة ـ : فوالله ؛ ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتَّىٰ رأيت أبا بكر يبكي يومئذ)[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥) .

عندما يتأمَّل المرء منَّا في هٰذا الموقف فإنَّه لن يستغرب بكاء أبي بكر من الفرحة ، مَن مِن عُموم المؤمنين لن يفعل مثله لو أتيحت له فرصة مرافقة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم أو إبراهيمَ أو موسىٰ أو عيسىٰ أو واحدٍ من الأنبياء الآخرين عليهم السَّلام جميعاً في رحلة تاريخيَّة حاسمةٍ مثل هٰذه الرحلة ؟ أما اختيار النبي لأبي بكر لصحبته في رحلة الهجرة ؛ فدليل حاسم قاطع علىٰ أنه كان أوثق أصدقائه وأقربهم إلىٰ قلبه ، وعلىٰ أنَّه كان موضع ثقته الكاملة .

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلىٰ غار ثور ليختفيا فيه فترة من الزمن ؛ بادر أبو بكر إلى الدخول ليطمئنَّ أنَّه لا يوجد فيه سَبُعٌ أو حيَّةٌ أو أيُّ أمرٍ آخر يهدِّد سلامة النَّبيِّ ، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ قضياها في الغار جاءهما الخبر أنَّ قريشاً خصَّصت مكافأةً ضخمةً قدرها مئة ناقة لمن يعثر على الرَّسول صلى الله عليه وسلم ويلقي عليه القبض ، انتشرت فرق الطَّامعين في المكافأة تبحث عن خاتم الأنبياء والمرسلين ، ووصل بعضهم إلىٰ مدخل الغار الذي كان يختبىء فيه مع صاحبه ، قال أبو بكر يتحدَّث عن تلك اللَّحظة : كنتُ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الغار فرفعت رأسي ؛ فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا نبيَّ الله ؛ لو أنَّ بعضهم طأطأ بصره ؛ رآنا ، قال : « اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما »[1] .

لكن الباحثين لم يطأطئوا رؤوسهم ؛ لأنهم لم يروا أثر حياةٍ أو حركة في الغار ، قال بعض الكتاب : إنهم وجدوا نسيج عنكبوتٍ وعشَّ حمامةٍ علىٰ باب الغار ، فلم يتوقَّعوا أن يكون النَّبيُّ وصاحبه مختفيين فيه ، وحسم القرآن الكريم القول في وصف تلك اللَّحظات الحرجة مبيِّناً أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه كانا في حفظ الله ورعايته : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٢) .

تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة : ٤٠] .

عرف أبو جهل بن هشام أنَّ أبا بكر الصديق اختفىٰ عن الأنظار أيضاً فتوقَّع أن يكون مع النَّبيِّ ، وقرَّر أن يستنطق أهل بيته ، ويضغط عليهم ليدلوه عليه ، مضىٰ إليهم فوجد أسماء بنت أبي بكر ، فسألها عن أبيها ، فقالت : إنها لا تعرف المكان الذي ذهب إليه أو اختفىٰ فيه ، واستبدَّ الغضب بعدوِّ الحرِّيَّة والإسلام فلطم أسماء لطمةً أطاحت بقرطها من آذنها ، لكنها حافظت علىٰ رباطة جأشها ، ولم تضعف أمامه ، وكان صمودها في تلك اللحظات فصلاً آخر من فصول مساهمة المرأة المسلمة في نصرة الإسلام ، من خلال المساعدة في تأمين أهم رحلة من رحلات النبي صلى الله عليه وسلم ، رحلة الهجرة التي رأىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أصبح خليفة للمسلمين أنَّها هي أعظم حدثٍ في تاريخ المسلمين، وقرَّر أن يبدأ التَّأريخ الإسلاميَّ بها ، وقد أصاب عمر في ذلك، ولم يعترض علىٰ رأيه أو يختلف معه أحدٌ من المسلمين من معاصريه أو من اللاَّحقين، واشتهرت أسماء رضي الله عنها أيضاً باسم: ذات النِّطاقين، وسبب ذلك أنه عندما قرَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مغادرة الغار وركبا ناقتيهما في رحلة الهجرة بعد فترة انتظارٍ واختباءٍ دامت ثلاثة أيَّام ؛ لم تجد ما تضع فيه زاد الرَّجُلين من الطَّعام ، فلم يكن منها إلاَّ أن شقَّت نطاقها نصفين ، نصفٌ لطعام الوفد المهاجر ، ونصفُ لنفسها تنتطق به فقيل عنها : أسماء ذات النطاقين .

قصة سراقة بن مالك

تحرك الموكب باتجاه يثرب . ركب النبي صلى الله عليه وسلم ناقته ، وأردف أبو بكر معه علىٰ ناقته خادمه عامر بن فهيرة ، وركب دليلهم علىٰ

ناقته . هـٰذا رجل خبير بشعاب الصحراء ، استأجره أبو بكر ليدلهم علىٰ أكثر الطرق أمناً ويبعد بهم عن عيون مكة .

وبعد أن قطعوا مسافة معتبرة ، رآهم شخص فشك فيهم ، ونقل الخبر إلىٰ جمع من مشركي قريش كانوا مجتمعين في ناد من نوادي مكة ، وكان من بينهم فارس شجاع أغرته المكافأة المخصصة لمن يلقي القبض علىٰ محمد ، فرغب أن يسبق إليها ، إنه سراقة بن مالك .

ناقل الخبر قال للحاضرين : إنّ ركباً من الناس مروا به قبل قليل ، وإنه ليظنهم محمداً وأصحابه . وقد صدَّقه سراقة ، لكنه أراد أن يصرف الآخرين عن منافسته على الغنيمة ، فقال : إنه لا مبرر لهـٰذا الظن ، وأن الذين رآهم ناقل الخبر في الصحراء قوم يعرفهم سراقة ، وقد أضاعوا ناقة لهم فمضوا يبحثون عنها . وبعد قليل ، غادر سراقة النادي إلىٰ بيته ، ومنها ركب فرسه واستل سلاحه ، وتوجه لمطاردة النبي صلى الله عليه وسلم ومرافقيه .

كان سراقة بن مالك بن جعشم خبيراً بالصحراء ودروبها ومتخصصاً في اقتفاء الأَثر ، لذلك لم يجد صعوبة كثيرة في التعرف على الدرب الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه . مشكلته الوحيدة التي واجهته في تلك المطاردة أنَّ فرسه عثر به أكثر من مرَّة ، لكنَّه صمَّم علىٰ ألاَّ يتراجع .

أخيراً ، وبعد صبرٍ ومثابرةٍ لاح له موكب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وشعر أنه أصح قاب قوسين أو أدنىٰ من مراده ، قال سراقة يروي ما جرىٰ في تلك اللحظات : (فلمَّا بدا لي القوم ورأيتهم ؛ عثَر بي فرسي ، فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه ، ثمَّ انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخانٌ كالإعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنَّه قد مُنع منِّي وأنَّه ظاهر .

فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلِّمكم ، فوالله ؛ لا أريبكم ولا يأتيكم منِّي شيءٌ تكرهونه ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا ؟ فقال ذلك أبو بكر ، قلت : تكتب لي كتاباً يكون آيةً بيني وبينك ، قال : اكتب له يا أبا بكر)[1] .

كتب أبو بكر أو خادمه كتابَ أمانٍ لسُراقة باسم النَّبيِّ حفظه عنده لسنوات ، وسيظهر سراقةُ لاحقاً في موقف مؤثر ومعبِّرٍ بعد فتح المسلمين وتحريرهم لمكَّة وفراغهم من موقعتي حنين والطَّائف ، كان النَّبيُّ محاطاً بأنصاره الكثيرين ، وكان سراقة يزاحمهم للوصول إليه ، وها هو يروي بقية القصة : (فرفعت يدي بالكتاب ثمَّ قلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا كتابك ، أنا سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « يوم وفاءٍ وبرٍّ ، ادْنُه » أي : اقترب ، فدنوت منه ، فأسلمت ، ثمَّ تذكَّرت شيئاً أسأل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عنه فما أذكره ، إلاَّ أنِّي قلت : يا رسول الله ؛ الضَّالة من الإبل تغشىٰ حياضي وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجرٍ في أن أسقيها ، قال : « نعم ، في كلِّ ذات كبدٍ حَرَّىٰ أجر »)[2] سقاية الحيوان وكلِّ كائنٍ يعطش من صميم الدِّين ويؤجر فاعلها ، هـٰكذا قال نبيُّ الإسلام لرجلٍ من بادية العرب قبل مئات السِّنين ، ولو أنَّ كلمته أذيعت وروِّجت في كثير من أماكن النِّزاع بين القبائل على الماء والمرعىٰ في عالمنا المعاصر ؛ لتجنَّبت البشريَّة حروباً كثيرة سيِّئةً لا ضرورة لها ، أما قوله : « يوم وفاء وبر » ؛ فتلخيص لمسيرة حياته ولتعاليم دينه ، الوفاء بالعهد والوعد من صميم الدِّين ، والبرُّ بالنَّاس ؛ أي : معاملتهم بأفضل وأرقىٰ أساليب التَّعامل من صميم الدِّين أيضاً .

نجا موكبُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من عيون قريش وحرَّاسها ، سلك به الدَّليل عبد الله بن أُرَيْقط طريقاً لم تعتده قريش ، فاتَّجه أوَّلاً إلى السَّاحل غرباً ، ثمَّ اتَّجه شمالاً نحو يثرب ، ومع كلِّ مسافةٍ يقطعها الرَّكب في الاتجاه

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٩ـ ٤٩٠) .
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٠) .

المطلوب ، كانت مكَّة تبعد وتتوارىٰ عن ناظري النَّبيِّ ومن معه ، مكَّة التي وُلِد فيها ورضع في باديتها وحضر أهمَّ مجالسها منذ صغره مع جدِّه عبد المطَّلب ، مكَّة التي تعرَّف فيها علىٰ أحب النِّساء إليه وتزوَّجها وبنىٰ معها عائلةً متماسكة سعيدة ، مكَّة التي اشتهر فيها بالصِّدق والأمانة ، مكَّة التي فرحت به يوم دخل عليها من باب المسجد ينقذها من حرب أهليَّةٍ بسبب التَّنافس حول من يضع الحجر الأسود في مكانه من البناء الجديد للكعبة ، مكَّة التي نزل فيها عليه الوحي من ربِّ العالمين ، مكَّة التي جَهَر فيها بدعوة الإسلام وتحمَّل ما لقيه من أذىٰ زعمائها المشركين المستبدِّين بصبرٍ نادرٍ .

مكَّة كانت حياته وها هو اليوم وقد بلغ الثالثة والخمسين من عمره يجد نفسه مضطرّاً لفراقها ومغادرتها مع أنها أحبُّ البلاد إلى الله وأحبُّ البلاد إلىٰ نفسه ، وإنَّه ليخاطبها بذلك كأن رمالها وجبالها وبيوتها تسمعه وهو يلقي عليها سلام من فرض عليه خيار الهجرة : « والله ؛ إنَّك لأحبُّ أرض الله إلى الله ، وإنَّك لأحبُّ أرض الله إليَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك ؛ ما خرجت » .

أما في يثرب : فقد كان الناس ينتظرون مقدم رسول الله وخاتم النبيين بفارغ الصبر . روى ابن إسحاق في « السيرة » بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قولهم : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وتوكفنا (أي : وتوقعنا ، أو : وانتظرنا) قدومه ؛ كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلىٰ ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ؛ ما نبرح حتىٰ تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاًّ ؛ دخلنا ، وكان ذلك في أيام حارة[1] .

ولم يطل انتظار أهل يثرب كثيراً . ففي منتصف نهار يوم الاثنين ، الثاني عشر من ربيع الأول ، في العام الأول للهجرة ، الموافق لعام ٦٢٣ للميلاد ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٢) .

وصل محمد رسول الإسلام بصحبة رفيقه أبي بكر الصديق إلىٰ قباء وهو حي لا يبعد اليوم إلا بضع كيلومترات عن قلب يثرب . وقد آن الأوان أن نستخدم الاسم الجديد ليثرب ، الاسم الذي اختاره لها أهلها والمسلمون عامة بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إليها : المدينة . وأغلب الناس والكتاب يضيفون لاسم المدينة لقب المنورة ؛ لأنها استنارت وأنارت من نور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن نور الحق الذي جاء به من عند ربه ؛ ليخرج الناس من عبادة الأصنام إلىٰ عبادة الله وحده ، وليهديهم إلىٰ ما فيه فوزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

* * *

الفَصلُ الخامِسُ

الدَّوْلَةُ الإسْلاميَّةُ الأُولىٰ ؛ دُسْتورٌ للعَدْلِ ، وعَهدٌ لحقوقِ الإنسانِ

وصل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المدينة المنورة ، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ الإسلام وتاريخ البشرية .

أقام خاتم النبيين في قباء أياماً قليلة بنىٰ فيها أول مسجد للمسلمين ، ثمَّ قرَّر التَّوجُّه إلىٰ وسط المدينة وقلبها ، وفي الطَّريق القصير بين الموقعين : تنافست قبائل المدينة وعشائرها على استضافته ، اعترضت طريقه وفودٌ كثيرة ، أعيان كلِّ وفد يطلبون منه أن يشرِّفهم بالإقامة عندهم ويَعِدُونه بضمان كلِّ وسائل الرَّاحة والأمن ، وأكرم الضِّيافة له ، والنَّبيُّ الذي لا يريد أن يحابي قبيلةً علىٰ أخرىٰ أو أهل حي علىٰ أهل حي آخر يقول لهم جميعاً : « خلُّوا سبيل النَّاقة ؛ فإنَّها مأمورةٌ » ، وكان ممن اعترض طريقه من الرَّاغبين في استضافته أخواله في دار بني عدي بن النجار ، قالوا له : يا رسول الله ؛ هلمَّ إلىٰ أخوالك إلى العدد والعُدَّة والمنعة ، وأجاب النَّبيُّ أخواله بما أجاب به الآخرين : « خلوا سبيلها ـ أي : الناقة ـ فإنها مأمورة » .

أين ستقف النَّاقة يا ترى ؟ وهل تعرف ما يدور في نفوس النَّاس من حولها ، وبالشَّرف التَّاريخي العظيم الذي يمكن أن تجلبه لأيِّ واحدٍ منهم لو توقَفت في أرضه أو أمام داره ؟ بعد طول انتظار توقَّفت النَّاقة عن السَّير في قطعة أرض يجفَّفُ فيها التَّمر وسط المدينة ، لم ينزل عنها النَّبيُّ فعادت وتحرَّكت قليلاً ، ثمَّ عادت إلى المكان نفسه وبركت فيه ، عندئذ نزل عنها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسأل عن المكان ، قال له رجلٌ عارفٌ بالجواب

اسمه معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتَّخذه مسجداً .

قَبِل النَّبيُّ الاقتراح وأمر ببناء المسجد ، وأقام في الأثناء في بيت قريب يملكه أبو أيوب الأنصاري ، هٰكذا اختار الله عز وجل أن ينال ولدان يتيمان شرف احتضان بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والمسجد النَّبويِّ الشَّريف ، المسجد ذاته الذي بقي بعد ذلك منارة للتوحيد وشرائع الإسلام ومكارم الأخلاق علىٰ مدار القرون ، وما زال مقصداً عظيماً لملايين المسلمين الذين يزورونه كل عام ويأتونه من كل أنحاء العالم .

استغرق بناء مسجد الرَّسول وبيته عدَّة أشهر ، اكتملت خلالها هجرة المسلمين من مكَّة المكرَّمة ، وعمَّ فيها الإسلام بيوت المدينة المنوَّرة إلاَّ بعض العائلات القليلة من الأوس بقي أهلها مشركين .

ونقل المؤرِّخون خطبتين ألقاهما الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم في تلك الفترة خلال إمامته لصلاة الجمعة تمكِّنان الباحث من معرفة القيم التي حَرِص النَّبيُّ علىٰ ترسيخها في نفوس سكَّان عاصمته الجديدة .

قال في الخطبة الأولىٰ : « أيُّها النَّاس ؛ فقدِّموا لأنفسكم ، تعلمُنَّ والله ليُصعَقنَّ أحدكم ، ثمَّ ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راع ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه وليس له تَرْجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلَّغك ؟ وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدَّمت لنفسك ؟ فلَينظُرنَّ يميناً وشمالاً فلا يرىٰ شيئاً ، ثمَّ ليَنظُرنَّ قُدَّامه فلا يرىٰ غيرَ جهنَّم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشِقِّ تمرةٍ ؛ فليفعل ، ومن لم يجد ؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ ؛ فإنَّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبع مئة ضعف ، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[١] .

جوهر هٰذه الخطبة أنَّ الإنسان قادرٌ دائماً علىٰ أن يتصدَّق ويعطي مهما كان

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٠ـ ٥٠١) .

فقيراً بالمعايير المادِّيَّة المجرَّدة . نبيُّ الإسلام يقول لكل إنسان في كل زمان ومكان : إنه يستطيع تجنب النَّار ودخول الجنَّة بصدقةٍ قوامها نصف تمرة ، لا حاجة حتَّىٰ لتمرةٍ واحدةٍ إذا كان المرء فقيراً ولا يملكها ، كلمةٌ طيِّبةٌ تكفي ، وأجرها يبدأ من عشرة أضعاف إلىٰ سبع مئة ضعف في ميزان الله ، إنَّ قدرة الإنسان على العطاء أصيلة فيه وجزء من تكوينه لا يمكن أن تصادرها منه ظروفٌ مادِّيَّة صعبةٌ أو سياسات متعسِّفة .

وفي الخطبة الثانية من خطب النَّبيِّ معانٍ أخرىٰ تكشف المزيد عن هدى الإسلام ومكانة الحبِّ فيه كرابطة جميلةٍ بين الإنسان وخالقه ، قال محمَّد رسول الإسلام صلَّى الله عليه وسلَّم : « إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالىٰ ، قد أفلح من زيَّنه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره علىٰ ما سواه من أحاديث النَّاس ، إنَّه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحبَّ الله ، أحبُّوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تملوا كلامه وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ؛ لأنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي ، وقد سمَّىٰ[1] الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حقَّ تقاته ، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده والسَّلام عليكم »[2] .

أحبوا الله من كلِّ قلوبكم وتحابُّوا بروح الله بينكم ، تلك هي رسالة المحبَّة التي جاء بها النَّبيُّ إلىٰ أهل المدينة المنوَّرة وإلى المسلمين وإلى الناس في كلِّ

---

(١) استخدمنا هنا عبارة : (سمىٰ) ، وهي تفي في سياق الخطبة (حدد) أو (اختار) أو (اصطفىٰ) ، وهي بهـٰذا المعنىٰ أوفق وأنسب ضمن نص الخطبة من عبارة (سماه) الموجودة في الأصل في « سيرة ابن هشام » .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠١) .

زمانٍ ومكانٍ ، وتلك هي رسالة النَّبيِّ الذي تآمر عليه طغاة قريشٍ ليقتلوه بعد سنوات من الحصار والتَّعسُّف والإرهاب ، ولكنه نجا منهم إلى المدينة المنورة ، لا مكان في قلب النَّبيِّ للحقد ، ولا مكان للحقد في قلب كلِّ مسلمٍ يقتدي بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

أصبحت المدينة مركز المشروع الإسلامي بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم وعاصمة لكيانه الروحي والسياسي الجديد ، أو بعبارة مختصرة : للدولة الإسلامية الوليدة . ومع ميلاد الدولة ، بدأ بعد جديد من أبعاد شصية النبي في البروز : إنه بعد القائد والحاكم والزعيم السياسي .

وبعد بناء المسجد في قباء ، ثم بناء المسجد النبوي الشريف في قلب المدينة ، اتجه اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم لوضع الأساس الدستوري والقانوني للدولة الجديدة ، وتأسيس قاعدةٍ واضحةٍ للتَّكافل والتَّضامن الاجتماعيِّ بين المسلمين .

دستورٌ نادرُ المثال :

بعد شهور قليلة من الهجرة النبوية ، كانت البشريَّة كلُّها علىٰ موعدٍ مع أوَّل دستورٍ مبنيٍّ علىٰ قيمِ العدل وحقوق الإنسان لأوَّل دولةٍ متعدِّدة الأديان في التَّاريخ .

دستورُ المدينة وثيقةٌ تاريخيَّةٌ نادرةُ المثال ، تم الإعلان عنه بعد اكتمال هجرة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع أصحابه إلى المدينة ، وبعد أن أصبح للمسلمين دولتهم المستقلَّة ، وهي دولة تحتاج إلىٰ نظامٍ أساسيٍّ تقوم عليه ، يبيِّن الأسس العامَّة التي تحكم مواطنيها وقبائلها ، كان النِّظام الاجتماعيُّ السَّائد في المدينة وفي الجزيرة العربيَّة آنذاك مبيناً على الأعراف القبلية بالأساس ، القبيلة تحمي أفرادها وتدافع عن مصالحها سياسيّاً وعسكريّاً إن لزم

الأمر ، وشيخها هو الحاكم في أمورها ، يساعده في الحكم أعيانُ القبيلة وزعماؤها الآخرون ، وكان في المدينة أيضاً عددٌ من القبائل اليهوديَّة ، بعضهم جاء قبل مئات السِّنين من فلسطين ، وبعضهم من أبناء المدينة أصلاً اعتنقوا اليهوديَّة علىٰ أيدي اليهود المهاجرين .

فلمَّا أصبح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حاكماً وزعيماً للمدينة المنوَّرة وأصبح الإسلام قاعدةَ النِّظام الثقافيِّ والاجتماعيِّ والسِّياسيِّ فيها ؛ جاء الدُّستور الجديد في صيغة عهدٍ وميثاق كتبه النَّبيُّ لأهل المدينة ؛ لحماية الحقوق الأساسيَّة لسكَّانها من جميع القبائل ومن المسلمين واليهود ، ولتنظيم العلاقة بين المسلمين واليهود ، ولكفالة الحرِّيَّة الدِّينيَّة لليهود وحماية أموالهم وممتلكاتهم .

وفيما يلي بنود هـٰذا العهد ، أو هـٰذا الدستور ، أو هـٰذا الميثاق ، أو هـٰذه الصحيفة ، وكل هـٰذه أسماء يجوز إطلاقها علىٰ هـٰذه الوثيقة ، وقد جعلت بنود الدستور في أبواب منفصلة ، واخترت عنواناً لكل باب اجتهاداً مني بغرض تسهيل فهم معانيه الرئيسة :

الباب الأوَّل : المسلمون أمَّة واحدة :

بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، هـٰذا كتابٌ من محمَّد النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنَّهم أمَّةٌ واحدة من دون النَّاس .

الباب الثَّاني : دور القبيلة في إقامة العدل وفداء الأسرىٰ :

المهاجرون من قريش علىٰ ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم ـ أي : أسيرهم ـ بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوفٍ علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ـ (دياتهم المخصصة لفداء القتلىٰ) ـ الأولىٰ ، كلٌّ طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النَّجار علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلُّ طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

الباب الثَّالث : واجب التَّكافل الاجتماعي :

وإنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم ـ المفرح هو المثْقَل بالدَّين كثير العيال ـ أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

الباب الرَّابع : تحريم الظُّلم والوقوف في وجه الظالم :

وألاَّ يحالف مؤمنٌ مولىٰ مؤمن دونه ، وإنَّ المؤمنين المتَّقين علىٰ من بغىٰ

منهم ، أو ابتغىٰ دَسيعة ظلمٍ أو إثمٍ أو عدوانٍ أو فسادٍ بين المؤمنين ، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدَ أحدهم .

ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً علىٰ مؤمن .

وإنَّ ذمَّة الله واحدةً ، يجير عليهم أدناهم ، وإنَّ المؤمنين بعضُهم موالي بعض دون النَّاس .

وإنَّه من تبعنا من يهود ؛ فإنَّ له النَّصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

الباب الخامس : عهود المسلمين في السلم والحرب واحدة ومتَّحدة :

وإن سلم المؤمنين واحدةٌ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا علىٰ سواء وعدل بينهم ، وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وإنَّ المؤمنين يبيء بعضهم علىٰ بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

وإنَّ المؤمنين المتَّقين علىٰ أحسن هدىً وأقومه .

وإنَّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه علىٰ مؤمن .

الباب السَّادس : تحريم مناصرة أو إيواء القاتل والظالم :

وإنه من اعتبط مؤمناً ـ أي : من قتله ـ قتلاً عن بيِّنة ؛ فإنَّه قَوَدٌ به إلاَّ أن يرضىٰ وليُّ المقتول ، وإنَّ المؤمنين عليه كافّةً ، ولا يحلُّ لهم إلاَّ قيامٌ عليه .

وإنَّه لا يحلُّ لمؤمنٍ أقرَّ بما في هـٰذه الصَّحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ـ ظالماً مرتكب جريمة ـ ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ؛ فإنَّ عليه لعنةَ الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صِرفٌ ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ؛ فإنَّ مردَّه إلى الله عزَّ وجلَّ وإلىٰ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم .

الباب السَّابع : المسلمون واليهود أمَّة :

وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإنَّ يهود بني عوف أمَّة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلاَّ من ظلم وأثم ؛ فإنَّه لا يوتغ ـ يلحق الأذىٰ والضرر ـ إلا نفسه وأهل بيته .

وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوف .

وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

وإنَّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف .

إلاَّ من ظلم وأثم ؛ فإنَّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

وإنَّ جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإنَّ لبني الشَّطيبة مثل ما ليهود بني عوف .

وإن البَّر دون الإثم .

وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم .

وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم .

وإنَّه لا ينحجز علىٰ ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم .

وإنَّ الله علىٰ أبر هـٰذا (أي : أن الله يرضىٰ بهـٰذه العهود والحقوق) .

الباب الثَّامن : علاقة المسلمين باليهود مبنيةٌ على التَّناصر والنصحية والبرِّ :

وإنَّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

وإنَّ بينهم النَّصر علىٰ من حارب أهل هـٰذه الصَّحيفة .

وإنَّ بينهم النُّصح والنَّصيحة والبر دون الإثم .

وإنَّه لم يأثم امرؤ بحليفه .

وإنَّ النَّصر للمظلوم .

وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

الباب التَّاسع : تحريم الظُّلم في المدينة وتأكيد حقوق الجار :

وإنَّ يثرب حرام جوفها لأهل هـٰذه الصَّحيفة .

وإنَّ الجار كالنَّفس غير مضارٍّ ولا آثمٍ .

وإنَّه لا تجار حرمةٌ إلاَّ بإذن أهلها .

الباب العاشر : حسم الخلافات بالعودة لله والرَّسول :

وإنَّه ما كان بين أهل هـٰذه الصَّحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يخاف فساده ؛ فإنَّ مردَّه إلى الله عزَّ وجلَّ وإلىٰ محمَّدٍ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

وإنَّ الله علىٰ أتقىٰ ما في هـٰذه الصحيفة وأبرِّه .

الباب الحادي عشر : التَّحالف العسكري بين المسلمين واليهود في وجه قريش :

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإنَّ بينهم ـ بين المسلمين واليهود ـ النصر علىٰ من دَهَم يثرب ، وإذا دعوا إلىٰ صلح يصالحونه ويلبسونه ؛ فإنَّهم يصالحونه ويلبسونه .

وإنَّهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك ؛ فإنَّه لهم على المؤمنين إلاَّ من حارب في الدِّين علىٰ كلِّ أناس حصَّتهم من جانبهم الذي قبلهم .

وإنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم علىٰ مثل ما لأهل هـٰذه الصَّحيفة مع البرِّ المحض من أهل هـٰذه الصَّحيفة .

الباب الثَّاني عشر : الصِّدق وأحسن الأخلاق أساسُ الدُّستور :

وإنَّ البرَّ دون الإثم لا يكسب كاسبٌ إلاَّ علىٰ نفسه .

وإنَّ الله علىٰ أصدق ما في هـٰذه الصَّحيفة وأبره ، وإنَّه لا يحول هـٰذا الكتاب دون ظالمٍ وآثمٍ .

وإنَّه من خرج ؛ آمنٌ ، ومن قعد ؛ آمنٌ بالمدينة إلاَّ من ظلَم أو أثِم .

وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ واتَّقىٰ ، ومحمَّدٌ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم(١) .

عهدٌ عالميٌّ لحقوق الإنسان

بعد عرض دستور الدولة الإسلامية الأولىٰ في التاريخ مبوباً ومفصلاً ، أستأذن القراء الكرام في التوقف عند بعض أهم المبادىء والقيم التي تضمنها :

١ـ المسلمون أمَّةٌ واحدةٌ ، سواء كانوا من أبناء المدينة وقد أصبحوا يسمون الأنصار من باب نصرتهم للنَّبيِّ ودعوةِ الإسلام ، أو كانوا من المهاجرين من مكَّة ومن غير مكَّة أغنياء المسلمين مطالبون بدعم فقرائهم وتحمُّل أعبائهم الماليَّة الضَّروريَّة عند الحاجة ، ويشمل ذلك فداءهم من الأسر إن اقتضى الأمر ، وهم من الجانب السِّياسيِّ والقانونيِّ جبهةٌ موحَّدةٌ ، موقفهم واحدٌ ضدَّ الظَّالم والمجرم من بينهم ، لا يحمونه ولا يدعمونه ، ويتكاتفون من أجل تطبيق العدالة بحقِّه ، يسالمون كأمَّةٍ واحدةٍ ، ويحاربون كأمَّةٍ واحدةٍ بناءً علىٰ موقفٍ جماعيٍّ مُلْزمٍ ، وإن أجارَ واحدٌ منهم لاجئاً كما كانت عادة القبائل آنذاك ؛ فإنَّ موقفه يلزم البقيَّة من باب التَّقدير والاحترام لأفراد هـٰذه الأمَّة كافة .

٢ـ البرُّ في اللُّغة العربيَّة أحسن الأخلاق ، وأفضل وجوه المعاملة للنَّاس ، وهـٰذا هو ما نصَّ عليه الدُّستور أو عهد محمَّد رسولُ الله إلى القبائل اليهوديَّة في

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٤) .

المدينة ، ويدخل في وجوه البرِّ : أن ينصر المسلمون واليهود بعضهم بعضاً ، وأن يتناصحوا ، وأن ينصروا المظلوم ويقفوا في وجه الظَّالم .

وبالإضافة إلىٰ ذلك كلِّه ينصُّ عهدالنَّبيِّ علىٰ أنَّ المسلمين واليهود أمَّةٌ واحدةٌ بالمعنى السِّياسيِّ ، وأنَّ لكلٍّ من الطَّرفين حقَّ النُّصرة والحماية على الطَّرف الآخر ، وأنهما يتعاونان في حماية المدينة في وجه كل من يستهدفها بعدوان .

٣ـ وضع عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة التزاماتٍ أخرىٰ علىٰ أمَّة المسلمين واليهود من أبرزها اعتبار المدينة أرضاً مقدَّسةً يحرم فيها الظُّلم والعدوان ، وتكريم الجار ورعايةُ حقوقه علىٰ أساس أنَّ الجار كالنَّفس ، وهـٰذه مرتبة للجار لا تعلوها مرتبةٌ في أيِّ ميثاقٍ أو عهدٍ آخر في التَّاريخ .

وفي العهد أيضاً : تأكيدٌ علىٰ ألاَّ يعاقب الفردُ أو القبيلة بجريمة حليف من الحلفاء .

٤ـ حدد الدستور بشكل واضح الجهة التي تعتبر خطراً علىٰ أمَّة المسلمين واليهود في المدينة ، إنها قريش التي تزعَّمت جبهة الشِّرك والاستبداد ، والتي قمعت الإسلام وأتباعه في مكَّة ، وخطَّطت لاغتيال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ولا شكَّ أنَّها تخطِّط الآن لاستهداف المركز الإسلاميِّ الجديد في المدينة المنوَّرة ، وبناء علىٰ ذلك تضمن عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة من المسلمين واليهود بنوداً واضحة ، تمنع أي ساكن من سكان المدينة ، وأي قبيلة من قبائلها ، من أن تتحالف مع قريش أو من يناصر قريشاً ؛ لأنَّ ذلك يعني إعلاناً للحرب على الدولة الإسلامية ، ومساهمة في الجهود الرَّامية للقضاء على الإسلام واستئصاله من جذوره .

هـٰذه عهود الإسلام ونبيه في القرن الهجري الأول ، الموافق للنصف الأول من القرن الميلادي السابع ، فمن يا ترىٰ من المؤرخين يستطيع أن يستخرج من

تراث العهود والمواثيق في تلك المرحلة التاريخية وثيقة دستورية أكثر حرية وديمقراطية وتسامحاً والتزاماً بمكارم الأخلاق مما جاء في دستور المدينة ؟

الجواب العلميُّ والموضوعيُّ الوحيد : لا توجد أيَّة وثيقة دستوريَّة مماثلة .

فإذا تجاوزنا تلك المرحلة التَّاريخيَّة ونظرنا في سائر المواثيق والدَّساتير والعهود المعاصرة ، وقارنا ما جاء فيها إلىٰ ما جاء في دستور المدينة ؛ ألا يعتبر دستور المدينة معلماً رائداً ورئيساً في تراث مواثيق حقوق الإنسان العالميَّة ؟

الجواب العلمي والموضوعي الوحيد : نعم وبامتياز أيضاً .

أُخوَّة في العقيدة

بعد تحديد هـٰذا الإطار الدُّستوري الهامِّ ركَّز النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ تعزيز وحدة الجبهة المسلمة ، فقد جاء إلى المدينة مهاجرون كُثُر من مكَّة ومن مناطق أخرىٰ ، ومعروفٌ أنَّ تزايد عددِ اللاَّجئين في مدينةٍ عدد سكَّانها محدودٌ قد يُحدِث ردود فعلٍ سلبية أحياناً ، وربَّما صداماتٍ عنيفةً كما يحدث في مناطق كثيرة من عالمنا في هـٰذا العصر .

أمر الرَّسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من الأنصار والمهاجرين بأن يتآخوا في الله أخوين أخوين ، فأصبح أبو بكر الصِّديق وخارجة بن زهير أخوين ، وعمرُ بن الخطَّاب وعتبان بن مالك أخوين ، وأبو عبيدة ابن الجرَّاح وسعد بن معاذ أخوين ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين ، ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين ، وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، واختار النَّبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليّاً بن أبي طالب أخاً له ، وكان عليٌّ قد بقي في مكَّة بعد هجرة الرَّسول منها ثلاثةَ أيَّامٍ

أعاد فيها الأمانات والودائع التي كانت عند النَّبيِّ لأصحابها ، ثمَّ هاجر إلى المدينة .

قائمة الذين دخلوا في هٰذه المؤاخاة طويلة ، وقصتهم تشير إلىٰ ما أحدثته العقيدة الجديدة في نفوس المؤمنين بها من أثر كبير ، لقد تغيَّرت الموازين والأولويات عند أتباع محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأصبحت أخوة العقيدة والفكرة مقدمة عندهم علىٰ أخوة العائلة والقبيلة . وقد مدح القرآن الكريم هٰذا السلوك في هٰذه الآيات الكريمة : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر : ٨ ـ ١٠] .

لم يبخل الأنصار من أهل المدينة بشيء عندهم علىٰ إخوانهم الجدد ، لكنَّ المهاجرين لم يكونوا حملاً ثقيلاً ، وإنما دخلوا السُّوق وعملوا وبدؤوا سريعاً في كسب رزقهم من جهدهم وعرق جبينهم ، وبذلك نجح المسلمون من المهاجرين والأنصار في اختبارٍ تاريخيٍّ نادرٍ ، وأكدوا أنَّ الإنسان قادرٌ دائماً علىٰ أن يجعل المبادىء النَّبيلة مقدَّمةً على المغانم والمصالح الفرديَّة ، أمَّا سرُّ النَّجاح ؛ فتربية مباشرةٌ من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وتوجيهٌ مستمرٌّ من القرآن الكريم ، يذكِّرهم جميعاً بالميزان الصَّحيح للأشياء ، كما في هٰذه الآيات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ

﴿ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة المنافقون : ٩ـ١١] .

وكما في هٰذه الآيات الكريمة أيضاً : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١ـ٢٦٢] .

نداء الصَّلاة في الإسلام

كانت الإجراءات والترتيبات تتوالىٰ وتتكامل لتنظيم الحياة الروحية والسياسية في أول دولة إسلامية علىٰ وجه التاريخ . بدأت هٰذه الإجراءات أولاً ببناء المسجد ليكون الموقع المركزي في قلب المدينة ، يؤمه المسلمون للصلاة خمس مرات في اليوم ، ولحضور الاجتماعات الهامة التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم . ثم جاء عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة من المسلمين واليهود ، وهو كما فصلت القول فيه قبل قليل دستور مبنيٌّ علىٰ قيمِ الإيمان والحرِّيَّة واحترام التَّعدُّدية الثَّقافيَّة والدِّينيَّة ، بعد ذلك تمَّ اعتماد نظامٍ نادرٍ للتَّكافلِ الاجتماعي بين المسلمين عبَّرت عنه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، كما أعلنت الزَّكاة فريضةً على المسلمين وركناً أساساً من أركان الإسلام .

أُضيفَ إلىٰ هٰذه الترتيبات كلها أمرٌ جديدٌ آخرُ يخصُّ أسلوب الدَّعوة إلىٰ الصَّلاة في مسجد الرَّسول وفي كلِّ مساجد الإسلام بعد ذلك ، كان المسلمون يعرفون مواعيد الصَّلوات الخمس بقياس حركة الشمس ، ولم تكن الساعات التي تضبط الوقت قد اخترعت بعد ، ففكر النبي صلى الله عليه وسلم في اعتماد وسيلة تنبه المؤمنين إلىٰ أوقات الصلاة ، وسيلة شبيهة بالوسائل السَّائدة عند أهل الكتاب من اليهود أو النَّصارىٰ ؛ أي : باعتماد بوقٍ مكبر للصوت أو

ناقوسٍ ينبِّه المؤمنين لمواقيت الصَّلاة ويدعوهم لأدائها في المسجد .

لكنَّ واحداً من أصحابه ويدعىٰ عبد الله بن زيد رضي الله عنه جاء للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إنَّه رأىٰ في المنام رجلاً علَّمه صيغةً جديدة في الدَّعوة للصَّلاة ، ما هي هـٰذه الصيغة ؟ قال عبد الله بن زيد : إن الرَّجل الذي رآه في المنام أوصاه بالمناداة للصَّلاة بنداء يتضمن العبارات الآتية : (الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، أشهد أن محمَّداً رسول الله ، أشهد أن محمَّداً رسول الله ، حيَّ على الصَّلاة ، حيَّ على الصَّلاة ، حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إلـٰه إلا الله) .

انشرح صدر النَّبيِّ لرؤيا عبد الله بن زيد وقال له : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ؛ فإنه أندىٰ صوتاً منك »[1] .

بلال بن رباح رضي الله عنه سيد من سادات المسلمين ، واسم لا يمحىٰ من ذاكرة كل مسلم ؛ انه رمزُ الدَّور المركزيِّ للرَّجل الأسود في تبنِّي دعوة الإسلام ونصرتها ، ونشر ما فيها من قيم الحرِّيَّة والمساواة ، وها هو النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يقدِّمه علىٰ صاحب رؤيا الأذان عبد الله بن زيد ، ويشيد بصوته النَّديِّ ، ويعطيه شرف أن يكون مؤذِّنه ، وأوَّل مؤذِّنٍ في تاريخ الإسلام ، ولا شكَّ أنَّ مسلمين آخرين كُثُر تمنَّوا لو نالوا هـٰذا الشَّرف ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم حسم الأمر لبلال .

سمع عمر بن الخطَّاب بلالاً يؤذِّن للصَّلاة بصوته الجميل ، وعرف برؤيا عبد الله بن زيد ، فجاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال له : يا نبيَّ الله ؛ والذي بعثك بالحقِّ لقد رأيتُ مثل الذي رأىٰ ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « فلله الحمد علىٰ ذلك »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٩) .

وفي منتصف العام الثَّاني للهجرة أصبح المسجدُ الحرامُ في مكَّةَ المكرَّمةِ قبلةَ المسلمين في الصَّلاة من بعد أن كانوا يتوجهون إلىٰ بيت المقدس ، تغيرت القبلة بأمر من الله عز وجل ونزل في ذلك وحي كريم : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٩ـ١٥٢] .

هكذا ، وخلال عامين اثنين فقط بعد الهجرة ، ظهرت معالم الدولة الإسلامية الأولىٰ بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم . دولة أساسها الإيمان بالله تعالىٰ وإفراده بالعبادة من دون شريك ، ولها قوانينها المبنية على العدالة وحرية العقيدة ، ولها سياستها الاجتماعية القائمة على الزكاة والتكافل والتضامن بين فئات المجتمع . كان النبي صلى الله عليه وسلم مؤسس هٰذه الدولة وقائدها وزعيمها ، لكنه لم يتوقف لحظة واحدة عن أداء مهمته الأساسية ، وهي تبليغ رسالة خالق الناس لعباده أجمعين . فكان يتلقى الوحي ويقرأ القرآن الكريم للناس ، ويرد علىٰ أسئلة الباحثين عن الحق والهدىٰ ، وأيضاً علىٰ أسئلة بعض الخصوم الباحثين عن الجدال وتسجيل النقاط وليس عن الحق والهدىٰ .

الجامعة المفتوحة في المدينة المنوَّرة

أصبحت المدينة المنورة بهٰذا المعنىٰ مركزاً للنور الجديد الطامح إلىٰ تحرير العقل البشري من العبودية للأصنام والخرافة والأوهام ، وأصبح مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم جامعة مفتوحة يتربىٰ ويتعلم فيها جيل جديد من

الناس ، ألقيت عليهم مسؤولية مساعدة النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ شريعة التوحيد والعدل والحرية للناس أجمعين .

وكان معلِّمَ هـٰذا الجيل هو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهو إنسان متواضع كريم ، آتاه الله من مكارم الأخلاق ومن الحكمة وجوامع الكلم ومن مقوِّمات الزَّعامة والتأثير في النُّفوس ما جعله القدوة الأمثل للمسلمين في حياته وللمسلمين على امتداد الزمان بعد مماته .

أعباء بناء الدولة الجديدة كانت كثيرة وضخمة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم بقي في المقام الأول معالماً ومربياً للناس ، أو كما وصف القرآن الكريم مهمته :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَـذِيرٗا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۞ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۞ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب : ٤٥ـ٤٨] .

كان مما ركز عليه النبي صلى الله عليه وسلم في توجيهاته للمؤمنين أن تكون محبَّة الله راسخةً في القلب ، وأن تنشأ العبادة عن محبَّة وإخلاص ، وليس عن رياء وتظاهر ونفاق ، وفَهِم المسلمون من نبيِّهم صلى الله عليه وسلم أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لا يحبُّ إلا العمل الخالص لوجهه ؛ لأنَّ الدِّين كلَّه مبنيٌّ على الصِّدق ، وعلى الصِّدق وحده ، أما أولـٰئك الذين يبدون تديُّناً ظاهريّاً بقصد الحصول على امتيازات معنويَّةٍ أو ماديَّةٍ من البشر ؛ فإنَّ الله لا يعبأ بتديُّنهم .

روى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً قصَّة معبِّرة تدل علىٰ ما يمكن أن يصل إليه الانسان بصدق إيمانه وبإخلاصه الكامل لله ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « بينما ثلاثةُ نفرٍ يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلىٰ غارٍ في الجبل ، فانحطت علىٰ فم غارهم صخرةٌ من الجبل فأطبقت عليهم ، فقال

بعضهم لبعضٍ : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحةً فادعوا الله لعله يفرِّجها .

فقال أحدهم : اللهم ؛ إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبيةٌ صغارٌ كنت أرعىٰ عليهم ، فإذا رُحت عليهم فحلبت ؛ بدأت بوالِديَّ أسقيهما قبل وَلَديَّ ، وإنه نأَىٰ بيَ الشجرُ ، فما أتيت حتَّىٰ أمسيت فوجدتُّهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحِلاَب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصِّبية قبلهما ، والصِّبية يتضاغَوْنَ عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتَّىٰ طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرج لنا فرجةً نرىٰ منها السَّماء ، ففرج الله لهم فرجةً حتَّىٰ يرون منها السَّماء .

وقال الثاني : اللهم ؛ إنه كانت لي ابنة عم أحبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرِّجال النِّساء فطلبت إليها نفسها فأبت حتَّىٰ آتيها بمئة دينار ، فسعيت حتَّىٰ جمعت مئة دينار فلقيتها بها ، فلما قعدت بين رجليها ؛ قالت : يا عبد الله ؛ اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقِّه ، فقمت عنها ، اللهم ؛ فإن كنت تعلم أنِّي قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرج لنا منها ، ففرَّج لهم فرجةً .

وقال الآخر : اللهم ؛ إنِّي كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز ، فلمَّا قضىٰ عمله ؛ قال : أعطني حقِّي ، فعرضت عليه حقَّه فتركه ورغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتَّىٰ جمعت منه بقراً وراعيها ، فجاءني فقال : اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقِّي ، فقلت : اذهب إلىٰ ذلك البقر وراعيها ، فقال : اتق الله ولا تهزأ بي ، فقلت : إني لا أهزأ بك ، فخذ ذلك البقر وراعيها ، فأخذه فانطلق بها ؛ فإن كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرج ما بقي ، ففرَّج الله عنهم »[١] .

وبالإضافة إلىٰ قيمة العمل المخلص لله تضمَّنت القصَّة إشادةً واضحةً ببرِّ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٩٧٤) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٧٤٣).

الوالدين ، وبالعفَّة ، وبالأمانة ، وكلُّها قِيمٌ يحتاجها الفرد الصَّالح ، ويحتاجها المجتمع الصَّالح .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلِّم أصحابه أنَّ أبواب رحمة الله مفتوحةٌ دائماً لعباده لا تغلق أبداً أمام من آمن بربه وقصده وحده لا يشرك به شيئاً ، ويتضمن الحديث الشريف الآتي للنبي صلى الله عليه وسلم قصَّة تعبِّر عن هٰذا المعنىٰ بوضوح : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ علىٰ راهبٍ ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمَّل به مئة .

ثمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ علىٰ رجلٍ عالمٍ فقال : إنه قتل مئة نفسٍ فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التَّوبة ؟! انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا ؛ فإنَّ بها أناساً يعبدون الله تعالىٰ فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلىٰ أرضك ؛ فإنَّها أرض سوء ، فانطلق حتَّىٰ إذا نصف الطريق ؛ أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرَّحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالىٰ ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطُّ ، فأتاهم ملك في صورة آدميٍّ فجعلوه بينهم ؛ أي : حكماً ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ؛ فإلىٰ أيَّتهما كان أدنىٰ فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرَّحمة » حديث متفق عليه[1] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس في جامعته المفتوحة أن يكونوا كرماء وألا يبخلوا في التصدق والعطاء مما آتاهم الله من فضله ، ويعلمهم أن شكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمه يكون في وجه رئيسي منه بمساعدة المحتاجين . وضرب لهم مثلاً علىٰ ذلك ذات مرة بقصة من تراث بني إسرائيل .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٧٠) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٧٦٦) .

قال عليه الصلاة والسلام : « إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرصَ وأقرعَ وأعمىٰ أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرص فقال : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن ، وجلدٌ حسن ، ويذهب عني الذي قد قَذِرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطي لوناً حسناً ، فقال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ـ أو قال : البقر شكَّ الراوي ـ فأعطي ناقة عشراء ؛ فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع فقال : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني هـٰذا الذي قَذِرني النَّاس ، فمسحه فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً ، قال : فأيُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : البقر ، فأعطي بقرةً حاملاً وقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأعمىٰ فقال : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك ؟ قال : أن يردَّ الله بصري فأبصر النَّاس ، فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : أيُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطي شاةً والداً .

فأنتج هـٰذان وولد هـٰذا ، فكان لهـٰذا وادٍ من الإبل ، ولهـٰذا وادٍ من البقر ، ولهـٰذا وادٍ من الغنم ، ثم إنَّه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاَّ بالله ثمَّ بك ، أسألك بالذي أعطاك اللَّون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال بعيراً أتبلَّغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يَقْذَرك النَّاس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنَّما ورثت هـٰذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً ؛ فصيرك الله إلىٰ ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهـٰذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ هـٰذا ، فقال : إن كنت كاذباً ؛ فصيرك الله إلىٰ ما كنت .

وأتى الأعمىٰ في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي

الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاَّ بالله ثمَّ بك ، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمىٰ فردَّ الله إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله ؛ لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنَّما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك ، وسخط علىٰ صاحبيك » متَّفق عليه[1] .

وكان الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم يربِّي المسلمين علىٰ أنَّ الرَّحمة واجبةٌ للإنسان والحيوان ، وقد روىٰ لهم مرَّة هـٰذه القصة : « بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثَّرىٰ من العطش ، فقال الرَّجل : لقد بلغ هـٰذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفَّه ماءً ثمَّ أمسكه بفيه حتَّىٰ رقي فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » قالوا : يا رسول الله ؛ إنَّ لنا في البهائم أجراً ؟! فقال : « في كلِّ كبدٍ رطبة أجرٌ » متفق عليه[2] .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلِّم النَّاس أنَّ الله يفرح بتوبة الإنسان ويكافئه على العبادة والطاعة من دون أن يحوجه لوسيط ، قال لهم مرَّةً في تأكيد هـٰذا المعنىٰ في حديث قدسي رواه عن ربِّه عزَّ وجلَّ : « إذا تقرَّب العبد إليَّ شبراً ؛ تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإذا تقرَّب إليَّ ذراعاً ؛ تقرَّبت منه باعاً ، وإذا أتاني يمشي ؛ أتيته هرولةً »[3] .

وسأل النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابه يوماً : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهمَ له ولا متاع ، فقال : « إنَّ المفلس من أمَّتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقد شتم هـٰذا ، وقذف

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٦٤) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٩٦٤) .
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٢٣٦٣) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٢٤٤) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٧٤٠٥) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٦٧٥) .

هٰذا ، وأكل مال هٰذا ، وسفك دم هٰذا ، وضرب هٰذا ، فيعطىٰ هٰذا من حسناته ، وهٰذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثمَّ طرح في النَّار »[1] .

هٰذه نماذج من القيم والأخلاق التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه والناس جميعاً في كل زمان ومكان ، وهي قيم تُزرع في القلوب والعقول ، ويعبر عنها المؤمنون بها في سلوكهم الاجتماعي .

مناظرات دينية ونزاعات داخلية

قامت الدَّولة الإسلاميَّة الأولىٰ في التَّاريخ علىٰ دستورها المشهور الذي نظَّم العلاقة بين المسلمين واليهود علىٰ أساس التَّحالف السِّياسيِّ والعسكريِّ والبرِّ والتَّناصح ، ورفض الظُّلم ، لكن الاحتكاك بين أهل الأديان المختلفة سنَّةٌ من سنن التَّاريخ ، وخاصة في التَّاريخ القديم ، والحفاظ على السِّلم والنِّظام في مجتمع متعدِّد الدِّيانات ليس دائماً أمراً سهل التَّحقيق ، كما تثبت تجارب الشعوب السَّابقة والمعاصرة .

وقد ظهرت بعض وجوه المنافسة والاحتكاك والصِّدام الخفي بين بعض المنتمين للدِّيانتين منذ الشُّهور الأولىٰ للهجرة ، كما دارت مناظرات حول العقيدة وتاريخ الأديان بين النَّبيِّ وعددٍ من علماء يهود المدينة وأحبارهم ، ودارت مناظراتٌ أخرىٰ مشابهة بينه وبين بعض علماء المسيحيَّة الذين زاروه في وفد قدم من نجران في اليمن ، وسيؤثِّر هٰذا الاحتكاك علىٰ علاقة الطَّرفين في المستقبل ، وعلىٰ تحالفاتهم السِّياسيَّة ، وهو عامل من العوامل المهمَّة في فهم ما عرضه القرآن الكريم من مساجلات مع آراء وأطروحات لشخصياتٍ يهوديَّة في المدينة المنوَّرة ، ولشخصيَّات مسيحيَّةٍ أيضاً .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٨١) .

دخل الإسلام من الأحبار اليهود المشهورين عبد الله بن سلام ، قال متحدِّثاً عن إسلامه : (لمَّا سمعت برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنَّا نتوكَّف له ـ أي : نتوقعه ـ فكنت مسرّاً لذلك صامتاً عليه حتَّىٰ قدم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ؛ أقبل رجل حتَّىٰ أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلةٍ أعمل فيها وعمَّتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ كبرت .

فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيَّبك الله ، والله ؛ لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت ، فقلت لها : أيْ عمَّة ؛ هو والله أخو موسى بن عمران وعلىٰ دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أي ابن أخي ، أهو النَّبيُّ الذي كنا نخبر أنَّه يبعث مع نفس السَّاعة ؟ فقلت لها : نعم ، قالت : فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأسلمت ، ثمَّ رجعت إلىٰ أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا)(١) .

وأسلم حبرٌ آخر يسمَّىٰ مخيريق ، وقاتل مع النَّبيِّ في غزوة أحدٍ فنال الشَّهادة فيها ، لكنَّ الأغلبيَّة من أحبار اليهود لم يسلكوا طريق عبد الله بن سلام ، وتمسَّكوا بدينهم ورفضوا الاعتراف بالإسلام ، ومع أن الاحتكاك بين الطَّرفين وصل حدَّ الحرب أحياناً ، إلاَّ أنَّ القاعدة الإسلاميَّة في التَّعامل مع المخالفين في الدِّين من اليهود والمسيحيِّين في حالة السِّلم وهي الأصل بين النَّاس بقيت واحدة لم تتغير ، احترام حقِّ الاختلاف ، وتقدير أهل الكتاب ، ومناقشتهم بالتي هي أحسن ، ومعاملتهم بالبرِّ والقسط ، وكفالة حرياتهم الدينية ، هـٰذه هي القاعدة التي تحكم علاقات المسلمين باليهود وبالمسيحيِّين في كلِّ مكانٍ في الماضي والحاضر والمستقبل .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥١٧) .

مؤامرات المنافقين

في أقل من عامين أصبح المهاجرون والأنصار صفّاً متماسكاً قادراً علىٰ مواجهة التَّحدِّيات المحيطة بأوَّل دولة إسلاميَّةٍ ، ومع أنَّ كفَّار قريش وطغاتها كانوا هم العدوَّ الأوَّل للمسلمين فإنَّ دولة المدينة نفسها كانت تواجه مكائدَ ومؤامراتٍ من الدَّاخل ، وخاصَّة من كتلةٍ جديدةٍ ظهرت علىٰ مسرح الأحداث سمِّيَت في التَّاريخ بكتلة المنافقين ، وهـٰؤلاء أفراد مؤثرون أسلموا ظاهريّاً ، ولكن قلوبهم كانت تبطن العداوة والبغضاء للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودعوته .

من أشهر المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، كان زعيماً بارزاً من زعماء المدينة قبل وصول النَّبيِّ إليها ، مقبولاً من الأوس والخزرج ، وكان النَّاس قد شرعوا فعلاً في إعداد تاج من الخرز ليضعوه فوق رأسه ويعلنوه ملكاً عليهم ، لكنَّهم توقَّفوا وانصرفوا عن الفكرة عند انتشار الإسلام في صفوفهم ، وهجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ بلادهم ، ولا شكَّ أن عبد الله بن أبيٍّ كان أبرز المتضررين من التَّحول الكبير الذي شهدته المدينة ، لكنَّه اضطر للدُّخول في الإسلام لما رأىٰ أن أغلبيَّة السُّكَّان آمنت به .

انكشف ضيقه بالإسلام وبالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة ، أشهرها عندما توقَّف النَّبيُّ مرَّة ليسلم عليه في مجلس من مجالسه ، كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قاصداً زيارة أحد زعماء المدينة سعد بن عبادة يعوده ويطمئنُّ عليه بعد مرضٍ أصابه ، وفي طريقه مرَّ بعبد الله بن أبيٍّ متصدِّراً مجلساً من مجالسه بحضور عددٍ من النَّاس .

استحى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يمرَّ على المجلس دون أن يسلِّم علىٰ عبد الله بن أبيٍّ وبقية الحاضرين ، فتوقَّف وسلَّم وجلس قليلاً ، وتلا آياتٍ من القرآن الكريم ، وتحدَّث عن فضائل الإسلام ، ورغَّب النَّاس فيه ، وحذَّر

المعرضين عنه ، كلُّ هـٰذا وزعيم المجلس صامت لا يتكلم ، حتىٰ إذا فرغ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من مقالته ؛ قال : يا هـٰذا ؛ إنَّه لا أحسن من حديثك هـٰذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك ؛ فمن جاءك له ؛ فحدثه إيَّاه ، ومن لم يأتك ؛ فلا تغته به ـ أي : لا تثقل به عليه ـ ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ، فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين : بلىٰ فاغشنا به ، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله ممَّا نحبُّ وممَّا أكرمنا الله به وهدانا له[1] .

مضى الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم لشأنه يزور صديقه سعد بن عبادة ، وحدَّثه بما سمع من عبد الله بن أبيٍّ ، فقال سعد : يا رسول الله ؛ ارفق به ، فوالله ؛ لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوِّجه ، فوالله ؛ إنَّه ليرىٰ أنك قد سلبته ملكاً[2] .

ولو كان حزب المنافقين محصوراً في عبد الله بن أبي وحده ؛ لكان أمره هيِّناً ، ولكن الحقيقة أنَّه كان يضمُّ عدداً مقدَّراً من النَّاس ، ممَّا أوجب على المسلمين أن يكونوا أكثر حيطةً وحذراً في تحصين دولتهم والدِّفاع عن أنفسهم ، وهـٰذا أيضاً ما يفسر نزول سورةٍ كاملةٍ في القرآن الكريم عنهم ، عنوانها (سورة المنافقون) (السورة ٦٣) بالإضافة إلىٰ آيات أخرىٰ كثيرة تتطرَّق إلىٰ شأنهم في العديد من السُّور الأخرىٰ ، منها مثلاً هـٰذه الآيات الكريمة في (سورة البقرة) : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٨٧) .
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٥٨٨) .

يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة : ٨ ـ ١٦] .

كان المنافقون حلفاء موضوعيِّين للعلائلات القليلة التي بقيت على الشِّرك في المدينة المنوَّرة ، وكان رهانهم الإستراتيجي هو أن تنجح قريش ومن سيقف معها في حروبها المرتقبة ضدَّ الإسلام في سحق الدَّعوة الجديدة ، وقتل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وإعادة الأمور إلىٰ ما كانت عليه قبل الهجرة .

مؤامرة فاشلة

ومن وقائع تلك الفترة من تاريخ الإسلام والمسلمين : أن أحد سكان المدينة من غير المسلمين أوشك أن يحدث فتنة كبيرة بين الأنصار . معروف أن الأنصار ينتمون إلىٰ قبيلتين أساسيتين هما الأوس والخزرج ، وأن الحروب بين القبيلتين كانت وجهاً بارزاً لتاريخهما المشترك وتاريخ المدينة ، وهي حروب لم تعد علىٰ أصحابها بأي خير ، وإنما أفنت رجالهم ، وبددت طاقاتهم وثرواتهم في منازعات عبثية لا يوجد لها أي مبرر حقيقي مقنع بميزان الحق والعقل . ومن أشهر هـٰذه الحروب حرب يوم بعاث ، وهي حرب انتصر فيها الأوس على الخزرج .

وقف أحد خصوم المسلمين يوماً في مجلس من المجالس العامة التي يحضرها عدد كبير من الأنصار وذكر يوم بعاث بتفصيل وتوسع ، واستفز السامعين ليعودوا إلى انتمائهم القبلي الأول .

تطورت الأمور بسرعة مع استثارة العصبيات القديمة ، فبدأ بعض

الحاضرين من الأوس يفتخرون بما حققوه في ذلك اليوم ورد عليهم بعض الخزرج ، وكبر النزاع ، إلىٰ درجة تبادل التهديدات بإشعال حرب جديدة . وانتهى الأمر بالحاضرين من الأوس والخزرج أن يتواعدوا فعلاً على اللقاء في حرب جديدة بينهما في مكان يسمى الظاهرة ، ثم انصرف كل منهم يحضر سلاحه ، ثم يخرج إلى المكان المحدد للحرب .

وصل الخبر إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فتحرَّك فوراً بصحبة عددٍ من المهاجرين إلىٰ حيث الموقع المقترح للمعركة ، ثمَّ نادىٰ في الناس : « يا معشر المسلمين ؛ الله الله ، أبدعوى الجاهليَّة ، وأنا بين أظهركم ؛ بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهليَّة واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف بين قلوبكم ؟! »[١] .

أنصت الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج لنداء النَّبيِّ فاستيقظوا من غفلتهم وأدركوا أنَّهم كانوا علىٰ وشك الانخراط في حربٍ لن يفرح لها إلا الشَّيطان ، ومن بعده الذين يريدون انقسام الصَّف المسلم علىٰ نفسه وانخراطه في حروبٍ داخليَّةٍ عابثةٍ لا مبرِّر لها ، وتذكَّر بعضهم أنَّ حرب يوم بُعَاث والحروب التي سبقتها لم تكن هي أيضاً إلا نتاجاً لجاهليَّةٍ حقيقيَّةٍ في التَّفكير والنَّظر إلى الأمور ؛ إذ ما معنىٰ أن يتخذ النَّاس من حماسهم لانتمائهم القبلي مبرِّراً للعدوان على الآخرين ؟! وماذا كان المشاركون في تلك الحروب يجنون منها غير فقد الأحباب وغير الجراح والخسائر المادِّيَّة والمعنويَّة الباهظة ؟!

فأيَّة مصلحة لمسلمي الأوس أو الخزرج في العودة إلىٰ تلك الأيَّام الجاهليَّة البغيضة ؟ من بعد أن جاء الإسلام وعلمهم أنَّ أفضل النَّسب للإنسان في أيِّ مكانٍ في العالم هو العمل الصَّالح ، وألغى الحزازات والأحقاد من قلوبهم ، وحوَّلهم إلىٰ إخوان وأصدقاء متحابيِّن متضامنين .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٥٥٦) .

وصل النِّداء المختصر والمباشر للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى العقول والقلوب فردَّها عن السُّقوط في درك العنف والفوضىٰ والجاهلية من جديد ، وبكى الرِّجال الذين جاؤوا متحفِّزين للحرب من الأوس والخزرج ، وعانق بعضهم بعضاً ، والتفَّوا جميعاً حول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عائدين معه ممتنِّين له مطيعين لتعاليمه .

ثم نزل القرآن الكريم من عند الله يذكِّر المسلمين بنعمة الإيمان التي شملتهم وكانت سبباً لاتحادهم والتأليف بين قلوبهم ، ويدعوهم إلى التَّضامن في مجال الحثِّ على الخير والفضيلة ، ومحاصرة الشَّرِّ والفساد ، ويذكِّرهم بالغيب ، وأنَّ حسابات الدُّنيا ليست كلَّ شيءٍ في الوجود ؛ لأنَّ الآخرة أيضاً تنتظر الإنسان ، والعاقل من يستعد لها أحسن استعداد ، قال الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۞ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٢ـ١٠٩] .

هـٰذه هي رسالة القرآن الكريم ، وهـٰذه هي رسالة الإسلام في كل زمان ومكان . رسالة التقوىٰ والوحدة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

والتطلع إلىٰ رحمة الله عز وجل ومرضاته . غير أن بعض الناس أغلقوا قلوبهم وعقولهم في وجهها ، قديماً وحديثاً . وكان من بين هٰؤلاء قادة قريش في تلك الفترة التي نزلت فيها هٰذه الآيات الكريمة . كان عداؤهم للإسلام قوياً ، وكانوا يمكرون به ويتآمرون علىٰ أهله ، كما سنرىٰ في الفصول المقبلة .

* * *

الفَصلُ السَّادِسُ

انتِصَارُ بَدْرٍ ، وَنِدَاءُ الحَيَاةِ

اختارت القوى المشركة المتعصِّبة المستبدَّة أن تواجه الإسلام بالتعسُّف والقوَّة والتَّعذيب ، فكان لزاماً علىٰ أوَّل دولة إسلاميَّة في التَّاريخ أن تتسلَّح وتستعدَّ للحرب ، ثمَّ أن تدخل الحرب وتثبت لأعدائها أنَّها وُجِدَت لتبقىٰ ، وليس لتزول في أوَّل معركة ، هدفت الاستراتيجية العسكريَّة للدَّولة الإسلاميَّة إلىٰ زرع الهيبة في نفوس الطَّامعين المتربِّصين بها من زعماء قريشٍ وغيرهم من القبائل العربيَّة المجاورة ، كما هدفت أيضاً إلىٰ فرض الاعتراف بها كقوَّةٍ جديدةٍ تهيمن علىٰ خطِّ التِّجارة الرَّئيس بين مكَّة المكرَّمة والشَّام ، ولا شكَّ أنَّ البعد الاقتصاديَّ لهٰذه الاستراتيجية كان مؤثِّراً للغاية ، وخاصَّةً في حسابات زعماء قريش الذين صادروا ممتلكات عددٍ كبيرٍ من المهاجرين المسلمين ، والذين سبق لهم أن اعتمدوا خطَّة الحصار الاقتصاديِّ الكامل للمسلمين وبني هاشم عامَّة أيام كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مقيماً في مكَّة ، تمَّ تنفيذ هٰذه الاستراتيجية عبر عددٍ من الغزوات والسَّرايا .

الغزوة : اسم يطلق على المعركة التي قادها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بنفسه ، أما المعركة التي قادها آخرون بتكليف من النَّبيِّ ؛ فيطلق عليها اسم السَّريَّة .

وكانت غزوة ودَّان التي قادها النَّبيُّ في نهاية العام الهجري الأوَّل أولى الحملات العسكريَّة للمسلمين ، وصل جيش المسلمين في هٰذه الغزوة إلىٰ منطقة الأبواء ، ووقَّع عهداً للهدنة والسِّلم مع قبيلة بني ضمرة ، وعاد إلى المدينة دون قتال ، وتحرَّكت بعد ذلك بأشهر قليلة سريَّة من ثمانين رجلاً

يقودها عبيدة بن الحارث بن المطَّلب ، فقابلها عددٌ كبير من مشركي قريش في منطقة ماء بالحجاز ، رمىٰ سعد بن أبي وقاص بسهم وصفه المؤرخون أنَّه أوَّل سهمٍ رُمِي به في الإسلام ، لكنَّ الجيشين تفرَّقا من دون قتال ، وفرَّ من جيش قريشٍ إلىٰ جيش المسلمين رجلان مسلمان اغتنما الفرصة للتَّحرُّر من سيطرة قوى الشِّرك والتَّعصب : المقداد بن عمرو البهراني ، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني ، ثم قاد حمزة بن عبد المطلب سريَّة أخرىٰ من ثلاثين رجلاً نحو منطقة تسمىٰ سيف البحر ، وواجهه على السَّاحل أبو جهل بن هشام ومعه ثلاث مئة شخصٍ من قريش ، لكن زعيماً قبليّاً يحتفظ بصلات طيِّبة مع الطرفين اسمه مجدي بن عمرو الجهني تدخَّل بينهما فتفرَّق الجمعان دون قتال ، وقاد النَّبيُّ غزوتين أخريين لم يكن فيهما قتال هما : غزوة بواط وغزوة العشيرة ، ووقع في الثَّانية عهد سِلمٍ وعدم اعتداء مع قبيلة بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة ، وبعد عودته بحوالي عشرة أيام ، أغار مقاتلٌ قبلي يدعىٰ كُرْز بن جابر الفهري علىٰ سرح المدينة ، فقاد النَّبيُّ جيشاً لمطاردته ، لكنه لم يدركه ، وسميت هٰذه الحملة بغزوة بدرٍ الأولىٰ ، لم تحصل أيَّةُ صدامات حاسمة في هٰذه الغزوات والسَّرايا ، لكنَّ رسالتها كانت واضحةً للجميع ، وهي أنَّ دولة المسلمين جاهزةٌ للدِّفاعِ عن نفسها أمام كلِّ خطرٍ ، وقادرةٌ على الوقوف في وجه قريشٍ القوَّةِ الرَّئيسة المعادية لها استراتيجياً .

وفي شهر رجب من العام الثَّاني للهجرة الموافق لعام (٦٢٥) للميلاد بعث النَّبيُّ سريَّة من ثمانية مقاتلين يقودهم عبد الله بن جحش بن رئاب الأسديِّ ، وأعطاهم كتاباً مختوماً ، وأمرهم بعدم فتحه إلاَّ بعد مسيرة يومين باتجاه الجنوب ، ويعتبر شهر رجب واحداً من أربعة أشهر يعتبرها العرب من الأشهر الحرم ؛ أي : الأشهر التي لا يدخلون فيها في قتال ، نفَّذَت المجموعة وصيَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعندما فتح قائدها الكتاب بعد مسيرة يومين وجد

فيه تكليفاً بالتَّوجُّه نحو نخلة ، وهي مكان بين مكة والطَّائف ؛ لترصد قريش وجمع الأخبار عن خططها وتحرُّكاتها ، أذن قائد السَّريَّة لمن كان معه بالعودة إلى المدينة إن لم يجدوا في أنفسهم حماساً لتنفيذ المهمة ، لكنَّهم كانوا مثله في الحماس وبقوا معه جميعاً ، وفي منطقة نخلة التي وصلوها اعترضتهم قافلةٌ تجاريَّةٌ من قوافل قريش فهاجموها ، وقتلوا واحداً منها وأسروا اثنين ، وحملوا ما كان معهم إلى المدينة ، ولما عادوا ؛ اعترض النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ فعلهم ؛ لأنه لم يأمرهم بقتال في الشَّهر الحرام ، أما قريش ؛ فاغتنمت الفرصة وسلَّطت دعايتها ضدَّ المسلمين تتَّهمهم بالقتال في الشَّهر الحرام ، وتناسىٰ زعماؤها المتعصِّبون ما فعلوه بالمسلمين لأكثر من عشر سنين ، قتلوهم فيها وعذَّبوهم ، وطاردوهم في منفاهم في الحبشة ، وحاصروهم اقتصاديّاً واجتماعيّاً في شِعْب بني هاشم ، واضطروهم للهجرة خارج ديارهم ، وصادروا أموالهم ، وتآمروا علىٰ نبيِّهم ليقتلوه ، ونزل الوحي من السَّماء يوضِّح حكم الله العادلَ والنِّهائيَّ في هـٰذه المسألة : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

خاطبت الآيةُ المسلمين تنفي أن يكون ما فعلته سريَّة عبد الله بن جحش هو أصل القضيَّة ، إنَّما الأصل بميزان الحقِّ والعدل هو ما فعله طغاة قريشٍ من اضطهاد للمؤمنين وكفر بالله ربهم ، ومن إخراج المسلمين بالقوَّة من المسجد الحرام مع أنَّهم أولى النَّاس به ، ومن ممارسة لكلِّ ألوان الضَّغط والقمع من أجل أن يرتدَّ المسلمون عن دينهم ، واعتبر القرآن الكريم أن تهجير المسلمين

من ديارهم ومصادرة حرِّيَّاتهم الدِّينيَّة واضطهادهم لتغيير دينهم هو العمل الشَّنيع حقّاً ، وهو أسوأ من القتل ، وحذَّر القرآن الكريم المسلمين من أن يضعفوا ويتخلَّوا عن عقيدتهم تحت وطأة الظُّلم الممارس عليهم .

أزيح عن كاهل عبد الله بن جحش ومن كانوا معه في سريَّته كابوسٌ كبيرٌ بعد نزول التَّوجيه القرآنيِّ في أمرهم ، فجاؤوا إلى النَّبيِّ يؤكِّدون ولاءهم ويتطلَّعون إلىٰ فرصةٍ أخرىٰ لخدمة دينهم ، فنزل الوحي من السَّماء يطمئنهم ، ويذكِّرهم هم وسائر المؤمنين بأن مرضاة الله ورحمته أهمُّ من كلِّ شيءٍ آخر علىٰ وجه الأرض : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٨] .

أدركت قريش من مجريات الأمور أنَّ ميزان القُوىٰ قد تغيَّر ، وأنَّ عليها الآن أن تستعدَّ لحربٍ اقتصاديَّةٍ مثل التي شنَّتها هي على المسلمين في مكَّة ، وأن تعترف بالدَّور المؤثِّر للدَّولة الإسلاميَّة علىٰ طريق التِّجارة الرَّئيس بين مكَّة والشَّام ، لكنَّ الاتِّجاه العامَّ الذي سيطر علىٰ تخطيط القيادات القرشيَّة هو اعتقادهم الرَّاسخ بأنَّهم قادرون علىٰ محاصرة المسلمين وهزيمتهم .

وفي هٰذه الأجواء المتوتِّرة سياسيّاً وعسكريّاً وصلت الأخبار إلى المدينة بأنَّ أبا سفيان بن حرب ـ وهو زعيم من زعماء مشركي مكة ـ عائدٌ من الشَّام علىٰ رأس قافلةٍ تجاريَّةٍ ضخمةٍ لقريش ومعه حوالي أربعين شخصاً ، ورأى المسلمون في المدينة أن التصدي لأبي سفيان وقافلته هو رد مشروع علىٰ ما مارسته قريش بحقهم من ظلم عقائدي وسياسي واقتصادي كبير .

مع ذلك لم يكن واضحاً أن الحرب ستنشب بين الطرفين ، لذلك فقد تخلف عدد من المسلمين في المدينة عن مرافقة الجيش الذي خرج بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم . وعندما وصلت الأخبار إلىٰ أبي سفيان بتحركات المسلمين ؛ بادر بطلب النجدة والإمدادات العسكرية من قريش ،

وأرسل لهـٰذا الغرض مبعوثاً منه يدعىٰ ضمضم بن عمرو .

وصل ضمضم إلىٰ مكة في وقتٍ قياسيٍّ ، وهناك جمع النَّاس حوله واستثارهم وخطب فيهم يطلب النَّجدة لأبي سفيان ومن معه من الرِّجال وما معه من البضائع والأموال ، وجد النِّداء صدىً لدىٰ كلٍّ من سمعه ، وتحرَّكت عَجَلة الحرب بسرعةٍ ، وبدأت حملة تجهيز الجيش ، وتحمَّست الأغلبيَّة السَّاحقة للمشاركة في الحملة بمن في ذلك زعماء قريش الكبار .

أمَّا أبو سفيان صاحب الحِنْكة العسكريَّة والمهارات القياديَّة ؛ فقد قام بالتَّحريات الضَّروريَّة لمعرفة خطِّ تحرك الجيش المسلم ، واستطاع تجنُّبه منتهجاً طريقاً آخر غير معهود ، محاذياً لساحل البحر الأحمر ، وبهـٰذه الإجراءات نجت قافلة قريش من الخطر ، واتَّجهت آمنةً نحو مكة ، عند ذلك أرسل أبو سفيان إلىٰ قادة الجيش القرشي القادم للدعم والمساندة يزفُّ إليهم الأخبار السَّارَّة ، ويطلب منهم العودة إلىٰ ديارهم بعد أن تحقَّق الهدف الذي خرجوا من أجله .

وصل الخبر من أبي سفيان إلىٰ زعماء الجيش القرشي وهم علىٰ مشارف منطقة بدر ، وهي مركز تقام فيه مواسم تجارية نشطة ويزوره العرب علىٰ مدار السنة ، ويقع علىٰ بعد حوالي مئة وستين كيلومتراً جنوب المدينة المنورة . ولمَّا وصلت رسالة أبي سفيان ؛ استحسنها عددٌ من كبار القادة القرشيِّين ومالوا إلىٰ خيار العودة إلىٰ مكَّة ، لكنَّ أبا جهل بن هشام رفض فكرة العودة جملةً وتفصيلاً ، وأصرَّ علىٰ أن يستمر الجيش في خِطَّته ، وقال : (والله ؛ لا نرجع حتَّىٰ نَرِد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها)[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦١٨ـ٦١٩) .

كان أبو جهل واضحاً في ما يريده من أهداف ، إنَّه يريد أن يثبت هيبة قريش ومخافتها في قلوب العرب ، فلا يشكَّنَّ أحدٌ في هيمنتها على المنطقة ، وفي أنَّها القوَّة المؤثِّرة الحاسمة ، وكان يريد أن يرسل رسالةَ تحذيرٍ وتخويف شديدةٍ إلى الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، وإلىٰ كلِّ القبائل التي تدخل معها في معاهداتٍ وتحالفات ، مبيِّناً أنَّ جيش قريشٍ قادرٌ علىٰ هزيمة المسلمين ، ودحر من يتحالف معهم . اعترض بعض القادة بشكل عملي علىٰ موقف أبي جهل ، وكان ممن تبنى الرؤية التي اعتبرت نجاة قافلة أبي سفيان مبرراً للعودة والتخلي عن الخيار العسكري الأخنس بن شريق ، من زعماء قبيلة بني زهرة ، وقد نجح في إقناع عدد من أبناء قبيلته بالانسحاب والعودة إلىٰ مكة . أما قبيلة بني عدي بن كعب ؛ فإنها لم تخرج في الحملة من البداية ، وهي أيضاً من القبائل المهمة في مكة .

لكن موقف بني زهرة وبين عدي بن كعب بقي موقف الأقلية ، بينما مالت الأغلبية ـ وهم في مجموعهم حوالي ألف مقاتل ـ إلىٰ رأي أبي جهل . هٰكذا حسمت قريش خيارها ، وقررت استعراض قوتها العسكرية في وجه الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة المنورة ، ولو أنها جنحت للسلم ؛ لما حصلت معركة بدر من الأساس .

مضى الجيش القرشي في تنفيذ مهمته التي حددها أبو جهل ، ونزل في معسكر ببدر ، في بطن واد قريب من نقطة الماء الرئيسة في المنطقة .

الجيش القرشي يصرُّ على الحرب ويبدؤها

أدت هٰذه التطورات المتسارعة إلىٰ أن يصبح المسلمون في مواجهة حرب كبرىٰ يشنها الجيش القرشي ، ولم يكن هٰذا الأمر في تخطيط النبي صلى الله عليه وسلم عندما خرج في عدد من أصحابه للسيطرة على الطريق التجاري الذي

مرت منه قافلة أبي سفيان . ولأن مثل هـٰذه الحرب الشاملة لم تكن في الحسبان فإن عدداً من الصحابة لم يخرجوا في جيش النبي صلى الله عليه وسلم من الأساس .

كان عدد من خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في هـٰذه الحملة ، في الثامن من رمضان للعام الثاني من الهجرة ، ثلاث مئة وأربعة عشر رجلاً (٣١٤) ، ثلاثة وثمانون منهم من المهاجرين ، وواحد وستون منهم من الأنصار من قبيلة الأوس ، ومئة وسبعون أنصارياً آخرون من قبيلة الخزرج .

وصل الجيش إلىٰ وادٍ يسمىٰ ذفران قبل منطقة بدرٍ بمسافةٍ ، وكان للمسلمين سبعون بعيراً يتعاقبون عليها ، كلُّ ثلاثة مقاتلين يتعاقبون علىٰ بعير ، يركب الواحد منهم مسافةً ثمَّ يمشي راجلاً مسافة أخرىٰ ؛ ليتيح الفرصة لزميلين له للرُّكوب ، وكان هـٰذا الأمر يسري على النَّبيِّ الذي لم يكن يحبُّ أن يتميَّز علىٰ أصحابه ولا أن يكون فيهم بمقام السَّيِّد المتكبِّر ، فتعاقب علىٰ بعيرٍ واحدٍ مع عليٍّ بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي .

كان النبي عليه الصلاة والسلام مثل واحد من أصحابه لا يتكبر عليهم ولا يتسيد ، ويتحمل من المشاق والصعوبات ما يتحملون . وقد اقتضت حكمة الله التي لا يحيط بكل أبعادها إلا هو عز وجل ، اقتضت فيما يظهر للباحث المجتهد أن ينتصر نبي الإسلام ، وتنتشر دعوته في العالم من خلال عمله بالقوانين الطبيعية والسنن التاريخية التي قام عليها الكون وانبنت عليها حياة البشر . كان محمد بن عبد الله بشراً رسولاً ، ولم يكن ملاكاً . لذلك اضطهد وحوصر ، وأوذي وكذب ، وتآمر خصومه لقتله وأخرج مع أتباعه من مكة . وها هو اليوم يواجه معركة كبيرة أخرىٰ يمكن أن تقضي على الدولة الإسلامية بعد عامين فقط من قيامها .

لما علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً حشدت جيشاً كبيراً قوامه ألف

رجل ، وأن الجيش يضم كبار قادة قريش ، أمثال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبي جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ، والنضر بن الحارث وآخرين ، وأدرك أن الحرب غدت على الأبواب ، وأنَّ الجنديَّ الواحد من أنصاره سيكون في مواجهة ثلاثة مقاتلين من جيش المشركين ؛ التفت إلىٰ أتباعه من المهاجرين والأنصار يخبرهم بالتَّطوُّرات ويستشيرهم ويستطلع مدى استعدادهم للتَّضحية معه والصَّبر على الامتحان الذي يواجههم ، وهـٰكذا الدَّعوات الكبرىٰ كلُّها دائماً تحتاج لأنصارٍ مخلصين يحملونها بحماسٍ وشجاعةٍ وصدقٍ ، ويساهمون مع الأنبياء والمصلحين في نشر مبادئها في العالم .

سبق أبو بكر الصِّدِّيق إلى الإجابة ، فأكَّد أنَّه مستعدٌّ للمضيِّ مع النَّبيِّ وتأييده في المواجهة المرتقبة دون خوف أو تردد ، ثمَّ تكلَّم عمر بن الخطَّاب فعبَّر عن الموقف نفسه ، وتحدَّث بعد ذلك المقداد بن عمرو وهو أيضاً من المهاجرين فبيَّن أنَّ المسلمين مستعدُّون لنصرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والقتال معه مهما كانت التَّكاليف ، وبقي النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يسمع من قادة الأنصار ؛ فهم كانوا أكثر من ثلثي جيشه ، وقد جاءت الفرصة الآن لامتحانهم في مدى التزامهم بالبيعة التي بايعوا عليها النَّبيَّ قبل هجرته إلى المدينة .

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أشيروا عليَّ أيُّها النَّاس » ، فقال له سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو من أبرز قادة الأنصار : والله ؛ لكأنَّك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » ، قال : فقد آمنَّا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحقُّ ، وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ؛ فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ؛ لو استعرضت بنا هـٰذا البحر فخضته ؛ لخضناه معك ما تخلَّف منَّا

رجلٌ واحدٌ وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللِّقاء ، لعل الله يريك ما تقرُّ به عينك ، فسِرْ بنا علىٰ بركة الله[1] .

اطمأن النَّبيُّ إلىٰ سلامة الموقف الدَّاخليِّ وتماسك الصَّفِّ المسلم واستعداده للقتال والتَّضحية من أجل دينه ومن أجل حرِّيَّة الاعتقاد والعبادة ، وتحرَّكَ الجيش مرَّةً أخرىٰ جنوباً ، ونزل قريباً من منطقة بدرٍ ، المكان الذي سيشهد بعد ساعاتٍ قليلةٍ وقائع حربٍ حاسمةٍ في تاريخ الإسلام .

اقترب الجيشان من ساحة الحرب في بدر . اختار النبي صلى الله عليه وسلم موقعاً لجيشه بعيداً عن نقطة الماء ، لكن المقداد بن عمرو ـ أحد المقاتلين ذوي الخبرة من المهاجرين ـ اقترح موقعاً آخر أقرب إلى الماء ، فقبله منه النبي صلى الله عليه وسلم وتحرك بالجيش إلى المكانِ الجديد ، هناك بنى المسلمون حوضاً من الماء لشرابهم ، وأصبحوا يتحكمون في مصدر الماء الوحيد في ساحة الحرب ، وأقبل بعض جنود الجيش القرشي يطلبون الماء فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابهم بتمكينهم منه .

قرَّر قادة جيش قريش أن يستطلعوا الأخبار عن جيش النَّبيِّ ، فبعثوا واحداً من رجالهم عمير بن وهب الجمحي وطلبوا منه أن يحاول معرفة عدد المقاتلين المسلمين ، فركب فرسه وجال بمعسكر المسلمين ثم قال لقومه : (ثلاث مئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتىٰ أنظر أللقوم كمينٌ أم مددٌ ؟ فضرب في الوادي حتَّىٰ أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكنِّي قد رأيت يا معشر قريش : البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت النَّاقع ، قوم ليس معهم منعةٌ ولا ملجأٌ إلاَّ سيوفهم ، والله ؛ ما أرىٰ أن يقتل رجلٌ منهم حتَّىٰ يقتل رجلاً منكم ، فإذا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦١٥) .

أصابوا منكم أعدادهم ؛ فما خير العيش بعد ذلك ؟ فَرَوْا رأيكم)[1] .

كان يفترض بهٰذا المقاتل القرشيِّ أن يطمئن عندما تأكد أنَّ عدد المقاتلين المسلمين ثلاث مئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، لكنَّ الخوف والشَّكَّ تسربا إلىٰ قلبه ، وبدا له أن المسلم الواحد لن يموت حتَّىٰ يقتل واحداً من خصومه على الأقل ، وهٰذا يعني خسارةً فادحةً لجيش قريش حتَّىٰ وإن كان آل النَّصر النِّهائيُّ له .

أدرك حكيم بن حزام أحدُ القادة البارزين في جيش قريش وجاهة ما قاله عمير بن وهب ، فتبنَّىٰ وجهة نظره ، ومضىٰ إلىٰ عتبة بن ربيعة فحدَّثه حديثاً مؤثِّراً ، قال له : إنه كبيرُ قريش وسيِّدُها والمطاع فيها ، وأنه إن أخذ موقفاً حاسماً ورجع بالجيش دون قتال ؛ فسيبقىٰ يذكر في تاريخها بخير مدى الدَّهر ، وكان جواب عتبة أنَّه يوافق على الاقتراح إن قبل به أبو جهل .

وبينما ساد التردد والاضطراب معسكر المشركين ، كان الموقف في المعسكر الإسلامي مختلفاً تماماً ، الجنود كلُّهم مع قائدهم علىٰ موقفٍ واحدٍ ، موقف مبني على الإيمان برسالة الإسلام ، والاستعداد للتضحية من أجلها ومن أجل العيش بحرية وكرامة ، وكانوا منشغلين بالخطط التَّنفيذيَّة للحرب بما في ذلك تأمين قائدهم خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ، قال سعد بن معاذ : (يا نبيَّ الله ؛ ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونكون عند ركائبك ، ثمَّ نلقىٰ عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا علىٰ عدوِّنا ؛ كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرىٰ ؛ جلست علىٰ ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ يا نبيَّ الله ما نحن بأشد لك حبّاً منهم ، ولو ظنُّوا أنَّك تلقىٰ حرباً ما تخلَّفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنىٰ عليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم خيراً ودعا له بخير ، ثمَّ بُنِيَ

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٢) .

لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عريشٌ فكان فيه)[1] .

وقف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يتفقَّد جيشه وبيده قدح يعدِّل به صفوف مقاتليه ، فمرَّ بمقاتلٍ من الأنصار خارج الصَّفِّ يدعىٰ سواد ، فمسه بالقدح في بطنه وقال له : « استو يا سواد » ، لكنَّ الرَّجل فاجأ النَّبيَّ بجوابه ، وقال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحقِّ والعدل فأقدني ـ أي : فاقتص لي من نفسك ـ فكشف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن بطنه وقال : « استقد » ، فاعتنقه فقبَّل بطنه ، فقال : « ما حملك علىٰ هـٰذا يا سواد ؟ » قال : يا رسول الله ؛ حضر ما ترىٰ ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدَك ، فدعا له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بخير وقاله له)[2] .

الحرب توشك أن تندلع ، ولكن ما زالت هناك فرصةٌ لتجنُّبها إذا قبل أبو جهل باقتراح حكيم بن حزام ، كان عتبة بن ربيعة قد تبنَّىٰ هـٰذا الخيار ، وخطب في الجيش قائلاً : (يا معشر قريش ؛ إنَّكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله ؛ لئن أصبتموه ؛ لا يزال الرَّجل ينظر في وجه رجل يكره النَّظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلُّوا بين محمَّدٍ وبين سائر العرب ؛ فإن أصابوه ؛ فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ؛ ألفاكم ولم تَعَرَّضوا منه ما تريدون)[3] .

لم يبق إلاَّ أن يوافق أبو جهل علىٰ هـٰذا الرَّأي فينسحبَ جيش قريش ويتمَّ تفادي الحرب ، لكنَّ أبا جهل كان علىٰ نهج فرعون في الاستبداد والعناد والمكابرة ، مصمماً على المنازلة ، متحمساً للحرب ، فسخر من رأي عتبة واتهمه بالجبن . أغلب الظن أنَّه قدَّر أنَّ حرب بدرٍ ستكون الفصل الختامي من

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٠) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦) .

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٣) .

مسيرة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ودعوته ، وأنَّ الجيش القرشي الذي يبلغ تعداده ثلاثة أضعاف عدد الجيش المسلم سيحسم الأمر في وقتٍ قياسيٍّ ، وسيُخْمِد وإلى الأبد دعوةَ الإسلام التي حاربها أبو جهل في مكَّة دون هوادة .

ولقطع الطريق على المترددين في جيش قريش ؛ بعث أبو جهل إلىٰ عامر بن الحضرمي شقيق عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش يذكره بثأر أخيه ويخوِّفه من ضياع فرصة الحرب وأخذ الثَّأر من المسلمين ، فقام عامر يصرخ في صفوف الجيش يطلب الثَّأر لدم أخيه ، فتوقَّف صوت العقل والحكمة ، وانتصر منطق الشَّرِّ ، وفاز أبو جهل في نهاية المطاف ، وكان له ما أراد الحرب مع المسلمين .

وهكذا اندلعت معركة بدرٍ ، باصرار قادة قريش المشركين ؛ هجم الأسود بن عبد الأسد المخزومي من جيش قريشٍ علىٰ حوض الماء الذي بناه المسلمون ، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق ، فتصدَّىٰ له حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فتقاتلا بالسَّيف فغلب حمزةُ وقَتَل خصمه ، ثمَّ تقدَّم عتبةُ بن ربيعة الزَّعيمُ القرشيُّ الذي حاول منع الحرب لكنه فشل ، وها هو الآن في مقدِّمة المقاتلين تقدَّم هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة فتوسَّط السَّاحة ودعا إلى المبارزة ، فتطوع لمواجهتهم ثلاثةُ شبان من الأنصار ، لكنَّ عتبة وابنه وأخاه رفضوا مبارزتهم ، ونادىٰ واحدٌ منهم : يا محمد ؛ أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، أي : من قريش .

استجاب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لطلب المقاتلين القرشيِّين ، وأمر عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلياً ابن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً بالتَّقدُّم للمبارزة ، فلمَّا رآهم عتبة ومن معه ؛ قالوا : نعم ، أكفاءٌ كِرامٌ .

وانطلقت المبارزة بين هـٰؤلاء الرِّجال بالسُّيوف ، بارز حمزة شيبة بن ربيعة

وسرعان ما انتصر عليه وقتله ، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة فسرعان ما انتصر عليه وقتله ، أمَّا عتبة وعبيدة ؛ فقد أصاب كلٌّ منهما الآخر إصاباتٍ بليغةً ، وناصر حمزةُ وعليٌّ صاحبهما فقُتِل عتبةُ وعاد عبيدة جريحاً ولم يلبث أن نال الشَّهادة .

لو أنَّ أغلبيَّة الجيش القرشيِّ قبلت رأي عتبة بن ربيعة ؛ لما كانت الحرب وقعت من الأساس ولما قتل عتبة ، ولكنَّ قريشاً تبنَّت رأيَ أبي جهلٍ واختارت الحرب ، وعندما قتل فرسانها الثَّلاثة في المبارزة لم تغير رأيها ولم تتراجع وإنما تقدم الجيش كلُّه للسَّاحة ، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد أوصىٰ جيشه بألاّ يتقدَّم ليلتحم بالعدوِّ إلاَّ بأمره ، وأوصاهم بأن يواجهوا العدوَّ بالنِّبال إن زحف تجاههم .

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يصدر توجيهاته العسكريَّة للجنود المسلمين من العريش ، أو من مركز القيادة المؤقَّت الذي بُنِي له ، وكان إلىٰ جانبه صديقه أبو بكر الصِّدِّيق .

الدُّعاء والانتصار الكبير

لا يتوجه المسلم بدعائه في وقت الشدة أو في وقت اليسر إلا إلى الله وحده . هـٰذا هو عهد المسلم الذي يقرأه يومياً في (سورة الفاتحة) عندما يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] .

ويحثُ الإسلام جميع الناس على التوجه إلىٰ ربهم وطلب حاجاتهم منه ؛ لأنه قريب منهم وسميع مجيب ، كما تدل هـٰذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٦] .

كما يبين القرآن الكريم أن الدعاء من وجوه العبادة لله تعالىٰ ، ويحذر الذين

يدعون غير ربهم ؛ لأن كل العبادات في الإسلام يجب أن تكون لله تعالىٰ وحده من دون شريك . قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [سورة غافر : ٦٠] .

وقد ورد تأكيد لهـٰذا المعنىٰ في حديث نبوي شريف : قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة » . ثُمَّ قَرَأَ ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] [سورة غافر : ٦٠] .

وبهـٰذا الهدي الواضح في أمر الدعاء تقيد أنبياء الله الكرام في دعائهم أوقات الشدة وأوقات الرخاء . يونس عليه السلام دعا ربه من بطن الحوت : ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧] .

ونوح عليه السلام نادىٰ لما كذبه قومه وسخروا منه ويئس منهم : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [سورة القمر : ١٠] .

وعلىٰ هـٰذا المنوال دعت امرأة فرعون ، وهي مؤمنة صالحة أثنىٰ عليها القرآن الكريم : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة التحريم : ١١] .

هـٰذا هدي الإسلام في أمر الدعاء ، وهو أمر متصل بتوحيد الله عز وجل ، التوحيد الصحيح الصافي من كل شبهة . وبه عمل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يواجه خطر الجيش القرشي في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام يوم بدر . فبعد أن أحكم تنظيم صفوف جيشه ، دخل عريشه وبدأ يدعو ربه ويلحُّ في الدُّعاء ، يطلب منه نصره الذي وعده به ، ويقول فيما يقول : « اللَّهم ؛ إنْ تهلك هـٰذه العصابة اليوم ؛ لا تعبد » ، حتَّىٰ إن أبا بكر أشفق عليه وقال : يا نبيَّ الله ؛ بعض مناشدتك ربك فإنَّ الله منجزٌ لك ما وعدك[2] .

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٠).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦ـ ٦٢٧) .

هجم الجيش القرشيُّ على المسلمين والتحم المقاتلون بعضهم ببعض ، وبعد وقت قصير ، انجلىٰ غبار تلك المعركة التاريخية ، وظهرت نتيجتها : لقد تمكنت الأقلية المؤمنة من إلحاق هزيمة ساحقة بالأغلبية المشركة المعتدية .

تبخرت حسابات الجيش الزاحف من مكة دفاعاً عن الشرك والاستبداد ، فقتل سبعون من رجاله ، فيهم عدد من أشهر زعماء قريش ومقاتليها ذوي الخبرة والشجاعة ، وأسر منهم ستة وستون . ولم يستشهد من جيش النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة عشر مسلماً .

وكان من قتلىٰ قريش أمية بن خلف أحد المتورِّطين في سياسة التَّعذيب التي سُلِّطت علىٰ المسلمين في السَّنوات الأولىٰ للدَّعوة في مكَّة المكرَّمة ، وهو الذي اشتهر بتعذيب بلال رضي الله عنه ، مؤذِّن الرَّسول ، وقُتِل أبو جهل أبرز قادة الجيش القرشيِّ وأكثرهم عداوة للإسلام ، وهو الذي كان أشدَّهم حماساً لشنِّ الحرب على المسلمين .

أمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه بدفن قتلى المشركين في مكان اسمه القليب بساحة المعركة ، وكان من بينهم عُتبة بن ربيعة ، التفت النَّبيُّ إلىٰ واحدٍ من جنوده المسلمين ؛ فإذا هو حزينٌ متألِّم ، إنه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، سأل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم صاحبه عن أثر ما جرىٰ لأبيه في نفسه ، فأجابه : (كنت أعرف من أبي رأياً وحِلماً وفضلاً ؛ فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ؛ أحزنني ذلك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً)[1] .

ثمَّ توجَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالخطاب إلىٰ سكَّان تلك القبور يناديهم

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٠ـ ٦٤١) .

بأسمائهم : عتبة بن ربيعة ، شيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وأبو جهل بن هشام ، ومن قتل معهم ، ويقول لهم : « يا أهل القليب ؛ بئس عشيرة النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ، كذَّبتموني وصدَّقني النَّاس ، وأخرجتموني وآواني النَّاس ، وقاتلتموني ونصرني النَّاس »[1] ، ثم قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقاً ؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقاً » ، فقال المسلمون : يا رسول الله ؛ أتنادي قوماً قد جيَّفوا ؟ قال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنَّهم لا يستطيعون أن يجيبوني »[2] .

وصل خبر الانتصار الكبير إلىٰ أهل المدينة ففرحوا به ، وإن كان قد حدث عندهم ما أحزنهم وأحزن النبي صلى الله عليه وسلم . لقد وصلهم الخبر وهم يفرغون من دفن السيدة رقية رضي الله عنها ، بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجة لعثمان بن عفان رضي الله عنه . رحلت الفقيدة الغالية في شبابها ، وبقيت ذكراها حية في النفوس .

وشاع خبر النصر العظيم الذي حققه المسلمون في أرجاء الجزيرة العربية ، ينبه كل ذي حكمة وبصيرة أن تاريخ المنطقة تعاد كتابته بتضحيات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين .

عاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنوَّرة وأوصىٰ أصحابه أن يعاملوا الأسرىٰ بإحسانٍ ، وكان من بينهم أبو عزيز بن عمير بن هاشم شقيق مصعب بن عمير رضي الله عنه ، السفير الناجح الذي وطد أركان الإسلام في المدينة قبل هجرة النبي إليها ، طمع الأسير في أن ينحاز له أخوه ضدَّ المسلمين وضد المسلم الذي كان يحرسه ، لكنَّ مصعباً أجابه بلغةٍ لا تحتمل التَّأويل : إنه أخي دونك ، يقصد أنَّ المسلم الذي كان يحرس أبا عزيز بن عمير هو الأخ

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٩) .

الحقيقيُّ له . هٰذا أخوه في الفكرة والعقيدة والمبادىء التي تؤمن بالله والعدالة وكرامة الإنسان ، وقد أصبحت هٰذه الرابطة مقدمة لدى المؤمنين على الروابط العائلية .

ووصلت أخبار المعركة إلىٰ مكة بطبيعة الحال . وصل أول مبعوث من الجيش المنهزم إلىٰ مكة وحدث أهلها بما جرىٰ وعدد على النَّاس أسماء القتلىٰ فما صدَّقوا ، حتَّىٰ إن صفوان بن أمية وهو أحد القادة الذين لم يشاركوا في الحرب شكَّ في السَّلامة العقليَّة للرَّسول وقال للحاضرين : (والله إن يعقل هٰذا ؛ فاسألوه عنِّي ، فقالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟ قال : هو ذاك جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا)[1] ، ولم يحتمل أبو لهب صدمة الخبر فمات بعد سبعة أيام ، وبكت الكثير من بيوت قريش علىٰ قتلاها في بدر ، وما كان أحدٌ منهم يتوقَّع ما حصل ، ثم صدر الأمر من زعمائهم : لا تفعلوا ـ أي لا تنوحوا على القتلىٰ ـ فيبلغ ذلك محمَّداً وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتَّىٰ تستأنسوا بهم ، لا يأرب عليكم محمَّد وأصحابه في الفداء)[2] ، أي : حتىٰ لا يطلب المسلمون فديةً ماليّةً كبيرةً للأسرىٰ .

وبدأت عملية فداء الأسرىٰ بعد أيام ، سألت أم مصعب بن عمير عن أعلىٰ فديةٍ دُفِعت لأسيرٍ قرشيٍّ فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فأرسلت مبلغاً مماثلاً تفتدي به ابنها أبا عزيز بن عمير ، أمَّا أبو سفيان الذي قتل له ابنه حنظلة في الحرب وأسر ابنٌ آخر له هو عمرو ؛ فقد رفض دفع الدية ، وقال : إنه لن يدفع الدَّم والمال معاً للمسلمين ، ثمَّ تربص فترة من الزَّمن حتَّىٰ عثر علىٰ شيخ مسلمٍ من قبيلة بني عمرو بن عوف اسمه سعد بن النعمان جاء إلىٰ مكَّة معتمراً ،

(١) سيرة ابن هشام (١/٦٤٦) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/٦٤٧ـ٦٤٨) .

وما كان يظنُّ أن يلقىٰ من أهلها شرّاً ، فاعتقله وحبسه وتعهَّد ألاَّ يطلق سراحه إلاَّ إذا فكَّ المسلمون أسر ابنه .

وجاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وفدٌ من قبيلة بني عمرو بن عوف يطلبون منه أن يعطيهم ابن أبي سفيان الأسير ؛ ليستعيدوا به حرِّيَّة صديقهم المسلم سعد بن النُّعمان ، فاستجاب لهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وقبل طلبهم وعندئذ أطلق أبو سفيان سراح سعدٍ .

وكان من بين الأسرىٰ أيضاً أبو العاص بن الرَّبيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس صهرُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته زينب ، اشتهر أبو العاص بأمانته وخبراته العالية في التِّجارة ، وكان ابن أخت أمِّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، فلما طلب يد زينب ؛ وجد القبول من خديجة ومن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم صهرٌ آخر هو عتبة بن أبي لهب وقد زوَّجه ابنته رقيَّة ، ثم لما نزل الوحي وظهرت دعوة الإسلام ؛ كان مما تجلت به عداوة قريش للدين الجديد أن وفداً منهم مضىٰ إلىٰ عتبة وأبي العاص وضغطوا عليهما لتطليق رقية وزينب ، وعرضوا علىٰ كل واحد منهما أن يزوجوه بالفتاة التي يحب .

أمَّا عتبة بن أبي لهب ؛ فأبدى استعداده لتطليق بنت النَّبيِّ إذا زوجوه بنت أبان بن سعيد بن العاص ، أو بنت سعيد بن العاص ؛ فلما زوجوه الثانية ؛ طلق بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي رقيَّة رضي الله عنها التي تزوَّجها عثمان بن عفان بعد ذلك وماتت أيام غزوة بدرٍ .

وأما أبو العاص ؛ فقال لقريش : لا والله إنِّي لا أفارق صاحبتي ، وما أحبُّ أن لي بامرأتي امرأة من قريش ، فبقيت زينب مع زوجها هي علىٰ دين الإسلام وهو على الشِّرك ، واستمرَّ هـٰذا الوضع حتَّىٰ بعد هجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إلىٰ أن كانت غزوة بدر التي أسر فيها أبو العاص ، ولما

أرسلت العائلات القرشيَّة أموالاً تفدي بها أسراها ؛ بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ ، وبعثت فيه بقلادةٍ لها كانت خديجة أدخلتها بها علىٰ أبي العاص حين بنىٰ عليها ؛ فلمَّا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّ لها رقَّةً شديدة ، وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها ؛ فافعلوا » فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها[1] .

يقول العرب : من أجل عين ألف عين تكرم . والأمر هنا متصل ببنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنت السيدة العظيمة التي نصرت الإسلام أيما نصر ، خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها . ومن الصعب أن يتجاهل الباحث في هـٰذا المقام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر أصحابه بإعفاء أبي العاص من الأسر ، وإنما اقترح عليهم ذلك ، بصيغة : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها ؛ فافعلوا » . ولو قالوا له : لا ؛ لما لامهم ؛ فإنه هو من علمهم قول الحق في كل حال .

وإنما أجابوه ووافقوه لوجاهة الطلب ، ولأن للسيدة خديجة دَيناً في عنق كل واحد منهم ، وفي عنق كل مسلم إلىٰ يوم القيامة ، لا يقدر بألف دينار ، ولا بألف مليون دينار . رضي الله عنها وأعلىٰ مقامها في عليين ، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولـٰئك رفيقاً .

عاد أبو العاص إلىٰ مكَّة ويبدو أنَّه وعد النَّبيَّ بأن يسهِّل هجرة زينب رضي الله عنها إلى المدينة ، وبالفعل أوفىٰ أبو العاص بوعده ، وجهز زوجته للهجرة ثم جلب لها أخو زوجها كنانة بن الرَّبيع بعيراً عليه هودج ركبت فيه وقادها متَّجهاً إلى المدينة ، يحميها بقوسه ، لكن بعض المقاتلين القرشيين لحقوا بالركب في مكانٍ يسمَّىٰ ذي طوىٰ غير بعيد من مكَّة المكرَّمة ، ورروعوا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٥٣) .

السيدة زينب ، حتىٰ جاء في بعض الروايات أنها كانت حاملاً وسقط حملها في ذلك الاعتداء . أما نسيبها ، كنانة بن الربيع ؛ فقد وقف موقف الرجال الكرام : نثر كنانته وأقسم أن يرمي بسهم كل من يدنو من زينب ، فتراجع المعتدون عنه قليلاً ، وبقيت الأجواء متوترة .

ولحق أبو سفيان بن حرب بنفسه بالهودج في جمع من رجال قريش ، فخاطب كنانة بن الرَّبيع قائلاً : (إنَّك لم تصب ، خرجت بالمرأة علىٰ رؤوس النَّاس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمَّد ، فيظنُّ النَّاس إذا خرجت بابنته إليه علانيةً علىٰ رؤوس النَّاس من بين أظهرنا أنَّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأَنَّ ذلك منا ضعفٌ ووهن ، ولعمري ؛ ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجةٍ ، وما لنا في ذلك من ثؤرة ـ أي : من ثأرٍ مطلوب منها ـ ولكن ارجع بالمرأة ، حتَّىٰ إذا هدأت الأصوات وتحدَّث النَّاس أن قد رددناها ؛ فسلَّها ـ بمعنىٰ : سر بها ـ سرّاً ، وألحقها بأبيها)[1] .

قبل كنانة بن الرَّبيع منطق أبي سفيان واستجاب لاقتراحه ، فعاد بزينب إلىٰ مكَّة ، فمكثت فيها أيَّاماً حتَّىٰ هدأت الضجَّة التي أحاطت بهجرتها الأولىٰ ، ثمَّ خرج بها بعد ذلك ليلاً فلم يعترض سبيلها أحدٌ حتَّىٰ وصلت إلىٰ أبيها في المدينة المنورة .

ومما رواه ابن اسحاق في السيرة النبوية عن أخبار تلك الرحلة أيضاً ، موقف لهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان . قال ابن اسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر ، قال : حدثت عن زينب أنها قالت : (بينا ـ بينما ـ أتجهز للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة ، فقالت : يا بنت محمد ؛ ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ قالت : ما أردت ذلك . فقالت : أي ابنة عمي ؛ لا تفعلي ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك ، أو بمال تتبلغين به إلىٰ أبيك ؛

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٥٥) .

فإن عندي حاجتك ، فلا تضطني (تستحي) فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت (أي : زينب): والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل . قالت (أي زينب أيضاً) : ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، وتجهزت)[1] .

وصلت زينب أخيراً إلىٰ أبيها في المدينة المنورة ، وانضمت إلى الأمة الإسلامية التي اختصها الله بفضل مناصرة خاتم أنبيائه ، وهو يبلغ العالم تعاليم التوحيد والعدل والحرية والخير ومكارم الأخلاق .

كانت تلك الأقليَّة التي غيرت وجه التَّاريخ تتعلم دائماً من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ما تواجه به تحدِّيات عصرها كجماعة ، وما تواجه به تحدِّيات الحياة لكل فرد من أفرادها . والمقصود هنا : أن ما كان يجري في المدينة المنورة لم يكن في الأساس يوميات حركة سياسية جديدة تسعىٰ لتغيير الأوضاع في الجزيرة العربية ، وإنما يوميات مجموعة من المؤمنين الذين نفضوا الغبار عن تعاليم إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء السابقين عليهم السلام ، وعملوا لتغيير الأوضاع الروحية والفكرية في العالم بأسره ، تحت قيادة نبيهم وإمامهم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرهم دائماً بحقيقة الإسلام كمرجعية روحية وأخلاقية واجتماعية لحياة الفرد والجماعة . جاء في حديث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لهم ذات يوم : « يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعمل سيِّئة ؛ فلا تكتبوها عليه حتَّىٰ يعملها ، فإن عملها ؛ فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي ؛ فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها ؛ فاكتبوها له بعشر أمثالها إلىٰ سبع مئة »[2] .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلِّم أصحابه مودَّة الجار ، وإكرام

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٥٤) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٧٥٠١) .

الضَّيف ، وترك قول السُّوء ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليقل خيراً أو ليصمت »[1] .

وكان النَّبيُّ يوصي أصحابه بالصِّدق ويقول لهم : « إنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة ، وإنَّ الرَّجل ليَصْدُق حتىٰ يكون صدِّيقاً ، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار ، وإنَّ الرَّجل ليكذب حتَّىٰ يكتب عند الله كذَّاباً »[2] .

ومن كان يظنُّ أَنَّ الحروبَ وتحدِّياتِ السِّياسة قد شغلت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عن إبلاغ رسالة الله إلى النَّاس ؛ فهو واهمٌ ، لقد كان يذكِّر أصحابه دائماً بما تستقيم به حياتهم كأفرادٍ وجماعةٍ ، وهي تعاليم تتجاوز عصره إلى المسلمين وإلىٰ عامَّة النَّاس في كلِّ عصر ، ها هو يوصي أصحابه بنصائح ذهبيَّةٍ أخرىٰ : « إيَّاكم والظن ـ أي : إياكم أن تتَّهموا النَّاس بالأدلَّة المبنيَّة على الظَّنِّ والشَّك ـ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً »[3] .

وحذَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه تحذيراً شديداً من الشِّرك ، وعقوق الوالدين ، وقول الزُّور ، فقال يخاطبهم : « ألا أخبركم بأكبر الكبائر ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متَّكئاً فجلس فقال : « ألا وقول الزور » فما زال يكرِّرها حتَّىٰ قلنا ـ أي : حتَّىٰ قال الحضور من المسلمين ـ ليته سكت[4] .

ونزلت من عند الله سورة من القرآن الكريم تصف الكثير من مجريات غزوة

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٠١٨) .
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٦٠٩٤) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٥١٤٤) .
(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٢٦٥٤) .

بدر ، وتؤكِّد للمسلمين أَنَّ الله أرسل ملائكته لتأييدهم ، وتبيِّن لهم أَنَّ الاستجابة للإسلام تعادل الاستجابة لنداء الحياة ؛ لأنَّ الحياة البعيدة عن قيم الإسلام وأخلاقه النَّبيلة الكريمة ليست حياةً حقيقيَّةً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ❁ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ❁ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ❁ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ❁ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ❁ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ❁ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٠ـ٢٩] .

تلك إضاءات موجزة عن التربية الروحية والفكرية التي تلقاها المسلمون من القرآن الكريم ، ومن هدي النبي صلى الله عليه وسلم . أما المشركون في قريش ؛ فقد كانت قلوبهم مسكونة بالرغبة في الثأر والانتقام ، وعقولهم مشغولة بالتآمر على الإسلام وأهله .

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ السَّابِعُ
دُروسٌ مِنْ هَزيمَةِ أُحُد

انتصر جيش المسلمين في بدر ، لكنَّ الإسلام بقي مستهدفاً بقوة وتصميم من قريش ، قاد أبو سفيان بن حرب حملةً عسكريّةً أولىٰ على المسلمين بعد أيَّامٍ قليلةٍ من غزوة بدر ، وكان تحت قيادته مئتا مقاتل فهاجموا بعض واحات النَّخيل في المدينة ، وقتلوا اثنين من المزارعين الغافلين ، ثمَّ عادوا إلىٰ مكَّة ، لكنَّ مثل هٰذه الحملة لم ترو ظمأ قريش إلى الثَّأر من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبقي زعماؤها يخطِّطون لعدوان أكبر .

قاد حملة التَّعبئة لهٰذه الحرب عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميَّة ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وكان رمزها الأساسي وقائدها أبا سفيان ، تمَّ التركيز أوَّلاً علىٰ حشد التَّمويل اللاَّزم ، فطُلِب من أبي سفيان ومن تاجر معه في رحلته الأخيرة للشَّام التَّبرُّع بعائداتِ القافلة كلِّها للحرب ، ولقي الطَّلب موافقةً غير مشروطة .

ثمَّ بدأ زعماء قريش يحشدون العرب من حولهم ليشاركوا معهم في العدوان على المسلمين ، فوافقت عدة قبائل من كنانة وأهل تهامة ، واتَّفق عددٌ من القادة القرشيِّين علىٰ أن يخرجوا بنسائهم إلى الحرب ؛ تأكيداً لالتزامهم بخوضها واستعدادهم لتحمُّل عواقبها ، فكانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من أشهر من خرج في الحملة من النِّساء .

وشارك في الحملة أيضاً عبد مملوك لجبير بن مطعم ، اسمه وحشي وكان متخصِّصاً في الضَّرب بالحَرْبة ، وهو سلاح لم يكن شائعاً عند القبائل العربية ، وقد تعهد له سيِّدُه بأن يعتقه ويعطيه حرِّيَّته إن هو قتل حمزة بن عبد المطلب

رضي الله عنه عمَّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

أكملت قريش استعداداتها للحرب ، وجمعت جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ، أي : ثلاثة أضعاف عدد الجيش الذي خرج إلىٰ بدر ، وبدأت حملتها العسكرية الجديدة ضد المسلمين في شوال من العام الثالث للهجرة ، الموافق للعام (٦٢٦) ميلادية تقريباً . تحرك الجيش باتجاه المدينة ، وبعد عدة أيام ، نزل في بطن السبخة من قناة علىٰ شفير الوادي ، مقابل المدينة المنورة .

كان رأي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عندما بلغته أخبار الحملة القرشيَّة أن يتحصَّن المسلمون داخل المدينة وينتظروا ما يفعله المعتدون ، وقد أوضح ذلك لأصحابه : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ؛ فإن أقاموا ؛ أقاموا بشرٍّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا ؛ قاتلناهم فيها »[1] .

لكنَّ عدداً كبيراً من المسلمين فضلوا الخروج والتصدي للمعتدين ، وبرروا ذلك بأن الجيش القرشي سيفهم خطة البقاء في المدينة علىٰ أنها علامة جبن وضعف من المسلمين . لذلك ألحوا علىٰ قائدهم أن يخرج بهم لصد العدوان ، ولما رأى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حماسة الأغلبيَّة من أنصاره لهٰذا الرَّأي ؛ دخل بيته بعد صلاة الجمعة وخرج بلباس الحرب عندئذ شعر عدد من المسلمين بالقلق من أن يكونوا دفعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ تبني خطة عسكرية لم يكن راغباً فيها ولا متحمساً لها ، فطلبوا منه أن يمضي في خطته الأولىٰ إن أراد إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم رفض العرض ، وتبنىٰ خيار الأغلبية .

خرج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في جيشٍ من المسلمين قوامه ألف مقاتل ، ولمَّا اقترب هٰذا الجيش من جبل أحد علىٰ أطراف المدينة المنوَّرة ؛ تراجع عبدُ الله بن أُبيٍّ أشهر رمز للمنافقين وقاد عمليَّة انسحابٍ مخزيةً من الحملة ،

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٣) .

دخل فيها بعض أقاربه وأتباعه من المنافقين الآخرين ، فكان مجموع المنسحبين معه ثلث الجيش الذي خرج مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كان عبد الله بن أبي مؤيداً للرأي الأول الذي اقترحه النبي صلى الله عليه وسلم بالتحصن في المدينة وعدم الخروج منها ، وقد برر انسحابه المشين من الحملة بأن النبي صلى الله عليه وسلم أطاع جمهور المسلمين ، ولم يسمع لرأيه هو .
بدا واضحاً في تلك اللَّحظة حجم الخطر الكبير الذي كان يمثله المنافقون على المسلمين وعلىٰ دولتهم ومستقبلهم ، لقد تخلَّوا عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في ساعةٍ شديدةِ الصُّعوبة والخطر ، وأربكوا خِطَّته العسكرية ، وسعوا الإشاعة أجواء الخوف والإحباط في صفوف الجيش عندما برروا انسحابهم أيضاً بأَنَّهم لا يريدون أن يقتلوا في ساحة المعركة . حاول بعض الصحابة إثناء لواء المنافقين عن الانسحاب من الجيش ، لكنهم لم ينجحوا . عندئذ قال الصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه ، يخاطب المنافقين : (أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه)[1] .

بقي مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سبع مئة من أنصاره نزل بهم في شعب من جبل أحد ، فكان ظهره وعسكره ناحية الجبل . وفي الجانب المقابل ، احتشد ثلاثة آلافٍ من مقاتلي قريش ، ومعهم مئتا فارس ، فكان خالد بن الوليد علىٰ ميمنة الفرسان ، وعكرمة بن أبي جهل قائد الميسرة . واندلعت الحرب عنيفة وشرسة بين المعسكرين .

سبع مئة مسلم مقابل ثلاثة آلاف ومئتي مشرك ؛ أي : أن المسلم الواحد يواجه أكثر من أربعة من جيش المشركين ، لقد كان ميزان القوى العسكري مختلاً بشدة لصالح الغزاة القادمين من مكة ، لكن المسلمين صمدوا صمود الأبطال ، ودافعوا عن دينهم وحريتهم وأنفسهم بشجاعة منقطعة النظير ، قاتل

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤) .

حمزة رضي الله عنه عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ببسالة شديدةٍ ، وأدخل الخوف في صفوف القرشيِّين ، لكنَّ وحشيّاً كان له بالمرصاد .

قال وحشيٌّ بعد ذلك يروي ما فعل : (كنت غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمُّه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر ، فلمَّا سارت قريش إلىٰ أحد ؛ قال لي جبير : إن قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي ؛ فأنت عتيق ، فخرجت مع النَّاس ، وكنت رجلاً حبشيّاً أقذف بالحَرْبة قذفَ الحبشة قلَّما أخطىء بها شيئاً ، فلمَّا التقى النَّاس ؛ خرجت أنظر حمزة وأتبصَّره حتَّىٰ رأيته في عرض النَّاس مثل الجمل الأورق يهدُّ النَّاس بسيفه هدّاً ، ما يقوم له شيء ، فوالله ؛ إنِّي لأتهيَّأ له أريده وأستتر منه بشجرةٍ أو حجرٍ ليدنو منِّي)[1] .

ثم حانت اللَّحظة التي كان ينتظرها وحشيٌّ ، وبدا حمزةُ عمُّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم أمامه وقريباً من مرمىٰ سلاحه ، قال وحشيٌّ : (وهززت حربتي حتَّىٰ إذا رضيت منها ؛ دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته ـ أي : ما بين أسفل البطن إلى العانة ـ حتَّىٰ خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوي فغلب ، وتركته وإياها حتَّىٰ مات ، ثم أتيته فأخذت حربتي ، ثمَّ رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، وإنَّما قتلته لأعتق)[2] .

ولقي الشَّهادة من المسلمين أيضاً حاملُ لوائهم في معركة أُحد وأوَّل وأشهر سفيرٍ في تاريخ الإسلام مصعبُ بن عمير رضي الله عنه الذي مهَّد الأجواء لهجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ونجح بعلمه وبشاشاته وكياسته وحسن أخلاقه وإخلاصه في إدخال الإسلام إلى الأغلبيَّة السَّاحقة من بيوت الأنصار ، قتله رجلٌ يسمَّى ابن قمئة اللَّيثيَّ ظانّاً أَنَّهُ إنَّما قتل النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وراح يزعم لأصحابه في جيش المشركين أنَّه قتل محمَّداً .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧١) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٧١ـ ٧٢) .

بعد استشهاد مصعب رضي الله عنه ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم شاباً شجاعاً مقداماً ، اسمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برفع راية المسلمين ، فحملها ودافع عنها بثبات وبطولة ، وصمد بقية الصحابة دفاعاً عن دينهم وحريتهم ، إلىٰ أن ظهرت علامات النصر الواضح ، وبدت هزيمة المشركين محققة لا شك فيها ، وبدأ جنود العدو يفرون أو يستعدون للفرار ، وهربت خادمات هند بن عتبة زوجة أبي سفيان .

كان النصر النهائي للمسلمين قاب قوسين أو أدنىٰ ، لكنه ضاع من أيديهم فجأة بسبب خطأ فادح ارتكبته مجموعة منهم . كان النبي صلى الله عليه وسلم كلف ، قبل بداية المعركة ، فرقةً من خمسين مقاتلاً متخصِّصين في رمي النَّبل بحراسة ظهر المسلمين من جهة الجبل ، وقال لقائدهم عبد الله بن جبير : « انضح ـ أي : ادفع ـ الخيل عنا بالنَّبل ، لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا ـ أي : إن انتصرنا أو هزمنا ـ فاثبت مكانك لا نؤتينَّ من قبلك »[1] .

لكن فرقة الرُّماة من المسلمين لم تلتزم بتعليمات النَّبيِّ القائد ، ذلك أَنَّ أصحابها لمَّا رأوا جيش المشركين ينهزم ويتراجع ، ولمَّا رأوا النِّساء المشركات اللَّواتي جئن مع المقاتلين يهربن من ساحة المعركة ؛ ظنُّوا أن نتيجة الحرب قد حسمت لصالح المسلمين ، فتخلَّوا عن مواقعهم ، ونزلوا يتنافسون علىٰ جمع الغنائم ، وحاول قائد فرقة الرُّماة أن يصدَّ جنوده عن ترك مواقعهم ، وذكَّرهم بأوامر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، لكنَّهم خالفوا أمره ونفَّذوا ما بدا لهم صواباً في تلك اللَّحظة .

انتبه خالد بن الوليد إلىٰ تلك الثَّغرة المفاجئة التي خلَّفتها فرقةُ الرُّماة المسلمين ، فالتفَّ بخيله علىٰ جيش النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهاجمه من الخلف ، وكانت ظهور المسلمين مكشوفةً له ، فقلب موازين المعركة ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥ـ ٦٦) .

واستردَّ المبادرة لقريش ، وبذلك تغير مجرى الحرب لصالح المشركين .

ونادىٰ منادٍ من قريش يعلن أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فارتفعت معنويات المشركين ، واضطربت صفوف المسلمين ، وأصيبوا بنكسةٍ شديدةٍ ، واقترب الجيش القرشيُّ من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وناله بالحجارة ، فجرح في وجهه ، وكسرت رباعيَّته اليمنى السُّفلىٰ ، وجرحت شفته السُّفلىٰ ، وجرحت وجنته ، وسال الدَّم علىٰ وجهه الكريم .

شعر المشركون أَنَّهم اقتربوا كثيراً من تحقيق ما فشلوا فيه ليلة هجرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، عندما خطَّطوا لاغتيال نبيِّ الإسلام وتصفيته جسديّاً ، فصعَّدوا القتال ، واستهدفوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم شخصيّاً يريدون قتله ، وبالمقابل التفَّ أنصار الإسلام يحمون نبيَّهم ويفدونه بأرواحهم ، واستشهد عددٌ كبيرٌ منهم ، ولم تغب المرأة المسلمة عن هـٰذه اللحظات العصيبة من تاريخ الإسلام ، فقد كان ممن قاتل حول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودافع عنه نسيبة بنت كعب المازنيَّة ، ولقبها أمُّ عُمَارة ، مرةً أخرىٰ تحضر المرأة المسلمة في أوقات الشِّدَّة ، ويحضر دورها الرَّائد الكبير في نصرة دعوة الإسلام وتثبيت أركانه ، وروت أمُّ عُمَارة ما فعلت لقريبة لها فقالت : (خرجت أوَّل النَّهار وأنا أنظر ما يصنع النَّاس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدَّولة والرِّيح للمسلمين ، فلمَّا انهزم المسلمون ؛ انحزت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال وأذبُّ عنه بالسَّيف ، وأرمي عن القوس ، حتَّىٰ خلصت الجراح إليَّ) ، ثم أشارت إلىٰ آثار جرحٍ غائرٍ بقيت في عاتقها أصابها به ابن قمئة من جيش المشركين ، وأضافت : (لمَّا ولَّى النَّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أقبل ابن قمئة يقول : دلُّوني علىٰ محمَّد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممَّن ثبت مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم فضربني هـٰذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته علىٰ ذلك ضربات ، ولكنَّ عدوَّ الله كان عليه درعان)[1] .

وفي تلك اللَّحظات التي حوصر فيها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في شعب من شعب جبل أحد وظنَّ فيها الكثير من أنصاره أَنَّه قتل ؛ ضرب العديد من المسلمين أمثلةً نادرةً في البطولة والتَّضحية والفداء ، كان منهم أبو دجانة الذي جعل نفسه درعاً للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كي لا تصيبه نبال العدو ، ومنهم أنس بن النَّضر لقي بعض الجنود المسلمين قد جلسوا وتركوا القتال فقال : (ما يجلسكم ؟ قالوا : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استقبل القوم فقاتل حتَّىٰ قتل)[2] .

وقاتل مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ مخيريق من يهود المدينة حمل سيفه وعدَّته وقال للنَّاس : إن أصبت ؛ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ، وشارك مخيريق في الحرب مع المسلمين حتَّىٰ قتل ، أمَّا القبائل اليهودية الرئيسة ؛ فلم تشارك في معركتي بدرٍ ولا أحدٍ ، بخلاف ما نصَّ عليه دستور المدينة ، وكان ذلك مؤشِّراً إلىٰ تدهور العلاقات بين هـٰذه القبائل وبين المسلمين ، وهو مؤشِّر يضاف إلىٰ مؤشِّرات أخرىٰ منها المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين يهود بني قينقاع ويهود بني قريظة ، وأغلب الظَّنِّ أَنَّ زعماء تلك القبائل اليهوديَّة ظنُّوا أَنَّ قريشاً ستهزم محمَّداً في نهاية المطاف فتراوح موقفهم بين تأييدِ قريشٍ وبين الحياد ، مثل هـٰذا التَّقدير للأمور لم يكن حكراً على اليهود ، ولاشكَّ أَنَّ القبائل التي خرجت مع قريشٍ في حرب أُحُد كانت ترى الرأي نفسه ، لكنَّ الوقائع والأيَّام بيَّنت أَنَّ تلك التَّقديرات وتلك

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٨١ـ ٨٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٨٣) .

الحسابات لم تكن صحيحةً ، ومن هنا يمكن القول : إنَّ المعارك التي جرت في تلك الفترة بين القبائل اليهودية والمسلمين كانت إلىٰ حدٍّ كبيرٍ نتيجةً من نتائج تلك الحسابات الخاطئة .

انهزم جيش المسلمين في معركة أُحُد ، ونال الشهادة سبعون من الصحابة رضي الله عنهم ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يقتل ، كما روج المشركون ، عرفه كعب بن مالك وهو من أنصاره فنادىٰ بأعلىٰ صوته : يا معشر المسلمين ؛ أبشروا ، هٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، معه أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعليُّ بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزُّبير بن العوَّام ، رضوان الله عليهم ، والحارث بن الصُّمَّة ورهط من المسلمين)[١] .

وحاول خالد بن الوليد وعدد من المقاتلين المشركين معه صعود الجبل من جديد واستهداف النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومن معه ، فتصدَّىٰ لهم عمر بن الخطَّاب وعدد من المقاتلين المسلمين حتَّىٰ فرضوا عليهم النُّزول من الجبل ، ودخل وقت صلاة الظُّهر فصلاَّها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قاعداً من الجراح التي أصابته في المعركة ، وصلَّى المسلمون خلفه قعوداً .

انتهت الحرب بهزيمةِ المسلمين بعد أن كانوا منتصرين في جولاتها الأولىٰ ، ثمَّ أشرف أبو سفيان علىٰ ساحة المعركة من مكان مرتفع في بعض شعاب الجبل المقابلة للمكان الذي تجمَّع فيه النَّبيُّ وأصحابه ، وأراد أن يتحقق من مصير النبي صلى الله عليه وسلم ووزيريه المشهورين أبي بكر وعمر فنادىٰ : (أفي القوم محمَّد ؟ فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ـ يعني أبا بكر ؟ ـ ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٨٤) .

وسلم : « لا تجيبوه » فقال ـ أي : أبو سفيان ـ : أفي القوم ابن الخطَّاب ؟ فقال أبو سفيان لمَّا لم يجبه أحد : إن هـٰؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء ؛ لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك ، قال أبو سفيان : ٱعلُ هبل ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلىٰ وأجل » قال أبو سفيان : لنا العزَّىٰ ولا عزَّىٰ لكم ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولىٰ لكم » قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر ، والحرب سِجال ، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني)[١] .

أمَّا المثلة التي أشار إليها أبو سفيان ؛ فقد تعرَّض لها حمزة عمُّ النَّبيِّ علىٰ يد هند بنت عتبة ، وكانت عملاً شنيعاً ما حدث مثله في حروب المشركين الأخرىٰ ضدَّ المسلمين .

أقبلت هند زوجة أبي سفيان بن حرب تنظر في وجوه القتلىٰ وقد حُسِم أمر معركة أحد لصالح الجيش القرشي المعتدي ، وفاضت بها مشاعر الحقد والكراهية ، فمضت مع عدد من النسوة اللاتي كن معها تمثِّل بالقتلىٰ ، تقطِّع الآذان والأنوف ، وتتخذ منها خلاخيل وقلائد توزِّعها علىٰ من حولها من خدم ومساعدين ، ثمَّ اتجهت إلىٰ جثَّة حمزة رضي الله عنه فمثَّلت به هو أيضاً ، وزادت فبقرت بطنه واستخرجت كبده ووضعتها في فمها ولاكتها ، ولمَّا لم تستسغها ؛ لفظتها .

ووقف أبو سفيان بنفسه علىٰ جثَّة حمزة ، فراح يضرب شدقه برأس الرُّمح إلىٰ أن لمحه لامحٌ واستغرب منه أن ينال من ابن عمه وهو ميت لا يستطيع الدِّفاع عن نفسه ، فاعتذر قائلاً : ويحك ، اكتمها عنِّي ؛ فإنها كانت زلة .

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٠٤٣) .

وهكذا انتهت حرب أحد ، ثمَّ انصرف الجيش القرشيُّ عائداً إلىٰ مكَّة ، وتفرَّغ المسلمون لدفن شهدائهم .

جرىٰ ذلك يوم السبت في النصف من شوال في العام الثالث للهجرة النبوية ؛ أي : في العام (٦٢٦) للميلاد .

دروس أحد

سأل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن سعد بن الربيع ، وكان أحد زعماء الأنصار الذين بايعوا الرَّسول في بيعة العقبة في مكَّة قبل هجرته ، فتطوَّع أحدُ الأنصار للبحث عنه ، وسعىٰ فوجده جريحاً يحتضر ؛ فلما أبلغه أَنَّ النَّبيَّ يسأل عنه أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ ردَّ عليه سعد : (أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنِّي السَّلام ، وقل له : إنَّ سعد بن الرَّبيع يقول لك : جزاك الله عنَّا خير ما جزىٰ نبيّاً عن أمَّته ، وأبلغ قومك عنِّي السَّلام وقل لهم : إنَّ سعد بن الرَّبيع يقول لكم : إنَّه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلىٰ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عين تطرف)[1] ، ثمَّ نال سعدٌ الشَّهادة .

وبحث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن عمِّه حمزة رضي الله عنه ، فوجده في ساحة المعركة شهيداً قد بقرت بطنه وخلعت كبده وقطع أنفه وأذناه ، واشتدَّ الألم والغضب بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه للتَّمثيل الشَّنيع الذي أوقعه القرشيُّون بالشُّهداء المسلمين ، حتَّىٰ توعَّد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالانتقام ، وقال بعض المسلمين في سياق التَّعاطف والتَّضامن معه : والله ؛ لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدَّهر ؛ لنمثِّلَنَّ بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب ، لكنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أنزل علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن الكريم تنهىٰ عن مثل هـٰذا العمل ، وترشد المسلمين للأسلوب الصحيح في

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٥) .

التعامل مع ما جرىٰ : ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۞ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٦ـ١٢٨] .

وأقبلت صفيَّة بنت عبد المطَّلب شقيقة حمزة تريد أن تراه ، فطلب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من ابنها الزُّبير بن العوَّام أن يحاول ردَّها كي لا ترىٰ ما وقع علىٰ أخيها من تمثيل شنيع ، لكنَّها أصرَّت قائلةً : قد بلغني أن قد مُثِّل بأخي وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله ، عندئذ أذن لها النَّبيُّ برؤية حمزة ، فصلَّت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، ثمَّ أمر النَّبيُّ بشهداء المسلمين فدفنوا في ساحة المعركة في سفح جبل أحد .

بقي حمزة رضي الله عنه رمزاً شامخاً في تاريخ المسلمين ، ألقاب الشَّرف له كثيرة ، منها : أَنَّه سيِّد الشُّهداء ، ومنها : أَنَّه أسد الله وأسد رسوله ، وكان عزاء أهله وعزاء أهالي سعد بن الرَّبيع ومصعب بن عمير وسائر شهداء معركة أحد الآخرين أَنَّ العقيدة التي قدموا أرواحهم من أجلها بقيت حيَّة متوهِّجة في صدور المؤمنين بها ، وأنارت من بعدهم قلوب مئات الملايين من البشر وماتزال .

ونزل الوحي على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يشير إلىٰ عبرٍ ودروس من غزوة أحد : ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن

تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ❁ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ❁ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ❁ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ❁ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ❁ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ❁ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٧ـ١٤٨] .

ثم استمرت الآيات الكريمة تذكِّر المسلمين بانتصارهم في الجزء الأول من المعركة ، وبأَنَّ عصيان بعضهم لأوامر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وانشغالهم بأمور دنيويَّة مثل جمع الغنائم هو سبب تحول النَّصر إلىٰ هزيمةٍ وبلاءٍ شديدٍ ، وتضمَّنت الآيات عتاباً للذين سلَّموا بالهزيمة أو فرُّوا يوم أحد ، وذكَّرتهم مثلما ذكَّرت من بعدهم من أجيال البشر أَنَّ أمر الحياة والممات بيد الله وحده ، وأنَّ من أسمى الأمور وأعلاها قدراً أن يضحِّي الإنسان بنفسه في سبيل إيمانه بالله ، وفي سبيل ما يتضمَّنه هٰذا الإيمان من انحياز لقيم الحرية والعدل والمساواة ومكارم الأخلاق ومحبَّة للخير وكراهة للشَّر .

وبما أنَّ خروج النَّبي لملاقاة الجيش القرشي المعتدي في أُحُد كان خيارَ أغلبيَّة المسلمين ولم يكن الخيار الأوَّل للنَّبيِّ ، فقد نزلت آيات أخرىٰ في ذات السِّياق تحثُّ النَّبيَّ على الالتزام بالشُّورىٰ رغم كلِّ ما جرىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾

[سورة آل عمران : ١٥٩] .

ثم حسمت الآيات الكريمة الأخرىٰ في هـٰذا السِّياق من سورة آل عمران أمرَ مسؤوليَّة الهزيمة في أُحُد بأنْ نسبته إلى المسلمين أنفسهم في بيانٍ قويٍّ ومعبِّرٍ عن أهميَّة النَّقد الذَّاتيِّ وضرورة الاعتراف بالخطأ وتصحيحه ، وحثَّت بعد ذلك المؤمنين علىٰ نبذ الخوف واليقين بالله والتَّوكل عليه ؛ لأنه هو من نصر الأنبياء والمؤمنين من قبل أيَّام نوحٍ وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء والمرسلين : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ❊ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ❊ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ❊ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥ـ١٦٨] .

وإذا كان جنود الجيش القرشيِّ قبلوا التَّضحية بحياتهم لهزيمة المسلمين ، وإذا كانت أجيالٌ من المقاتلين المغامرين بقيت حتىٰ يومنا هـٰذا وستبقىٰ في المستقبل مستعدَّة للتَّضحية بالحياة من أجل احتلال بلدٍ هنا وبلدٍ هناك ، ومن أجل نهب ثروات الشُّعوب ، وترويج نظريَّات وقِيَمٍ ظالمةٍ ومشاريع عنصريَّة أو استعماريَّة أو معادية للأديان السماوية جميعها وللحرية وحقوق الإنسان ؛ فكيف لا يضحي المسلمون دفاعاً عن عقيدة التوحيد ، ومبادىء العدالة والحرية والمساواة ومكارم الأخلاق في العالم ؟!

نعم ؛ قد يلقى المسلم الشهادة دفاعاً عن عقيدته وحريته وكرامته كما لقيها كثيرٌ من أصحاب موسىٰ وعيسىٰ عليهما السَّلام من اليهود والمسيحيِّين والأمم المؤمنة من قبلهم ، ولكنَّ الشَّهيد المؤمن عند الله له مقامٌ عظيمٌ .

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ❊ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٩ـ١٧١] .

هل يعني هٰذا : أنَّ الإسلام يفضِّل الموت على الحياة ؛ كلاَّ ، ولكنَّ خلاصة هٰذه الآيات أنَّ المبادىء العظيمة النَّبيلة تحتاج إلىٰ نفوسٍ عظيمةٍ تؤمن بها وتقبل التَّضحية بأغلىٰ ما عندها في سبيلها ، هل كان بالإمكان قهر الطُّغاة المستبدِّين في مراحلَ مختلفةٍ من تاريخ العالم من دون وجود أفرادٍ مستعدِّين للتَّضحية بأرواحهم من أجل الحرِّيَّة ؟ هل كان بالإمكان لشعوبٍ كثيرة أن تستقلَّ من ذلِّ الاستعمار من دون أن يبرز من صفوفها مقاومون من أجل الحرِّيَّة مستعدُّون للتَّضحية بحياتهم من أجل الاستقلال ؟ هل كان بالإمكان دَحْر النَّازيَّة والفاشيَّة في أوروبا من دون مئات الآلاف من الناس الشجعان الذين ضحَّوا بأرواحهم من أجل السَّلام والحرِّيَّة ؟ هل كان بالإمكان أن يُهْزَم النِّظام العنصري في جنوب إفريقيا من دون وجود أجيال من الأفارقة الشُّجعان الذين أكَّدوا في مناسباتٍ عديدةٍ أنَّهم مستعدُّون لتقديم أرواحهم فداء للكرامة والحرِّيَّة ؟

إذا توفَّرت تلك الرُّوح الشُّجاعة لدى المدافعين عن قِيَم الإيمان بالله والسَّلام والحرِّيَّة وكرامة الإنسان ؛ فإن النَّصر يتحقَّق من دون شكٍّ ولا ريبٍ .

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۞ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٢ـ١٧٤] .

إن النَّصر ليس عسكريّاً فحسب ، وليس عسكريّاً في المقام الأوَّل ، ذلك أن انتصار المؤمن ليس في وجهه الأساس ردُّ عدوان الجيش القرشيِّ أو عدوان أيِّ جيشٍ آخر معادٍ لحرِّيَّة الاعتقاد وحرِّيَّة العبادة ، الانتصار الحقيقيُّ للمؤمن هو انتصار فكرة الإيمان ، وتوثيق الصِّلة بين الخالق والمخلوق علىٰ أساس

المحبَّة والعبادة ، والالتزام من بعد بمنهاج الإيمان الذي يحرِّر الإنسان من العبوديَّة للأوثان وللأوهام ، ويقوده إلىٰ محبَّة النَّاس وفعل الخير ، ويؤهِّله لصناعة الحضارة ، ولذلك جاءت الآيات الأخيرة ، من (سورة آل عمران) التي تحدَّثت بتوسُّع عن غزوة أحد ودروسها ، جاءت هـٰذه الآيات الكريمة لتذكِّر المسلمين والنَّاس أجمعين بجوهر الموضوع الذي يجب ألاَّ يغيب عن أيِّ إنسان عاقلٍ منصفٍ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ۝ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٩ـ ٢٠٠] .

* * *

الفَصْلُ الثَّامِنُ
الإيمَانُ في مُواجَهَةِ السَّيْفِ

سلك الجيش القرشيُّ طريق العودة إلىٰ مكَّة ، لكنه توقَّف بعد مسيرة أميال قليلة في منطقة تسمَّى الرَّوحاء ، وقد بدا لقيادته رأيٌ جديد يميل إلىٰ تجديد العدوان على المسلمين واستئصالهم مرَّة واحدةً ، إنَّ النَّزعة الاستئصاليَّة في السِّياسة والفكر نزعةٌ قديمة يؤمن بها دائماً أعداء الحرية وأعداء حرِّيَّة الاعتقاد ، الذين لا يرون من سبيل للتَّعامل مع المخالفين في الرأي والعقيدة إلاَّ سبيل القوَّة والقمع ، رأىٰ زعماء الجيش القرشيِّ أن يعودوا ويهاجموا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم من جديد ، وقالوا : أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم ؟! لنكرَّنَّ علىٰ بقيتهم فلنَفْرُغَنَّ منهم .

وكان الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد تحوَّط لمثل هـٰذه الخِطَّة ، فدعا أنصاره يوم الأحد السَّادس عشر من شوال للعام الثَّالث من الهجرة ؛ أي : بعد يومٍ واحدٍ من معركة أُحُد ، دعاهم للخروج معه في حملة عسكريَّة جديدةٍ أراد بها إيصال رسالةٍ لأعدائه بأنَّ هزيمة الأمس لم تقض عليه ولا علىٰ جيشه ، ولم تضعف عزيمة المسلمين للدِّفاع عن أنفسهم وحرِّيَّتهم في الاعتقاد والعبادة ، وسميت تلك الحملة غزوةَ حمراءِ الأسد ، وهو موقع يبعد عن المدينة المنوَّرة ثمانية أميالٍ فقط .

وجاء مسافر من قبيلة عبد القيس إلىٰ حمراء الأسد ، وكان قد مرَّ بالجيش القرشيِّ واستمع إلىٰ أبي سفيان ، وحمل منه رسالةً شفوية للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مفادها أنَّ قريشاً عازمةٌ على استئناف الحرب لاستئصال من تبقَّىٰ من

المسلمين ، فلم يَخَف النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام ولم يجزع ، وإنَّما قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

لكنَّ القتال لم يقع بين الطَّرفين ؛ بسبب الدَّور الذي قام به معبد بن أبي معبد الخزاعيِّ ، وهو آنذاك رجلٌ مشرك من قبيلة خزاعة التي اشتهرت بتقديرها للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتعاطفها معه ، مرَّ معبدٌ أوَّلاً علىٰ جيش المسلمين ، وأبدىٰ تعاطفه معهم في مصابهم بالأمس ، ثمَّ مضىٰ إلى الرَّوحاء فلقي جيش المشركين بزعامة أبي سفيان وعرف منهم عزمهم على العودة لقتال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم واستئصال أنصاره ، سأل أبو سفيان معبداً : (ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمَّد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قطُّ ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه في يومكم ، وندموا علىٰ ما صنعوا ، فيهم من الحِنْق عليكم شيءٌ لم أر مثله قطُّ ، قال : ويحك ؛ ما تقول ؟ قال : والله ؛ ما أرىٰ أن ترتحل حتَّىٰ ترىٰ نواصيَ الخيل ، قال : فوالله ؛ لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإنِّي أنهاك عن ذلك)[1] ، عندئذ قبل أبو سفيان نصيحة معبد وقرر العودة بالجيش إلىٰ مكة .

لكنَّ خيار الحرب على المسلمين والسعي لاستئصالهم بقي حجر الزَّاوية في الاستراتيجية السِّياسيَّة والعسكريَّة لزعماء مكة من المشركين ، ولاشكَّ أنَّ انتصارهم في أُحُدٍ شجَّعهم على التَّمسُّك بهٰذا الخيار ، وشجَّع آخرين في الجزيرة العربية على التَّشدُّد في عداوتهم للمسلمين .

غدر أهل عضل والقارة

من هٰؤلاء الآخرين وفد من قبيلة عضل والقارة من الهون بن خزيمة بن مدركة وصل المدينة بعد حرب أُحُد في العام الثَّالث للهجرة ، وقال أفراده

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٢) .

للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إن الإسلام وصل إلىٰ ربوعهم وآمن به عددٌ من قومهم ، وهم يطلبون من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم بعض أصحابه ؛ لتعليمهم الدين والقرآن الكريم وشرائع الإسلام ، فاستجاب لهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن حسن نيَّة ، وأرسل معهم ستَّةً من أنصاره لأداء هٰذه المهمة ؛ لأنه داعية إلى الله ، وتلك هي وظيفته الأساسية في تاريخ البشرية .

لكنَّ أهل عضل والقارة كانوا يضمرون الشرَّ والغدر بالمسلمين ؛ فلمَّا وصلوا إلى الرَّجيع ، وهو موضع ماءٍ لقبيلة هذيل في الحجاز ؛ نادوا أهل هذيل لمحاصرة المسلمين والقبض عليهم ، ثم قالوا للدعاة المسلمين الستة : إنَّا والله ما نريد قتلكم ، ولكنَّا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهدُ الله وميثاقه ألاَّ نقتلكم .

ما أسوأ ما صنع أهل عضل والقارة ، يطلبون الدعاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلموهم الإسلام ، ثم تنكشف نواياهم فإذا هم يريدون اعتقال هٰؤلاء الدعاة وأسرهم وبيعهم لألد أعداء الإسلام من طغاة قريش .

أما أمير الوفد المسلم مرثد بن أبي مرثد ؛ فرفض أن يصدقهم ، وأيده في ذلك اثنان من أصحابه : خالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، دافع الثلاثة عن أنفسهم بسيوفهم ، فقتلهم أهلُ الغدر ومن لبىٰ نداءهم من الرعاع للمشاركة في ارتكاب تلك الجريمة البشعة ، ثم لم يكفهم القتل ، وأرادوا بيع رأس عاصم بن ثابت لامرأة مشركةٍ تدعىٰ سلافة بنت سعد بن شهيد ، كانت نذرت أن تشرب الخمر في رأسه ؛ لأنَّه أصاب ابنيها في معركة أُحُد ، وعندما عادوا إليه بعد يوم من قتله ؛ وجدوا أنَّ السَّيل قد جرف الجثَّة ، فلم يعثروا لها علىٰ أثر .

وأمَّا المسلمون الثَّلاثة الآخرون : زيد بن الدِّثنَّة ، وخبيب بن عديٍّ ،

وعبد الله بن طارق ؛ فسلَّموا أنفسهم لوفد الغدر ، حاول عبد الله الهرب بعد ذلك فقتله المجرمون رجماً بالحجارة ، وأمَّا خبيب وزيد ؛ فباعوهما لقريشٍ مقابل أسيرين من هذيل كانا محبوسين في مكَّة .

اشترىٰ صفوان بن أمية أحدُ الزُّعماء الطُّغاة المشركين في قريش زيدَ بن الدِّثِنَّة وقتله في موكبٍ حضره أبو سفيان وكثير من النَّاس، وأما خبيب : فحبسه قادة قريش أيَّاماً ثمَّ خرجوا به إلىٰ ضواحي مكَّة ليصلبوه ، وقبل أن ينفِّذوا جريمتهم طلب منهم أن يسمحوا له بالصَّلاة فوافقوا ، صلَّىٰ خبيب رضي الله عنه ركعتين ، ثمَّ قال للجلادين : أمَا والله ؛ لولا أن تظنُّوا أنِّي إنَّما طوَّلت جزعاً من القتل ؛ لاستكثرت من الصَّلاة ، ونقلت كتب التَّاريخ أبياتاً من الشِّعر لخبيب وصفَ فيها مشاعره لحظات قبل أن يصلب ، هـٰذه بعضها : (من الطويل)

لَقَدْ جَمَعَ ٱلأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَٱسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
إِلَى ٱللهِ أَشْكُوا غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي ... وَمَا أَرْصَدَ ٱلأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَـوَٱللهِ مَـا أَرْجُـو إِذَا مِـتُّ مُسْلِماً ... عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي ٱللهِ مَصْرَعِي
فَلَسْـــتُ بِمُبْـدٍ لِلْعَـدُوِّ تَخَشُّعــاً ... وَلاَ جَزَعاً إِنِّي إِلَى ٱللهِ مَرْجِعِي

ثمَّ أقبل طغاة قريش إلىٰ خبيبٍ فرفعوه علىٰ خَشَبَةٍ وصلبوه ، واستشهد بذلك العضو السَّادسُ في الوفد الذي أرسله النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع وفد عضل والقارة ، من بعد أن وقعوا ضحيَّة لعمليَّةِ غدرٍ شنيعةٍ لا يقبلها ضميرٌ ولا دينٌ ، وصل الخبر إلى المدينة المنوَّرة فتلقَّاه أهلها بالحزن الشَّديد ، ولكنهم احتسبوا شهداءهم عند الله ، وهم الذين عرفوا من أول أمر الإسلام أنهم سيتعرضون لمثل هـٰذا الكيد وما هو أشد منه ، وسيلقون من القمع والأذىٰ مثل ما لقيته أجيال سابقة لهم من المؤمنين وأنصار الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

حادثة بئر معونة

في العام الرابع للهجرة ، تعرض المسلمون لعملية غدر أخرىٰ شنيعة للغاية . بدأت الحادثة بمقدم رجل من أهل نجد ، خبير بفنون القتال ، اسمه أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ولقبه (ملاعب الأسنة) . قدم الرجل إلى المدينة المنوَّرة ، وهناك دعاه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأبدى اهتماماً بالأمر ، لكنَّه لم يقبل أو يرفض بوجهٍ واضح ، وإنَّما قدَّم للنَّبيِّ عرضاً جديراً بالاهتمام ، وقال له : (يا محمد ؛ لو بعثت رجالاً من أصحابك إلىٰ أهل نجد فدعوهم إلىٰ أمرك ؛ رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أخشىٰ عليهم أهلَ نجد » فقال أبو براء : أنا جارٌ لهم ، فابعثهم ؛ فليدعو النَّاس إلىٰ أمرك)[1] .

قبل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عرض عامر بن مالك بعد أن تعهَّد بحماية الوفد المسلم ، واختار المنذر بن عمرو علىٰ رأس وفدٍ من أربعين من خيار المسلمين ، وكلَّفهم بأداء المهمة ، وهي مهمَّة واضحةُ المعالم من سياق القصَّة ، وليس فيها إلا عرض رسالة الإسلام علىٰ أهل نجد ، ودعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، علىٰ أن يبقىٰ أمر قبول هـٰذه المبادىء أو رفضها للناس ، فإن اقتنعوا بها وآمنوا بها ؛ فذاك ما يرجوه المسلمون ، وإن رفضوها ؛ فقد جاء في القرآن الكريم أنَّه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] .

لكن دعوة السَّلام قوبلت بالغدر والعدوان ، ذلك أنه عندما وصل وفد المسلمين الأربعين إلىٰ بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحَرَّة بني سليم ؛ بعثوا واحداً منهم هو حرام بن ملحان برسالة من الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلىٰ عامر بن الطُّفيل أحد الزعماء المعروفين في قبيلة بني عامر ، فلمَّا جاءته الرِّسالة ؛ أبىٰ أن يفتح ويقرأ ما فيها إلاَّ بعد أن يقتل حاملها المسلم ، وكانت

(١) سيرة بن هشام (٢/ ١٨٤) .

تلك جريمةً أولىٰ مخالفةً لكلِّ الأعراف والمواثيق السَّائدة في تلك المنطقة ، ثمَّ مضىٰ بعد ذلك لتنفيذ جريمته الكبرىٰ ، وطلب من بني عامر أن يخرجوا معه لقتل الوفد المسلم ، فلمَّا لم يستجيبوا له احتراماً لوعد عامر بن مالك للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بحماية مبعوثيه ؛ مضىٰ فحصل على الدَّعم الكافي من قبائل بني سليم المجاورة من عصية ورعل وذكوان ، وتقدَّم بهم في جيشٍ تجمع أهله علىٰ نية الشر والعدوان ، مهمته الوحيدة قتلُ مجموعة من الدعاة المسلمين الذين جاؤوا بعهد أمان من أبي براء عامر بن مالك بن جعفر ، يعرفون الناس برسالة الإسلام عَبْر منهج الحوار وليس عَبْر العنف والقتال .

ولما وصل عامر بن الطُّفيل ومن معه إلىٰ مكان تجمع المسلمين في بئر معونة ؛ أحاطوا بهم وهاجموهم ، وقتلوهم جميعاً ، إلا واحداً منهم هو كعب بن زيد ، فقد أصيب بجروحٍ بالغةٍ حتَّىٰ ظنَّ المعتدون أنَّه قتل ، لكنَّه نجا بعد ذلك ، ثمَّ لقي الشَّهادة في معركة الأحزاب التي جرت بعد عامين ، وقتل المعتدون أيضاً مسلماً آخر كان بعيداً عن الموقع لمَّا حصلت المجزرة بحقِّ أصحابه ، كما أسروا مسلماً آخر لم يكن موجوداً وقت الحادثة أيضاً هو عمرو بن أميَّة ، وقد أبقىٰ عامر بن الطُّفيل علىٰ حياته وفاءً بنذرٍ سابق لأمِّهِ .

كانت تلك الإبادة الجماعية للدعاة المسلمين صدمة كبيرة للمسلمين ، وكانت في نفس الوقت دليلاً واضحاً لا لبس فيه على الأخطار الكبيرة المحدقة بالدولة الإسلامية الوليدة في الجزيرة العربية . إن الأوضاع السياسية والعسكرية القائمة في تلك الفترة ، كانت تشير بوضوح إلىٰ أن المسلمين في المدينة المنورة مستهدفون ، لا من قريش فقط ، ولكن من كثير من القبائل المجاورة الأخرىٰ ، وأن قريشاً وهـٰذه القبائل غير مستعدة للاعتراف بحق المسلمين في العيش بحرية وأمان في دولتهم ، دعك من أن تسمح لهم بالدعوة إلى الإسلام بالحوار والطرق السلمية . ولعل هـٰذه الأحداث تساعد الباحث

المنصف علىٰ فهم المعارك العسكرية التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإنهم إنما كانوا يدافعون عن وجودهم وحريتهم وعقيدتهم ، في وجه جهات معادية كثيرة لا تخفي نواياها ، وتخطط في السر والعلن لاستئصال المسلمين مرة واحدة .

عاد عمرو بن أمية إلى المدينة المنوَّرة وفي طريق عودته وجد اثنين من قبيلة بني عامر فقتلهما انتقاماً ممَّا فعله عامر بن الطُّفيل بأصحابه ، لكنَّ الرَّسول لم يرض بصنيعه رغم الفاجعة الكبرى التي ألمَّت بأصحابه ، وتعهَّد بدفع دِيَة القتيلين بسبب معاهدة جوار سابقةٍ بينه وبين بني عامرٍ ، وجرت بعد ذلك مفاوضات بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين إحدى القبائل اليهودية بني النضير لتأمين دِيَة القتيلين ، وذلك ؛ لأنَّ بني النضير كان لهم هم أيضاً عقد وحلف مع بني عامر ، غير أنَّ مسار المفاوضات تعقَّد عندما حاول بعض بني النَّضير اغتيال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واقترب الموقف من مواجهة عسكريَّة ، لكنَّ الحرب لم تتم ؛ لأنَّ بني النَّضير طلبوا من النَّبيِّ أن يسمح لهم بمغادرة المدينة إلىٰ خيبر أو الشَّام ، فقبل ذلك لهم .

غزوة ذات الرِّقاع وغزوة بدر الآخرة

أظهرت العمليَّتان الغادرتان اللَّتان تعرَّض لهما المسلمون في نهاية العام الثَّالث وبداية العام الرَّابع للهجرة أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة مطالبة بإثبات قدرتها على الدِّفاع عن نفسها ، وأنَّها إن لم تفعل ذلك ؛ فإنها تواجه خطر التَّصفية الكاملة .

وفي هـٰذا السِّياق قاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حملةً عسكريَّة في جمادى الأولىٰ من العام الرَّابع للهجرة استهدفت بني محارب وبني ثعلبة من غطفان في منطقة نجد ، وسمِّيت تلك الحملة بغزوة ذات الرِّقاع ؛ نسبةً لشجرة تسمَّىٰ

بهـٰذا الاسم في المكان الذي نزل فيه الجيش المسلم ، أو نسبة لحادثة ترقيع عددٍ من رايات الجيش ولم يحصل في هـٰذه الغزوة قتال رغمَ أنَّ الجيش المسلم واجه جيشاً كبيراً من غطفان ، لكنَّ إرادة الطَّرفين التقت على التَّفرُّق من دون الدُّخول في حربٍ .

وقبل أن يتفرق الجيشان ، حاول أحد مقاتلي غطفان ـ ويدعىٰ غورث ـ أن يحسم المعركة كلها لوحده ؛ إذ قال لأصحابه : (ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلىٰ ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، قال : فأقبل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره ، فقال : يا محمد ؛ انظر إلىٰ سيفك هـٰذا ؟ قال : « نعم » ، فأخذه ـ أي : غورث ـ فاستلَّه ، ثمَّ جعل يهزُّه ويهمُّ بقتل النَّبيِّ ، فيكبته الله ، ثم قال : يا محمَّد ؛ أما تخافني ؟ قال : « لا ، وما أخاف منك ؟ » قال : أما تخافني وفي يدي السَّيف ؟ قال : « لا ، يمنعني الله منك» ، ثمَّ عمد غورث إلىٰ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فردَّه إليه)[1] .

ثمَّ جاءت ذكرىٰ غزوة أُحُد ، وكان أبو سفيان قد واعد المسلمين على اللِّقاء لحرب أخرىٰ بعدها بعام واحد في بدرٍ ، فخرج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في جيش من أصحابه ووصل بدراً وأقام بها ثمانية أيام يتوقَّع عدواناً جديداً من المشركين ، وبالفعل ، جمعت قريش جيشاً بقيادة أبي سفيان ، واستعدت لشن حرب جديدة على المسلمين . لكن أبا سفيان غير رأيه عندما وصل بجيشه إلىٰ منطقة عسفان ، وقال لمن معه : يا معشر قريش ؛ إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هـٰذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا[2] . فأطاعوه وعادوا إلىٰ مكة . فلما

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٥) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٩ـ ٢١٠) .

وصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عاد بأصحابه إلى المدينة المنورة من دون قتال .

ومع أنَّ أهل مكَّة انتقدوا أبا سفيان وجيشه وسمَّوهم جيش السَّويق ، وقالوا لهم : إنما خرجتم تشربون السَّويق ؛ فإنَّ هـٰذا اللَّوم لم يكن كلُّه في محلِّه ، ذلك أنَّ أبا سفيان ومن معه من زعماء قريش لم يتجنَّبوا الحرب إلاَّ لأسبابٍ تتعلَّق بتأمين شروط نجاحها ، وخاصَّةً على الصَّعيد المالي ، أمَّا موقفهم الجوهريُّ والاستراتيجي ؛ فإنَّه لم يتغيَّر ، وهو حشد كلِّ الإمكانات لحربٍ فاصلةٍ تستأصل الإسلام وتقضي على النَّبيِّ وأصحابه .

ومرَّة أخرىٰ تظهر الصُّورة الحقيقة للكفاح التَّاريخيِّ الذي خاضه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في مواجهة محيط معادٍ لا يَعْرِف غير لغة السَّيف ، محيط لا يقبل الدُّخول في حوارٍ من أجل تبيُّن الحقِّ ، ولا يقبل بحقِّ الاختلاف ، ولا يرىٰ من سبيل للتَّعامل مع المؤمنين بالله إلاَّ سبيل فرعون في التَّعامل مع موسىٰ وبني اسرائيل ، وإلاَّ سبيل قوم إبراهيم في التَّعامل مع نبيِّ الله إبراهيم عندما ألقوه في النَّار ليحرِّقوه ويتخلصوا منه .

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة الوليدة تبدو للباحث التَّاريخيِّ عشيَّة العام الرَّابع للهجرة جزيرةً معزولةً وسط محيط من الشِّرك والطُّغيان والشَّرِّ ، جزيرة يتربَّص بها أبو سفيان بن حرب وزعماء قريش من جهة ، وقبائل أخرىٰ كثيرة لا تفوِّت فرصةً للغدر بالمسلمين والنيل منهم ، ومع ذلك لا يصدر عن المسلمين إلاَّ ما يؤكِّد نبلهم وشجاعتهم ، وإيمانهم العميق بالله ، واستعدادهم للتَّضحية من أجل الحرِّيَّة ، كانت البشريَّة كلُّها تشهد ميلادَ جيلٍ جديدٍ فريدٍ من البشر يتعلَّم في مدرسة القرآن الكريم ، ويقرأ فيها مثل هـٰذه التَّوجيهات والمعاني العظيمة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ

وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۞ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[سورة فصلت : ٣٠ـ ٣٩] .

في مدرسة القرآن الكريم ، ثم في مدرسة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، تعلم المسلمون قيم السماحة والعفو ، وأهمية إعمال العقل والتدبر في آيات الله ، والتحرر من الخضوع للأصنام والخرافات والأوهام . وتعلموا أيضاً أهمية صلة الرحم وضرورة معاملة كل الأقارب بأحسن صورة حتىٰ وإن بدت منهم جفوة ومعاملة سيئة . قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكنَّ الواصل الذي إذا قطعت رَحِمُه ؛ وصلها »[1] .

وكانت تعاليم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تذكِّر المسلمين دائماً أنَّ أبواب الخير والعمل الصَّالح كثيرةٌ لا عدَّ لها ولا حصرَ ، منها قوله لأصحابه ذات يوم : « علىٰ كلِّ مسلمٍ صدقةٌ » قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : « فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل ؟ قال : « فيعين ذا الحاجة الملهوف » قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : « فيأمر بالخير » أو قال :

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٥٩٩١) .

« بالمعروف » قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : « فيمسك عن الشَّرِّ ؛ فإنَّه له صدقة »[1] .

ذلك كان شأن المسلمين ، وتلك كانت توجيهات القرآن الكريم والنَّبيِّ إليهم ، ترشدهم إلىٰ مقوِّمات بناء الأسرة المترابطة والمجتمع الصالح المتراحم ، وإلى النَّهج الأمثل في الحوار والدَّعوة للإيمان .

وقد عاشت المدينة في النصف الثاني من العام الرابع والنصف الأول من العام الخامس فترة هدوء وسلام ، ولم يسجل فيها إلا خروج النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الجندل ، بعد أن استعمل سباع بن عرفطة الغفاري والياً على المدينة في غيابه . وقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل دومة الجندل ، ولم يحصل قتال ولم تحدث خسائر .

غزوة الأحزاب

لم يكن سعي المسلمين لتأمين المدينة من مؤامرات الأعداء والعيش في سلام هدفاً سهل المنال . فمقابل مبادىء الإيمان والسلام والمحبة والعفو والتسامح وصلة الرحم التي كانوا يتعلمونها من القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم ، كان كثير من الخصوم في مكة وخارج مكة ينهلون من معين آخر ، ويؤمنون بقيم أخرىٰ ، قيم السيطرة والتسلط واستخدام العنف لقمع المخالفين ومحاصرة المؤمنين بالله . وقد قادت هـٰذه القيم والمبادىء أصحابها إلىٰ حشد قواهم وإمكانياتهم من جديد للعدوان على المسلمين والقضاء علىٰ دولتهم الوليدة وإزالتها بشكل نهائي .

وهكذا شرع خصوم الإسلام في النصف الثاني من العام الخامس للهجرة ، في الإعداد لغزوة الأحزاب ، وهي حملة عسكرية جديدة ، أرادوا لها ألا تكون

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٤٤٥) .

مثل حملتي بدر وأحد ، وإنما لأن تكون المعركة الفاصلة التي تنهي مسيرة الإسلام وتسقط دولته وتقضي علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم ومن آمن به من الناس .

بدأت غزوة الأحزاب بفكرة من بعض خصوم المسلمين في المدينة المنورة منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، من قبيلة بني النضير ، إحدى القبائل اليهودية ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبي عمار الوائلي . خرج هـٰؤلاء في وفد مشترك إلىٰ مكة ، والتقوا بقادة قريش ، وحثوهم علىٰ خوض حرب جديدة ضد المسلمين ، وتعهدوا بدعم هـٰذه الحرب ، وقالوا لهم : سنكون معكم عليه (يقصدون النبي صلى الله عليه وسلم) حتىٰ نستأصله . كما زعم الوفد لقادة قريش أن دينهم خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم!

ولا شكَّ أنَّ فهمَ دوافع تحرك هـٰذا الوفد لحشد الجيوش ضد المسلمين ليس أمراً صعباً أو معقَّداً ؛ ذلك أن عدداً من أبناء هـٰذه القبائل غادر المدينة بعد مواجهات سابقة مع المسلمين ، فكانوا يعتبرون أنفسهم في معركة مفتوحة معهم ، كما أن حساباتهم السياسية كانت ترجح أن نهاية المواجهات بين قريش والمسلمين ، ستكون لصالح قريش دون شك أو جدال ، وهم كانوا علىٰ صواب في الظاهر ؛ لأن الإمكانيات البشرية والعسكرية والمادية عند قريش كانت أكثر بكثير مما عند المسلمين . وكان هناك عامل الخلاف الديني أيضاً ، وهو عامل وقف وراء كثير من النزاعات في كل أرجاء المعمورة ، قديماً وحديثاً .

لم يواجه الوفد صعوبة كبيرة في إقناع قادة قريش بوجاهة خوض حرب جديدة ضد المسلمين ؛ لأن هـٰؤلاء كانوا يحدثون أنفسهم باستئصال الإسلام منذ ظهوره لأول مرة ، وقد حاولوا ذلك من قبل في غزوتي بدر وأحد ، وفي ما سمي بحملة السويق . وإنما كانت زيارة الوفد لهم حافزاً إضافياً لهم ،

شجعهم على البدء فوراً في إعداد حملة عسكرية جديدة .

بعد إقناع قريش بخوض الحرب ، اتصل وجهاء الوفد القادم من المدينة بقادة غطفان ، من فرع قيس عيلان ، ونقلوا إليهم أنباء استعدادات قريش لتسيير حملة عسكرية جديدة ضد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وحثوهم على المشاركة فيها ، وأكدوا لهم بأنهم سيدعمون هـٰذا التحالف ، فاستجاب زعماء غطفان للعرض ودخلوا طرفاً في التحالف .

اكتملت أركان التَّحالفِ السِّياسيِّ والعسكريِّ المعادي للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وانطلقت حملةٌ عسكريَّةٌ كبيرةٌ باتجاه المدينة المنوَّرة ، في شهر شوال من العام الخامس للهجرة قوامها جيشٌ قرشيٌّ كبيرٌ يقوده أبو سفيان ، ومعه جيشٌ من حلفاء قريش من بني كنانة وأهل تهامة ، وجيشٌ من قبيلة غطفان يقوده عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، كما شارك في الحملة مقاتلون من قبائل بني فزارة وبني مرة وأهل أشجع ، وصلت أخبار تحرك جيش البغي الجديد إلى المدينة المنورة ، فأدرك المسلمون أن الخطر المحدق بهم كبير وعظيم ، وشرع النبي صلى الله عليه وسلم فوراً في وضع خطة للتصدي له . وفي هـٰذا السياق ، برز اسم رجل مسلم مشهور من أهل فارس ، يحبه المسلمون من كل جيل ، هو سلمان الفارسي رضي الله عنه .

قدم سلمان إلى المدينة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها بعدة سنوات ، وتسلط عليه بعض الناس فباعوه عبداً لأحد الأغنياء في المدينة ، ثم باعه سيده لغني آخر . وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم تعرف عليه سلمان الفارسي وسمع منه عن الدين الذي يدعو إليه ، فصدق وآمن به وأصبح من صحابته . ثم حث النبي صلى الله عليه وسلم سلماناً علىٰ أن يسعىٰ في استرداد حريته ، وطلب من المسلمين مساعدته مادياً ، فتم له ذلك واستطاع أن يشتري حريته من مالكه .

ولما تحركت الأحزاب باتجاه المدينة ؛ اقترح سلمان على النبي صلى الله عليه وسلم اعتماد خطة دفاعية لم يكن للعرب أو للمسلمين معرفة بها من قبل ، وهي أن يحفر المسلمون خندقاً حول جبل سلع في المدينة ، بحيث تكون ظهورهم للجبل يحتمون به ، ويكون الخندق أمامهم عامل حماية لهم ، يمنع الجيش المهاجم من الوصول إليهم . وافق النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ هـٰذا الاقتراح ، وأمر ببدء العمل فيه فوراً ، ووجه أيضاً بتأمين النساء والأطفال في مواقع حصينة يصعب على الجيش المعادي أن يصل إليها .

شارك سائر أهل المدينة في حفر الخندق ، وكلف النبي صلى الله عليه وسلم كل عشرة أشخاص بحفر مساحة قدرها أربعون ذراعاً ، وتعاون الناس علىٰ أعمال الحفر ونقل التراب في أجواء من الحماسة الشديدة والاستعداد للتضحية ، إلا قلة من حزب المنافقين داخل المدينة ، فقد كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم بالأعذار من أجل ترك ميدان العمل والعودة لأهاليهم .

شارك النبي صلى الله عليه وسلم في أعمال حفر الخندق ، ونقل التراب مع أصحابه ، وكان يردد بعض الأناشيد معهم لإضفاء أجواء التفاؤل والانشراح في الموقع ، ويعلو صوته صلى الله عليه وسلم بهـٰذا الدعاء الأهزوجة :

اللَّهـم لا عيـش إلا عيـش الآخـرة
فـاغفـر لـلأنصـار والمهـاجـرة

وهنا يجيب الصحابة منشدين :

نحـن الـذيـن بـايعـوا محمـدا ... علـى الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

واستعار النبي صلى الله عليه وسلم من شعر واحد من أصحابه ، عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، أبياتاً تعبر عن بعض ملابسات ذلك الموقف الصعب :

والله لـولا الله مـا اهتـدينـا ... ولا تصـدقنـا ولا صلينـا
فـأنـزلـن سكينـة علينـا ... وثبـت الأقـدام إن لاقينـا

إن الألـــىٰ قـــد بغـــوا علينـــا   إذا أرادوا فتنــــــة أبينــــــا

من جهة أخرىٰ ، كانت فترة حفر الخندق أيام شدة وضيق . فالعدو المقبل يستهدف استئصال الإسلام من جذوره ، والإمكانيات المتاحة لرده وردعه قليلة ، والموارد المالية شحيحة ، والجوع منتشر في صفوف المسلمين الذين يحفرون الخندق ، حتىٰ كان بعضهم لا يلقىٰ طعاماً يأكله لمدة ثلاثة أيام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش مثل أصحابه ، وذكر أنه كان يضع الحجارة علىٰ بطنه الشريفة من شدة الجوع .

رغم القسوة الشديدة لهـٰذه الظروف ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يطمئن أصحابه إلىٰ خير كبير ينتظرهم وينتظر البشرية كلها في المستقبل . قال سلمان الفارسي يروي بعض يوميات حفر الخندق : (ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت علي صخرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني . فلما رآني أضرب ورأىٰ شدة المكان علي ؛ نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة . ثم ضرب به ضربة أخرىٰ ، فلمعت تحته برقة أخرىٰ . ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرىٰ . قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؛ ما هـٰذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟! قال : « أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟ » قلت : نعم . قال : « أما الأولىٰ : فإن الله فتح بها علي اليمن ، وأما الثانية : فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة : فإن الله فتح علي بها المشرق »[1] .

بالنِّسبة للمسلمين وسائر المؤمنين بالأدلَّة التَّاريخيَّة تعدُّ هـٰذه الرِّواية عن سلمان الفارسي دليلاً إضافيّاً علىٰ صحَّة نبوَّة محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد تحقَّق ما قاله في هـٰذا الموقف بالحرف ، وانتشرت مبادىء الإيمان بالله وحده لا شريك له وتعاليم الإسلام في اليمن ، وفي الشَّام

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٩) .

والمغرب حتَّىٰ وصلت السِّينغال وأنحاء واسعة في غرب أفريقيا ، وفي إيران والهند شرقاً حتَّىٰ وصلت إلىٰ ربوع الصِّين ، ولو قُدِّر لعدوٍّ من أعداء الإسلام ، أو واحدٍ من المحسوبين علىٰ حزب المنافقين في المدينة أن يسمع ما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لسلمان أيَّام حفر الخندق ؛ لضحك ملء شدقيه سخريةً من المسلمين ؛ كيف يتطلَّعون إلى انتشار تعاليمهم في شرق العالم وغربه وهم محاصرون في مكانٍ ضيِّقٍ عند جبل من جبال المدينة ، يهاجمهم جيشٌ كبيرٌ يوشك أن يستأصلهم بالكامل ؟!

كان هـٰذا هو بالضَّبط موقف معتب بن قشير أحد الذين حضروا حفر الخندق ولم يتقبَّلوا وعودَ النَّبيِّ بانتصارات عظيمةٍ آتيةٍ في تلك الظروف ، وقال : محمَّد يعدُنا أن نأكل كنوز كسرىٰ وقيصر وأحدُنا اليومَ لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلى الغائط!

نجح المسلمون في الانتهاء من حفر الخندق قبل وصول جيش تحالف العدوان ، الذي ضمَّ عشرة آلاف مقاتلٍ من قريشٍ ، وبني كنانة ، وأهل تهامة ، وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، إضافةً لمقاتلين من قبائل بني فزراة وبني مرَّة وأهل أشجع ، نزل الجيش المعتدي قريباً من جبل أحد في الجهة المقابلة لجيش المسلمين الذي تحصَّن بجبل سلع ، وكان تعداده ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان الخندق يفصل بين الجيشين .

في تلك اللَّحظات العصيبة سعىٰ حُييُّ بن أخطب النَّضريُّ الذي برز دوره في تعبئة عدوان قريش وتحالف الأحزاب المؤيدة لها منذ البداية ، سعىٰ إلىٰ توجيه ضربةٍ موجعةٍ جديدةٍ للمسلمين لم يكونوا يحسبون لها حساباً ، فقد توجَّه إلىٰ منزل كعب بن أسد القرظيِّ المسؤول الأول عن عقد بني قريظة وعهدهم وطلب إجراء مشاوراتٍ عاجلةً معه ، كان كعب هو الشخص الذي فاوض النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم من قبل وتوصل معه إلى اتفاق وعهد أمان وسلام باسم

قومه بني قريظة ، فلمَّا جاءه حُييٌّ بن أخطب يطرق بابه ؛ رفض في البداية أن يفتح له ، وقال له : ويحك يا حُييُّ ؛ إنَّك امرؤٌ مشؤوم ، وإنِّي قد عاهدت محمَّداً ؛ فلست بناقضٍ ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلاَّ وفاءً وصدقاً ، لكنَّ حييَّ ألحَّ في طلب الدُّخول ولم يغادر حتَّىٰ فُتِح له الباب ، وعندئذٍ قال حيي لكعب : ويحك يا كعب ؛ جئتك بعزِّ الدَّهر وببحر طامٍّ ، جئتك بقريشٍ علىٰ قادتها وسادتها حتَّىٰ أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان علىٰ قادتها وسادتها حتَّىٰ أنزلتهم بذنب نقمي إلىٰ جانب أُحُدٍ ، وقد عاهدوني علىٰ ألاَّ يبرحوا حتَّىٰ نستأصل محمَّداً ومن معه ، ردَّ كعب علىٰ عرض حُييٍّ : جئتني والله بذلِّ الدَّهرِ وبجَهَام ـ أي : بسحابٍ لا ماءَ فيه ـ قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حُييُّ ؛ فدعني وما أنا عليه فإنِّي لم أرَ من محمَّد إلاَّ صدقاً ووفاءً ، ولم ييأس حُييٌّ من هـٰذا الرَّفض الأَوَّليِّ ، وإنَّما زاد في الإلحاح والمجادلة حتَّىٰ أقنع كعباً بنقض عهده مع الرَّسول لى الله عليه وسلم مقابل ضماناتٍ بالحماية والانتقال إلىٰ حصن حُييٍّ إذا رجعت جيوش التَّحالف المعادي من دون أن تستأصل النَّبيَّ وأصحابه[1] .

وهكذا اشتد الحصار على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين فقبائل العرب تطوِّقهم بجيشٍ كبيرٍ ، وحلفاء الدَّاخل ينقضون العهد ويتحالفون مع الأعداء المهاجمين ، والمنافقون المنضوون إلىٰ تجمُّع الإسلام بألسنتهم يروِّجون للهزيمة ، ويتسلَّلون من معسكر النَّبيِّ عائدين لبيوتهم ، وقد وصف القرآن الكريم تلك الأجواء الخطيرة العصيبة في عدَّة آياتٍ كريمة من (سورة الأحزاب) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ

(١) تفاصيل الحوار بين حيي بن أخطب النضري وكعب بن أسد القرظي واردة في « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٢٠) .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۞ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٩ـ١٧] .

حاول النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يشقَّ التَّحالف المعادي له ، ففاوض قائدَي جيش غطفان عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارثَ بن عوف بن أبي حارثة المريَّ ، علىٰ أساس أن يعطيهما ثلثَ ثمار المدينة مقابل أن يعودوا ومن جاء معهم من مقاتلي غطفان إلىٰ ديارهم وينسحبوا من الجبهة التي تحاصر المدينة ، لكن اثنين من زعماء أهل المدينة سعدَ بن معاذ وسعدَ بن عبادة لم يتحمَّسا للعرض ، وقال سعد بن معاذ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : (يا رسول الله ؛ قد كنَّا نحن وهـٰؤلاء القوم على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلاَّ قِرىً أو بيعاً ، أَفَحِين أكرمنا اللهُ بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله ؛ ما لنا بهـٰذا من حاجة ، والله ؛ لا نعطيهم إلاَّ السَّيف حتَّىٰ يحكم الله بيننا وبينهم)[1] فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه .

حال الخندق بين جيوش التَّحالف المعادي وبين أن يشنُّوا هجومهم النِّهائيَّ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٣) .

ضدَّ المسلمين ، وذكر أن عدداً من زعمائهم أقبلوا تعنق (تسرع) بهم خيلهم حتىٰ وقفوا على الخندق ، فلما رأوه ؛ قالوا : والله ؛ إن هـٰذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها[1] .

ولجأ المشركون عندئذ إلىٰ إحكام الحصار على المسلمين ، وتبني سياسة الانتظار علىٰ أمل أن تنهار حصون المسلمين ودفاعاتِهم ، وجرَّبت بعضُ كتائب قريش والأحزاب المتحالفة معها اجتيازَ الخندق فتصدَّىٰ لها المسلمون وردُّوها علىٰ أعقابها ، كما حصلت بعض المواجهات الفرديَّة ، أشهرها بين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعمرو بن عبد ودٍّ ، وقد انتصر فيها عليٌّ وتمكَّن من قتل خصمه ، وتمكَّن أحدُ المقاتلين من جيش الأحزاب من إصابة سعد بن معاذٍ رضي الله عنه بسهمٍ في ذراعه ، وكانت الإصابة بليغةً ، مرض منها سعدٌ أيَّاماً ثمَّ لقي الشَّهادة .

ثمَّ جاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ يودُّ أن يعلنَ إسلامه وينضمَّ إلىٰ معسكر المسلمين ، وبدأت من تلك اللَّحظة قصةٌ حفظها تاريخ الإسلام ، كان لها أثرٌ كبيرٌ على النتيجة النهائية لغزوة الأحزاب .

اسم الرَّجل نعيم بن مسعود من قبيلة غطفان ، وقد جاء إلى النَّبيِّ وقال له : (يا رسول الله ؛ إنِّي قد أسلمت ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما أنت فينا رجلٌ واحدٌ فخذِّل عنَّا إن استطعت ؛ فإنَّ الحرب خدعة »)[2] .

وأثبتت وقائع السَّاعات اللاَّحقة أنَّ نعيماً كان رجلاً حكيماً وذكيّاً ممَّا أهَّله لإدخال البلبلة والانقسام في صفوف الجيوش المعتدية .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٩) .

فشل الحملة العسكريَّة لتحالف العدوان

توجَّه نعيم بن مسعود مباشرةً إلىٰ بني قريظة وأجرىٰ مباحثاتٍ عاجلةً مع زعمائهم ، مستنداً إلىٰ علاقة مودَّةٍ قديمةٍ كانت تجمعه بهم ، قال لهم : يا بني قريظة ؛ قد عرفتم ودِّي إيَّاكم ، وخاصَّة ما بيني وبينكم ، فأمَّنوا علىٰ حديثه وأجابوا : صدقت ، لست عندنا بمتَّهمٍ ، عندئذ أضاف نعيم : إنَّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، والبلدُ بلدُكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون علىٰ أن تحولوا منه إلىٰ غيره ، وإنَّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحربِ محمَّد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ؛ فإن رأوا نهزةً ـ أي : فرصة ـ أصابوها ، وإن كان غير ذلك ؛ لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرَّجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم إن خلا بكم ، ثمَّ عرض نعيمٌ علىٰ زعماء بني قريظة اقتراحاً محدَّداً ، وقال لهم : لا تقاتلوا مع قريش وغطفان حتَّىٰ تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقةً لكم علىٰ أن تقاتلوا معهم محمَّداً حتىٰ تناجزوه ، وكان من دواعي سرور نعيم أنَّ اقتراحه لقي موافقة تامَّة وغير مشروطةٍ من بني قريظة .

ثمَّ توجه نعيم بن مسعود إلىٰ جيشِ قريشٍ وأجرىٰ مباحثاتٍ عاجلةً مع أبي سفيان بن حرب وعدد من القياديين البارزين الآخرين ، قال لهم : قد عرفتم ودِّي لكم وفراقي محمَّداً ، وإنَّه قد بلغني أمرٌ قد رأيت حقاً عليَّ أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عنِّي ، فقالوا : نفعل ، عندئذٍ استعرض نعيمٌ موقفَ بني قريظة في الحرب ، وزعم لقريشٍ أنَّهم قد ندموا علىٰ نقضهم العهد مع المسلمين ، وأضاف أنَّهم أرسلوا إلىٰ محمَّدٍ يقولون له : إنَّا قد ندمنا علىٰ ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريشٍ وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثمَّ نكون معك علىٰ من بقي منهم حتَّىٰ نستأصلهم ؟ وأكَّد نعيمٌ أنَّ محمداً قبل من بني قريظة هـٰذا العرض ، ثمَّ ختم

حديثه بنصيحةٍ لقادة قريش ، وهي نصيحةٌ بديهيَّة من سياق حديثه ، يحثُّهم فيها علىٰ ألاَّ يسلِّموا أحداً من رجالهم رهناً لبني قريظة إن جاءهم طلبٌ بهـٰذا المعنىٰ .

وانطلق نعيم بن مسعود بعد ذلك إلىٰ زعماء قبيلة غطفان ، وقال لهم : يا معشر غطفان ؛ إنَّكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليَّ ، ولا أراكم تتَّهموني ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتَّهمٍ ، قال : فاكتموا عنِّي ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ عندئذٍ حدَّثهم نعيمٌ بما حدَّث به قادة قريشٍ ، فقبلوا نصيحته واعتمدوا رأيه .

جرت كل هـٰذه المواجهات والمشاورات والمناورات في شهر شوالٍ من العام الخامس للهجرة ، الموافق للعام الميلادي (٦٢٧) في مساء أحد أيام الجمعة من منتصف هـٰذا الشَّهر أرسل زعماء قريش وغطفان وفداً مشتركاً إلىٰ بني قريظة يقوده عكرمة بن أبي جهل ، فقالوا لهم : إنَّا لسنا بدار مُقَامٍ وقد هَلَكَ الخفُّ والحافر ـ أي : الإبل والخيل ـ فاغدوا للقتال حتَّىٰ نناجز محمَّداً ، ونفرغ ممَّا بيننا وبينه ، فأجاب زعماء بني قريظة بأنَّ الغَدَ يوم سبتٍ ، وهو يومٌ لا يفعلون فيه شيئاً ، ثمَّ أضافوا : ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمَّداً حتَّىٰ تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتَّىٰ نناجز محمَّداً ، فإنَّا نخشىٰ إن ضَرَستكم الحرب واشتدَّ عليكم القتال أن تَنْشَمروا ـ أي : ترجعوا ـ إلىٰ بلادكم وتتركونا والرَّجل في بلدنا ، ولا طاقةَ لنا بذلك منه .

وعاد عكرمة بن أبي جهل ومن معه إلىٰ زعماء قريش وغطفان فأبلغوهم بمطالب بني قريظة ، فكانت النَّتيجة أنَّهم تيقَّنوا من صحَّة ما رواه لهم نعيم بن مسعود ، وبعثوا بجواب حاسمٍ لبني قريظة ، قالوا لهم : إنَّا والله ؛ لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال ؛ فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين جاءتهم الرُّسل بهـٰذا الجواب : إن الذي ذكر لكم

نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلاَّ أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً ؛ انتهزوها ، وإن كان غير ذلك ؛ انشمروا إلىٰ بلادهم ، وخلَّوا بينكم وبين الرَّجل في بلدكم ، فأرسلوا إلىٰ قريشٍ وغطفان : إنَّا والله ؛ لا نقاتل معكم محمَّداً حتَّىٰ تعطونا رهناً ، فرفضت قريش وغطفان الطَّلب مجدَّداً ، وبذلك تصدَّع التَّحالف المعادي للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وساد الخلاف الشَّديد بين أطرافه[١] .

ودخل عامل آخر في حسم نتيجة غزوة الأحزاب ، هو عامل الظروف الجوية . فقد حلت بالمدينة موجة برد شديدة ، وكان الفصلُ فصلَ الشتاء ، وعصفت الرِّياح بقوَّةٍ لأيَّامٍ وليالي متتابعةٍ ، فجعلت تطيح بقدور الجيوش المعتدية وبخيامها وأبنيتها ، فما عادوا قادرين علىٰ طبخ ما يأكلون ، وأصبح المقام بالنِّسبة لهم في غاية الصُّعوبة والشِّدة .

كلُّ هـٰذا والمسلمون مع نبيِّهم صلى الله عليه وسلم يعانون من الحصار والجوع والخوف في صبرٍ وإيمانٍ ، ثمَّ إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم استشعر أنَّ الفشل والخذلان استشريا في صفوف أعدائه رغم كثرة مقاتليهم وكثرة سلاحهم ، فجمع أنصاره في وقتٍ متأخِّرٍ في إحدىٰ ليالي غزوة الخندق وقال لهم : « من رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمَّ يرجع ، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنَّة »[٢] قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أحد الصحابة المشهورين وكان حاضراً ذلك الاجتماع : (فما قام رجلٌ من القوم من شدَّة الخوف وشدَّة الجوع وشدَّة البرد ، فلمَّا لم يقم أحدٌ ؛ دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني ، فقال : يا حذيفة ؛ اذهب فادخل مع القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئاً حتَّىٰ تأتينا ، فذهبت فدخلت في القوم

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣١) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٢) .

والرِّيح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ؛ لينظر امرؤٌ من جليسه ؟ فأخذت بيد الرَّجل الذي كان جنبي ـ والحديث ما زال لحذيفة بن اليمان ـ فقلتُ : من أنت ؟ قال : فلانُ بن فلانٍ ، ثمَّ قال أبو سفيان : يا معشر قريش : إنَّكم والله ؛ ما أصبحتم بدار مقامٍ ، لقد هَلَكَ الكراع والخُفُّ ـ أي : الخيل والإبل ـ وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدَّة الرِّيح ما ترون ، ما تطمئنُّ لنا قِدرٌ ، ولا تقومُ لنا نارٌ ، ولا يستمسك لنا بناءٌ ، فارتحلوا فإنِّي مرتحل ، ثمَّ قام إلىٰ جَمَلِه وهو معقولٌ ، فجلس عليه ثمَّ ضربه ، فوثب به علىٰ ثلاث ، فوالله ؛ ما أطلق عقاله إلاَّ وهو قائم)[1] ، وعاد حذيفة بن اليمان بالأخبار السَّارَّة إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وهكذا انهارت حملة الأحزاب ضدَّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وانفرط عقدها ، وانتهىٰ أمرها إلى انسحابٍ كاملٍ من دون تحقيقِ أيِّ مكسبٍ عسكريٍّ أو سياسيٍّ يذكر ، وقرأ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الأبعاد الاستراتيجية لهـٰذا الانسحاب القرشيِّ فقال لأصحابه ما أثبتت الأيَّام لاحقاً صحته : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هـٰذا ، ولكنكم تغزونهم »[2] .

وعلىٰ مدىٰ فترة الحصار كلِّها وهي ثلاثة أسابيع لم يستشهد من المسلمين إلاَّ ستَّة أشخاصٍ هم : سعدُ بن معاذٍ ، وأنس بن أوسٍ ، وعبدُ الله بن سهل ، والطُّفيل بن النُّعمان ، وثعلبة بن غنيمة ، وكعب بن زيد ، وقتل من الجيش المعتدي ثلاثة أشخاص : عثمان بن أميَّة ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وعمرو بن عبد ودٍّ .

أمَّا بنو قريظة : فقد واجهوا عواقب نقض عهودهم مع المسلمين ، لو أنَّ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٤) .

جيوش قريشٍ وغطفان المتحالفة مع بني قريظة خاضوا حربَهم التي خطَّطوا لها وحاصروا المدينة في سياقها ثلاثة أسابيع ؛ لانتهى الأمر على الأرجح بسقوط دولة المدينة واستئصال كاملٍ للمسلمين ، ولعلَّ زعماء بني قريظة قد قرؤوا الخارطة السِّياسيَّة والعسكريَّة آنذاك فتوصَّلوا إلىٰ قناعةٍ قويَّةٍ بأنَّ المعسكر المعادي للإسلام قادرٌ علىٰ هزيمة المسلمين واستئصالهم ، فأرادوا أن يكونوا ضمن المعسكر المنتصر لا ضمن المعسكر المهزوم والمرشح للاستئصال ، وفي التَّاريخ أمثلةٌ أخرىٰ كثيرة علىٰ حسابات خاطئةٍ مشابهة تتبناها قبائل وشعوب ودول ، أمَا وقد سارت الأمور علىٰ غير ما أراده التَّحالف المعادي للمسلمين ؛ فقد دفع بنو قريظة ثمناً باهظاً لمشاركتهم في هـٰذا التَّحالف ، ولنقضهم العهد مع المسلمين .

بالنِّسبة للمسلمين كان واضحاً أنَّ حملة الأحزاب لن تنتهيَ إلاَّ إذا تمَّ التَّعامل مع الخطر الدَّاخليِّ مع الطَّرف الثَّالث في تحالف العدوان وإزالة التَّهديد الاستراتيجي الذي يمثِّله علىٰ أمن الدَّولة المسلمة ، ولذلك تحرَّك الجيش المسلم في اليوم ذاته الذي عاد فيه النَّبيُّ إلى المدينة بعد انسحاب جيوش قريش وغطفان ، تحرَّك إلىٰ بني قريظة وحاصرهم وهزمهم ، وحكم سعد بن معاذ قبل استشهاده بقتل المقاتلين من بني قريظة ؛ عقاباً لهم علىٰ مشاركتهم في تحالفٍ عسكريٍّ معادٍ سعىٰ لإسقاط الدولة الإسلامية واستئصال أهلها .

وهكذا نجا المسلمون من حملةٍ عسكريَّةٍ ضخمة شارك فيها تحالفٌ كبيرٌ تشكَّل من عدَّة أطراف جمعت بينها الكراهيةُ لنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ورفضُ الاعتراف بمبادىء حرِّيَّة الاعتقاد وحرِّيَّة العبادة ، وجمعت بينها أيضاً نزعةٌ عدوانيَّةٌ تتبنَّىٰ خيارَ مواجهة الإيمان بالسَّيف ، وسجَّل القرآن الكريم في (سورة الأحزاب) وصفاً لنبل المسلمين وصدقهم واستعدادهم للتَّضحية من أجل الإيمان بالله وحدَه لا شريك له ، وبيَّن فضلَ الله تعالىٰ على

المؤمنين فيما يتعلق بالنَّتيجة النِّهائيَّة لحملة الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۞ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۞ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٢١ـ٢٥] .

۞ ۞ ۞

الفَصْلُ التَّاسِعُ

زَواجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

انتهى العام الهجريُّ الخامس بالهزيمة والفشل الكبير للأحزاب التي هاجمت المدينة المنوَّرة في حشدٍ عسكريٍّ كبيرٍ بغرض استئصال الإسلام ونبيِّه ، وأقبل عامٌ هجريٌّ جديدٌ سعىٰ فيه المسلمون لقلب الموازين ، وإفهام القبائل المعادية المحيطة بهم أنَّ مشروع استئصال الإسلام مشروعٌ مستحيلُ التَّنفيذ ، وفي الوقت نفسه استمرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في أداء رسالة الله إلى النَّاس يبلِّغهم القرآن الذي يوحىٰ إليه ، ويأمرهم بالمعروف والعمل الصَّالح والكلمة الطَّيِّبة ومحبَّة الله وعباده ، وينهاهم عن المنكر والأعمالِ السَّيِّئة والأقوالِ الفاحشة وثقافةِ الحقد والكراهية .

من الأعمال الصَّالحة التي جعلها الإسلام ركناً من أركانه الأساسيَّة صوم شهر رمضان ، وقد أمر القرآن الكريم بصيامه في العام الثَّاني للهجرة النَّبويَّة ، وفي العام ذاته فرضت الزَّكاة كضريبةٍ مفروضةٍ على الأغنياء ؛ لمساعدة الفقراء ، وتأسيس قاعدةٍ قويَّةٍ للعدالة الاجتماعية ، ورغَّب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أتباعه في صوم العاشر من محرم من كلِّ عام لإحياء ذكرىٰ نجاة موسىٰ عليه السَّلام وأتباعه من اليهود من جيش فرعون الباطش المعتدي ، واعتبر صوم العاشر من مُحرَّم سنة مستحبَّة للمسلمين في لَفْتةٍ أخرىٰ تؤكِّد التَّواصل الرُّوحي والتَّاريخيَّ بين اليهود والمسلمين خاصَّة ، وبين أبناء العائلة الإبراهيميَّة بشكلٍ عامٍّ .

ثمَّ شُرِعت صلاة العيد ، وزكاة الفطر ، وهي ضريبة إضافية يدفعها القادرون من المسلمين قبيل عيد الفطر لضمان تأمين شروط الاحتفال السَّعيد

بالعيد من أفراد المجتمع كافة أغنياء وفقراء ، وفي العام الهجريِّ الثَّاني صلَّى النَّبيُّ وأصحابه صلاةَ عيد الأضحىٰ لأوَّل مرَّة ، وقدَّم النَّبيُّ أضحيته في العيد ، وكذلك فعل أصحابه ؛ إحياءً لذكرىٰ فداءِ إسماعيلَ النَّبيِّ ابنِ إبراهيم الخليل أبي الأنبياء ، وقد لخَّص النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أركانَ الإسلام في حديثٍ بيِّنٍ واضحٍ : « بني الإسلام علىٰ خمسٍ : شهادةِ أن لا إلـٰه إلاَّ الله ، وأنَّ محمَّداً رسول الله ، وإقامِ الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والحجِّ ، وصوم رمضان »[1] .

وفي العام الثَّاني للهجرة أيضاً تزوَّج عثمانُ بن عفَّان رضي الله عنه الخليفةُ الثَّالث في تاريخ الإسلام بأمِّ كُلثوم رضي الله عنها بنتِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بعد أن ماتت عنده أختها رقيَّة رضي الله عنها ، ولذلك سُمِّي الرَّجل بعثمان ذي النُّورين ؛ لزواجه من ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمَّا فاطمة رضي الله عنها بنت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقد تزوَّجها ابن عم أبيها عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخليفةُ الرَّابع في تاريخ الإسلام ، وبعد عامٍ واحدٍ رُزِق عليٌّ وفاطمة بمولودهما الأول : الحسن ، وفي العام الهجري الرَّابع ولد لهما الحسين رضي الله عنهما .

أمَّا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقد تزوَّج بعد هجرته إلى المدينة بعائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق بعد أن تمَّ التَّفاهم على الزَّواج أصلاً قبيل الهجرة ، وفي العام الهجريِّ الرَّابع توفِّي أبو سلمة عبد الله بن الأسد المخزومي رضي الله عنه ، وكان ابنَ عمَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة من وفاته تزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بأمِّ سلمة رضي الله عنها أرملة أبي سلمة ؛ إكراماً لها وتقديراً لما تحمَّلته في سبيل دينها ، خاصَّة وأنها كانت من ضمن من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في السَّنوات الأولىٰ لبروز الدَّعوة الإسلامية ، ولعلَّ

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨) .

هـٰذه فرصةٌ مناسبةٌ لتخصيص بعض فقرات هـٰذا الكتاب لموضوع زيجات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

كان أكثر زيجات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مبادرات تواصلٍ اجتماعيٍّ مع شخصيَّاتٍ وقبائل بارزةٍ في مجتمعه ، فهو تزوَّج سودة بنت زمعة في مكَّة بعد وفاة زوجته الأولىٰ خديجة ، وكانت سودة رضي الله عنها أرملةً مات عنها زوجها وابن عمِّها السَّكران بن عمرٍو .

وبعد هجرته إلى المدينة بسبعة أشهر تزوَّج عائشة بنت صديقه أبي بكر الصِّدِّيق الخليفةِ الأوَّل في تاريخ الإسلام ، وكانت البكر الوحيدة التي تزوَّجها نبيُّ الإسلام .

وفي السَّنة الثَّالثة للهجرة تزوَّج حفصة رضي الله عنها بنت عمر بن الخطَّاب الخليفة الثَّاني في تاريخ الإسلام ، بعد أن مات عنها زوجها خنيس بن حذافة .

وفي العام الرَّابع للهجرة تزوَّج زينب بنت خزيمة رضي الله عنها ، بعد أن استشهد زوجها الأوَّل عبد الله بن جحش رضي الله عنه في معركة أُحُد ، وكانت زينب امرأةً صالحةً مشهورةً بعطفها على المحتاجين ، اشتهرت باسم أمِّ المساكين ، ولم تعش بعد زواجها من النَّبيِّ إلاَّ شهرين أو ثلاثةً .

وفي شوَّالٍ من العام نفسه تزوَّج أمَّ سلمة هندَ بنت أبي أميَّة رضي الله عنها ، إكراماً لها ، وهي أرملة ابن عمَّته أبي سلمة رضي الله عنه .

وفي ذي القَعْدة من العام الخامس للهجرة تزوَّج الرَّسول صلى الله عليه وسلم أيضاً من زينب بنت جحش رضي الله عنها بنت عمَّته بعد طلاقها من زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد تبنَّاه منذ شبابه في مكَّة المكرَّمة ، وقد ساهمت هـٰذه الزيجة في توضيح موقف الإسلام من التبني ورفضه أن يقوم النَّاس بادعاء أبوتهم للأبناء الذين يحتضنونهم ويرعونهم .

وفي شعبان من العام السَّادس للهجرة تزوَّج النبي صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ، والحارث هو زعيم قبيلة بني المصطلق ، وكان هٰذا الزواج سبباً في تسوية آثار الخصومة والنِّزاع بين المسلمين وبين بني المصطلق .

كما تزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أيضاً من أمِّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب رضي الله عنها ، وكانت هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، لكنه غيَّر دينه واعتنق المسيحيَّة ومات هناك ، أمَّا هي فبقيت علىٰ دين الإسلام ، وقد خطبها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، فزوَّجها إيَّاه في العام السَّابع للهجرة .

وتزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من صفيَّة بنت حُييٍّ ، وكان أبوها من زعماء القبائل اليهودية ، في العام السَّابع للهجرة .

كما تزوَّج ميمونة بنت الحارث الهلاليَّة رضي الله عنها في العام نفسه بعد الفراغ من عمرة القضاء .

مات في حياة النَّبيِّ من هٰؤلاء الزَّوجات : خديجةُ بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، ومات النَّبيُّ عن تسعِ زوجات منهنَّ .

ومن كلِّ النساء اللاتي تزوجهن الرَّسول صلى الله عليه وسلم كانت عائشة وحدها المرأة البكر والبقية أرامل ومطلَّقات ، وسمَّى الإسلامُ نساءَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أمَّهات المؤمنين .

وكان المقوقس حاكم مصر أهدى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم جاريةً على الأعراف الجارية في ذلك العصر ، هي مارية القبطيَّة ، وقد أنجبت للنَّبيِّ ولداً سمَّاه إبراهيم ، لكنَّه مات صغيراً في العام العاشر للهجرة ، وكان للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سريَّةٌ ثانية هي ريحانة بنت زيد من نساء بين قريظة .

أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد كانت أولىٰ زوجات النَّبيِّ صلى الله عليه

وسلم وأحبَّهنَّ إلىٰ قلبه ، عاش معها حتَّىٰ وفاتها لم يتزوج عليها ، وكانت سودة زوجته الثَّانية في مكَّة امرأة كبيرة في السِّنِّ ، وهـٰذا يدلُّ دلالةً قاطعة علىٰ أنَّ دوافع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في زيجاته لم تكن شهوةً في تعداد النِّساء ؛ لأنَّ ذلك لو كان يشغله لبادر إليه من شبابه .

تزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة بقيَّة نسائه لاعتباراتٍ اجتماعيَّةٍ وشخصيَّةٍ وقبليَّةٍ ، صبَّت كلُّها في مصلحة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فقد سمحت هـٰذه الزيجات للنَّبيِّ بتوثيق علاقته بأبرز الصَّحابة الذين ساندوه في كفاحه من أجل نشر دعوة الإسلام ؛ أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعثمان بن عفان الذي تزوج اثنتين من بنات النَّبيِّ ، أمَّا عليُّ بن أبي طالب : فقد صاهر النَّبيَّ أيضاً من خلال زواجه بفاطمة الزَّهراء بنت محمَّد بن عبد الله ، وصاهر النَّبيُّ أبا سفيان بن حرب زعيم طغاة قريش فخفَّف ذلك بشكلٍ أو بآخر من حدَّة هـٰذا الرَّجل ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة ، وتزوَّج من جويرية بنت الحارث فأسهم ذلك في توثيق العلاقات بين المسلمين وبين قبيلة بني المصطلق بعد الحرب والخصومة .

يدلُّ هـٰذا علىٰ أنَّ هـٰذه المصاهرات سمحت بتوثيق العلاقات بين الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة وقبائل عربية أخرىٰ ، وتسهيل حلِّ بعض المنازعات والخصومات في بيئةٍ عربيَّةٍ كانت ومازالت تسبغ الكثير من الاحترام والأهمية على النَّسب والرَّوابط الأسريَّة .

ومع تأكيد أهميَّة هـٰذه الاعتبارات في فهم زيجات النَّبيِّ بعد الهجرة ، فإنَّ من الثَّابت أنَّه كان حريصاً علىٰ أداء واجباته الزَّوجيَّة مع نسائه في جوٍّ من الحبِّ والعطف والرِّعاية ، ضمن ظروفه الخاصَّة التي جعلته يقضي تسعة أعشار وقته أو أكثر في إبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم ، وفي تأسيس الدَّولة الإسلاميَّة الأولىٰ ، والدِّفاع عنها أمام أعدائها الكثر .

ثمَّ إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن مَلِكاً ولم يسكن زوجاته في قصور الملوك ، كانت مكانته في نفوس أصحابه عظيمةً وساميةً ، وكانوا يحبُّونه أكثر مما يحبون أنفسهم ، لكنَّه لم يوظِّف مكانته هـٰذه ليعيش عيشة الملوك ، وبقي زاهداً في متاع الدُّنيا ، يمرُّ عليه الشَّهر والشَّهران دون أن توقد في بيته نارٌ يطبخ عليها طعام له ، وتمرُّ عليه الأيَّام وهو يربط الحجر علىٰ بطنه من الجوع ، وأكثر غذائه التَّمر والماء .

ولشدَّة ما تضيق صدور بعض أعداء الإسلام في الماضي وفي الحاضر عند تذكيرهم ببعض هـٰذه المعطيات ؛ فهم حاولوا دائماً وما زالوا يحاولون أن يجعلوا من تعدد زيجات النَّبيِّ مصدراً للنَّيل منه ومن الإسلام ، هـٰؤلاء الخصوم يعارضون تعدد الزوجات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي شريعة الإسلام بكل قوة ، مع أنَّهم لا يمانعون أبداً في أن يخون الرَّجل زوجته ويعاشر العشرات من النِّساء معاشرة الخليلات ، ومع أنَّهم يؤيِّدون إلغاء كلِّ القيود علىٰ سائر أشكال العلاقات الجنسيَّة بين النَّاس بما في ذلك العلاقة بين الرَّجل والرَّجل ، وبين المرأة والمرأة ، أما إذا تعامل هـٰؤلاء الخصوم مع ظاهرة التعدد في بيئات غير إسلامية ، مثل ما هو معمول به لدىٰ كثير من القبائل الإفريقية ؛ فإن اعتراضهم عليها يخف كثيراً ولا يكاد يسمع أبداً ، الأمر الذي يعزز الاتهام بأن الموقف مبني علىٰ عداوة مسبقة تجاه الإسلام ونبيه وتعاليمه .

وقد سعىٰ هـٰؤلاء الخصوم دائماً إلىٰ تجاهل الطابع الاجتماعي والسياسي الهام لأكثر زيجات النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا توظيفها للنيل من شخصيته ، وتصويره علىٰ أنه طالب لذة .

لكنَّ سعيهم هـٰذا سرعان ما ينهار عندما ينظر أيُّ طالبِ علمٍ ، وأيُّ باحثٍ بإنصاف وتجرد في سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويرىٰ إعراضه عن الملذَّات في كلِّ مراحل حياته سواء عندما كان شابّاً ، أو عندما عَرَضَ عليه

زعماء قريش المال والملك والنساء وتلبية كلِّ ما يطلب لقاء تخلِّيه عن الدَّعوة والإسلام ، أو عندما أصبح رئيساً لدولة المدينة ، وزعيماً للجزيرة العربيَّة ، وأصرَّ مع ذلك علىٰ أن يعيش عيشةَ الفقراء ، وقد كان بوسعه أن يكون أغنىٰ ملوك زمانه لو أراد ، هٰذا كلُّه مع العلم بأنَّ تعدُّد الزَّوجات كان عادةً شائعةً في الجزيرة العربيَّة آنذاك ، وما زال تعدُّد الزوجات شائعاً حتَّى اليوم في الكثير من المجتمعات القبليَّة غير المسلمة ، وخاصَّة وسط العديد من القبائل الأفريقيَّة التي يتزوَّج فيها الرَّجل الواحد بعشرات النِّساء .

أكرم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من تزوَّج بهنَّ من النِّساء ، وجمع بزواجه من بعضهن شمل أصحابه ، ووطَّد العلاقة مع قبائل ودول ، وقدَّم في حياته معهنَّ المثال الصَّالح للزوج الصَّالح الذي يعامل زوجاته بأعلىٰ درجات الخلق الرَّفيع رغم ظروفه الشَّخصية الاستثنائية كرسول اصطفاه ربه لإبلاغ رسالة الإسلام للدنيا بأسرها ، كان سلوكه سلوكَ الأنبياء والزعماء والمصلحين العظام بدون ريبٍ ولا شكٍ ، وهو منهج التزم به النَّبيُّ في كلِّ مراحل حياته ، وضرب به المثل للمسلمين وغير المسلمين ، ولذلك شهد له القاصي والدَّاني بالنُّبل والكرم والتَّواضع والرَّحمة والشَّجاعة والإيثار ، وشهد له القرآن الكريم في آيةٍ جامعةٍ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] .

أوضح القرآن الكريم والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ القاعدة العامة للزواج في المجتمعات المسلمة هي زواج الرَّجل بواحدةٍ كما كان شأن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في مكَّة مع خديجة أمِّ المؤمنين ، وأباحت الشريعة الإسلاميَّة للرَّجل الزَّواج بأكثر من زوجةٍ واحدة ، وبأربع زوجات كحدٍّ أقصىٰ ، مع اشتراط العدل بين الزَّوجات ، وقد اتَّجه عددٌ معتبر من علماء المسلمين المعاصرين إلى التَّضييق علىٰ ممارسة تعدُّد الزَّوجات ووضع شروطٍ عديدةٍ لها ، وحرَّم الإسلام العلاقات الجنسيَّة خارج الزَّواج ووضع لها عقوبات

شديدة ، وفي كلِّ الأحوال فإنَّ القاعدة السَّائدة في المجتمعات الإسلاميَّة المعاصرة هي زواج الرَّجل بزوجةٍ واحدةٍ ، وانحسار ظاهرة تعدُّد الزَّوجات إلىٰ نسبةٍ لا تصل معشار الواحد بالمئة في المجتمعات الإسلاميَّة .

وبينما وافقت كثيرٌ من المجتمعات الدِّيمقراطيَّة علىٰ منح المرأة حقَّ التَّصويت في الانتخابات العامَّة في وقتٍ متأخِّرٍ من القرن الميلاديِّ العشرين ؛ فإنَّ رسالة النَّبيِّ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، رسالةَ الإسلام منحت المرأة حقَّ المساهمة في الشَّأن السِّياسيِّ والشَّأن العام منذ البيعة الأولىٰ في تاريخ الإسلام قبل الهجرة ، وفي البيعة الرَّئيسة الثَّانية ، كما منحتها حقَّ حيازة ملكيَّتها الخاصَّة ، وممارسة التِّجارة ، والتَّصرف في أموالها بحرِّيَّة ، ومنحتها حقها في الميراث ، وكلِّ الحقوق الأساسيَّة الأخرى التي كافحت المرأة لعدَّة قرونٍ من أجل نيلها في العديد من المجتمعات غير المسلمة ، وكانت الأرضيَّة الدِّينيَّة والقانونيَّة لكلِّ هـٰذه الحقوق هي إقرار المساواة بين الرَّجل والمرأة : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة التوبة : ٧١ـ٧٢] .

وعلىٰ هـٰذا الأساس الفلسفيِّ والدِّينيِّ الذي يكفل كرامة المرأة وحقوقها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة ، ويعطيها مع الرَّجل صفة خليفة الله في الأرض ، علىٰ هـٰذا الأساس يمكن فهم التَّجاوب الكبير الذي أبدته المرأة قديماً وحديثاً مع تعاليم الإسلام ، حتَّىٰ أنَّ أوَّل إنسان آمن بالإسلام امرأة ، وأوَّل إنسانٍ قدَّم حياته دفاعاً عن إيمانه بالإسلام امرأة .

وعلىٰ هـٰذا الأساس أيضاً يمكن فهم المكانة المتميِّزة التي بقيت للعائلة في

المجتمعات الإسلاميَّة ؛ لأنَّ الشَّريعة الإسلاميَّة أكَّدت كرامةَ المرأة وحفظت حقوقها ضمن سياقٍ أكبر أعطىٰ حقوقاً للآباء والأمَّهات ، وللأبناء والبنات ، وللأقارب عامَّة ، حتَّىٰ كانت رعاية صِلَةِ الرَّحم من التَّعاليم الرئيسة الثَّابتة في القرآن الكريم وفي توجيهات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه وللمسلمين علىٰ مرِّ الأزمان .

وقد شرع الإسلام للمرأة المسلمة أن تترك التبرج وإظهار الزينة لغير محارمها . ورد ذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] .

كما ورد ذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٩] .

فهمت المرأة المسلمة من هـٰذه التوجيهات ، وفهم أكثر علماء الإسلام منها علىٰ مر العصور ، أن اللباس الإسلامي للمرأة هو الذي يغطي جسدها كله إلا الوجه والكفين . وهـٰذا هو بالمناسبة لباس السيدة مريم العذراء عليها السلام كما يصورها المسيحيون في كنائسهم ، ولباس الراهبات المسيحيات قديماً وحديثاً .

هـٰذا اللباس الإسلامي الذي يضمن تطبيق التوجيهات والأوامر الواردة في الآية (٣١) من (سورة النور) ، والآية (٥٩) من (سورة الأحزاب) ، يسمح للمرأة المسلمة أن تؤدي دورها في المجتمع كإنسانة كاملة الحقوق

والواجبات ، ويحفظ كرامتها ، ولا يلغي أنوثتها .

كما أنه يحمي المرأة من أن تستخدم كأداة للدعاية والإغراء والإغواء ، كما هو شائع اليوم في كثير من المجتمعات العالمية ، حيث تروج أكثر الشركات لمنتجاتها عن طريق المرأة ، بعد أن تنزع عنها كل لباس تقريباً ! !

هٰذا اللباس الإسلامي هو ما يسميه كثير من الناس بالحجاب ، أو بارتداء الخمار . وقد قبلت النساء المسلمات عبر العصور هٰذا التوجيه والتزمت الأغلبية الواسعة منهن به ، رغم أن القرن الماضي شهد قيام حملة واسعة لحث المرأة المسلمة علىٰ خلع الحجاب واعتباره من التقاليد البالية .

ويشهد كل من يتجول اليوم في شوارع القاهرة أو جاكرتا أو اسطنبول وأكثر المدن الإسلامية الأخرىٰ في العالم أن أكثر النساء المسلمات يرتدين الحجاب ، وأن المرأة المسلمة لم تر في ارتداء الحجاب ما يقلل من إنسانيتها أو ما يعوق من أدائها لوظائفها المختلفة في المجتمع .

والغريب ، أن العديد من خصوم الحجاب الذين يرون أنه ينتقص من حرية المرأة وكرامتها لا يعترضون سراً أو علناً على استخدام المرأة كأداة للإغراء والإثارة ووسيلة لترويج السيارات والعطور والصابون وأجهزة الكمبيوتر وعقود التأمين وقروض شراء المنازل .

كما أن هٰؤلاء المخاصمين لحجاب المرأة المسلمة لا يعترضون على الحجاب المماثل الذي تلتزم به الراهبات المسيحيات ونساء يتبعن ديانات وشرائع وتقاليد أخرىٰ في أنحاء العالم ، ويتناسون أن مريم العذراء عليها السلام كانت محجبة ، وأن المسلمة المحجبة تحيي سنة هٰذه الصديقة الطاهرة المكرمة .

ولا شكَّ أنَّ المرأة المسلمةَ ما كانت لتلتزم بالحجاب لو كانت ترىٰ فيه منقصةً من كرامتها ، كما أنَّ الرَّاهبة المسيحيَّة ما كانت لتلبس حجابها لو كانت ترىٰ فيه إهانةً لها ، ولكنَّ المتشدِّدين من خصوم الدِّين عامَّة ، ومن الناقمين على

الإسلام بوجهٍ خاصٍّ عن جهل أو لاعتباراتٍ أخرىٰ غير موضوعية ـ وهم أقلية على الدوام ـ يرون في توظيف المرأة جسداً للإثارة والتَّسويق والإغراء ممارسةً عاديةً لا تثير أيَّ قلقٍ أو اعتراضٍ ، بينما يظهر تعصُّبهم الشَّديد وتوتُّرهم غير المبرر عندما تطالِبُ امرأة مسلمة بحقِّها في الالتزام بتعاليم دينها حول تغطية الشعر وارتداء لباس ساترٍ غير مثيرٍ ، ويصيبهم حماس شديد لصياغة القوانين المقيدة للحريات إذا تعلق الأمر بالتضييق علىٰ حق المرأة المسلمة في ارتداء الحجاب .

وقبل نهاية هـٰذا الفصل ، تجدر الإشارة إلى المرونة التي تكتنف تطبيق التوجيهات الإسلامية فيما يخص لباس المرأة ؛ ذلك أن عادات الناس في اللباس تتغير من بلد إلىٰ آخر ، ومن عصر إلىٰ آخر . فأزياء النساء في الجزائر مثلاً غيرها في إيران أو الهند . ولكل مجتمع أن يطور تقاليده الخاصة به في اللباس وأن يعتز بها أيضاً . المهم بالنسبة للمرأة التي ترغب في الالتزام بتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في أمر اللباس ، هو أن تغطي شعر الرأس ، وترتدي لباساً ساتراً للجسد ، لا يبدو منه إلا الوجه والكفان ، مع حقها في تكييف ذلك مع تقاليد بلادها في اللباس ، وهي تقاليد ثرية في المجتمعات الإسلامية ؛ منها الجلباب المغربي ، والسفساري التونسي ، والثوب السوداني القريب من الساري الهندي ، والعباية السعودية ، والزي الشائع في مصر والشام القائم علىٰ توليفة بين الفستان والخمار ، والساري الهندي وما يشبه من الأزياء في القارة الآسياوية . . . إلخ .

تتنوع الأزياء إذن ضمن الالتزام بالتشريع الإسلامي في هـٰذا الشأن ، وهي جميعها تعبر خلال هـٰذا الالتزام عن تكريم المرأة ، وتمكينها من المشاركة في مجتمعها علىٰ قدم المساواة مع الرجل ، كإنسان حر كريم ، وليس كسلعة وأداة للإثارة والإغراء والتسويق .

❊ ❊ ❊

الفَصلُ العَاشِرُ

مَكائِدُ المُنافِقينَ ، وَحَديثُ الإفْكِ

بعد ستَّة أشهر من غزوة الأحزاب قاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حملاتٍ عسكريَّة صغيرةً لتأكيد قدرة الدَّولة المسلمة على الدِّفاع عن نفسها ، وتحذير القبائل المعادية من مغبَّة التَّفكير في عدوانٍ جديد على المدينة المنوَّرة ، في هـٰذا السِّياق جاءت غزوته لبني لحيان الذين غدروا من قبل بخبيب بن عدي وأصحابه من الدعاة المسلمين ، لكنَّ الغزوة انتهت من دون قتال بسبب فرار بني لحيان من ديارهم وتحصُّنهم في رؤوس الجبال ، ثمَّ تجرَّأَ قائدٌ مشركٌ من قبيلة غطفان على الهجوم علىٰ أطراف المدينة ، وهو عيينة بن حصن بن حذيفة ومعه عدَّة فرسان من قبيلة غطفان ، وتمكَّن الجيش المهاجم من السَّيطرة علىٰ قطيعٍ من إبل المسلمين والعودة به معهم ، وبلغ الخبر إلى المدينة ، فقاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حملةً سمِّيت بغزوة ذي قرد ، وهو اسم جبلٍ في أطراف المدينة المنوَّرة ، واستطاع المسلمون استرداد بعض إبلهم وليس كلَّها ، واستشهد منهم اثنان في مناوشاتٍ صغيرةٍ مع أصحاب عيينة بن حصن ، وأقام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً وليلةً في هـٰذا الجبل ثمَّ عاد ، من دون أن يحصل قتال مباشر بين جيشه وبين الجيش المغير الذي فرَّ راجعاً إلىٰ غطفان .

تدل غارة فرسان غطفان على المدينة المنورة مرة أخرىٰ ، لكل من بقي عنده شك علىٰ أن الدولة الإسلامية في المدينة المنورة كانت مستهدفة عسكرياً ، ويراد إسقاطها وتصفيتها من خصوم كثيرين ، وأنه لم يكن هناك أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين بالله خيار آخر لرد هـٰذا

الاستهداف والكيد والمكر إلا بالدفاع عن النفس والاستعداد للتضحية في ميادين القتال من أجل الإيمان والحرية .

وقد أغرت غارة فرسان غطفان أعداء آخرين على التحرش بالمسلمين . وكان ممن فكَّر في العدوان على المدينة المنوَّرة وأهلها بنو المصطلق بزعامة الحارث بن أبي ضرار ، فلمَّا بلغ الخبر عن نياتهم العدوانية إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاد جيشه واتَّجه إليهم ، وواجههم قربَ نقطة ماء تسمَّى المُريسيع علىٰ ساحل البحر الأحمر ، وهناك وقعت الحرب بين الطَّرفين ، وانتهت بانتصارِ المسلمين ، ومقتلِ العديد ممن خطَّط للعدوان على المدينة من مشركي بني المصطلق ، وأسرِ عددٍ كبيرٍ منهم .

تزوَّج النَّبي صلى الله عليه وسلم عقب هٰذه الغزوة من جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار زعيم بني المصطلق ، فلمَّا سمع المسلمون بزواجه منها ؛ استحيوا أن يحتفظوا بأسرىٰ معركتهم مع بني المصطلق ؛ لأنهم غدو أصهار النبي صلى الله عليه وسلم ، فأطلقوا سراحهم وكانوا أكثر من مئة ، حتىٰ قالت عائشةُ أمُّ المؤمنين : (ما أعلم امرأةً كانت أعظم علىٰ قومها بركةً منها) في إشارةٍ إلىٰ جويرية أمِّ المؤمنين .

لم تكن غزوة بني المصطلق حدثاً عسكريّاً كبيراً في التاريخ ، لكنَّ حادثتين جرتا علىٰ هامشها بقيتا محفوظتين في ذاكرةِ المسلمين ونزل فيهما قرآن كريم من السماء .

عبد الله بن أُبيٍّ يحاول إشعال الفتنة

تتعلَّق الحادثة الأولىٰ بمحاولةٍ خطيرةٍ لإيقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار .

وفي التفاصيل : أنَّ النَّاس تواردوا علىٰ منبع للماء بعد انتهاء الحرب ضد

بني المصطلق ، فازدحم جَهْجَاه بن مسعود من المهاجرين وكان يقود فرس عمر بن الخطَّاب وسنان بن وبر الجهنيُّ من الأنصار حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، وتطوَّر الأمرُ بينهما بسرعةٍ إلى اقتتال ، صرخ الجهنيُّ في لحظةِ الغضب والصِّراع : يا معشر الأنصار ، وهتف جَهْجَاه مستجيراً : يا معشرَ المهاجرين ، وأوشك الصحابيان اللذان استسلما لنوازع لحظةِ غضبٍ عابرةٍ أن يثيرا معركة داخلية مدمِّرة في صفوف المسلمين ، لكنَّ بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار لم يستجيبوا لهما ولم تحصل فتنةٌ ولا قتالٌ .

لم تقم حرب بين إخوة العقيدة ، لكن الشجار الذي حصل بين الرجلين كان مناسبة استغلها زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول للتعبير عما يكنه في نفسه من كراهية للمسلمين ولإشاعة الفتنة وروح الانقسام بينهم من جديد . ورد ذلك في تعليق خطير أدلىٰ به الرجل أمام حشد من الناس كانوا حاضرين عنده ، قال : أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ؛ ما أعدنا وجلابيب قريش ـ يعني : المهاجرين ، وهو يستخدم هنا لفظاً وصفت به قريش من هاجر من المسلمين إلى المدينة ـ إلاَّ كما قال الأوَّل : سمِّن كلبك ؛ يأكلك ، أمَا والله ؛ لئن رجعنا إلى المدينة ؛ ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، ثمَّ صَعَّد عبد الله بن أُبيٍّ من حدة خطابه وحاول إشعال الفتنة بشكل صريح لا شبهة فيه وتوجه بكلامه لعددٍ من الأنصار : ما فعلتم بأنفسكم ؟! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله ؛ لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ؛ لتحوَّلوا إلىٰ غير داركم .

كان ممن حضر هـٰذا المجلس صحابي مشهور اسمه زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وقد كان يومئذ شاباً صغيرَ السِّنِّ ، فمضىٰ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصَّ عليه الخبر ، سمع القصة عمر بن الخطَّاب وقد كان حاضراً في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وانفعل مما نقله زيد ، واقترح قتل

عبد الله بن أُبيٍّ ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ردَّ عليه قائلاً : « فكيف يـا عمـر إذا تحـدَّث النَّـاس أنَّ محمَّـداً يقتـل أصحـابـه ؟! لا ولكـنْ أذِّن بالرَّحيل »[١] .

أراد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأدَ الفتنة في مهدها ، فأمر بأن يتحرَّك الجيش فوراً ويعود إلى المدينة المنوَّرة ، وذلك في ساعةٍ لم تكن عادته أن يرتحل فيها ، وجاء عبد الله بن أُبيٍّ فأنكر صحَّة ما نسب إليه من أقوال ، وحلف بالله علىٰ ذلك ، وشعر بعض الأنصار بالشَّفقة على ابن أُبيٍّ ؛ احتراماً لمكانته السَّابقة فيهم ، فقالوا : يا رسول الله ؛ عسىٰ أن يكون الغلام ـ أي : زيد بن أرقم ـ قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال .

وفي طريق العودة جاء أسيد بن حضير من زعماء الأنصار إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وسأله : يا نبيَّ الله ؛ والله لقد رُحت في ساعةٍ منكرةٍ ما كنت تروح في مثلها! فقال له الرَّسول صلى الله عليه وسلم : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أُبيٍّ » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنَّه إن رجع إلى المدينة ؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » قال : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذَّليل ، وأنت العزيز ، ثمَّ قال : يا رسول الله ؛ ارفق به ، فوالله ؛ لقد جاءنا الله بك وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه ، فإنَّه ليرىٰ أنَّك قد استلبته ملكاً[٢] .

ومضى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بجيشه عائداً إلى المدينة في حركة لا تتوقَّف لأكثر من أربع وعشرين ساعة حتَّىٰ أصيب النَّاس بالتَّعب والإجهاد ، فلمَّا توقَّف بهم في فترة استراحة ؛ استغرق أكثرهم في نوم عميقٍ ، وكان هدفُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يشغل النَّاس عن الحديث حول قصَّة

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩١) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩١ـ ٢٩٢) .

عبد الله بن أُبيٍّ ؛ لأنَّها مشبعةٌ بروح الفتنة والتّآمر .

قبل التحرك ، حذر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من الانسياق وراء دواعي الغضب والفرقة ، وقال معلقاً علىٰ هتاف الجهني (يا للأنصار) ، وهتاف الجهجاه (يا للمهاجرين) : « دعوها فإنها منتنة » ، أي : أعرضوا عن كل نداء للتحزب والولاء للعصبيات التي تشق جمع المؤمنين ؛ لأن الإنسان العاقل المتعلم الذي يحترم نفسه إنما يجعل ولاءه لفكرة نبيلة يؤمن بها ، وقيم سامية عظيمة يعمل من أجلها ، ولا يعطل عقله من أجل نداء قبلي يحرض على الفتنة ، كما كانت كثير من القبائل العربية تفعل قبل الإسلام وتدمر بعضها بعضاً في حروب قبلية عبثية لا طائل من ورائها .

كان ممن واكب تطورات هـٰذه الأزمة وسمع نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ، وهو شاب ثقة ، مؤمن بالإسلام محب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وغير راض عن سلوك أبيه . جاء عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ؛ إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً ؛ فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله ؛ لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني . وإني لأخشىٰ أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلىٰ قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار .

تحدث الشاب المؤمن بصراحة كبيرة عن ملابسات القضية ، وعبر أيضاً عن انحيازه الكامل لمبادئه علىٰ حساب علاقته بأبيه ، فجاءه الجواب الكريم من صاحب الخلق الكريم . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا »[(١)] .

ونزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيه آيات بينات عما جرىٰ ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٣) .

ونصائح غالية للمؤمنين جميعاً بألا يشغلهم أمر من أمور الدنيا عن ذكر الله وطاعته ومحبته :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٧ ـ ١١] .

حديث الإفك

تلك كانت تفاصيل الحادثة الخطيرة الأولى التي وقعت علىٰ هامش غزوة بني المصطلق واستهدفت وحدة الصَّفِّ المسلم .

أمَّا الحادثة الثَّانية ؛ فقد استهدفت عرض النبي صلى الله عليه وسلم وزوجته السيدة عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها .

تورط في هـٰذا الموضوع بعض المسلمين ؛ بأن اتهموا عائشة في عرضها ، وقد كان اتهاماً باطلاً وشنيعاً ومن أسوأ وأشنع ما يتَّهم به بيت من بيوت العرب ، كان ممن أشاع هـٰذا الخبرَ الكاذبَ الملفَّقَ مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وتلقَّف الخبر عبدُ الله بن أُبيٍّ بن سلول زعيم المنافقين ، وسعىٰ في ترويجه ، لكنَّ هـٰذه المكيدة الجديدة بارت وحبطت في النِّهاية ، وثبت بطلانها ، ونزل الوحي ببراءة أمِّ المؤمنين ، واطمأنت نفوس المؤمنين ، وبقيت الحادثة عبرةً للمعتبرين ، ودرساً في أهميَّة تحصين الأسرة المسلمة وحمايتها من الأذىٰ ومن الإشاعات الباطلة للمفسدين والمغرضين .

قالت عائشة أمُّ المؤمنين تروي تفاصيل ما جرىٰ : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً ؛ أقرع بين أزواجه ، فأيَّتهن خرج سهمها ؛ خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه .

قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب ، فكنت أُحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتَّىٰ إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ؛ آذن ليلة بالرَّحيل فقمت حين آذنوا بالرَّحيل فمشيت حتَّىٰ جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني ؛ أقبلت إلىٰ رحلي فلمست صدري ؛ فإذا عِقدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عِقْدي ، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرَّهط الذين كانوا يرحِّلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه علىٰ بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أنِّي فيه ، وكان النِّساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللَّحم ، إنَّما يأكلن العلقة من الطَّعام ، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السِّنِّ ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقْدِي بعد ما استمرَّ الجيش ، فجئت منازلَهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب ، فتيمَّمت منزلي الذي كنت به وظننت أنَّهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ .

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطِّل السّلميُّ من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلي فرأىٰ سواد إنسانٍ نائمٍ فعرفني حين رآني ، وكان رآني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، ووالله ؛ ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه ، وهوىٰ حتَّىٰ أناخ راحلته فوطىء علىٰ يدها فقمتُ إليها فركبتُها ، فانطلق يقودُ بي الرَّاحلة حتَّىٰ أتينا الجيش موغرين في نحر الظَّهيرة وهم نزول) .

وأضافت عائشة أمُّ المؤمنين : (فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أنِّي لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللُّطف الذي كنتُ أرىٰ منه حين أشتكي ، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلِّم ثمَّ يقول : « كيف تيكم ؟ » ثمَّ ينصرف ، فذلك يريبني ولا أشعرُ بالشَّرِّ حتَّىٰ خرجت حين نقهت ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان مُتبَرَّزنا ، وكنَّا لا نخرج إلاَّ ليلاً إلىٰ ليل ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في البرِّيَّة قبل الغائط ، وكنا نتأذَّىٰ بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا .

فانطلقت أنا وأمُّ مسطح وهي ابنة أبي رهم ابن المطَّلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّدِّيق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطَّلب ، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مِرْطها فقالت : تَعِس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلتِ ؛ أتسبِّين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : أي هنتاه أَوَلم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً علىٰ مرضي ، فلمَّا رجعت إلىٰ بيتي ؛ دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم ثمَّ قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبويَّ ـ تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ـ فأذن لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت لأمِّي : يا أمَّتاه ؛ ماذا يتحدَّث النَّاس ؟ قالت : يا بنيَّة ؛ هوِّني عليك ، فوالله ؛ لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجلٍ يحبُّها لها ضرائر إلاَّ كثَّرن عليها ، فقلتُ : سبحان الله ، أَوَلَقَدْ تحدث النَّاس بهـٰذا ؟!

وأضافت عائشةُ أمُّ المؤمنين : فبكيت تلك اللَّيلة حتَّىٰ أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنومٍ ، ثمَّ أصبحتُ أبكي .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالبٍ وأسامة بن زيدٍ حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله . فأمَّا أسامةُ : فأشار علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه ، فقال أسامة : أهلك ، ولا نعلم إلاَّ خيراً .

وأمَّا عليٌّ : فقال : يا رسول الله ؛ لم يضيِّق الله عليك ، والنِّساء سواها كثيرٌ ، وسل الجارية تصدقك .

قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ، فقال : أيْ بريرة ؛ هل رأيت من شيء يريبك ؟ قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ؛ ما رأيت عليها أمراً قطُّ أغْمِصُه غيرَ أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ تنام عن عجين أهلها فتأتي الدَّاجن فتأكله .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيٍّ وهو على المنبر فقال : « يا معشر المسلمين ؛ من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ؛ ما علمت علىٰ أهلي إلاَّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيراً ، وما يدخل علىٰ أهلي إلاَّ معي ؟ » فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ؛ ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ؛ أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أمُّ حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميَّة ـ فقال لسعد : كذبت ، لعمر الله ؛ لا تقتله ولا تقدر علىٰ قتله ، ولو كان من رهطك ؛ ما أحببت أن يقتل .

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعمر الله ؛ لنقتلنَّه ؛ فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتَّىٰ همُّوا أن يقتتلوا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ على

المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتَّىٰ سكتوا وسكت) .

وأضافت عائشة أمُّ المؤمنين : (فبكيت يومي ذلك كلَّه لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنوم ، حتَّىٰ إنِّي لأظنُّ أنَّ البكاء فالقٌ كبدي ، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن علىٰ ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلَّم ، ثمَّ جلس ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحىٰ إليه في شأني بشيءٍ .

فتشهَّد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثمَّ قال : « أمَّا بعدُ : يا عائشة ؛ إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة ؛ فسيبرِّئك الله ، وإن كنت ألممت بذنبٍ ؛ فاستغفري الله وتوبي إليه ؛ فإنَّ العبد إذا اعترف ثمَّ تابَ ؛ تابَ الله عليه » .

فلما قضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي ، حتَّىٰ ما أحسُّ منه قطرةً ، فقلت لأبي : أجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، فقال أبي : والله ؛ ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قالت أمي : والله ؛ ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت ـ وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ لا أقرأ من القرآن كثيراً ـ : إنِّي والله ؛ لقد علمت ، لقد سمعتم هـٰذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة ؛ لا تصدِّقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله ُ يعلم أنِّي منه بريئةٌ ؛ لتصدِّقنِّي ، فوالله ؛ لا أجد لي ولكم مثلاً إلاَّ أبا يوسف حين قال : فصبرٌ جميلٌ والله المستعان علىٰ ما تصفون .

ثمَّ تحوَّلتُ واضطجعتُ علىٰ فراشي ، واللهُ يعلم أنِّي حينئذ بريئةٌ ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي ، ولكنْ والله ؛ ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني وحياً يتلىٰ ، لشأني في نفسي كان أحقرُ من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها ، فوالله ما رام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّىٰ أُنْزِل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتَّىٰ إنَّه ليتحدَّر منه من العَرَق مثل الجمان وهو في يومٍ شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه ، فسرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها أن قال : « يا عائشة ؛ أمَّا الله فقد برأك ») .

قالت ـ أي : عائشة ـ : (فقالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ؛ فإني لا أحمد إلا الله عز وجل) .

وأضافت عائشة أم المؤمنين : (وأنزل الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ. . .﴾ العشر آيات . ثم أنزل الله هـٰذا في براءتي) .

وهـٰذه هي الآيات العشر التي تنزلت في براءة السيدة عائشة رضي الله عنها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ❁ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ❁ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ❁ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ❁ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ❁ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ❁ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ❁ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ❁

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور : ١١ـ٢٠] .

وجاء في قصة حديث الإفك أيضاً : (أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق الذي كان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره قال : واللهِ ؛ لا أنفق علىٰ مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل اللهُ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٢٢] عندئذ قال أبو بكر الصِّدِّيق : بلىٰ ، والله ؛ إنِّي لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلىٰ مسطح النَّفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله ؛ لا أنزعها منه أبداً) .

وأضافت عائشة أمُّ المؤمنين : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري ، قال لزينب : « ماذا علمت أو رأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله ؛ أحمي سمعي وبصري ، والله ؛ ما علمت إلاَّ خيراً ، قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع ، قالت : وطفقت أختها حمنة تحارب لها ؛ فهلكت فيمن هلك)[١] .

وبقيت براءة عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قرآناً يتعبَّد به المسلمون إلىٰ يوم القيامة ، وكان الدَّرس الذي حفظه أصحابُ النَّبيِّ والأجيالُ التي جاءت من بعدهم : أنَّ قذف المحصنات واتِّهام النَّاس بالباطل في عرضهم من أكبر الشَّرِّ وأسوأ المنكرات .

❊ ❊ ❊

---

(١) اعتمدنا الرواية الواردة في « صحيح البخاري » حديث رقم (٤١٤١) ، وحذفنا فقط عبارة (قالت) حيثما كان تكرارها غير ضروري .

الفَصلُ الحَادِيَ عَشَرَ
صُلْحُ الحُدَيْبِيَّةِ ، وَبَيْعَةُ الرِّضْوانِ

فشلت حملة قريش وحلفائها في غزوة الأحزاب في تحقيق أهدافها ، وبدلاً من أن تقود إلىٰ إسقاط الدولة الإسلامية في المدينة ، فإنها انتهت بتعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم وقدرتهم على التصدي للأخطار المحدقة بهم . وقد عبر عن هٰذه النتيجة بوضوح قرار جريء اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم في نهاية السنة السادسة للهجرة بأداء زيارة إلىٰ أحب بلاد الله إلى الله ، وأحبها إلىٰ نفسه ؛ مكة المكرمة .

ست سنوات مضت علىٰ هجرته المفروضة ، لكن مكة لم تغب أبداً عن خاطره ، وقد غدت قبلة صلاته وصلاة المسلمين في عصره وفي كل عصر . في ربوعها وجبالها ووديانها ترعرع وتعرف إلى الدنيا ، وفي غار بجبل من جبالها نزل عليه جبريل عليه السلام ينقل إليه وحي الله ، ويعلمه بأنه الإنسان المختار المصطفىٰ ليكون خاتم النبيين ، المتمم لجهود الأنبياء الكرام من قبله ، والمجدد لرسالة التوحيد والإيمان في العالم بأسره .

مكَّة في القلب

يقول عدد من الجغرافيين المسلمين : إنَّ مكَّة المكرَّمة هي مركز العالم وقلبه، وتظهر النَّظرة الأولىٰ لخريطة العالم أنَّ هٰذا القول ليس بعيداً عن الحقيقة، ومع أنَّ هٰذه المدينة المقدَّسة التي أقيم فيها أوَّل بيتٍ يعبدُ فيه الله وحدَه لم تكن عاصمةَ إمبراطوريةٍ مؤثِّرة في عصرِ بعثة النَّبيِّ ، فإنَّ الوقائع أثبتت أنَّ ما جرىٰ فيها وحولها في الفترة من (٥٧٠) إلىٰ (٦٣٣) بعد الميلاد غيَّر مسار التَّاريخ البشريِّ كلِّه .

كان أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا معه مشتاقين هم أيضاً إلىٰ مكَّة ، فيها مرابع صباهم وأحلام شبابهم وشواهد سبقهم إلىٰ توحيد الله ودلائل نبلهم واستعدادهم للتَّضحية من أجل المبادىء النَّبيلة ، وفيها الأهل والأقارب والأصدقاء الذين لم تكن قلوبهم قد أشرقت بعد بأنوار الإسلام .

لكنَّ قرار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالتَّوجُّه إلىٰ مكَّة لم يكن مبنيّاً على العاطفة والشَّوق إلىٰ مسقط رأسه ، وإنَّما على اعتبارات استراتيجيَّةٍ متَّصلةٍ بمجريات الحرب مع مشركي قريش ، لم يجنِّد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حملةً عسكريةً لدخول مكَّة وخوض جولةٍ جديدة من جولات الحروب مع أعداء الإيمان والحرِّيَّة ، وإنَّما أعلن أنَّ هدفه الأوَّل والأخير هو أداء مناسك العمرة ، ولا شك أنَّ تأكيد حقِّ المسلمين في عبادة الله وحدَه ، وزيارة أول مسجد بُنِي علىٰ وجه الأرض يدخل في صميم استراتيجيَّة الدَّولة الإسلاميَّة التي كانت تكافح من أجل حرِّيَّة الاعتقاد والعبادة وانتصار القيم الدِّينيَّة .

وهكذا ومع أنَّ الهدف الذي أعلنه النَّبيُّ لحملته مع أصحابه كان أداء مناسك العمرة ؛ فإنَّ السِّياق العامَّ لمجريات الأحداث يجعله نقلةً نوعيّةً حاسمةً في تاريخ الصِّراع بين معسكرِ الإيمان والحرِّيَّة من جهة ، ومعسكر الشِّرك والاستبداد من جهةٍ أخرىٰ .

توجَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ مكَّة علىٰ رأس حملةٍ قوامها سبع مئة من المهاجرين والأنصار ومن لبَّىٰ دعوته من أهل البوادي المجاورة للمدينة ، وساق معه الذَّبائح التي ينحرها الحجَّاج والمعتمرون في مكَّة ، ولبس لباس الإحرام للعمرة ليطمئن النَّاس كافة إلىٰ أنَّه لا يقصد مكَّة محارباً وإنَّما يقصدها عابداً معظِّماً لشعائر الله .

في الطريق إلى المسجد الحرام جاءت الأخبار إلى النَّبيِّ صلى الله عليه

وسلم بأنَّ قريشاً جهَّزت جيشاً للقتال ، وأنَّ زعماءها تعاهدوا بألاَّ يسمحوا للمسلمين بدخول مكَّة ، وأرسلوا بالفعل بعض طلائعهم العسكرية بقيادة خالد بن الوليد إلىٰ كراع الغميم ، وهي منطقة بين مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة ، فعلق علىٰ صنيعهم بقوله : « يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني ؛ كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم ؛ دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا ؛ قاتلوا وبهم قوة ، فما تظنُّ قريش ؟ فوالله ؛ لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتَّىٰ يظهره الله أو تنفرد هـٰذه السالفة » أي : صفحة العنق[1] .

ثم سلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه طريقاً غير الطَّريق الذي خرجت إليها طلائع قريش ووصل في نهايتها إلى الحديبية غير بعيدٍ من مكَّة المكرَّمة ، فأمر أصحابه بالنُّزول بها ، وعندما جاءت الأخبار إلىٰ جيش قريش بوصول النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى الحديبية ؛ عادوا سريعاً يخشون أن يدخل المسلمون مكَّة عنوةً ، لكنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان قد أعلن لأصحابه : « لا تدعوني قريش اليوم إلىٰ خطَّة يسألونني فيها صلة الرَّحم إلاَّ أعطيتهم إيَّاها »[2] .

مقارنة مع كسرىٰ وقيصر

في مقرِّه بالحديبية استقبل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أكثر من وسيط أو مندوب قرشيٍّ ، واستقبل وفداً من خزاعة ، وكان حديثه واحداً للجميع ، وهو أنَّه لم يقدم إلىٰ مكَّة يريد حرباً ، وإنَّما جاء زائراً للبيت معظِّماً لحرمته ، لكنَّ زعماء قريشٍ أصرُّوا علىٰ موقفهم ، وقالوا : إنَّهم لن يسمحوا للنَّبيِّ بدخول

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٠) .

مكَّة عنوة وإن كان جاء لا يريد قتالاً ؛ لأن ذلك يسيء إلىٰ صورتهم ويضعف مهابتهم بين العرب .

كان من بين الوسطاء الذين سعوا بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقريش عروة بن مسعود الثَّقفيُّ ، وقد أتاحت له هـٰذه الوساطة أن يرىٰ بعض مظاهر محبَّة المسلمين لنبيِّهم صلى الله عليه وسلم وتقديرهم وتبجيلهم له ، فكان مما قاله لقريش : يا معشر قريش ؛ إنِّي قد جئت كسرىٰ في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنَّجاشيَّ في ملكه ، وإنِّي والله ؛ ما رأيت ملكاً في قوم قطُّ مثلَ محمَّدٍ في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلِّمونه لشيءٍ أبداً ، فرَوا رأيكم ؛ أي : فانظروا رأيكم[1] .

لعلَّ عروة بن مسعود كان يظنُّ علاقة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه مثل علاقة حكَّام عصره بشعوبهم ، علاقة تسلُّطٍ وقوَّةٍ ونفوذ ، فلمَّا رأىٰ محبَّة أصحاب النَّبيِّ للنَّبيِّ وتعلُّقهم به ؛ فوجىء بهـٰذا النَّمط الفريد من العلاقة ، ولو كان مؤمناً ؛ لعرف المزيد عن أسرار ذلك الحبِّ ، ولأدرك أنَّه من صميم إيمان مسلمي ذلك الجيل وكلِّ الأجيال التي جاءت بعدهم ، بل إنَّ محبَّة المسلم لا تقتصر علىٰ نبيِّ الإسلام وحدَه ، وإنَّما تشمل إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وسائر إخوانهم من الأنبياء والمرسلين .

ثم دعا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم واحداً من أصحابه يدعىٰ خراش بن أميَّة الخزاعي ، فأرسله إلىٰ مكَّة لمقابلة قادة قريش وإبلاغ رسالةٍ واضحةٍ إليهم عن نوايا المسلمين ، ومضىٰ خراش في مهمَّته راكباً علىٰ جملٍ أعطاه له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، لكنَّ عدداً من القرشيِّين المشركين عقروا الجمل وكادوا يقتلون خراشاً .

واستمرَّ قادة قريش في سياسة الاستفزاز والتَّعنُّت ، فبعثوا خمسين رجلاً ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٤) .

وأمروهم أن يقتربوا من معسكر الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، لعلَّهم يقتلون أو يأسرون واحداً من أصحابه ، لكنَّ المسلمين تفطَّنوا لهم ، وتمكَّنوا من أسرهم جميعاً ، وجاؤوا بهم إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم وأطلق سراحهم ، رغم أنَّهم رموا المعسكر الإسلامي بالحجارة والنَّبل .

اقترح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عندئذ علىٰ عمر بن الخطَّاب أن يتوجَّه إلىٰ مكَّة حاملاً منه رسالةً إلىٰ قادة قريش ، لكنَّ عمر اعتذر بسبب غياب السَّند القبليِّ الذي يمكن أن يحميه إن أرادت به قريش شرّاً ، واقترح بدلاً منه عثمان بن عفان ، وبالفعل قبل عثمان المهمة وتوجَّه إلىٰ مكَّة ليبلغ زعماءها وعلىٰ رأسهم أبو سفيان بن حرب أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بنيَّة الحرب ، وأنَّه إنَّما جاء زائراً للبيت العتيق معظِّماً لحرمته .

تمكَّن عثمان بن عفان من تأمين مجيرٍ له علىٰ مقتضى الأعراف القبليَّة السَّائدة ، وهو أبان بن سعيد بن العاص ، فدخل مكَّة آمناً ، والتقىٰ بقادتها ، وأبلغهم رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعرض زعماء قريش علىٰ عثمان بن عفان أن يطوف بالبيت فرفض ، وأكد أنه لن يطوف إلاَّ بعد أن يفعل ذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ رأت قريش أن تحتجز عثمان بن عفان عندها لبعض الوقت .

بيعة الرِّضوان واتِّفاق الصُّلح

وصل خبر احتجاز عثمان إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مشوَّهاً ؛ إذ نقل إليه أنَّه قتل ، فاعتبر ذلك إعلان حربٍ على المسلمين ، واستعدَّ لمواجهة القرشيِّين ، وطلب من أصحابه البيعة علىٰ أن يثبتوا ويصمدوا ولا يفرُّوا من ساحة المعركة فبايعوا جميعاً إلاَّ واحداً ، وسمِّيت تلك البيعة بيعة الرِّضوان ، وأثنى القرآن الكريم علىٰ أهلها : ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [سورة الفتح : ١٨ـ١٩] .

هٰذه شهادةٌ عظيمةٌ ما بعدها شهادةٌ ، وفوزٌ عظيمٌ ما في العالم فوزٌ أكبر منه ، وهل للإنسان مهما كان اعتقاده ومكانه وزمانه مطلبٌ أعظم وأغلىٰ من نيل رضوان الله ؟ وهي أيضاً حجَّةٌ قاطعةٌ في بيان مقام أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عند الأجيال اللاَّحقة من المسلمين ، لقد زكَّاهم الله علىٰ رؤوس الأشهاد في أكثر من موضع ، وهنا تزكية للذين شاركوا منهم في حملة الحديبية ، وإعلانٌ برضوان الله تعالىٰ عليهم ، وإنزال السَّكينة في قلوبهم ، وتبشيرهم بفتحٍ قريبٍ ، وما أدري كيف يسوِّغ مسلمٌ لنفسه بعد ذلك أن يجرِّح في واحدٍ من هٰؤلاء أو يتجرَّأ عليه بالتجريح والتنقيص ، ولا كيف يستسيغ غيرُ المسلم أن يعيبهم وقد كانوا أنصاراً لله وجنوداً لدعوة الإيمان والحرِّيَّة في مواجهة الشِّرك والظُّلم والطُّغيان !

اطمأنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلىٰ سلامة الجبهة الدَّاخليَّة واستعداد أصحابه للدِّفاع عن أنفسهم ، ثمَّ جاءته الأخبار الصَّحيحة بأنَّ عثمان بن عفان لم يقتل فزال شبح الحرب والمواجهة .

جاءت الخطوة التَّالية من قريش ، فقد أرسلت إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم واحداً من قادتها ذوي الخبرة والمكانة ، هو سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي ، وفوَّضته للوصول إلىٰ صلحٍ مع المسلمين شرطه الأساس : أن يعود النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ولا يدخلوا مكَّة عامهم ذاك ، حتَّىٰ لا يشيع بين العرب أنَّه دخلها عنوة ورغماً عن إرادة زعمائها .

التقىٰ سهيل بن عمرو بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودارت بينهم مفاوضات معمَّقة ، انتهت بالتَّوصل إلىٰ ما سمِّي في التَّاريخ الإسلاميِّ بصلح الحديبية ، وقبل أن يتَّفق الطَّرفان علىٰ صيغةٍ مكتوبةٍ للصُّلح ظهرت بعض

الاعتراضات والتَّحفُّظات في صفوف المسلمين الذين كانوا يودُّون دخول مكَّة قبل العودة إلى المدينة ، وكان أشهر المعترضين بادىء الأمر عمر بن الخطَّاب .

جاء عمر إلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق يجادله : (يا أبا بكر ؛ أليس برسول الله ؟ قال : بلىٰ ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلىٰ ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلىٰ ، قال : فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ؛ الزم غرزه ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنَّه رسول الله ، ثمَّ أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ؛ ألست برسول الله ؟ قال : « بلىٰ » ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : « بلىٰ » ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : « بلىٰ » ، قال : فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيِّعني »)[١] .

لم يتأثَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم باعتراض عمر بن الخطَّاب ، وهـٰذا غير مستغربٍ منه صلى الله عليه وسلم ، كما أنَّ حميَّة عمرَ ليست غريبة عنه ، وهي تظهر في مواضع أخرىٰ من تاريخ الإسلام ، وتنطق بما كان في قلبه من حماسٍ للإسلام وغَيْرةٍ عليه واستعدادٍ للتَّضحية في سبيله ، وقد روي عنه أنَّ راجع نفسه لاحقاً حول حِدَّة اعتراضه علىٰ مشروع الصُّلح وصلىٰ وصام وأعتق العبيد وتصدَّق كثيراً مخافة أن يكون قد أغضب النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم باعتراضه إلىٰ أن اطمأنت نفسه إلىٰ ما تضمَّنه الموقف من وجوه الخير .

أمَّا موقف أبي بكر الصِّدِّيق : فقد جاء أيضاً مطابقاً لما نقله عنه المؤرخون في أكثر من مناسبة ، إنَّه موقف الثِّقة الكاملة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والتَّصديق الكلِّيُّ له ، لقد صدَّقه عندما أخبره أن الوحي ينزل إليه من السماء ، وصدَّقه عندما أخبر بحدث الإسراء والمعراج ، فكيف لا يثق به إذا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٦ـ٣١٧) .

رأى الخير في مهادنة قريش والجنوح للسِّلم معها ؟!

مضى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قدماً في إبرام ما اتفق عليه مع سفير قريش ، فاختار ابن عمِّه عليَّ بن أبي طالب ليكتب نصَّ اتِّفاق الصُّلح بينه وبين سهيل بن عمرو ، وقال : « اكتب : بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم » ، فقال سهيل : لا أعرف هـٰذا ، ولكن اكتب : باسمك اللَّهمَّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب : باسمك اللَّهمَّ » ، فكتبها ، ثمَّ قال : « اكتب : هـٰذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنَّك رسول الله ؛ لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب : هـٰذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا علىٰ وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض ، علىٰ أنَّه من أتىٰ محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ؛ ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمَّد ؛ لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ـ أي : صدور منطوية علىٰ ما فيها ـ وأنَّه لا إسلال ولا إغلال ـ أي : لا سرقة خفية ولا خيانة ـ وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمَّد وعهده ؛ دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ؛ دخل فيه .

وأنك ترجع عنا عامك هـٰذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل ؛ خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها » .

وفي هـٰذا السياق تواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم[1] .

شهدت على الصُّلح شخصيَّات بارزةٌ ، من المسلمين : أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٨) .

عمرو ، وسعد بن أبي وقَّاص ، ومحمود بن مسلمة ، وعليُّ بن أبي طالب كاتب الاتفاق وشهد من المشركين مكرز بن حفص .

امتحان صعب للمسلمين

شق على المسلمين كثيراً ما أوجبه اتفاق الصلح عليهم من العودة إلى المدينة من دون دخول مكة والطواف بالكعبة ، وشق عليهم أيضاً أن يلزمهم الاتفاق بإعادة من يأتيهم من قريش بغير إذن وليه إلىٰ قريش ، وأحس بعضهم بمرارة كبيرة بسبب هٰذه التنازلات .

هٰذه المرارة التي نتجت عن تقييم سريع ومنفعل لبنود المفاوضات لدىٰ بعض المسلمين الذين بايعوا بيعة الرضوان ، كادت أن تنسي بعضهم ضخامة الإنجاز الكبير الذي تحقق لهم وللجزيرة العربية كلِّها عشر سنوات من الهدنة والسَّلام ، ومن حرِّيَّة الدَّعوة للإسلام إذن ، وموافقة على السَّماح للمسلمين بدخول مكَّة في العام التالي ، واعتراف رسميٌّ من قريش بأنَّ الوجود الإسلاميَّ لم يعد حدثاً عابراً أو هدفاً سهل المنال تشنُّ عليه الحرب مرَّة كلَّ عام ، ولم يعد ظاهرةً يمكن استئصالها ، وأنَّه قد أصبح مركزاً رئيساً من مراكز القوَّة والتَّأثير والأمن في الجزيرة العربيَّة .

وجاء امتحان مدى التزام المسلمين بالاتفاق فوريّاً ، ومن قبل أن يتبيَّن كثير منهم مزايا ما توصَّل إليه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع سهيل بن عمرو ، في تلك السَّاعات الحسَّاسة تمكَّن مسلمٌ يدعىٰ أبا جندل بن سهيل من الفرار من المعتقلات القرشيَّة والوصول إلىٰ معسكر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فوجده يكتب كتاب الصُّلح مع سهيل .

كان أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد الذي كبَّله به أعداء حرِّيَّة العقيدة في مكَّة ، ولا شك أنَّه كان يرىٰ في تلك اللَّحظة لحظة وصوله

لمعسكر المسلمين لحظة التَّحرُّر والانعتاق ، لكنَّ سهيل بن عمرو المفاوض الرَّسميَّ لقريش أمسك به وقال للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : إن اتفاق الصُّلح قد أبرم قبل أن يصل أبو جندل يطلب النَّجاة والحرِّيَّة ، وأمَّن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين علىٰ هـٰذا الحديث ؛ لأنَّه كان صحيحاً ، ونظر المسلمون والألم يعصر قلوبهم إلىٰ أخيهم في العقيدة يستصرخهم ويطلب النَّجدة منهم ، وقد أمسك به سهيل يجره ليردَّه إلىٰ قريش ، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا أبا جندل ؛ اصبر واحتسب ، فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم علىٰ ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنَّا لا نغدر بهم »[1] .

هـٰذه أخلاق الأنبياء تفي بالعهد وتنبذ الغدر ، ولو كان لأعداء حرِّيَّة الإيمان أخلاق مماثلة ؛ لأعطوا لأبي جندل حرِّيَّته وسمحوا له بالانضمام إلى المسلمين ، لكنَّ قلوبهم كانت قاسيةً مغلقةً ، وعقولهم سيطر عليها التَّعصُّب ، وكذلك هو طبع أعداء الإيمان وحرِّيَّة العقيدة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

كان منظر سهيل وهو يجرُّ معه إنساناً حرّاً لاضطهاده وقمعه بسبب إيمانه بوحدانية الله الخالق للإنسان والكون شهادةً علىٰ طبيعة المعركة التي كانت تدور في قلب الجزيرة العربية بين المسلمين وخصومهم ، وهي كانت في الحقيقة معركة العالم كلِّه ، معركة المؤمنين بالله والحرِّيَّة في مواجهة المؤمنين بالشِّرك والدِّيكتاتوريَّة .

التَّحلل من الإحرام ونصيحة أمِّ سلمة

يلبس المسلمون لباساً خاصّاً لأداء مناسك العمرة أو الحج ، إنَّها ثياب الإحرام ، وهي عبارة عن قطعتين من قماش أبيض غير مخيط تستران البدن ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٨) .

لا مجال فيهما لإبداء الزِّينة أو الغنىٰ والتَّرف ، وأشهر يوم يتجلىٰ فيه معنى المساواة المطلقة بين النَّاس أمام خالقهم هو يوم الوقوف بجبل عرفة في مواسم الحج ، عندما يجتمع ما يزيد عن مليوني مسلم ـ هـٰذا عدد الواقفين بعرفة في الثلث الأول من القرن الهجري الخامس عشر ، الموافق لبداية القرن الميلادي الحادي والعشرين ـ لعبادة الله ودعائه والتَّضرع إليه ، كلُّهم يلبس ثوب الإحرام ، لا فرق عندئذٍ بين أميرٍ أو غفيرٍ ؛ لأنَّ التَّمايز أمام الله سبحانه وتعالىٰ لا يكون بالمال ولا بالمركز الاجتماعي ، إنَّما بالتَّقوىٰ ومحبَّة الله والعمل الصَّالح .

يعود المسلم إلى ارتداء ملابسه العاديَّة بعد إتمام مناسك العمرة أو الحج ، وحتَّىٰ ذلك الحين يعدُّ محرماً متجرِّداً لأداء هـٰذه الطَّاعة العظيمة ، فكيف يفعل المشاركون في حملة الحديبية وقد انتهىٰ أمر الحملة إلى الصُّلح الذي عرضنا بنوده آنفاً مع سهيل بن عمرو ، وهم كانوا يلبسون ثياب الإحرام ويطمعون في زيارة المسجد الحرام وأداء مناسك العمرة ؟

صدر الأمرُ من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم للجميع بنحر الهدي الذي جاؤوا به وحلق رؤوسهم والتَّحلل من الإحرام بناء علىٰ ما جاء في الاتفاق من ضرورة عودة المسلمين إلى المدينة المنوَّرة والسَّماح لهم بالاعتمار في العام المقبل ، لكن شعور المرارة الذي طغىٰ على المسلمين في تلك السَّاعات جعلهم يتثاقلون عن التَّحلل من الإحرام ، وقد كرَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أمره لهم ثلاثَ مرَّاتٍ بأن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم ، لكن لم يقم منهم أحد .

دخل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ زوجته أمِّ سلمة ، وحدَّثها بما صنع المسلمون ، فأشارت عليه برأيٍ سديدٍ ، اقترحت عليه أن يخرج لأنصاره فلا يكلِّم منهم أحداً حتَّىٰ يبدأ هو بنحر الهدي الذي جاء به ويحلق رأسه ويتحلل من

إحرامه ، وقالت له : إن النَّاس سيتبعونه فوراً إذا ما رأوا صنيعه ، هـٰهنا أيضاً يظهر الدَّور المؤثِّر للمرأة في حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتاريخ الإسلام ، فقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يثق بها ويستشيرها ، وإذا كانت خديجة بنت خويلد قد سبقت النَّاس جميعاً للإسلام ، وسميَّة قد دوَّنت اسمها أوَّل شهيد من أجل الإسلام ؛ فإن أمَّ سلمة حفظت موقعها في التَّاريخ بهـٰذه النَّصيحة الغالية في لحظةٍ عصيبةٍ من لحظات حملة الحديبية .

كأنَّما كانت أمُّ سلمة تقرأ ما سيجري في كتابٍ أمام عينيها ، ذلك أنَّه ما إن رأى المسلمون صنيع النَّبيِّ حتَّىٰ زالت غشاوة الغضب والألم عن عيونهم ، وتذكَّروا نعمة الله عليهم بصحبة النَّبيِّ الكريم ، وأدركوا أنَّهم قاربوا الدُّخول في باب معصيته قبل لحظات ، فنشطوا وقاموا علىٰ عجل متدافعين متنافسين ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم لبعض ويستغفرون الله كثيراً خشية أن يكونوا قد أغضبوا نبيَّه وعصوه .

لا شكَّ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم كان يعرف تماماً حقيقة المشاعر التي فاضت بها صدور أصحابه في تلك اللَّحظات ، ويفهم طبيعة الألم الذي كان يعصر قلوبهم لعودتهم إلى المدينة دون ممارسة حقِّهم المشروع في زيارة المسجد الحرام وأداء مناسك العمرة محبة لله ربهم وطاعة لتعاليمه . لكنه كان أبعد نظراً منهم ، وكان مؤيَّداً مسدَّداً بالوحي ، واثقاً أنَّ ربَّه لن يضيِّعه ، ميَّالاً كما كان في سيرته كلِّها منذ كُلِّف بالرِّسالة إلىٰ مسالك الحوار وطرق السَّلام ، وقد سبق قوله في أوَّل حملة الحديبية : « لا تدعوني قريش اليوم إلىٰ خطَّة يسألونني فيها صلة الرَّحم إلاَّ أعطيتهم إياها »[1] .

وهكذا تحلَّل المسلمون من إحرامهم ، وسلك موكبُ المؤمنين بالله الواحد الأحد طريقَ العودة إلى المدينة المنوَّرة .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٠) .

الفتح المبين والفوز العظيم

في طريق العودة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة نزل الوحي من السَّماء يبيِّن للمسلمين ضخامة الإنجاز العظيم الذي حقَّقوه وربَّما غفلوا عن أهميته الكبرىٰ في لحظات الحزن والغضب بسبب عدم إتمام عمرتهم . إنجاز كبير سماه القرآن الكريم فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً ، كما تنطق بذلك هـٰذه الآيات الكريمة من (سورة الفتح) : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ١ـ٥] .

هـٰذه هي نتيجة حملة الحديبية بميزان الله الأعدل من كلِّ عادلٍ ، والأعلم من كلِّ عليم ، فكيف هو كسب المشركين والطغاة الذين ردُّوا المؤمنين ولم يسمحوا لهم بالعمرة ، وتفنَّنوا في اضطهاد من أراد الخروج من ظلمات الشِّرك إلىٰ نور توحيد الله وعبادته ؟ يأتي الجواب مباشرة في الآية السَّادسة من (سورة الفتح) : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

ثمَّ تأتي الآيات الموالية لتذكِّر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين والنَّاس أجمعين في كلِّ البلدان وفي كلِّ الأزمان بطبيعة الرِّسالة الإسلاميَّة ، إنَّها رسالةُ تذكيرٍ وبشارةٍ وإنذارٍ تهدي النَّاس سبلَ السَّلام ، وتتمُّ ما بدأه إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين من بناء أركان الإيمان في القلوب قبل الجدران ، وترشد كلَّ إنسانٍ لأسرار السَّعادة : الإيمان بالله ورسوله ، والذِّكر ، والتَّسبيح ، والطَّاعة ، فذلك هو الميزان الذي تستقيم به

كلُّ الأمور الأخرىٰ في الحياة ، وهنا موقع الإنذار في الرِّسالة الإسلاميَّة ؛ أي : أنها تنذر النَّاس جميعاً أنه من دون الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن دون الطَّاعة والذِّكر ومحبَّة الأنبياء كافَّة وعمل الصَّالحات والتزام الكلمة الطَّيِّبة ، ومن دون ذلك لا يكون لعمل الإنسان شأنٌ يُذْكر في ميزان الله ، وميزان الله هو الميزان الحقُّ الذي يجدر بكلِّ النَّاس أن يهتمُّوا به وحدَه ويعرضوا عمَّا سواه .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ٧ـ١٠] .

ثمَّ تضمَّنت (سورة الفتح) بيان رضوان الله على الذين بايعوا النَّبيَّ تحت الشَّجرة في لحظات الشِّدة والعسرة ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك في هٰذا الفصل ، وتنديداً بالكفَّار الذين صدُّوا المؤمنين عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي أن يذبح في المكان الذي يحلُّ فيه نحره ، وتعصَّبوا تعصُّب الجاهليَّة ، يرفضون أن يبدأ اتِّفاق الصُّلح بـ(بسم الله الرحمٰن الرحيم) ، ثمَّ ختمت السُّورة ببشارة عظمىٰ للمسلمين عن دخولهم المؤكَّد القريب للمسجد الحرام ، وببيانٍ جميلٍ مؤثِّر عن الرَّابطة الوثيقة بين محمَّدٍ وأصحابه ، وبين المسلمين والذين سبقوهم من أهل الإيمان من اليهود أهل التَّوراة والمسيحيِّين أهل الإنجيل .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۞ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ

ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۞ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح : ٢٦ـ٢٩] .

وقد ورد في « سيرة ابن هشام » قول للزهري ، وهو من كبار أهل العلم في تاريخ الإسلام ، يفسِّر وصف ما جرىٰ في الحديبية بالفتح العظيم : (فما فُتِح في الإسلام فَتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن النَّاس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ؛ فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[١] .

إنَّ ساحة الحوار الحرِّ في أجواء السِّلم والأمن للجميع هي أفضل الأجواء للإسلام وأتباعه ، والحرِّيَّة هي شرط قبول الإسلام ممن يدخل فيه من البشر ؛ لأن المكره على الدِّين لا دين له ، هـٰذا يعني : أنَّ الإسلام يخاطب العقل الحرَّ والإنسانَ الحرَّ ، وقد أظهرت التَّجربة التَّاريخيَّة في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده أنَّ الذين يؤمنون بأهمية الحرية ويعرفون قيمتها العظمىٰ من الرِّجال والنِّساء في كلِّ عصرٍ كانوا دائماً هم الأسرع إلىٰ تلبية نداء الإيمان والحرِّيَّة والدُّخول في دين الإسلام ، بل إنَّ أكبر بلدٍ مسلم الآن في العالم ؛ أي : أندونيسيا ؛ دخل في الإسلام طوعاً ومحبَّةً وعن قناعةٍ حُرَّةٍ من دون حرب أو نزاع أو أيِّ نوع من أنواع المصادمات .

من هنا كان الوصول إلى الصُّلح ونشر الأمان بين النَّاس ليتحاوروا بحرِّيَّة

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢٢) .

فتحاً مبيناً في ميزان القرآن الكريم ، وانتصاراً عظيماً لم يحقِّق المسلمون من قبل انتصاراً أعظم منه ، إنَّ حجَّة المسلمين في عهد السِّلم والحرِّيَّة أقوىٰ من حجَّة خصومهم من المشركين والمستبدِّين ، فاستجاب الآلاف لنداء الإيمان والحرِّيَّة ، وكان الأمر كما وصفه الزُّهريُّ : (لم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه) .

يذكر هنا أنه قبل الخروج في حملة الحديبية ، كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد رأىٰ في منامه رؤيا عن دخوله مكَّة آمناً ، فلما عاد إلى المدينة من حملته تلك في الشَّهر الأخير من السَّنة السَّادسة للهجرة دون أن يدخلها ؛ سأله بعض أصحابه : ألم تقل يا رسول الله إنَّك تدخل مكَّة آمناً ؟ قال : « بلىٰ ، أفقلت لكم : عامي هـٰذا ؟ » قالوا : لا ، قال : « فهو كما قال لي جبريل عليه السَّلام »[1] .

وقد عرضنا قبل قليلٍ آيةَ تأكيد بشارةِ دخول المسجد الحرام في (سورة الفتح) ، وبالفعل ما مضىٰ عامٌ بعد ذلك حتَّىٰ تحقَّقت البشارة ودخل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكَّة يعظِّمون شعائر الله وينتصرون لدعوة التَّوحيد والحرِّيَّة وكرامة الإنسان ضدَّ دعوة الشِّرك والظُّلم والطُّغيان .

دعوة للنَّاس أجمعين

عاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من الحديبية واتَّخذ خطوة مهمة بينت الطَّابع العالميَّ لدعوة الإسلام ، وأكدت أنَّها لم تكن في أيِّ يوم دعوةً محليَّةً لقريشٍ أو للجزيرة العربيَّة أو للعرب وحدهم دون شعوب العالم ، كانت تلك الخطوة هي مكاتبة قادة الممالك والإمارات المجاورة ؛ من ملوكٍ وأمراءَ وحكامٍ ، ودعوتهم إلى الإسلام عبر رسائل خطيَّة أرسلها لهم مع مبعوثين مسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢٧) .

مختارين من قبله ، واتَّخذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لنفسه خاتماً من فضَّة يختم به رسائله إلىٰ هـٰؤلاء الحكَّام والملوك ، وقد نقش عليه ثلاث كلمات : كلَّ كلمةٍ في سطرٍ مستقل : محمَّد رسول الله ، وجعل اسم (الله) في السَّطر الأعلىٰ ، و(رسول) في السَّطر الوسط ، واسمه دونهما ؛ تعظيماً لاسم الله وإجلالاً .

حمل دحية بن خليفة الكلبيُّ رسالة النَّبيِّ إلىٰ قيصر ملك الرُّوم ، وحاطبُ بن أبي بَلْتَعة رسالته إلى المقوقس ملك مصر ، وعبدُ الله بن حذافة رسالته إلىٰ كسرىٰ ملك الفرس ، وعمرو بن أميَّة الضَّمريُّ إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، ووجَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم رسائل إلىٰ قادةٍ بارزين في الجزيرة العربيَّة ومنطقة الخليج والشَّام ، منهم الحارث الغسَّانيُّ في الشَّام ، وجيفر وأخوه عبَّاد ملكي عُمَان ، وثُمَامة بن أثال ، وهَوْذة بن عليٍّ ملك اليمامة ، والمنذر بن ساوىٰ حاكم البحرين .

كل هـٰؤلاء حكام مهمُّون ومؤثِّرون ، لكن من الضَّروريِّ الإشارة هنا أن من بينهم زعيمي الدَّولتين الأكثر قوَّة ونفوذاً في النِّظام العالميِّ السَّائد آنذاك ، ملك الفرس وقيصر الرُّوم ، فمن أين استمدَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم القوَّة والجرأة لمخاطبة هـٰذين الزَّعيمين ودعوتهما للإسلام ؟ ليس لهـٰذا السُّؤال إلاَّ جوابٌ رئيس واحد ، هو ثقته الكاملة بربِّه ، ونبل التَّعاليم التي يبشِّر بها ، وأنَّه إنَّما كتب إلىٰ هـٰؤلاء الحكَّام كافَّةً في باب تأديته لواجبِ إبلاغ رسالة الله للعالم وهي الإسلام .

كتب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في رسالته إلىٰ ملك الفرس

(بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، من محمَّدٍ رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس ، سلام علىٰ من اتَّبع الهدىٰ ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إلـٰه

إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ؛ فإنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً ؛ لينذر من كان حيّاً ويحقَّ القول على الكافرين ، فأسلم ؛ تسلم ، فإن أبيت ؛ فإنَّ إثم المجوس عليك) .

وكتب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ قيصر

(بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، من محمَّد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الرُّوم ، سلام علىٰ من اتَّبع الهدىٰ ، أسلم ؛ تسلم ، أسلم ؛ يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت ؛ فإنَّما عليك إثم الأريسيِّين : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤]) .

وكتب النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس حاكم مصر

(بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ ، أمَّا بعد : فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم ؛ تسلم ، وأسلم ؛ يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت ؛ فإنما عليك إثم أهل القبط : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤]) .

وجاء في رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ ملك الحبشة

(بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، من محمَّد رسول الله إلى النَّجاشيِّ عظيم الحبشة ، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ ، أمَّا بعد : فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إلـه إلا هو ، الملك القدُّوس السَّلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أنَّ عيسى ابن

مريم روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم البتول الطَّيِّبة الحصينة ، فحملت بعيسىٰ من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنِّي أدعوك إلى الله وحدَه لا شريك له ، والموالاة علىٰ طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ؛ فإنِّي رسول الله ، وإنِّي أدعوك وجنودَك إلى الله عزَّ وجلَّ ، وقد بلَّغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي ، والسَّلام علىٰ من اتَّبع الهدىٰ) .

ردَّ ملك الحبشة علىٰ هـٰذا الخطاب بجوابٍ يبيِّن أنَّه قَبِل الدَّعوة ودخل في دين الإسلام ، وقد مرَّ بنا من قبل الموقف التَّاريخيّ النَّبيل والعظيم للنَّجاشيِّ عندما حمى المسلمين المهاجرين إلىٰ بلاده ، وتأثَّر بما سمعه منهم من قرآنٍ وشرحٍ وبيانٍ .

جاء في الخطاب : (إلىٰ محمَّد رسول الله ، من النَّجاشيِّ أصحمة ، سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا إلـٰه إلاَّ هو ، أما بعد : فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسىٰ ، فوربِّ السَّماء والأرض ؛ إنَّ عيسىٰ لا يزيد علىٰ ما ذكرت ثُفْرُوقاً[(١)] ، إنَّه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرَّبنا ابن عمِّك وأصحابك ، فأشهد أنَّك رسول الله صادقاً مصدَّقاً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمِّك ، وأسلمت علىٰ يديه لله ربِّ العالمين)[(٢)] .

أمَّا كسرىٰ ملك الفرس : فإنَّ جوابه كان مناقضاً تماماً لموقف ملك الحبشة ؛ فقد استنكر أن يخاطبه عبدٌ حقيرٌ [بزعمه] من رعيته يكتب اسمه قبله ، ومزَّق الخطاب ، ووجَّه إلىٰ باذان واليه في اليمن باعتقال مرسله في الحجاز ؛ أي : النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتسليمه إليه .

كان كسرىٰ مستهيناً تماماً بأمر نبي الإسلام ، وكذا أيضاً كان موقف واليه

---

(١) أي : قمع التمرة .

(٢) الرحيق المختوم (ص ٤١٠) .

في اليمن الذي أرسل رجلين قويَّين مفتولي العضلات لتنفيذ المهمَّة ، فلمَّا وصلا المدينة وعرف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم منهما الخبر ؛ أمرهما بملاقاته في اليوم التَّالي .

وعند اللِّقاء الثَّاني أخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وفد والي اليمن أنَّ كسرىٰ قد قُتِل بيد ابنه شيرويه الذي انقلب عليه في أجواء فوضىٰ وثورة أعقبت هزيمةً كبيرةً لجيش الفرس أمام جيش قيصر الرُّوم ، وأمرهما بالعودة من حيث جاءا ، وإبلاغ باذان أنَّ الإسلام سينتشر وسيمتدُّ نفوذه ليغطي ملك كسرىٰ كلَّه ، وأنَّ الخير له في دخول الإسلام والحفاظ علىٰ مركزه ، وجاء الخبر إلىٰ باذان من شيرويه بقتله لأبيه كسرىٰ ، كما جاءه توجيه بتجميد الأوامر السَّابقة بخصوص النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقد أثَّر هـٰذا الموقف علىٰ باذان ومن معه من الفرس المقيمين في اليمن وكان سبباً في اعتناقهم الإسلام(١) .

أمَّا هرقل زعيم الإمبراطورية الرومانية ؛ فقد كان في تلك الفترة مقيماً في بيت المقدس ، جاءها قادماً من حمص ، يحتفل بانتصاره الكبير على الفرس واسترداد مناطق واسعةٍ كان كسرىٰ قد احتلَّها من قبل في سنة (٦٢٩) ميلاديَّة السَّنة السَّابعة للهجرة النَّبويَّة ، وفي أجواء هـٰذا الانتصار العسكريِّ الكبير ؛ وصلته رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يجري بعض التَّحرِّيات حول مرسلها ، وصادف أن كان أبو سفيان موجوداً في واحدةٍ من رحلاته التِّجاريَّة الكثيرة للشَّام مع مجموعةٍ من تجَّار قريشٍ ، فأرسل إليه أن يحضر إليه في بيت المقدس مع أصحابه .

حوار هرقل مع أبي سفيان

وصل أبو سفيان مع مرافقيه من التُّجَّار إلىٰ بيت المقدس ، ودخلوا إلىٰ

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٤١٤ـ ٤١٥) .

ديوان هرقل ، فوجدوه محاطاً بعددٍ من عظماء الرُّوم ، وكان هناك أيضاً مترجم يسهِّل الحوار بين زعيم الرُّوم وزعيم قريش ، قال أبو سفيان يروي ما جرىٰ في تلك الجلسة :

فقال (أي : هرقل) : أيُّكم أقربُ نسباً بهـٰذا الرَّجل الذي يزعم أنَّه نبيٌّ ، فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه منِّي ، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثمَّ قال لترجمانه : قل لهم : إنِّي سائلٌ هـٰذا عن هـٰذا الرَّجل فإن كذَبني ؛ فكذِّبوه ـ يقول أبو سفيان ـ : فوالله ؛ لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً ؛ لكذبت عليه .

ثمَّ كان أوَّل ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسبٍ .

قال : فهل قال هـٰذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبله ؟ قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال : فأشراف النَّاس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه في مُدَّة ـ أي : هدنة ـ لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال ـ أي : أبو سفيان ـ : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هـٰذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إيَّاه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجالٌ ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحدَه ، ولا تشركوا به

شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصَّلاة والصِّدق والعفاف والصِّلة .

فقال ـ أي : هرقل ـ للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنَّه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرُّسل تبعث في نسبٍ قومها ، وسألتك هل قال أحدٌ منكم هـٰذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحدٌ قال هـٰذا القول قبله ؛ لقلتُ رجلٌ يأتي بقولٍ قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من مَلك ؟ فذكرت أن لا ، قلتُ : فلو كان من آبائه من مَلك ؛ قلتُ رجلٌ يطلب مُلك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنَّه لم يكن ليذر الكذب على النَّاس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف النَّاس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتَّبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنَّهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتَّىٰ يتمَّ ، وسألتك أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرُّسُل لا تغدر ، وسألتك بمَ يأمركم ؟ فذكرت أنَّه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصِّدق والعفاف .

وأضاف القيصر مخاطباً أبا سفيان : فإن كان ما تقول حقاً ؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنتُ أعلم أنَّه خارجٌ ، ولم أكن أظنُّ أنَّه منكم ، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه ؛ لتجشَّمت لقاءه ، ولو كنت عنده ؛ لغسلت عن قدميه .

ثمَّ دعا بكتابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلىٰ عظيم بصرىٰ ، فدفعه إلىٰ هرقل ، فقرأه ؛ فإذا فيه : (بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، من محمَّد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم ، سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ ، أمَّا بعد : فإنِّي أدعوكَ بدعاية الإسلام ، أسلم ؛ تسلم ؛ يؤتك الله

أجرك مرَّتين ، فإن تولَّيت ؛ فإنَّ عليك إثم الأريسيِّين ، و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤]) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب ؛ كثر عنده الصَّخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلتُ لأصحابي حين أخرجنا : لقد أَمِر أمرُ ابن أبي كَبْشَة ، إنَّه يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنَّه سيظهر حتَّىٰ أدخل الله عليَّ الإسلام(١) .

تبيِّن هـٰذه الرواية أنَّ أبا سفيان ، وهو أحدُ ألدِّ خصوم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأشهر قادة المعسكر المعادي للإسلام لم يستطع أن يثبت عليه منقصةً واحدة عندما طَلَبَ منه هرقل شهادته ، وطلب من الحاضرين أن يكذِّبوه إن كَذَب ، ويعترفُ أبو سفيان نفسه أنَّه لولا مخافته من أن يشهد عليه من حضر معه من العرب بالكذب ؛ لفعل ، وتلك خصلة تحسب له ولكثيرين من أهل جيله من زعماء العرب .

وثمَّة رواياتٌ تاريخيَّةٌ تفيدُ أنَّ هرقل مالَ إلىٰ دعوة التَّوحيد ؛ لما فيها من قوَّةٍ ووضوحٍ وبساطةٍ ، لكنَّه تخلَّىٰ عنها خشية ما ستحدثه من انقساماتٍ في صفوف بطانته وكبار رجال دولته بما يؤثِّر علىٰ موقعه في قمَّة السُّلطة(٢) .

وأكرم المقوقس حاكم مصر مبعوث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إليه حاطب بن أبي بلتعة ، وبعث معه هدايا إلى النَّبيِّ ، لكنَّه لم يؤمن به ، وإن كان أوضح في جوابه المكتوب أنَّه علم أنَّ نبيّاً بقي ، وكان يظنُّ أنَّه يخرج بالشَّام ، وسأل المقوقس أثناء حواره مع حاطب ، ما منعه إن كان نبيّاً ـ أي : محمد ـ أن يدعو علىٰ من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فأجاب حاطب : ما منع عيسىٰ وقد

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٧) .
(٢) فقه السيرة (ص ٣٩٩) .

أخذه قوم ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم[1] ، وقد بقي اللُّطف والاحترام المتبادل والقبول بحقِّ الاختلاف سمات رئيسة للعلاقات التَّاريخيَّة بين الأقباط والمسلمين في العصور اللاَّحقة .

وقبل حاكم البحرين دعوة الإسلام ودخل فيه معه عددٌ من أعيان قومه .

أما حاكم دمشق الحارث بن أبي شمر الغساني : فقد تكبَّر وغضب ، ورمىٰ برسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أرضاً ، وقال : من ينزع منِّي ملكي ؟ وتوعَّد بتجهيز حملةٍ عسكريَّةٍ وشنِّ الحرب على المسلمين .

هـٰذه ردود فعل مختلفة علىٰ دعوة الإسلام ، ولا شكَّ أنَّ الفلاح كان حليفاً لمن قبل بالتَّوحيد ودخل بحرِّيَّة وطواعيَّة وحماسٍ في نادي المؤمنين ، وهو نادٍ كريم ، زعماؤه وقادته من أكرم الخلق أجمعين ، فيهم : نوحٌ ، وإبراهيمُ ، وموسىٰ ، ويعقوبُ ، ويوسفُ ، وسليمانُ ، وداوودُ ، وزكريا ، ويحيىٰ ، وعيسىٰ ، ومحمَّدٌ ، ولائحةٌ طويلةٌ من الأنبياء والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام أجمعين .

كلهم نصحوا لأممهم ، ودعوهم إلىٰ ما فيه الخير والفوز الكبير في الدنيا والآخرة .

مهمة الأنبياء هي إبلاغ الناس رسالات ربهم ، والناس بعد ذلك في حرية من أمرهم ، منهم من ينكر ويكابر ويخسر ، ومنهم من يستجيب ويسعد ويفوز ، كما تشير إلىٰ ذلك هـٰذه الآيات القرآنية الكريمة :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا

(١) فقه السيرة (ص ٤٠١) .

عَٰبِدُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون : ٤٤ـ٦١] .

وقد أثبت توجيه الرَّسائل لملوك وحكَّام الدُّول المجاورة أنَّ رسالة الإسلام لا تخصُّ قريشاً ولا سكَّان الجزيرة العربيَّة ، وإنَّما هي موجَّهة للنَّاس أجمعين ، تخاطب كلَّ فردٍ فيهم بخطاب القرآن الكريم ، تذكِّرهم بأعظم حقائق الوجود ، كما في هـٰذه الآيات الكريمة : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۞ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥ـ١١٨] .

تصفية الحساب مع المشاركين في حملة الأحزاب

كانت الدَّعوة للإسلام أوَّل وأهمَّ ما شغل النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه في فترة الهدنة مع قريش ، وفي هـٰذا السِّياق جاءت الرَّسائل الموجَّهة لملوك الدُّول المجاورة وحكَّامها ، وذلك في نهاية العام الهجري السَّادس وبدايات العام السَّابع .

لكنَّ الهاجس الأمنيَّ لم يغب عن البال ، فخصوم الدَّولة الإسلاميَّة الوليدة ما زالوا يحيطون بها من جهات كثيرة ، وأخطرهم الذين شاركوا بصفةٍ مباشرةٍ

أو غير مباشرةٍ في حملة الأحزاب ، التي حاصرت المدينة وسعت لاستئصال المسلمين مرَّةً واحدةً ، ثم عصابات البدو الذين امتهنوا العيش على الإغارة والنَّهب والعدوان .

ومثلما يظهر في كلِّ فصول السِّيرة النَّبويَّة فإنَّ أبرز نقاط القوَّة في التَّاريخ الإسلاميِّ هي كونه تاريخاً لجهاد البشر وكفاحهم من أجل الإيمان والحرية وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة بين البشر . الدِّين رسالةُ الله للإنسان ، ونجاح المسلمين في الدِّفاع عنه وتمثُّل تعاليمه في حياتهم هو الشَّهادة الأكبر لكلِّ الأجيال بأنَّ الدين صالحٌ لعموم النَّاس ، متوافقٌ مع قابليَّاتهم وطبائعهم ، ولو أنَّ الله تعالىٰ كلَّف الملائكة بتبليغ رسالته للنَّاس ؛ لكان أمره نافذاً من دون شكٍّ ولا ريب ، لكنَّ خصوم الدِّين سيرفعون آنذاك حجَّتهم الجاهزة ، هـٰذا الدِّين لا تقدر عليه إلاَّ الملائكة .

بهـٰذه الرُّوح نستطيع أن نقترب من تفكير المسلمين في بدايات العام السابع للهجرة بقيادة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، إنَّ الهدنة مع قريش محدودةُ الأجل وإن طالت ، واحتمالات الغدر منهم واردةٌ في كلِّ وقتٍ ، فهل يقبل منهم عدم اغتنام الفرصة المتاحة لهم لتأمين دولتهم من الخصوم والأعداء المتربصين من كل مكان ، وليس فقط من مكة وزعماء قريش ؟ وفيما يخص علاقات المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب ، يجد الباحث في تاريخ السنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم وثق بالنجاشي ، ملك الحبشة المسيحي ، أيام الهجرة الأولىٰ للمسلمين وأثنىٰ علىٰ عدله . كما أنه عندما قدم إلى المدينة واستقر بها ؛ سن عهده وميثاقه ودستوره المشهور الذي نظم التحالف السياسي والأمني بين المسلمين واليهود واعتبرهم أمة واحدة .

ومثل هـٰذا السلوك المشهور في السيرة النبوية موافق لهدي الإسلام العام في التعامل مع أهل الكتاب من مسيحيين ويهود ، من جهة الدعوة لاحترامهم

ومعاملتهم بالبر والقسط ، وكفالة حريتهم في العبادة ، والسماح بالزواج منهم ، والدعوة لمجادلتهم بالتي هي أحسن .

وقد حصلت في تاريخ السيرة النبوية أيضاً مصادمات بين المسلمين واليهود ، ليس بسبب خلاف في تفسير هدي الإسلام العام في التعامل مع أهل الكتاب ، ولكن لأن عدداً من زعماء القبائل اليهوديَّة في تلك المرحلة قرؤوا موازين القوىٰ بصفةٍ خاطئةٍ ، واعتقدوا أنَّ قريشاً ستنتصرُ على المسلمين وتقضي عليهم ؛ لذلك وقفوا مع قريش ، كما كان شأنهم في حملة الأحزاب التي كانت تهدف لإسقاط دولة المدينة واستئصال المسلمين ، مما أدىٰ لانهيار تحالفهم مع الدَّولة الإسلاميَّة .

بعض زعماء هـٰذه القبائل تجمَّعوا مع أتباعهم في خيبر وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه متوجِّسين من الخطر الذي يمثِّله هـٰذا التَّجمُّع ، وأيضاً من خطر قبائل غطفان التي شاركت من قبل في حملة الأحزاب على المسلمين ، وجماعات من البدو الذين امتهنوا الخطف وقطع الطريق والعدوان .

من هـٰؤلاء المخرِّبين المحتمين بالصَّحراء عبدُ الرَّحمـٰن الفزاريُّ ومجموعة من قطَّاع الطُّرق الذين أغاروا في الشَّهر الأوَّل من العام الهجريِّ السَّابع علىٰ قطيع من مواشي المسلمين وقتلوا الرَّاعي الذي كان معه ، فخرج لهم الرَّسول في جيشٍ من المسلمين طاردهم وأدَّبهم واسترجع الممتلكات المسروقة منهم ، وسمِّيت تلك الغزوة غزوة الغابة ، أو غزوة ذي قرد .

بعد ذلك تحرَّك الجيش الإسلاميُّ تحت قيادة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم باتِّجاه خيبر ، علىٰ بعد حوالي مئة كيلومتر شماليَّ المدينة المنوَّرة ، وهي مدينة كبيرةٌ تتكوَّن من حصونٍ عسكريَّة محصَّنةٍ ، وسلك لها طريقاً يفصل بين أهل خيبر وأهل غطفان العدو اللَّدود الآخر للمسلمين ، ومع أنَّ التنسيق بين غطفان وأهل خيبر كان وثيقاً ، إلاَّ أنَّ خشية أهل غطفان من التَّعرُّض لحملةٍ عسكريَّةٍ

من جيوش المسلمين جعلهم يصرفون طاقاتهم للدِّفاع عن أنفسهم وليس لمناصرة حلفائهم .

استغرقت غزوة خيبر أكثر من شهر ، وانتهت بانتصارٍ كاملٍ للمسلمين ، واستشهاد ثمانية عشر مقاتلاً منهم .

وقد أدَّىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه دوراً محورياً في تحقيق هـٰذا النصر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم حينها بحقه حديثاً عظيم الشأن .

روىٰ مسلم في « صحيحه » في باب (عرض مناقب علي رضي الله عنه) عن سهل بن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لأعطين هـٰذه الراية رجلاً يفتح الله علىٰ يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » . فبات الناس يدوكون ليلتهم ؛ أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس ؛ غدوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : « أين علي بن أبي طالب » ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » . فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له ، فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . وفي يوم النَّصر في خيبر قدم جعفر بن أبي طالب على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عائداً من الحبشة في وفدٍ ممَّن بقي من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لاجئين بدينهم ، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد كتب إلىٰ حاكمها النَّجاشيِّ يطلب منه أن يسهِّل سفر المسلمين المهاجرين عنده إلى المدينة ، فجهَّز لهم سفينتين حملتهم ، وكانوا ستَّة عشر رجلاً وعدداً من النِّساء والأطفال .

ولعلَّ عدداً كبيراً ممَّن هاجروا قبل عدَّة سنوات من مكَّة إلى الحبشة فراراً من طغيان زعماء قريش وبطشهم واستهتارهم بحرِّيَّة العقيدة والعبادة ؛ لم يكونوا واثقين من العودة إلى الجزيرة العربيَّة ظافرين منتصرين ، لكن ذلك لم يجعلهم يتخلون عن إيمانهم .

وكذلك شأن المؤمنين في كل جيل ، سواء في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، أو في العصور السابقة أيام نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام من قبله ، أو في العصور اللاحقة ، إنما يقبلون عقيدة الإيمان عن قناعة ومحبة لله ورغبة مخلصة في رضوانه ، ولا يتأثر إيمانهم ولا يرتبط بما ينالهم في الدنيا من مكاسب أو خسائر ، ومن ظلم يصيبهم من طرف الطغاة والمستبدين ، أو نصر ينالونه علىٰ حساب الظالمين والمشركين .

فرح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كثيراً بمقدم جعفر ، واحتضنه وقبَّله بين عينيه وقال : « ما أدري بأيِّهما أسرُّ ؛ أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » وهـٰذا فرح مبرر ومفهومٌ ، فيه محبَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لابن عمِّه واهتمامه بمن هاجر إلى الحبشة ، وفيه إثبات لمقام جعفر ومكانته في تاريخ المسلمين ، وهو الذي عَرَض الإسلام في مجلس النَّجاشيِّ عرضاً مختصراً بليغاً مقنعاً ، قليلٌ نظيره في تاريخ الدعوة الإسلامية ، ممَّا أحبط مساعي قريش التي سعت لاستردادهم بالحيلة والكذب والبهتان .

أقول : إن عرض جعفر قليل نظيره في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وأسأل المختصين في هـٰذا الباب إن كانوا وجدوا في الكتب والمجلدات الكثيرة التي ألفها أهل العلم في التعريف بالإسلام وشرح تعاليمه مرافعة كمرافعة جعفر ، في جزالة عبارتها ، وإحاطتها بجوهر رسالة الإسلام ، وفي اختصارها وقلة عدد كلماتها . وهنا تذكير بنص تلك المرافعة الرائعة العظيمة :

قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يخاطب ملك الحبشة في ديوانه ، بحضور حشد كبير من الساسة ورجال الدين : (أيُّها الملك ؛ كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكلُ القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا علىٰ ذلك حتَّىٰ بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده

ونعبده ، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحدَه لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام ، فصدَّقناه وآمنا به ، واتَّبعناه علىٰ ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله تعالىٰ ، وأن نستحل من الخبائث ، فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلىٰ بلادك ، واخترناك علىٰ من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألاَّ نظلم عندك أيُّها الملك) .

ها هو جعفر اليوم إلىٰ جوار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يحتفل معه بانتصارٍ كبيرٍ للمسلمين ، وهو انتصار تردَّدت أصداؤه في المنطقة وعزَّز مهابة الدَّولة الإسلاميَّة في نفوس أعدائها ، فاختارت بعض القرىٰ والقبائل المجاورة في فَدَك وتيماء عقد صلحٍ مع المسلمين دون قتال وتم لهم ذلك ، وفي الفترة نفسها كان أبان بن سعيد يقود سريَّة عسكرية بتكليفٍ من النَّبيِّ لتخويف عصابات البدو وردِّ خطرهم على المدينة ، فأدَّىٰ ما كُلِّف به ، والتحق بجيش المسلمين في خيبر بعد فتحها ، وعاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة منتصراً في صفر من العام السَّابع للهجرة ، وقد تزوَّج في تلك الغزوة من أمِّ المؤمنين صفيَّة بنت حُييٍّ بن أخطب بعد أن أسلمت .

بعد العودة من خيبر بعث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ثمان سرايا عسكريَّة أمَّر عليها عدداً من الصَّحابة استهدف بعضها تجمعاتٍ لقبائل غطفان التي كانت الضِّلع الثَّالث في تحالف حملة الأحزاب ضدَّ المسلمين ، واستهدف بعضها الآخر عصابات البدو المتخصِّصين في النَّهب والسَّلب ، أو مناطق أخرىٰ

يخشىٰ منها الخطر على المسلمين ، وعزَّزت هـٰذه السَّرايا أمن الدَّولة الإسلاميَّة ، وأظهرت للطَّامعين فيها والمتربِّصين بها شرّاً أنَّ أسهمها في صعود ، وأنَّ التَّحرُّش بها يعود بالوبال علىٰ أصحابه .

حتَّىٰ إذا كان شهرُ ذي القعدة الشَّهر الحادي عشر بالتَّقويم الهجري ؛ جمع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين رافقوه في حملة الحديبية بالإضافة إلى المئات ممَّن لم يخرجوا معه في تلك الحملة وخرج بهم قاصداً مكَّة المكرَّمة مجدَّداً لأداء مناسك العمرة ، طبقاً لما تم الاتفاق عليه في صلح الحديبية مع قريش .

عيَّن النبيُّ صلى الله عليه وسلم حاكماً على المدينة في غيابه هو عويف بن الأضبط الديليُّ ، وخرج في أصحابه ومعهم من السِّلاح ما يحمون به أنفسهم إن غدرت قريش ونكصت عن عهودها ، ولكنَّ قريشاً التزمت ببنود المعاهدة ، وخرج أهلها إلىٰ جبل قعيقعان شمال مكَّة يراقبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يدخلون المسجد الحرام ويظنُّون أنَّهم سيصلون مقصدهم في عُسْرةٍ وجهدٍ وشدَّةٍ من السَّفر أو من حمَّىٰ يثرب ، لكنَّهم وجدوا المسلمين في أحسن حالٍ أقوياء متحمِّسين لما جاؤوا من أجله ، فرحين بدخول مكَّة المكرَّمة من جديد ولو كان ذلك لثلاثة أيَّامٍ فقط كما يقضي بذلك صلح الحديبية .

أدَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مناسك العمرة آمنين ، طاف هو وأصحابه بالكعبة المشرَّفة سبع مرات ، هرولوا في ثلاث منها ، فقال بعض القرشيين وهم يرون المسلمين يهرولون عند طوافهم بالكعبة : هـٰؤلاء الذين زعمتم أنَّ الحمَّىٰ قد وهنتهم ، هـٰؤلاء أجلد من كذا وكذا .

ولما انتهى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الطَّواف ؛ سعوا بين جبلي الصَّفا والمروة سبعة أشواط ، وفي نهاية الشَّوط السَّابع عند جبل المروة ذبحوا الهدي الذي جاؤوا به قربةً لله وصدقةً للفقراء والمحتاجين ، ووجَّه النَّبيُّ

صلى الله عليه وسلم أصحابه والمسلمين من بعده حتَّىٰ لا يكونوا في عسرٍ من دينهم ومناسكهم فقال : « هـٰذا المنحر وكلُّ فجاج مكَّة منحر » ، ثمَّ حلق النَّبيُّ وأصحابه رؤوسهم إيذاناً بإتمام المناسك ، وفي هـٰذه العمرة تزوَّج النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بأمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

وبعد ثلاثة أيَّام غادر موكب المؤمنين مكَّة المكرَّمة كما هو مقتضى اتِّفاقية الحديبية ، وسمِّيت تلك العمرة بعمرة القضاء ، بمعنىٰ أنَّها قضاء عن عمرة الحديبية التي لم تتمَّ ، كما سمِّيت بعمرة الصُّلح ، بمعنىٰ : أنَّها تمَّت بمقتضى اتِّفاق الصُّلح الموقَّع في الحديبية ، وبإتمام هـٰذه العمرة ثبت للنَّبيِّ وأصحابه صدقُ البشارة التي جاءت في (سورة الفتح) من القرآن الكريم : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٧ـ٢٨] .

وفي رأيي أنه يجوز الاستدلال بصدق هـٰذه البشارة أيضاً علىٰ صحة القرآن الكريم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم النبيين دون شك ولا ريب ؛ فإنه لو مات النبي صلى الله عليه وسلم قبل دخوله المسجد الحرام ، أو لو أن قريشاً نقضت المعاهدة وجيشت الأحزاب من جديد ضد المسلمين وانتصرت عليهم ؛ لشك الناس في صدق القرآن الكريم ولقالوا : ماذا عما جاء في الآيتين (٢٧) و(٢٨) من (سورة الفتح) ؟

لكن البشارة تحققت ؛ لأن القرآن الكريم وحي من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولأن الله تعالىٰ لا يخلف وعده ، ولأن أمر الإسلام كله أمر صدق وحق ، وقد فاز من آمن به وعمل بهديه .

* * *

الفَصلُ الثَّاني عَشَر
جِـراحُ مُؤتَـة

بعد العودة من عمرة القضاء أرسل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عدَّة سرايا تدعو إلى الإسلام وتؤمِّن دولته من كيد المتربِّصين بها ، حتَّىٰ إذا كان الشَّهر الخامس من العام الهجريِّ الثَّامن ؛ جاءت الأخبار إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّ رسوله إلىٰ حاكم بصرىٰ في الشام الحارث بن عمير الأسدي اعتقل وقيد بالحبال ثمَّ قُتِل علىٰ يدي شرحبيل بن عمرو الغسانيّ والي منطقة البلقاء في الشَّام بأمرٍ من قيصر ، زعيم الامبراطورية الرُّومانيَّة .

قَتْل الرُّسُل والمبعوثين علامةٌ علىٰ خسَّة فاعليها ونذالتهم واستهتارهم بالأعراف العالميَّة السَّائدة ، وهو يعني أيضاً بوجه من الوجوه إعلان حرب من الجهة المعتدية علىٰ دولة المبعوث المقتول ، هٰكذا فهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم خبرَ اغتيال مبعوثه إلىٰ حاكم بصرىٰ ، وقرر الرد عليه سريعاً ؛ لئلا يفهم قتلة مبعوثه في الشام أن المدينة صيد سهل لهم ويشنوا عدواناً عسكرياً سريعاً ضد الدولة الإسلامية .

تمثل الرد في قرار النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز حملة عسكرية تتجه إلى الشام ؛ للرد علىٰ رسالة هـٰؤلاء المعتدين المستهترين بالأعراف والأخلاق والحرمات في الشام ، ولردعهم عن الانخراط في هجوم ضد المدينة المنورة ، وللتَّأكيد لهم ولغيرهم بأنَّ الدَّولة الإسلاميَّة جديرةٌ بالاحترام والمهابة والتَّقدير .

تجمَّع لهـٰذه الحملة ثلاثةُ آلاف رجلٍ ، وهو عددٌ كبير بالقياس إلىٰ حملات المسلمين السَّابقة ، ولم يجتمع مثله إلاَّ عند التَّصدِّي لتحالف الأحزاب التي

هاجمت المدينة في العام الخامس للهجرة وسعت لاستئصال الإسلام وأهله مرَّةً واحدةً بالقوَّة العسكريَّة الغاشمة ، وأعطى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لواء القيادة لزيد بن حارثة الرجل الذي عاش في بيت النَّبيِّ منذ صغره وفضَّل البقاء معه على العودة إلىٰ أهل بيته ، وأمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بتولية ابن عمه جعفر بن أبي طالب على الحملة إن أُصِيب زيدٌ ، ثمَّ عبد الله بن رواحة إن أصيب زيد وجعفر .

وأوصى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يأتوا النَّاس الذين قتلوا مبعوثه الحارث بن عمير فيدعونهم للإسلام ، فإن أبوا وتطوَّر الأمر إلى الحرب والقتال ؛ فإن الرَّسول نهاهم عن أمورٍ عدَّة في توجيهات صريحة ، قال لهم : « لا تغدروا ، ولا تَغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعةٍ ، ولا تقطعوا نخلاً ، ولا شجرةً ، ولا تهدموا بناءً »[1] .

كان واضحاً أنَّ هـٰذه الحملة باتِّجاه الشَّام ليست مثل الحملات الأخرىٰ باتِّجاه القبائل المحيطة بالمدينة ، فالشَّام آنذاك محتلٌّ من قبل الإمبراطورية الرومانية بزعامة قيصر ، وهي واحدة من أعظم قوتين عالميَّتين في ذاك التَّاريخ ، ولكن المسلمين كانوا علىٰ درجة عالية من الجرأة والشجاعة ، بسبب إيمانهم القوي بربهم ، وثقتهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم ، وقد بكىٰ عبد الله بن رواحة ، وقد كان شاعراً مُرْهَف الحسِّ في لحظات الوداع ومغادرة المدينة ؛ بسبب تذكُّره للامتحان الكبير يوم القيامة والخوف من النَّار ، وليس بسبب حبِّ الدُّنيا وحبِّ أهله وأصحابه ، وهو جاء يودِّع النَّبي صلى الله عليه وسلم فأنشد في محبته : (من البسيط)

فَثَبَّــتَ ٱللهُ مَــا آتَــاكَ مِــنْ حَسَــنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَىٰ وَنَصْراً كَٱلَّذِي نُصِرُوا

(١) الرحيق المختوم (ص ٤٥٣) .

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ ٱلْخَيْرَ نَافِلَةً ... أَللهُ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ ٱلْبَصَرِ
أَنْتَ ٱلرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ ... وَٱلْوَجْهَ مِنْهُ ، فَقَدْ أَزْرَىٰ بِهِ ٱلْقَدَرُ

كان ذلك الجيل جيلاً فريداً بحق في تاريخ الإنسانية . جيل تقبل الإسلام عن اقتناع وحرية ، وأيّد خاتم الأنبياء بقوة وثقة ويقين ، آمن به وبمن سبقه من الأنبياء والرسل الكرام ، وقدم التضحيات الهائلة الكبيرة من أجل الإسلام ومن أجل حرية العقيدة والدعوة وكرامة الإنسان ، ومن أجل كل المبادىء الفاضلة التي سعىٰ في نشرها نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . وتدل سيرة ذلك الجيل علىٰ أن الإيمان الراسخ يقود إلى الشجاعة العالية ، وهما معاً وصفة لا نظير لها من أجل تغيير التاريخ والانتصار للقيم النبيلة والمبادىء التحررية .

هـٰذه الوصفة غيرت نظرة أصحابها للموت ، وبينت وأوضحت معنى الشهادة ، إنهم كانوا طلاب حياة وحرية وكرامة ، وقد أدركوا أن هـٰذه القيم تستحق أن يضحي الإنسان من أجلها بنفسه إن لزم الأمر ؛ لأن الحياة من غير إيمان وحرية وكرامة ، وتحت سيطرة الطغاة والظالمين ، حياة ذليلة ليس لها قيمة عند الأحرار في كل زمان ومكان .

هكذا ينبغي أن يفهم الباحث في تاريخ السيرة النبوية ، وفي تاريخ جميع الأنبياء ، شجاعة المؤمنين واستعدادهم للشهادة ؛ أي : للتضحية بحياتهم من أجل الإيمان والحرية والكرامة . لقد أصبحت الشهادة بهـٰذا المعنىٰ عندهم مغنماً وفوزاً عظيماً ، لا كرباً أو كارثة يتهرب منها الإنسان ، علماً بأن المؤمن موقن كل اليقين أن الأعمار بيد الله وأن الإنسان لن يعيش دقيقة أقل أو أكثر مما كتبه الله له ، وهو يعلم أيضاً أنه سيلقىٰ ربه بعد الموت ، ويعرف كرامة الشهداء عند الله ، والله سبحانه وتعالىٰ لا يخلف وعده .

تلك كانت دوافع المشاركين في حملة مؤتة ، وقد ساروا شمالاً حتَّىٰ

وصلوا منطقة معان وعسكروا فيها ، أما الرُّوم : فقد وصلت إليهم الأنباء بتحرُّك المسلمين ، وكان هرقل في المنطقة وتحت تصرُّفه مئة ألف مقاتلٍ في جيش الرُّوم ، وبعد حملة تعبئةٍ عامَّةٍ ، وصلت إليه تعزيزات بمئة ألف مقاتل آخرين من مناطق لخم وجذام والقين وبهراء .

مئتا ألف جنديٍّ في مواجهة ثلاثة آلاف ، وصل الخبر إلى المسلمين في معان ، فأقاموا ليلتين يفكِّرون في خياراتهم ، ورأىٰ بعضهم أنَّ من الأفضل أن يكتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبروه بالفرق الهائل في عدد الجيشين ، فإمَّا أن يمدَّهم بالمدد من الرِّجال ، وإمَّا أن يأمرهم بخيارٍ آخر فيمضون في تنفيذه .

لكنَّ عبد الله بن رواحة لم يتحمَّس لهـٰذا الرَّأي ، وقال للنَّاس : يا قوم ؛ والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشَّهادةُ ، وما نقاتل النَّاس بعددٍ ولا قوَّة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلاَّ بهـٰذا الدِّين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحسنيين ، إمَّا ظهور وإمَّا شهادة ، واستمر النِّقاش حتَّىٰ مالت أكثريَّة المسلمين لرأي عبد الله بن رواحة .

هـٰؤلاء جيلٌ عاش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوه بأنفسهم يخوض معهم أشرس المعارك ، ويشاركهم أصعب الأوقات ، متواضعٌ لهم ، محبٌّ لهم ، رحيمٌ بهم ، يمشي بينهم بأجمل الأخلاق وأفضلها ، وهـٰؤلاء جيلٌ لم تكن عنده ذرَّة شكٍّ بأنَّه يرفع راية الحقِّ والإيمان التي رفعها إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وعامة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنصارهم في مراحل كثيرة في تاريخ الإنسانيَّة ، ومع أنَّ الخوف طبعٌ في الإنسان ، والحرص على الأمن وعلى الدُّنيا طبعٌ في الإنسان ؛ فإنَّ الإيمان الصَّادق القويَّ يجعل محبَّة الله فوق محبَّة الدُّنيا وما فيها .

تقدَّم جيش المسلمين من جديدٍ نحو منطقة البلقاء حتَّىٰ بدا لهم جيش هرقل

وفيه مئتا ألف أو أكثر من الرُّوم والعرب ، فانحاز المسلمون إلىٰ قرية تسمَّىٰ مؤتة ، وبها سمِّيت هـٰذه المعركة كلُّها .

هناك تجهز المسلمون للحرب فاختاروا لميمنتهم قطبة بن قتادة من بني عذرة ، ولميسرتهم عبادة بن مالك من الأنصار ، ثمَّ التقى الجيشان والتحم النَّاس ، واشتدَّ بينهم القتال ، وسرعان ما فاز قائد الحملة زيد بن حارثة بالشَّهادة بعد أن نالته رماح الأعداء من كلِّ مكانٍ .

حمل الرَّاية بعدئذٍ جعفرُ بن أبي طالب ، وكان فتىً يبلغ من العمر ثلاثةً وثلاثين عاماً ، فقاتل مع جنده ببسالةٍ نادرةٍ ، أصابه الأعداء في يده اليمنىٰ ، فحمل الرَّاية بيسراه ، ثمَّ أصابوه في يسراه ، فاحتضنها بعضديه ، ثمَّ أصابته ضربةٌ قاضيةٌ فقطعته نصفين ، وكان القائد الشُّجاع يهتف ببيت جميل من الشِّعر قبل انتقاله إلى الدَّار الآخرة : (من الرجز)

يَا حَبَّذَا ٱلْجَنَّةُ وَٱقْتِرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا

وكان ممَّن حضر هـٰذه المعركة عبدُ الله بن عمر نجل الخليفة الرَّاشد الثَّاني عمر بن الخطَّاب ، فقال : (كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلىٰ ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ورمية)[1] .

استشهد جعفر ، وحان الآن دور القائد الثَّالث ، الشاعر ذي النَّفس الحسَّاسة المحبَّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والخائفة من عذاب النَّار يوم القيامة ، حان دور عبد الله بن رواحة ؛ فهو الثَّالث في التَّرتيب بأمر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يوم انطلقت الحملة ، لكنَّ هول المعركة وعدم تكافؤ ميزان القُوىٰ بشكلٍ صارخٍ لحساب الأعداء جعل نفسه تتردَّد بعض الشيء ، كانت لحظةً تشهدُ بإنسانيَّة أولـٰئك الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٢٦١) .

وسلم حتَّىٰ علت راياتُ التَّوحيد والخير والعدل والحرِّيَّة في الجزيرة العربيَّة ثمَّ في أكثر أرجاء العالم ، إنَّهم لم يكونوا ملائكةً وإنَّما كانوا بشراً مثل سائر البشر ، لكنَّ قوة الإيمان سمت بهم إلىٰ مقامات عالية في تاريخ الإنسانيَّة .

هتف عبد الله بن رواحة الشَّاعر يخاطب نفسه المتردِّدة في حمَّىٰ وطيس تلك المعركة الخطيرة : (من الرجز)

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ ٱلنَّاسُ وَشَدُّوا ٱلرَّنَّهْ مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ ٱلْجَنَّهْ

قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ هَلْ أَنْتِ إِلاَّ نُطْفَةٌ فِي شِنَّةْ[1]

ثمَّ قال عبد الله بن رواحة أيضاً يحثُّ نفسه على التَّشبُّه بالقائدين الشَّهيدين من قبله : (من الرجز)

يَا نَفْسُ إِلاَّ تُقْتَلِي تَمُوتِي هَـٰذَا حِمَامُ ٱلْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

واقترب من عبد الله ابن عمٍّ له بعظمٍ عليه بعض اللَّحم ودعاه أن يأكله ويشدَّ به صلبه ، فما إن نال منه قطعة يسيرة حتَّىٰ سمع جَلَبَةً كبيرةً في ناحية من ساحة المعركة ، ورأى القتال علىٰ أشدِّه بين المسلمين وأعدائهم ، فرمى العظم وخاطب نفسه : وأنت في الدُّنيا ، ثمَّ تقدَّم ثابت الجأش يقاتل دفاعاً عن عقيدة الحقِّ حتَّىٰ فاز بالشَّهادة .

تطوَّع لرفع اللِّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة ثابتُ بن أقرم من بني العجلان ، ونادىٰ في المسلمين أن يتَّفقوا علىٰ قائدٍ جديدٍ ينوب عن القادة الثَّلاثة الذين استشهدوا ، فقالوا له : أنت ، لكنَّه لم يقبل ترشيحهم ، فاصطلحوا علىٰ قائدٍ آخر حديثِ عهد بالإسلام ، ولكنَّ اسمه مشهورٌ في

---

(١) **الرنة** : صوت يشبه البكاء ، **والنطفة** : هي الماء القليل الصافي ، **والشنة** : هو السقاء البالي ، والقصد تصوير قصر العمر .

ساحات المعارك من قبل ، وسيغدو لاحقاً واحداً من أشهر القادة الحربيِّين في تاريخ الإسلام والإنسانيَّة .

قصة إسلام خالد وعمرو بن العاص

قال عمرو بن العاص يروي قصَّة إسلامه وإسلام هـٰذا القائد الكبير : (لمَّا انصرفنا عن الخندق ؛ قلت لأصحابي : إنَّني أرىٰ أمر محمَّدٍ يعلو علوَّاً منكراً ، وإنِّي قد رأيت أنْ أَلْحق بالنَّجاشيِّ ؛ فإن ظهر علىٰ قومنا ؛ كنت عند النَّجاشيِّ ، وإن ظهر قومنا علىٰ محمَّد ؛ فنحن من قد عرفوا ، فقالوا له : إنَّ هـٰذا [هو] الرَّأي ، قال : فجمعنا له ؛ أي : للنَّجاشيِّ أُدْماً كثيراً هديَّةً ، وخرجنا إلى النَّجاشيِّ ، فإنَّا لعنده ؛ إذ وصل عمرو بن أميَّة الضمريُّ رسولاً من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في أمر جعفر وأصحابه ، فدخلت على النَّجاشيِّ وطلبت منه أن يسلم إليَّ عمرو بن أميَّة لأقتله تقرُّباً إلىٰ قريش بمكَّة ، فلما سمع النَّجاشيُّ كلامي ؛ غضب وضرب أنفه ضربةً ظننت أنَّه قد كسره ، فخفته ، ثمَّ قلت : والله ؛ لو ظننت أنك تكره هـٰذا ما سألتكه ، قال : أتسألني أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه النَّاموس الأكبر الذي كان يأتي لموسىٰ لتقتله ؟ قلت : أيُّها الملك ؛ أكذلك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ؛ أطعه واتبعه فإنَّه والله لعلى الحقِّ ، وليظهرنَّ علىٰ من خالفه كما ظهر موسىٰ علىٰ فرعون وجنده ، فقلت : فبايعني له على الإسلام ، فبسط يده فبايعته ، ثمَّ خرجت إلىٰ أصحابي وكتمتهم إسلامي ، وخرجت عائداً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقيني خالدُ بن الوليد وذلك قبل الفتح ، وهو مقبل من مكَّة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله ؛ لقد استقام المنسم ـ أي : لقد تبيَّن الطَّريق ووضح ـ إنَّ الرَّجل لنبيّ ، أذهب والله أسلم ؛ فحتَّىٰ متى ؟! فقلت : ما جئت إلاَّ للإسلام ، فقدمنا على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فتقدَّم خالد بن الوليد

فأسلم ، ثمَّ دنوت فأسلمت ، وتقدَّم عثمان بن أبي طلحة العبدريُّ فأسلم)[1] .

لكلٍّ من هٰؤلاء الرِّجالِ الثَّلاثة مكانةٌ مميَّزةٌ في تاريخ الإسلام ، لكنَّ اسم خالد بن الوليد سيظلُّ محفوراً بقوَّة ووضوحٍ نادرين في تاريخ العسكريَّة الإسلاميَّة ، وفي تاريخ القادة العسكريِّين من كلِّ الأممِ ، هٰذا هو نفسه القائد الذي التفَّ على المسلمين يوم أحد وحوَّل نصرهم الباهر إلىٰ هزيمةٍ موجعةٍ ، وهو الذي كان يتحرَّش بهم في غزوة الحديبية ، وعندما جاء إلى المدينة مسلماً ؛ تحدَّث عن هٰذا الماضي أمام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأرشده إلىٰ أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

خالد يقود المسلمين في مؤتة

وفي تلك الأجواء الحالكة المخيِّمة علىٰ مؤتة حيث كان ثلاثةُ آلاف مسلم يتصدون لجيشٍ عرمرم من مئتي ألف مقاتل مدجَّجين بكلِّ أنواع الأسلحة وقد استشهد قادتهم الثَّلاثة الذين أوصىٰ بهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ تولى الرَّاية خالد بن الوليد ، فما هو فاعل يا ترى ؟

أدرك خالدٌ بسرعةٍ أنَّ موازين القوىٰ مختلَّة إلىٰ حدٍّ كبيرٍ جدّاً وأنَّ القوَّة الإيمانيَّة الهائلة للمسلمين ستعينهم على الصُّمود لا على الانتصار ، ورأىٰ أنَّ تقليل الخسائر وتوفير الطَّاقات الإسلاميَّة ليوم آخر تكون فيه الظُّروف أفضل هو الخيار الأحكم والأصوب ، فاستمر يناوش العدو حتَّىٰ أقبل اللَّيل ، وانقطعت في يده تسعة سيوف وهو في قلب المعركة حتَّىٰ لم تبق بيده إلاَّ صحيفةٌ يمانيَّةٌ ، ومن بعد ذلك اعتمد عدَّة مناوراتٍ عسكريَّة خادعة لإعطاء الانطباع بأنَّه تلقَّىٰ تعزيزاتٍ إضافيَّة ، ممَّا أدخل الرُّعب والمهابة في نفوس أعدائه ، ثمَّ غيَّر مواقعه

(١) هٰذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يا محب (ص ٣٧٩ـ٣٨٠) .

ليبتعد تدريجيّاً عن الالتحام بهم ، ولمّا اطمأن إلىٰ أنَّ العدوَّ لا يطارد قوَّاته ؛ انسحب من المعركة ، وعاد ببقيَّة جيشه إلى المدينة المنوَّرة .

قبل أن يصل الجيش إلى المدينة أخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه بما جرىٰ ، وقال لهم : « أخذ الرَّاية زيد وأصيب ، ثمَّ أخذ جعفر فأصيب ، ثمَّ أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ، ثمَّ أخذ الرَّاية سيفٌ من سيوف الله حتَّىٰ فتح الله عليهم »[1] .

اعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطة العسكرية التي اعتمدها خالد بن الوليد فتحاً من الله على المسلمين . وقال عن خالد : « إنه سيف من سيوف الله » . وقد سمعت مرة في مجلس من مجالس الأدب والثقافة في الرياض ، عام (١٤٣١) هجرية ، (٢٠١٠) ميلادية ، من أحد الباحثين والمؤرخين أن في هـٰذا الوصف ذاته آية أخرىٰ من آيات صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد خاض خالد بن الوليد رضي الله عنه عدداً كبيراً من المعارك العسكرية ، وأصيب في كثير منها بالسهام والسيوف والرماح ، لكنه انتصر في جميعها تقريباً ، ولم يقتل ، ومات في فراشه ؛ لأنه سيف من سيوف الله . والنتيجة : أنه لم يغمد هـٰذا السيف أحد من البشر ، وإنما أغمده الله سبحانه وتعالىٰ بوفاة خالد بن الوليد .

عندما عاد خالد ومن معه إلى المدينة ، منسحبين من مؤتة ؛ حز ذلك في نفوس بعض المسلمين ، فجعلوا يحثون التراب على الجيش العائد ويقولون : يا فرار ، فررتم في سبيل الله ؟ عندئذ دافع النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه عن خالد وجنده ، وقال : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالىٰ » .

الفِرَار من ساحات الدِّفاع عن الإيمان والحقِّ والحرِّيَّة عملٌ شنيعٌ لا يقبل به أيُّ جيشٍ في العالم قديماً أو حديثاً ، والقرآن الكريم يتوعَّد من يرتكب مثل

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٧٥٧) .

هـٰذا العمل : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ١٦] .

لذلك قال النَّبيُّ مجيباً علىٰ من سأله من جيش خالد : نحن الفرارون يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم الكرَّارون » ، وقال لهم : « أنا فئتكم » أي : أنَّ خالداً ومن معه تحيَّزوا لفئة إمامهم ، ولم يهربوا جبناً أو خوفاً ، وذُكِر أنَّ عمر بن الخطَّاب في عهد خلافته علَّق على استشهاد أبي عبيد بن مسعود وعددٍ من أصحابه في بعض معارك القادسيَّة ، عندما صمدوا في معركة غير متكافئة وكان بوسعهم الانسحاب ، وقال : هلاَّ تحيَّزوا إلينا ؛ فإنَّا فئةٌ لكلِّ مسلمٍ[١] .

كانت مؤتة إذن فصلاً محزناً من فصول المعارك التي جرت في عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وفيها استشهد ثلاثةٌ من أعلام الصَّحابة الذين أخلصوا للإسلام وصمَّموا علىٰ أن يعيشوا حياتهم في ضوء حقيقة الإيمان الكبرىٰ ، وأن يقضوا أيَّامهم في الدَّعوة إلىٰ توحيد الله ومحبَّته وطاعته ، استشهد جعفر ، لكنَّ صوته في ديوان النَّجاشيِّ ما زال يرنُّ في سمع كلِّ مسلمٍ علىٰ وجه الأرض ، فقد كان ناطقاً بليغاً موفَّقاً باسم المسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وكان يوم اشتدت الحربُ فارساً شجاعاً نبيلاً يتقدَّم الصُّفوف ويعلم أنَّ الدُّنيا ليست نهاية المطاف في مسير الإنسان .

واستشهد زيد بن حارثة وهو الذي علَّم كلَّ من لم يعش مع رسول الله من المسلمين وغير المسلمين أن خُلُق محمَّد بن عبد الله في مقام رفيعٍ يدفع المرء إلىٰ أن يفضِّله علىٰ أبيه وأقرب النَّاس إليه .

واستشهد عبد الله بن رواحة ذو النَّفس الشَّاعرة الأبيَّة الحسَّاسة ، مصارعاً نوازع الضَّعف التي تعتري كلَّ بشرٍ ويقود نفسه إلى المعالي ، وبقيت ذكراه الحبيبة الغالية في نفوس مئات الملايين من البشر علىٰ مدى التَّاريخ يحبُّونه

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٢ـ ٣٨٣) .

ويبجِّلونه ويقتدون به وبأصحابه الكرام الشُّهداء .

كانت مؤتة امتحاناً عسيراً وعابراً في الوقت نفسه ، حسم النَّبيُّ أمرها عندما مدح سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، ووصف جيشه بالكرَّارين ، إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان ينظر بنور الله ويعرف أنَّ جيش الإيمان والحقِّ سينتصر في مواقعَ أخرىٰ كثيرة ، وإن أصابته نكسةٌ محزنةٌ في مؤتة ، وقد أثبتت الوقائع صحة ما قاله .

* * *

الفَصلُ الثَّالِث عَشَر

تحرير مكّة ، الانتصار الحاسم

بين بني بكر وخزاعة ثاراتٌ قديمةٌ يرجع تاريخها إلىٰ ما قبل ظهور الإسلام ، عدت خزاعة يوماً من أيَّام الجاهليَّة علىٰ تاجرٍ من بني الحضرميِّ يدعىٰ مالك بن عبَّاد فقتلته وأخذت ماله ، فردَّ بنو بكر بقتل رجل من خزاعة ، ثمَّ انتقمت خزاعة بقتل عدد من أشراف بني بكر عند أنصاب الحرم ، هم : سلمي وكلثوم وذؤيب بنو الأسود بن رزن الدّيليّ .

ثمَّ نزل الوحي من السَّماء علىٰ محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاءه التكليف بنشر رسالة الإسلام فانشغل النَّاس بالدعوة الجديدة ، منهم من أيَّدها ومنهم من حاربها ، وهدأت نزاعات بني بكر وخزاعة إلىٰ حين ، وعندما تمَّ توقيع صلح الحديبية بين الرَّسول صلى الله عليه وسلم وقريش ؛ جرى الاتفاق علىٰ أنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقد المسلمين ؛ دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش ؛ دخل فيه ، فدخلت خزاعة في عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتحالفت بنو بكر مع قريش ودخلت في عقدها .

دخلت الهدنة حيِّز التَّنفيذ وصمدت أكثر من عامٍ ، لكنَّ عدداً من أهل المكر من بني الدِّيل من بني بكر أرادوا أن يغتنموها فرصةً ويثأروا للثَّلاثة الذين قتلتهم خزاعة قبل ظهور الإسلام من بني الأسود بن رزن الدِّيليِّ ، وتآمر هٰؤلاء بعضهم مع بعض ، وخرجوا في جماعة يقودها نوفل بن معاوية الدِّيليُّ فداهموا قوماً من خزاعة وهم عند نقطة ماء لهم تسمَّى الوتير وقتلوا منهم رجلاً ، واشتعلت الحرب بينهم .

تفاقمت الأمور وزادت سوءاً ؛ لأنَّ قريشاً لم تبق على الحياد ، ولم تحترم بنود صلح الحديبية ، وإنَّما نصرت بني بكر بالسِّلاح وشارك عددٌ من رجالها في القتال باللَّيل خفية ، أمَّا خزاعة : فقد انهزمت وتراجع مقاتلوها ، حتَّىٰ حاصرهم المهاجمون وألجؤوهم إلى الحرم ، تردَّد بعض المهاجمين من بني بكر لمَّا رأوا أهل خزاعة يحتمون بالحرم ، وقالوا لزعيمهم : يا نوفل ؛ إنَّا قد دخلنا الحرم ، إلـٰهك إلـٰهك ، لكن الرَّجل لم يكن مستعداً للتَّوقف عن عدوانه لأيِّ مبرِّرٍ ، فردَّ علىٰ أنصاره كلمةً عظيمةً : لا إلـٰه له اليوم ، يا بني بكر ؛ أصيبوا ثأركم[1] .

وهكذا نال بنو بكر من خزاعة بدعمٍ مادِّيٍّ وبشريٍّ من قريشٍ في نقضٍ صريحٍ لبنود صلح الحديبية ، ورأت خزاعة أنَّ انضمامها إلىٰ عقد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يعطيها الحقَّ في طلب النُّصرة والحماية منه ، وبالفعل سرعان ما وصل عمرو بن سالم الخزاعيُّ إلى المدينة يستنجد ويستغيث ، وقد دخل على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين أصحابه ، فعرض عليه ما لحق بخزاعة من الظُّلم في أبياتٍ شعريَّةٍ ، والشِّعرُ ديوان العرب وعنوان بلاغتهم وفصاحتهم ، وهو مؤثِّر عندهم وعند أكثر أمم الأرض ، قال عمرو يسمع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ومن كان معه من المسلمين في المسجد : (من الرجز)

يَـا رَبِّ إِنِّـي نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدَا … حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ ٱلأَتْلَـدَا
قَـدْ كُنْتُـمُ وُلْـداً وَكُنَّـا وَالِـدَا … ثُمَّـتَ أَسْلَمْنَـا فَلَـمْ نَنْـزِعْ يَـدَا
فَـٱنْصُـرْ هَـدَاكَ ٱللهُ نَصْـراً أَعْتَـدَا … وَٱدْعُ عِبَـادَ ٱللهِ يَـأْتُـوا مَـدَدا
فِيهِـمْ رَسُـولُ ٱللهِ قَـدْ تَجَـرَّدَا … إِنْ سِيـمَ خَسْفـاً وَجْهُـهُ تَـرَبَّـدَا
فِي فَيْلَقٍ كَٱلْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا … إِنَّ قُـرَيْشـاً أَخْلَفُـوكَ ٱلْمَـوْعِـدَا

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٠) .

وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ ٱلْمُؤَكَّدَا   وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رَصَدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا   وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِٱلْوَتِيرِ هُجَّدَا   وَقَتَلُونَا رُكَّعاً وَسُجَّدا

وجاء الرَّدُّ سريعاً وحاسماً من الأمين راعي العهود وخاتم المرسلين : « نُصِرت يا عمرو بن سالم » ، وأرسلت خزاعة وفداً رسميّاً بعد أيَّام قليلةٍ بقيادة بديل بن ورقاء ، فتحدَّثوا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بما تعرَّضوا له من عدوان بني بكر ومن مشاركة قريشٍ في العدوان ، ثمَّ انصرفوا عائدين إلىٰ ديارهم .

كانت قريش تتوقع استغاثة خزاعة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكانت تدرك أنَّها فعلت ما لم يكن ينبغي لها أن تفعله بمقتضىٰ صلح الحديبية ، فتشاور زعماؤها علىٰ عجل ، وقرَّروا إيفاد أبي سفيان بن حرب أشهرهم وأكثرهم نفوذاً ومقاماً إلى المدينة المنوَّرة للتَّفاوض مع المسلمين وتجديد العمل بالصُّلح ، وكان هـٰذا هو تماماً ما توقَّعه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وما قاله لأصحابه عندما استقبل بديل بن ورقاء ومن معه من وفد خزاعة : « كأنِّي بأبي سفيان قد جاءكم ليشدَّ العقد ويزيد في المدَّة »[1] .

توجَّه أبو سفيان إلى المدينة موفداً من قريش التي أدركت سوء ما صنعته بنقض العهد ، وفي الطَّريق في عسفان التقىٰ ببديل بن ورقاء وصحبه وهم عائدون إلىٰ مكَّة ، فسألهم من أين أقبلوا ، وقد شكَّ في أنَّهم كانوا عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يطلبون دعمه ، فنفىٰ بديل ذلك وأخفىٰ ما فعل ، ولمَّا افترق الوفدان ؛ نظر أبو سفيان في فضلات راحلة بديل فوجد فيها النَّوىٰ ، وعندئذٍ أيقن أنَّ الرَّجل سبقه إلى المدينة المنورة .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٥) .

أبو سفيان في المدينة المنورة

اتجه أبو سفيان إلىٰ عاصمة الدَّولة الإسلاميَّة الأولىٰ في التَّاريخ ، الدَّولة التي كان واحداً من أشرس أعدائها ، لكنَّه لم يكن يخشى الأذىٰ ، فهو رسول من قريش إلىٰ رسول الله ، وزعيمٌ من زعماء الجزيرة العربية يخاطب قوماً يلتزمون بأصول التَّعامل ومكارم الأخلاق ، وفي المدينة اتَّجه أوَّلاً إلىٰ بيت ابنته أمِّ حبيبة رضي الله عنها أمِّ المؤمنين بصفتها إحدىٰ زوجات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأوشك أن يجلس علىٰ فراش النَّبيِّ لولا أنَّ بنته سحبته عنه ، قال أبو سفيان مستغرباً : (يا بنيَّة ؛ أرغبت بي عن هـٰذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجلٌ مشركٌ نجسٌ ، ولم أحبَّ أن تجلس علىٰ فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ؛ لقد أصابك يا بنية بعدي شرٌّ .

خرج أبو سفيان ولقي النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فكلَّمه ، لكنَّه لم يردَّ عليه بشيءٍ ، فانطلق منه إلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يطلبه أن يتدخَّل له عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فاعتذر أبو بكر ، سأل أبو سفيان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ما سأله من أبي بكر فردَّ عليه : أنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فوالله ؛ لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به)[1] .

فكَّر أبو سفيان في شخصيَّةٍ بارزة أخرىٰ يمكن أن تتوسط له ، فاتَّجه إلىٰ عليِّ بن أبي طالبٍ فوجده مع زوجته فاطمة رضي الله عنهما بنت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعهما ابنهما الحسن وهو طفل صغير ، قال أبو سفيان : يا عليّ ؛ إنَّك أمسُّ القوم بي رَحِماً ، وإنِّي قد جئتك في حاجةٍ ، فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلىٰ رسول الله ، فأجاب عليٌّ : ويحك يا أبا سفيان ، والله ؛ لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٦) .

فيه ، ورأىٰ أبو سفيان أن يغتنم فرصة وجود بنت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيخاطبها في الموضوع نفسه ، قال : يا بنت محمَّد ؛ هل لك أن تأمري بنيك هـٰذا فيجير بين النَّاس فيكون سيَّد العرب إلىٰ آخر الدَّهر ؟ قالت أمُّ الحسن : والله ؛ ما بلغ بنيَّ ذلك أن يجير بين النَّاس ، وما يجير أحدٌ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنَّ أبواب الوسطاء تغلق أمام أبي سفيان واحداً بعد الآخر ، لقد ولت أيام نصره في أحد ، وأيام كان قائداً لحملة الأحزاب يهدد المسلمين بالاستئصال ، دارت الأيام وانهار معسكر الكفر والظلم والطُّغيان وتضعضعت أركانه ، وها هو اليوم يبحث عن قشَّة أمل في المدينة المنورة ، وقد أيقن أن عاقبة الغدر ونقض العهود خسارةٌ محقَّقة له ولحزبه .

قال أبو سفيان : يا أبا الحسن ؛ إنِّي أرى الأمور قد اشتدَّت عليَّ فانصحني ، أجاب عليٌّ : والله ؛ ما أعلم لك شيئاً ، ولكنَّك سيِّد بني كنانة ، فقم فأجر بين النَّاس ثمَّ الحق بأرضك ، قال : أو ترىٰ ذلك مغنياً عنِّي شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنُّه ، ولكنِّي لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيُّها النَّاس؛ إنِّي أجرت بين الناس، ثمَّ ركب بعيره وانصرف عائداً إلىٰ مكَّة، هناك كان قادة قريش ينتظرونه علىٰ أحرَّ من الجمر ، ويسألونه ماذا فعل ؟ قال أبو سفيان : جئت محمَّداً فكلَّمته فوالله ؛ ما ردَّ عليَّ شيئاً ، ثمَّ جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثمَّ جئت ابن الخطَّاب فوجدته أعدى العدوِّ ، ثمَّ جئت عليّاً فوجدته ألينَ القوم ، وقد أشار عليَّ بشيءٍ صنعته ، فوالله ؛ ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين النَّاس ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمَّدٌ ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك ، والله ؛ إن زاد الرَّجل علىٰ أن لعب بك ، فما يغني عنك ما قلت ، قال : لا والله ؛ ما وجدت غير ذلك[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٧) .

المشركون في قريش وجلون خائفون من عاقبة غدرهم ونقضهم للعهد ، والمسلمون في المدينة يحيون ركناً من أركان الإسلام الخمسة ، فقد دخل عليهم شهر رمضان ، شهر رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن ، وصيامه فرضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ إلاَّ أن يكون مريضاً أو علىٰ سفر ، فإنَّ له أن يفطر ثمَّ يصوم الأيَّام التي أفطرها في وقتٍ لاحقٍ .

رمضان شهرٌ عزيزٌ على المسلمين ، فيه يدعون طعامهم وشرابهم اليوم كلَّه محبَّةً لله وطاعة له ، وفيه أُنزِل الوحي علىٰ نبيِّ الإسلام ، فيه ليلة القدر ، ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر ، وفيه انتصار بدر الذي قلب الموازنات بين معسكر الحرِّيَّة والإيمان ومعسكر الكفر والطُّغيان ، ولكن الانتصار الذي ناله المسلمون في هـٰذا الشَّهر المبارك من العام الثَّامن للهجرة ، سيكون حدثاً عظيماً ونصراً حاسماً وعلامةً فارقة في تاريخ الإسلام والإنسانيَّة .

لقد صمَّم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ نصرة خزاعة كما يقتضي ذلك دخولها في حلفه ، وتحرير مكَّة المكرَّمة من وصاية المشركين والمستبدِّين ، وإعادتها إلىٰ دورها الذي قامت به في العهود الأولىٰ من تاريخ بني البشر ، منارة للتوحيد والهدىٰ والنور بعد أن جدَّد إبراهيم وإسماعيل عليهما السَّلام بناء الكعبة في رحابها وطهرا البيت العتيق للطَّائفين والعابدين والرُّكع السُّجود .

أبلغ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه بالخبر فتلقَّوه بهمَّة وجدٍّ وشرعوا في الاستعداد لمعركة فتح مكة ، واتَّخذ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كلَّ ما يمكن من الاحتياطات الأمنيَّة لضمان عدم تسرُّب أخبار خطَّته إلى الأعداء ، ودعا الله قائلاً : « اللهم ؛ خذ العيون والأخبار عن قريش حتَّىٰ نبغتها في بلادها »[١] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٧) .

قصَّة حاطب بن أبي بلتعة

لكنَّ حساباتٍ خاطئةً من واحدٍ من المسلمين كادت تُفْسِد هـٰذا الجانب من خطَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقد أراد حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه أن يكون له فضل ومعروفٌ عند زعماء مكَّة يسهم في حماية بعض أفراد عائلته المقيمين هناك إن دعت الحاجة لمثل هـٰذه الحماية ، فتطوَّع بكتابة رسالة إليهم تخبرهم بعزم النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على التَّوجُّه نحوهم ، وأعطى الرِّسالة لامرأةٍ فقيرةٍ ، وأعطاها أجراً علىٰ إيصالها إلىٰ قادة قريش .

قطعت المرأة مسافةً معتبرةً من الطَّريق والرِّسالة مخبَّأةٌ في ما تغطِّي به رأسها من ثيابٍ ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم تلقَّىٰ من الوحي ما يعلمه بأمرها ، فوجَّه إليها علىٰ عجلٍ عليّاً بن أبي طالب والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنهما وأمرهما باللَّحاق بها واسترجاع الرِّسالة ، ولحق الفارسان الشَّهيران بالمرأة ، فأنكرت أوَّل الأمر ، ثمَّ اعترفت وأعطتهما الجواب .

انكشف أمرُ حاطب بن أبي بلتعة كأسوأ ما يكون الانكشاف ، وعندما ناداه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وسأله عمَّا دفعه إلىٰ كشف سرِّ المسلمين لعدوِّهم ، قال : يا رسول الله ؛ أما والله إنِّي لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت ولا بدَّلت ، ولكنِّي كنت امرأً ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرةٍ ، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ ، فصانعتهم عليهم .

سمع عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ما قال حاطب فلم يقتنع بمبرِّراته ، وكان جالساً قرب النَّبيِّ ، فقال : يا رسول الله ؛ دعني فلأضرب عنقه ، فإنَّ الرجل قد نافق ، لكنَّ النَّبيَّ رأىٰ رأياً آخر ، ووقع في قلبه صدق ما عرضه حاطب من مبرِّرات ، وإن كانت لا تبرِّر هـٰذا العمل الخيانيَّ بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، واستحضر سوابق الرَّجل في خدمة الإسلام ، فقال : « وما يدريك

يا عمر ؛ لعلَّ الله قد اطلع إلىٰ أصحاب بدر فقال : اعملوا ما شئتم إنِّي قد غفرت لكم »[1] .

الكمال لله وحدَه ، ورسالة حاطب لم تصل إلىٰ طغاة قريش علىٰ كلِّ حال ، والرَّسول صلى الله عليه وسلم يعرف أنَّ الإنسان الشُّجاع الكريم تمرُّ به أحياناً لحظات ضعفٍ وتزيِّن له نفسه بعض التَّقديرات الخاطئة ، والنَّبيُّ الذي جاء متمِّماً لمكارم الأخلاق لا يريد أن ينسف تاريخ حاطب كلَّه بسببِ خطأ واحدٍ رغم فداحة الخطأ ، لقد عامله بالرِّفق ، وهو يدرك أنَّ حاطباً فهم الدَّرس ولن يعود لصنيعه أبداً .

وفي شأن هـٰذه الحادثة نزل قرآن كريم يبيِّن للمسلمين أنَّ موالاة أعداء الإيمان والحرِّيَّة سلوك لا يجوز ، ويذكِّرهم بموقف إبراهيم ومن معه من المؤمنين الذين تبرَّؤوا من قومهم الكافرين بالله والذين رموا إبراهيم في النَّار كراهية للحقِّ والعقيدة الصَّحيحة ، ثمَّ بيَّن القرآن الكريم أنَّ عدم موالاة الكفَّار المحاربين للحرِّيَّة والإسلام لا يعني معاداة كلِّ من هو غير مسلم ، على العكس تماماً ، أوجب القرآن الكريم على المسلمين معاملة غير المسلمين الذين لا يحاربون المسلمين ولا يعتدون عليهم ولا يخرجونهم من ديارهم بأفضل وأحسن أنواع المعاملة ، بالبرِّ والقسط والعدل ، وهـٰذا هو نهج المسلمين مع الشُّعوب والدُّول غير المسلمة علىٰ مرِّ العصور ، فهم ينشدون علاقات البرِّ والقسط والتَّعاون مع الجميع ، يحفظون عهودهم ، ويخدمون السَّلام العالميَّ بقيمهم النَّبيلة الكريمة ، ولا يريدون أيضاً ولا يقبلون من أيِّ دولةٍ أو من أيِّ شعبٍ آخر أن يعتدي عليهم ويحتلَّ أرضهم ويخرجهم من ديارهم ، ولا شكَّ أنَّ هـٰذا هو النهج السَّويُّ الموضوعيُّ الذي يقبل به كلُّ إنسانٍ منصفٍ وعادلٍ علىٰ وجه الأرض .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٩) .

جاء في القرآن الكريم تعقيباً على قصَّة حاطب بن أبي بلتعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۞ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۞ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۞ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [سورة الممتحنة : ١ ـ ٩] .

هٰذا هو منهج التَّعامل مع غير المسلمين في القرآن الكريم ، والتَّوجيه واضحٌ لكلِّ مسلمٍ ألاَّ يكون حليفاً ووليّاً بأيِّ صورةٍ من الصُّور لمن اختار نهج الحرب والعداوة على المسلمين ، وسعىٰ لمصادرة حرِّيَّتهم في عبادة الله وإخراجهم من ديارهم ومصادرة أموالهم وأملاكهم ، أما من نهج نهج السِّلم واحترم حرِّيَّة الاعتقاد والعبادة للمسلمين ولم يحاربهم : فواجب المسلمين أن يختصُّوه بأفضل أنواع المعاملة ؛ عدلاً وبرّاً وقسطاً ، وهٰذا التوجيه موافق للمنطق تماماً . هل يعقل لمواطني أية دولة في العالم ، بقطع النظر عن دينها وموقعها ، أن يوالوا ويناصروا أهل دولة أخرىٰ تتربص بهم شراً وتخطط

للعدوان عليهم ؟! وفي ثنايا هٰذه التَّوجيهات القرآنية الواضحة فسحةُ أملٍ للذين كانوا يتجهَّزون مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم لتحرير مكَّة ، وللدُّعاة إلى الإيمان بالله في كلِّ جيل أنَّ الذين يحاربونكم في عقيدتكم ويعتدون عليكم ويخرجونكم من دياركم وأموالكم يمكن أن تنفتح قلوبهم في أيَّة لحظة لأنوار الإيمان فيصبحوا لكم إخواناً وتقوم المودَّة بينكم وبينهم : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الممتحنة : ٧] وهٰذا ما ستشهد له قصَّة تحرير مكَّة بالأدلَّة الملموسة .

إلىٰ مكَّة

في العاشر من رمضان من العام الثَّامن للهجرة تحرَّك جيش المسلمين بقيادة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومقصده مكَّة المكرَّمة ، استخلف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على المدينة كلثوم بن حصين الغفاريَّ ، وخرج معه في معركة تحرير مكَّة عشرةُ آلاف مقاتلٍ ، أين هٰذا الرَّقم الضَّخم من العدد القليل الذي واجه المشركين يوم بدر في رمضان من العام الثَّاني للهجرة ؟! إنَّ ستَّ سنواتٍ من الدَّعوة والصَّبر والعطاء من أجل التوحيد والحرِّيَّة ومكارم الأخلاق غيرت موازين القوىٰ تغييراً جذرياً في الجزيرة العربيَّة ، وستتكرَّر هٰذه الظَّاهرة علىٰ مستوى الدول في السَّنوات القليلة التي أعقبت وفاة الرَّسول صلى الله عليه وسلم .

في منطقة الجحفة في الطَّريق إلىٰ مكَّة اعترض سبيل المسلمين آخر المهاجرين بإسلامهم إلى المدينة المنوَّرة العبَّاس بن عبد المطَّلب عمُّ النَّبيِّ ومعه أهله وعياله ، وكان بقي من قبل في مكَّة يسقي زوَّار البيت الحرام علىٰ تواصلٍ مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ورضاً منه ، فأمره النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يرسل رحله إلى المدينة ويبقىٰ معه هو مشاركاً في حملة التَّحرير .

وجاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أيضاً اثنان من أقاربه : ابن عمِّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب ، وابن عمَّته وصهره عبد الله بن أبي أميَّة بن المغيرة ، فاستشفعا بأمِّ المؤمنين أمِّ سلمة رضي الله عنها ، فطلبت لهما القبول والأمان ، لقد استشفعا ؛ لأنَّهما يعرفان أنَّهما ألحقا بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأذىٰ ، ولذلك قال الرَّسول لأمِّ سلمة : لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمِّي : فهتك عرضي ، وأمَّا ابن عمَّتي وصهري : فهو الذي قال لي بمكة ما قال ، وهنا قال عليٌّ رضي الله عنه لأبي سفيان : ائت رسول الله من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩١] فإنَّه لا يرضىٰ أن يكون أحدٌ أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾[1] [سورة يوسف : ٩٢] .

والحقيقة أنَّ هـٰذه المودَّة القويَّة الصَّادقة المضيئة ، وهـٰذه الرَّابطة الوثيقة بين محمَّد بن عبد الله ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم لتأسر النَّفس وتملؤها حبّاً لله سبحانه وتعالىٰ ويقيناً به وفخراً بهـٰذا النَّسب الكريم الذي لا يدانيه أيُّ نسبٍ آخر علىٰ وجه الأرض ، المسلم يحبُّ محمَّداً فيجد في نفسه مباشرة حبَّ نوحٍ وإبراهيمَ وموسىٰ ويعقوبَ ويوسفَ وسليمانَ وداوودَ وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وأمِّه مريمَ وكلِّ من سبق نبيَّ الإسلام من الأنبياء والرُّسل عليهم السلام ، كلُّهم رسل الله ودعوتهم جميعاً لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالىٰ .

وهـٰذا نبيُّ الإسلام عليه الصلاة والسلام يتقرَّب إليه الذين آذوه من قبل بقولٍ

---

(١) الرحيق المختوم (ص٤٦٥) .

قيل لأخيه يوسف فيجيب بجوابِ أخيه يوسف ، بجواب الرَّحمة والمغفرة والمحبَّة ، أمَّا أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أميَّة : فقد نالا ما طلباه، وأنشد أبو سفيان معتذراً لنبيِّ الهدىٰ صلى الله عليه وسلم : (من الطويل)

لَعَمْـرُكَ إِنِّـي حِيـنَ أَحْمِـلُ رَايَـةً   لِتَغْلِبَ خَيْلُ ٱللاَّتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَـٱلْمُـدْلِـجِ ٱلْحَيْـرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ   فَهَـٰذَا أَوَانِي حِينَ أُهْدَىٰ وَأَهْتَدِي
هَـدَانِـيَ هَـادٍ غَيْـرُ نَفْسِـي وَدَلَّنِـي   عَلَى ٱللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب صدره ، وقال له : « أنت طردتني كل مطرد » . وقد حسن إسلام أبي سفيان بن الحارث ، وأحبه النبي صلى الله عليه وسلم وشهد له بالجنة[1] .

واصل جيش النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تحرُّكه باتِّجاه مكَّة ، ووصل قريباً منها في منطقة مرِّ الظَّهران ، وهناك فكَّر العبَّاس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما يمكن أن يترتَّب علىٰ دخول الجيش الإسلاميِّ إلىٰ مكَّة قبل أن يستأمنه أهلها وما يمكن أن يصيب قريش أشهرَ قبائل العرب من ضعفٍ وهوانٍ عندما تكون نهاية معاركها ضدَّ الإسلام هزيمةً ساحقةً يتحدَّث بها التَّاريخ أبدَ الدَّهر .

ولعلَّ العبَّاس أيضاً فكَّر فيما يمكن أن يجنيه الإسلام من خير إذا انتهى النِّزاع والصِّراع بين النَّبيِّ وقادة قريش نهايةً سلميةً بعيداً عن العنف والقتل والدِّماء والثَّارات التي قد تطيل مثل هـٰذه النِّزاعات إلىٰ أعوامٍ طويلة ، بل إلىٰ أجيالٍ متعاقبة .

لم يعد أمرُ المواجهة العسكريَّة وارداً بالمقاييس الموضوعية ، فجيش النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أكثر عدداً وعُدَّة وحماساً وإيماناً بقضيَّته من أيِّ جيشٍ يمكن أن تحشده قريش في تلك اللَّحظات الحاسمة ؛ لذلك رأى العبَّاسُ أنَّ

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٤٦٦) .

الوقتَ قد حان للبحث عن وسيلةٍ أو رسولٍ يبلِّغ الخبر إلىٰ أهل مكَّة ، لعلهم يأتون إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ويطلبون منه الأمان .

إسلام أبي سفيان

ركب العبَّاس بغلةَ ابن أخيه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم واتَّجه بها ليلاً نحو الشِّعاب المجاورة لعلَّه يلقىٰ حطَّاباً أو صاحب لبنٍ أو مسافراً إلىٰ مكَّة ، فبينما هو في مسيره هـٰذا ؛ إذ سمع سجالاً بين شخصين له بهما معرفة وثيقة ، أحدهما : أبو سفيان بن حرب أشهر زعماء قريش ، والثَّاني : بديل بن ورقاء ، سمع العباس أبا سفيان يقول لصاحبه : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، في إشارةٍ إلىٰ نيران المعسكر الإسلاميِّ التي أوقدها الجنود هناك في ظلمة اللَّيل يطبخون عليها ويتدفَّؤون ويستضيئون بها ، ظن بديل أنَّ النِّيران صادرةٌ عن خزاعة ، وأن أهلها جهزوا أنفسهم للحرب والانتقام ، فرد أبو سفيان قائلاً : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هـٰذه نيرانها وعسكرها .

عرف العباس أبا سفيان من صوته فناداه : يا أبا حنظلة ، ورد أبو سفيان : أبو الفضل ؟ قال : نعم . وسأل أبو سفيان : ما لك ، فداك أبي وأمي ؟ فأخبره العبَّاس أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم قريبٌ من مكَّة علىٰ جيشٍ كبيرٍ من المسلمين ، قال أبو سفيان في نبرة تسليم بعد طول عنادٍ : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال العباس : والله ؛ لئن ظفر بك ؛ ليضربنَّ عنقك ، فاركب في عجز هـٰذه البغلة حتَّىٰ آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك .

قبل أبو سفيان العرض بعد أن أيقن أنه لا يملك بديلاً أخر ، وركب مع العباس . وفي الطريق إلىٰ خيمة النبي صلى الله عليه وسلم مر العباس وأبو سفيان بكثير من النيران الموقدة يتسامر حولها المسلمون في جماعات صغيرة ، وكانوا كلما تساءلوا عن الراكب قالوا : عمُّ رسول الله صلى الله عليه

وسلم علىٰ بغلته ، إلاَّ تجمُّعٌ واحدٌ كان فيه عمر بن الخطَّاب .

عرف عمر أبا سفيان فقال : أبو سفيان عدوُّ الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهدٍ ، ثمَّ أسرع باتِّجاه النَّبيِّ يودُّ أن يصل إليه قبل وصول العبَّاس طالباً الأمان لصاحبه ، سبقت البغلة عمر بن الخطَّاب بمسافةٍ قليلةٍ ، واجتمع العبَّاس وعمر عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : يا رسول الله ؛ هـٰذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، وقال العباس : يا رسول الله ؛ إني قد أجرته ، وألح كل من الرجلين في طرح رأيه والدفاع عنه ، حتىٰ ظن العباس أن في الأمر حمية قبلية وعاتب ابن الخطاب : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من بين عدي بن كعب ؛ ما قلت هـٰذا ، ولكنك قد عرفت أنهم من رجال بني عبد مناف .

عندئذ تلطف عمر ، وأجاب بمقالة بينت حبه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبجيله لهم ، قال : مهلاً يا عبَّاس ، فوالله ؛ لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام ابن الخطَّاب لو أسلم .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فإنَّ أكثر العقلاء لن يراودهم شكٌّ في طبيعة ردِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم علىٰ صاحبيه ، إنَّ الرَّدَّ يصدر عن خاتم السِّلسلة الذَّهبيَّة من أشرف خلق الله علىٰ مدى الزَّمان من يوم أن نزل آدم وحواء إلىٰ وجه البسيطة ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اذهب به يا عباس إلىٰ رحلك ، فإذا أصبحت ؛ فأتني به » ، ولما كان الصَّباح ؛ عاد العبَّاس إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو سفيان .

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مخاطباً أشهر قادة الشِّرك والطُّغيان في قريش : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنَّه لا إلـٰه إلاَّ الله » .

قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمِّي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله ؛ قد ظننت أن لو كان مع الله إلـٰه غيره ؛ لقد أغنىٰ عنِّي شيئاً بعد .

قال النَّبيُّ : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسول الله » .

قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمِّي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمَّا هـٰذه والله ؛ فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الآن شيئاً .

وهنا تدخَّل العبَّاس يحثُّ أبا سفيان علىٰ وضع حدٍّ لتردُّده في الإيمان بالله ورسوله ، فنطق أبو سفيان بالشَّهادتين وقال : أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، ثمَّ قال العباس : يا رسول الله ؛ إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان ؛ فهو آمن ، ومن أغلق بابه ؛ فهو آمن ، ومن دخل المسجد ؛ فهو آمن »[1] .

أمنٌ وأمنٌ ثمَّ أمنٌ ، سلامٌ وسلامٌ ثمَّ سلامٌ ، هـٰذه هي رسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأهل مكة ، وتلك كانت رسالته للنَّاس أجمعين ، وظهرت في سلوك النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مع أبي سفيان أيضاً لمسة تكريمٍ وتقديرٍ لخصمٍ عنيدٍ عندما جعل بيته أماناً للخائفين ، وكثير من القادة السِّياسيِّين والعسكريِّين في التَّاريخ يميلون إلىٰ إذلال خصومهم إذا قدروا عليهم والتَّشفِّي منهم ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن قائداً مثل سائر القادة ، ولا سياسيَّاً مثل سائر السَّاسة ، كان نبياً مرسلاً وزعيماً فذّاً نادراً ، وإنساناً متواضعاً علىٰ خُلُقٍ عظيمٍ .

أمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عمَّه العبَّاس أن يقف بأبي سفيان في موضعٍ يرىٰ منه تدفُّقَ كتائب الجيش المسلم ؛ ليرىٰ حجم القوَّة التي تنصر الحقَّ والإيمان والحرِّيَّة ، وفي مضيق الوادي عند أنف الجبل بدت القبائل المكوِّنة للجيش تمرُّ واحدةً بعد أخرىٰ ، يسأل أبو سفيان كلَّما مرَّت قبيلة : من هـٰذه ؟ فيقول له العباس : سليم ، فيقول : ما لي ولسليم ، وتمر مزينة ، فيقول : ما لي وما لمزينة ، ويبقىٰ هـٰكذا شأنه حتَّىٰ يمرَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٣) .

كتيبته وقد غلبت عليها الخضرة من لون العتاد الذي يحمله المشاركون فيها ، وهم المهاجرون والأنصار ، ويسأل أبو سفيان عن الكتيبة فيأتيه الجواب من العبَّاس ، ويتأمَّل أشهرُ قادة قريش فيما يرىٰ أمامه من قوَّة وحماسٍ وإيمانٍ ، ثم ينطق بما في نفسه : « ما لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَل ولا طاقةٌ ، والله يا أبا الفضل ؛ لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً » ، لكنَّ العبَّاس يعرف أنَّ الأمر ليس ملكاً ولا قوَّةً مادِّيَّةً مجرَّدةً ، فيردُّ قائلاً : يا أبا سفيان ؛ إنَّها النُّبوَّة ، وعندئذٍ يقول أبو سفيان وهو الذي دخل في الإسلام قبل ساعات قليلة فقط : حديث عهد بالإسلام : فنعم إذن[١] .

جيش الأمن والسَّلام

ثمَّ سبق أبو سفيان جيش المسلمين ووصل قبله إلىٰ مكَّة ، واستدعىٰ أهلها علىٰ عجلٍ وهتف فيهم بأعلىٰ صوته : يا معشر قريش ؛ هـٰذا محمَّد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان ؛ فهو آمن ، بُهِت النَّاس ، لكنَّ الخبر لم يكن مفاجأة كاملة لهم ، لقد عرفوا من قبل أنَّهم غدروا بحلفاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهد الصُّلح ، وأنَّ أبا سفيان لم ينجح في مسعاه لتجديد المعاهدة حين زار المدينة المنورة قبل أيَّام ، لكنَّ العناد ما زال يملأ رؤوس بعضهم ، وخاصَّة هند بنت عتبة عدوَّة سيِّد الشُّهداء حمزة بن عبد المطَّلب وزوجة أبي سفيان ، إنَّ العناد ليخرجها عن طورها حتَّىٰ إنَّها تتجرَّأ علىٰ معارضة زوجها أمام الملأ من قريش ، بل إنَّها لتفعل أكثر من ذلك ، لقد أخذت بشارب زوجها وشتمته وحرَّضت الحاضرين علىٰ قتله ، لكنَّ أبا سفيان لم يفقد صوابه من سوء صنيعها ، وتوجَّه بالخطاب للحاضرين ، ويلكم لا تغرَّنَّكم هـٰذه من أنفسكم ؛ فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، فمن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٤) .

دخل دار أبي سفيان ؛ فهو آمن ، أما وقد استقرَّت الحقيقة في نفوس النَّاس ؛ فإنَّهم بدؤوا يفكرون في أبواب الأمان الأخرىٰ ، فقالوا لأبي سفيان وقد أنساهم الخوف تذكُّر مقامه بينهم : قاتلك الله ، وما تغني عنَّا دارك ، فأجابهم : ومن أغلق عليه بابه ؛ فهو آمن ، ومن دخل المسجد ؛ فهو آمن ، واطمأن النَّاس فتفرَّقوا ؛ بعضهم إلىٰ بيوتهم ، وبعضهم الآخر إلى المسجد ، ولم يشذَّ عن ذلك إلاَّ قلَّة من السُّفهاء والصَّعاليك والمقاتلين الموتورين ، مثل عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أميَّة ، وسهيل بن عمرو ، وهم أبناء بعض عتاة المشركين والطغاة في قريش ، تجمع هـٰؤلاء في مكانٍ يسمَّى الخندمة ، واستعدُّوا لقتال المسلمين .

في تلك اللَّحظات كان جيش الأمن والسَّلام والحرِّيَّة قد وصل إلىٰ مكانٍ يسمَّىٰ ذي طوىٰ علىٰ أبواب مكَّة المكرَّمة ، ونظر عبد الله بن أبي بكر إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فرآه يضع رأسه تواضعاً لله وقد رأىٰ ما أكرمه الله به من الفتح حتَّىٰ كاد شعر لحيته أن يمسَّ واسطة راحلته .

لحظةُ النَّصر عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم هي لحظة التَّواضع ، لحظةُ التَّحرير الكبير هي لحظة الشُّكر لمن حفظه ونجَّاه من بطش قوى الشَّرِّ والاستبداد لأكثر من عشرين عاماً مضت بعد نزول الوحي عليه ، لله الذي نصره ونصر من قبله إبراهيمَ وإسماعيلَ وموسىٰ ويوسفَ وعيسىٰ وسائر من سبقه من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، لحظةُ القوة هي لحظة الامتنان لمن بيده ملكوت السماوات والأرض والاعتراف بفضله ، لحظةُ العزَّة هي لحظة ضبط النَّفس عن الغرور الذي طالما لعب برؤوس الزُّعماء السِّياسيِّين وقادة الجيوش ، لحظةُ فتح مكَّة كانت موعداً جديداً لتأكيد نبوَّة الفاتح الكريم النَّبيل .

وزَّع النَّبيُّ جيشه كتائب مختلفة تدخل قلب مكَّة من أكثر من اتِّجاه ، فأمر

الزُّبير بن العوَّام أن يدخل علىٰ رأس كتيبة من كُدَي من ناحية عرفة ، وسعد بن عبادة أن يدخل من كَداء أعلىٰ مكَّة حيث وقف إبراهيم عليه السَّلام ودعا لذرِّيَّته بالحرم ، وأمر خالد بن الوليد ؛ بالدُّخول علىٰ رأس كتيبة من اللِّيط أسفل مكة ، كما أمر أبا عبيدة عامر بن الجراح بالدخول من بطن الوادي ممهِّداً للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودخل خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من أذاخر ، ونزل بأعلىٰ مكَّة ، ونصبت خيمته هناك .

دخلت كلُّ هـٰذه الكتائب مكَّة في سلام إلاَّ كتيبة خالد بن الوليد تصدَّىٰ لها الأوباش والصَّعاليك الذين خرجوا مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميَّة وسهيل بن عمرو ، فلم يصمدوا كثيراً وانهزموا وفرُّوا بعد أن قتلوا اثنين من المسلمين ابتعدا عن الجيش ، وأصيب من المعتدين اثنا عشر رجلاً .

اكتمل وصول كتائب الفاتحين إلىٰ وسط مكة المكرمة ، وبذلك تحررت مكة ، وتحقق النصر ، وشاع الأمن بين سكَّان أقدس المدائن علىٰ وجه الأرض ، واتَّجه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم صوب الكعبة المشرَّفة فطاف بها سبعاً علىٰ راحلته ، وكان بيده قوس فجعل يطعن به حوالي ثلاث مئة وستين صنماً كانت منصوبةً في رحاب المسجد وهو يقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء : ٨١] ، ويقول : ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سورة سبأ : ٤٩] .

ثمَّ طلب مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة ودخلها ، ومعه أسامة بن زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، والنَّاس في ساحة الحرم ينظرون وينتظرون .

داخل الكعبة وجد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم صوراً للملائكة ولإبراهيم أبي الأنبياء في وضعيَّة من يستقسم بالأزلام ، وهي السِّهام التي يستقسم بها النَّاس في ذلك العصر ، وحمامة مصنوعة من عيدان ، فأمر بكلِّ تلك الصُّور فطمست ، وصلَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة ، ووحَّد الله

وكبَّره ، ثمَّ وقف ببابها ، وأهل مكَّة أمامه صفوفاً ينتظرون أن يسمعوا منه أهمَّ قراراته بعد النصر الكبير والفتح العظيم .

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا إلـٰه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له ، صدق وعدَه ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدَه ، ألا كلُّ مأثرةٍ ـ أي : ما يتحدث به من المكارم ـ أو دمٍ أو مالٍ يدعىٰ ؛ فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسَّوط والعصا ففيه الدية مغلَّظةً ؛ مئة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش ؛ إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، النَّاس من آدم وآدمُ من تراب » ، ثم تلا الآية ١٣ من (سورة الحجرات) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1] [سورة الحجرات : ١٣] .

عالج الخطاب النَّبويُّ في هـٰذه التوجيهات الموجزة بعض المسائل المستعجلة في المجتمع القرشي ، كما أنه خاطب الناس جميعاً في الوقت نفسه في كل زمان ومكان إلىٰ يوم القيامة ، خاصَّةً عندما نهىٰ عن نخوة الجاهلية والافتخار بالأنساب وتعظيمها ، وذكَّر البشريَّة بأنَّها كلَّها لآدم وآدمُ من تراب ، وبأنَّ الله خلقها شعوباً وقبائل للتَّعارف والتَّعاون والتَّفاضل بالتَّقوىٰ والعمل الصَّالح .

العفو النَّبيل عند المقدرة

أنصتت الصفوف القرشية لخطاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم هـٰذا هو محمد الصادق الأمين الذي نشأ بينهم وترعرع في صفوفهم ، وجاءه الوحي فبلغهم رسالة ربه ، ونصح لهم ، لكنهم قابلوه بالتكذيب والقمع والعسف ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢) .

ولم يكفوا عنه شرهم وبغيهم حتىٰ بعد هجرته إلى المدينة ، فسيروا إليه الجيوش العظيمة يريدون استئصاله ومن معه ، وإسقاط الدولة الإسلامية الجديدة ، أنصت أهل قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ، وجميعهم يسأل نفسه : ماذا يفعل الفاتح المنتصر بخصومه اليوم ؟ وهل يتفرغ للانتقام من قومه الذين كانوا ألد الأعداء وأشدهم عليه ؟

السُّؤال يملأ صدورهم يكادون ينطقون به ، واللَّحظات طويلة جدّاً في انتظار الجواب ، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرف ذلك في وجوههم وفي نفوسهم ؛ لذلك يسألهم : « يا معشر قريش ؛ ما ترون أنِّي فاعلٌ بكم ؟ » ويأتي الجواب سريعاً ينطق بتطلُّعات قريش ، قالوا : خيراً ، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريم ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فإنِّي أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٢] اذهبوا فأنتم الطُّلقَاء »[١] .

أنتم آمنون أحرار أيُّها النَّاس جملة من أربع عشرة كلمة تقرِّر هٰذا المعنىٰ ، وتخلو من أيَّةِ إشارة لوم أو عتاب أو محاسبةٍ ، ولو أنه لامهم ؛ لكان من حقه أن يلوم ، ولو أنه عاتبهم ؛ لكان من حقه أن يعاتب ، بل لو أنه عاقبهم ؛ لكان من حقه أن يعاقب . لكن المتحدث في هٰذا اليوم الاستثنائي من تاريخ مكة ومن تاريخ الإسلام والإنسانية ، هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، المثل الأعلىٰ للنَّاس أجمعين ، فلا لومَ ولا عتابَ ولا عقابَ ، وإنَّما أمنٌ وأمانٌ وحريَّةٌ وسلامٌ ، وتلك هي بكلِّ وضوحٍ وقوَّةٍ وبساطةٍ حقيقةُ رسالة الإسلام .

جلس النَّبي صلى الله عليه وسلم في المسجد فجاء إليه ابن عمه عليُّ بن أبي طالب ومعه مفتاح الكعبة ، قال : يا رسول الله ؛ اجمع لنا الحجابة مع السِّقاية صلَّى الله عليك ، وقيل في رواية : أن الذي طلب منه ذلك عمُّه العبَّاس ، فقال الرَّسول صلى الله عليه وسلم : « أين عثمان بن طلحة ؟ »

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢) ، والرحيق المختوم (ص٤٧٢) .

فدعي له ، فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ؛ اليوم يوم برٍّ ووفاءٍ »[1] كلمات موجزة من نبي البر والوفاء ومكارم الأخلاق ، حسم بها الأمر لابن طلحة ، ورد بها طلباً صدر عن أقرب الناس إليه .

ثمَّ جاء وقت الصَّلاة فأمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم صاحبه ومؤذِّنه بلالاً بأن يؤذن في الناس . الله أكبر الله أكبر . بداية جليلة مهيبة للأذان ، يرتفع به صوت بلال الندي في فناء البيت العتيق ، وبجوار الكعبة المشرفة . بلالٌ العبد الأسود الذي حرَّره الإسلام ، والرَّجل الشُّجاع الذي ضرب المثل في التَّمسُّك بعقيدة الإيمان بالله رغم التَّعذيب المروِّع الذي تعرَّض له ، والإنسانُ الشَّريفُ ذو النَّفس الحرَّة التي تحدَّت قوى الشِّرك والطُّغيان ؛ ينال اليوم هـٰذا الشَّرف العظيم بالدَّعوة للصَّلاة عند الكعبة المشرفة ، والمسلمون ، وأهل قريش ، وقادة قريش ينظرون ويسمعون ، كان اثنان من هـٰؤلاء القادة جالسين بفناء الكعبة قرب أبي سفيان ، هما : عتَّاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، قال عتاب للحارث ولأبي سفيان : لقد أكرم الله أسيداً ألاَّ يكون سمع هـٰذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث : أما والله لو أعلم أنَّه محقٌّ ؛ لاتَّبعتُه ، أمَّا أبو سفيان ؛ فتحفظَّ : لا أقول شيئاً ، ولو تكلَّمت ؛ لأخبرت عنِّي هـٰذه الحصىٰ ، فخرج عليهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال لهم : قد علمت الذي قلتم ، ثمَّ حدَّثهم بما دار بينهم ، فقال الحارث وعتَّاب : نشهدُ أنَّك رسولُ الله ، والله ؛ ما اطَّلع علىٰ هـٰذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك .

للمستبدِّين دائماً خصالٌ ذميمة أخرىٰ غير الاستبداد ، وهـٰؤلاء الطُّغاة المهزومون من كبراء قريش جمعوا إلىٰ ما بهم من طغيان وإعراض عن الحق والإيمان خصلة سيئة أخرىٰ هي العنصريَّة والتَّمييز بين النَّاس علىٰ أساس اللَّون ، ومن هنا صدرت تعليقاتهم التي ترى الموتَ أفضلَ وأهونَ من رؤية

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢) .

سيدنا بلال رضي الله عنه وهو يؤذن للصلاة عند الكعبة المشرفة ، ولكنَّهم الآن إذ أسلموا وآمنوا بما نُزِّل علىٰ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من الحقِّ سيبدؤون في التَّعلم من مدرسةٍ جديدةٍ تعلن لهم وللعالم بأسره أنَّ النَّاس جميعاً سواسيةٌ كأسنان المشط ، كرامتهم من عند الله وحدَه ، مهما كانت ألوانهم وأعراقهم وبلدانهم ولهجاتهم ؛ لا يحقُّ لأيِّ قوَّة أخرىٰ علىٰ وجه الأرض أن تنزعها عنهم ، تلك هي مدرسة الإسلام ، عبر عنها خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لقريش وهو علىٰ باب الكعبة المشرفة ، وتلك هي مدرسة الإسلام التي جعلت بلالاً وآخرين كثيرين مثله من السود في الجزيرة العربية ، ثم في كل أنحاء العالم علىٰ مدى التاريخ يرون في الإسلام دستور الحرية والمساواة والكرامة ، لذلك آمنوا به ، وتحمسوا له ، وحملوا رايته ، ونشروا تعاليمه ، وبينوا للدنيا ما فيه من خير عظيم .

وفي اليوم الثَّاني لفتح مكَّة خطب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في النَّاس مرَّة أخرىٰ مؤكِّداً حرمة مكَّة وقداستها ومشدِّداً علىٰ منع القتال وسفك الدِّماء فيها من بعد أن بلغته أخبار حادثة قتلٍ تورَّط فيها ناسٌ من خزاعة ، وكانوا يثأرون لقتيل لهم في عهد ما قبل الإسلام ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أيُّها النَّاس ؛ إنَّ الله حرَّمَ مكَّة يوم خلق السَّموات والأرض ؛ فهي حرامٌ بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة ، فلا يحلُّ لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو يعضد فيها شجرةً ، فإن أحدٌ ترخَّص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقولوا : إنَّ الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنَّما حلَّت لي ساعةً من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلِّغ الشَّاهدُ الغائب »[1] .

الأمنُ والسَّلامُ والبرُّ والوفاء تلك هي شعارات المرحلة الجديدة في مكَّة وقد تحرَّرت من سلطة الطُّغاة وأعداء حرِّيَّة العقيدة ، وآن للعقول فيها أن تتحرَّر

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٤٧٥) .

من سلطة الخرافة ومن الخضوع لأصنام يصنعها النَّاس بأيديهم ثمَّ يخضعون لها ويعبدونها ، يا له من سقوطٍ أخلاقي يثير الدَّهشة والعجب والاستنكار ، كيف يرفض الإنسان عبادة الله الواحد الذي دعا إليه أكرم النَّاس في تاريخ البشر : نوحٌ وإبراهيمُ وهودٌ وصالحٌ ويونسُ وموسىٰ ويعقوبُ وسليمانُ وداوودُ وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ ومحمَّدٌ عليهم الصَّلاة والسَّلام جميعاً ويقبل أن يخضع لسلطان صنمٍ يصنعه هو بنفسه من طينٍ أو حجرٍ ؟! كيف يقبل الإنسان علىٰ نفسه أن يشرك بالله أصناماً يصنعها ، وأن يستحلَّ لنفسه ما حرَّمه الله وما تأباه الفطرة ، وأن يقبل بالتَّمييز العنصريِّ علىٰ أساسِ اللَّون أو النَّسب ، وبامتهان المرأة شريكته في الحياة وفي الإنسانية ؟!

قصة صفوان بن أميَّة

كان صفوان بن أميَّة زعيماً من زعماء قريش وقائداً كبيراً من قادة المشركين ، فلمَّا كان تحرير مكَّة ؛ خرج صفوان إلىٰ جُدَّة يريد أن يركب منها إلى اليمن فارّاً من سلطة الإسلام ، حينئذ جاء الصحابي عمير بن وهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحدِّثه بأمر صفوان ويطلب له الأمان ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هو آمن » قال عمير : يا رسول الله ؛ فأعطني آيةً يعرف بها أمانك ، فأعطاه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل فيها مكَّة ، وأسرع عميرٌ يقتفي طريق صفوان فوصل إليه قبل أن يبحر إلى اليمن ، وناداه : يا صفوان ؛ فداك أبي وأمي ، اللهَ اللهَ في نفسك أن تهلكها ، فهٰذا أمانٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به . تردد الزعيم القرشي الذي استكمل إجراءات الهروب ، وما درىٰ ماذا يفعل بعد أن وصله الخبر : هل يثق بما بلغه به عمير أم لا ؟ لكنَّ صاحبه الذي جاءه بالأمان يعرف أن من أعطى الأمان أهلٌ للثِّقة من جميع النَّاس في عصره ومن النَّاس في كلِّ عصرٍ

بعده ؛ لذلك هتف لصفوان من جديد بحرصٍ وإلحاحٍ : أَيْ صفوان ؛ فداك أبي وأمي ، أفضل النَّاس ـ يقصد بهـٰذا الوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأبرُّ النَّاس ، وأحلمُ النَّاس ، وخيرُ النَّاس ، ابنُ عمِّك ، عزُّه عزُّك ، وشرفُه شرفُك ، وملكُه ملكُك ، قال صفوان : إنِّي أخافه علىٰ نفسي ، قال عمير : هوأحلم من ذاك وأكرم .

وما كان عمير كاذباً قطُّ ، وقد نجح في إقناع صفوان وعاد به حتىٰ وصل عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال صفوان بلهجة تنطق بما في نفسه من شكٍّ وكِبرٍ وتردُّدٍ : إن هـٰذا يزعم أنَّك قد أمَّنتني ، قال : « صدق » ، قال : فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر»[1] .

وأسلم صفوان بعد ذلك ، كما أسلم عكرمة بن أبي جهل ، وكان قد فرَّ إلى اليمن فتحدَّثت زوجته مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وحصلت منه على الأمان لزوجها ، فلمَّا بلغه الخبر ؛ عاد وأسلم وأصبح لاحقاً من القادة المسلمين البارزين ، وأسلم أيضاً فضالة بن عمير اللَّيثيُّ ، وهو كان متورطاً في خطة لقتل النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في مكَّة أثناء طوافه بالكعبة المشرفة ، رتب فضالة أمره لتنفيذ الجريمة ، وفي اللَّحظات التي كان يتربَّص فيها بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يريد اغتياله ، قال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أفضالة ؟ » قال : نعم فضالة يا رسول الله ؛ قال : « ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ثمَّ قال : « استغفر الله » ووضع النَّبيُّ يده علىٰ صدر فضالة فوجد في نفسه السَّكينة ، ورویٰ فضالة بعد ذلك عن تلك اللَّحظات قائلاً : والله ؛ ما رفع يده عن صدري حتَّىٰ ما من خلق الله شيءٌ أحبَّ إليَّ منه[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٨) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٧) .

وأسلمت أمُّ حكيم بنت الحارث ابن هشام ، وفاختة بنت الوليد زوجة صفوان بن أمية ، وأمُّ حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل ، وهي التي حصلت له على الأمان من عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كما أسلمت أمُّ هانىء بنت أبي طالب ، وهي استأمنت مرَّةً لرجلين من أقارب زوجها من قبيلة بني مخزوم ، وأخبرت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقبل جوارها وأعطى الأمان لمن أمَّنت ، وأسلم أكثرُ أهل مكَّة ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وجاؤوا عند جبل الصَّفا يبايعون النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم على السَّمع والطَّاعة فيما استطاعوا ، وجاءت النِّساء أيضاً فبايعن النَّبيَّ علىٰ ترك الشِّرك والمعاصي ، وكان من بين من بايع من النِّساء امرأة متنكِّرة ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عرفها وسألها : « وإنَّك لهند » قالت : نعم ، فاعف عمَّا سلف يا نبيَّ الله ، عفا الله عنك ، وعفا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عن المرأة التي مثَّلت بجثَّة عمِّه ولاكت كبده .

قلق الأنصار

قضى النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد تحريرها أكثر من أسبوعين ، واغتنم تلك الفرصة ليشرح للناس تعاليم الإسلام بالتفصيل ، كما صدرت أوامره بكسر الأوثان التي كانت في مكة وحولها ، وهتف المنادون بتكليف منه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره . وعادت مكة المكرمة منارة للتوحيد والإيمان ومكارم الأخلاق .

كان فتح مكة نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً يعبر القرون ليربط بين جهد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين بنى البيت العتيق وطهره للعاكفين والركع السجود ، وبين كفاح خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لدحر الشرك وتحرير العقول من الخضوع للخرافات والأوهام وتكريم الإنسان بهدي الإسلام .

هنا بني أول بيت لعبادة الله وحده ، بشهادة القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران : ٩٦] .

ولعل كثيراً من المؤمنين تذكروا في تلك الأيام أدعية وردت في القرآن الكريم علىٰ لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان بيت الله في مكة المكرمة :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة : ١٢٧ـ ١٢٩] .

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام أيضاً :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۞ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۞ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٧ـ ٤١] .

كانت أجواء الفرح بالنصر العظيم والفتح الكبير تغمر قلوب جميع المسلمين .

ولكنَّ الأنصار الذين احتضنوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وبقية المهاجرين المسلمين وآووهم ونصروهم في أوقات الشِّدَّة وجاؤوا في حملة التَّحرير مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كانوا مع فرحتهم الغامرة بما تحقَّق من نصر كبير لدعوة الإيمان والتَّوحيد ولرسالة الإسلام يشعرون ببعض القلق والضِّيق في صدورهم ، من أين يأتيهم القلق يا ترىٰ وقد أكرمهم الله وخصَّهم بأن كانوا

ضمن جيش التَّحرير الذي دخل مكَّة تحت قيادة النَّبيِّ ونشر فيها الأمن والسَّلام والبرَّ والوفاء والإيمان ؟

نعم ، ثمَّة أمرٌ أقلقهم وبدا علىٰ وجوههم ولم يستطيعوا كتمانه فتحدَّثوا به فيما بينهم ، قالوا : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ هـٰذا هو السَّبب إذن ، إنَّ الذي يقلقهم محبَّةٌ خالصةٌ في قلوبهم لأكرم خلق الله للنبي الكريم والمربي النادر ، الذي جعل منهم جيلاً فريداً من أجيال البشر ومكَّنهم من نيل فضلٍ عظيمٍ ومكانةٍ نادرةٍ لا ينازعهم فيها أحدٌ ، فضلِ نصرة الإسلام ونبيه ونشرِ أنوار الحقِّ في الجزيرة العربيَّة تمهيداً لانتشارها في قلوب النَّاس في شرق المعمورة وغربها .

الحبُّ الشَّديد هو سبب القلق الذي ألمَّ بالأنصار ، إنَّهم يعرفون مكانة مكَّة المكرَّمة عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعرفون أنَّ زعيمهم وقائدهم الذي غيَّر مجرىٰ تاريخ مدينتهم مولودٌ في شعاب مكَّة ، ولم يغادرها طيلة الثلاثِ والخمسين سنةً الأولىٰ من عمره إلاَّ لزياراتٍ قصيرةٍ ومحدودةٍ هنا أو هناك ، وهم يعرفون أنَّه يحبُّ مكَّة ، وأنَّه ما غادرها إلاَّ مكرهاً بسبب ما لقيه من أذى الطُّغاة فيها وأعداء الإيمان وحرِّيَّة العقيدة ؛ لذلك خشي الأنصار أنَّهم قد يعودون إلىٰ مدينتهم هـٰذه المرَّة من دون القائد والزَّعيم والنَّبيِّ المرسل الذي أحبُّوه أكثرَ من آبائهم وأمَّهاتهم وذرِّيَّاتهم ، وأكثرَ من نفوسهم التي بين أجنابهم .

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ جبل الصَّفا يحدث الناس عن هدي القرآن الكريم ويشرح لهم تعاليم الإسلام عندما كان الأنصار يتحدَّثون بشكواهم فيما بينهم ، فلمَّا فرغ من موعظته ؛ جاءهم وسألهم عمَّا تحدَّثوا به ، فاستحوا وأنكروا ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ألحَّ عليهم ، فحدَّثوه بما شغلهم وفاتحوه بما في صدورهم من بواعث القلق ، وجاء الرَّدُّ سريعاً من سيِّد

البرِّ والوفاء ، قال لهم : « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[1] .

قال المؤرِّخون عن نبيِّ الإسلام : إنَّه أوتي جوامع الكلم وجوابه للأنصار دليل من أدلَّة كثيرةٍ لا يحصيها أحدٌ علىٰ صدق هـٰذا الوصف ، ففي ستِّ كلمات فقط أوضح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عمق ارتباطه بالأنصار وبمدينته المنوَّرة ، إنَّه ملتزمٌ بأن يحيا معهم ويموت بينهم .

نعم ؛ إنَّه محبٌّ لمكَّة المكرَّمة ، ولكنَّ المدينة مدينتُه ، وعاصمةُ الدَّولة التي أقامها علىٰ مبادىء الإيمان والحقِّ والحرِّيَّة ، وهو لا ينوي هجرانها ولا الابتعاد عن أهلها الكرام .

لقد كان سرُّ القوَّة الأكبر لمحمَّد بن عبد الله أنَّه كان رسول صدق من عند الله ، وكان من أهمِّ العناصر التي ساهمت في نجاحه ونجاح دعوته من بعد ذلك أنَّه كان عنواناً لمكارم الأخلاق ، لا يدانيه في ذلك أحدٌ ؛ لذلك أحبَّه أهل المدينة ، وأحبَّه أصحابه من كلِّ قبيلةٍ ، وأحبَّه ملايين النَّاس بعد ذلك جيلاً من بعد جيل ، وحوالي مليار ونصف مليار إنسان في هـٰذا الزَّمان يصلُّون عليه في كلِّ يومٍ ، ولا تزور أغلبيتهم السَّاحقة مكَّة المكرَّمة إلاَّ وتزور مدينته المنوَّرة الحبيبة إلىٰ نفس كلِّ مسلمٍ .

انتصار الشهداء

اطمأن الأنصار إلىٰ أن حبيبهم سيعود معهم إلى المدينة المنورة بعد اكتمال النصر العظيم والفتح الكبير . ها هي مكة تعود لوظيفتها الأصلية ، التي ترمي بجذورها عميقاً في التاريخ البعيد ، لتكون داراً خالصة للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٦) .

إن الشهداء الذين قدموا أنفسهم فداء للتوحيد والعدل والحرية وكرامة الإنسان ، في معارك الإسلام الأولىٰ ، انتصروا مرة أخرىٰ . كانت الشهادة من أجل الدين نصرهم الأول ، وفتح مكة نصرهم الثاني ؛ لأن التاريخ من بعد هـٰذا الفتح لن يكون أبداً كما كان قبله .

لقد توطدت أركان الدولة الإسلامية الأولىٰ في التاريخ ، وغدت حقيقة أساسية ومؤثرة في حياة مواطنيها وفي مسيرة العالم بأسره . وما كان ذلك ليتم لولا صبر النبي صلى الله عليه وسلم وتجرده وإخلاصه في أداء رسالته ، ولولا الجهاد النبيل لأصحابه الذين صبروا معه كما صبر أصحاب عيسىٰ مع عيسىٰ عليه السلام ، وكما صبر أصحاب موسىٰ مع موسىٰ عليه السلام .

كان فتح مكة انتصاراً عظيماً للمؤمنين بالله ، وكسباً تاريخياً كبيراً للحق وأهله في كل زمان ومكان ، وكان أيضاً حلقة عظيمة من حلقات الكفاح النبيل الذي خاضه الأنبياء الكرام علىٰ مدار التاريخ الإنساني ، وتوجه خاتم النبيين ، محمد عبد الله ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه ، ومن تبعه بالحق إلىٰ يوم الدين .

* * *

الفَصْلُ الرَّابِع عَشَرَ
إلىٰ حُنَيْنٍ ، وَالطَّائِفِ ، وَتَبوك

ذاع خبر فتح مكة المكرمة وتحريرها في كل أنحاء الجزيرة العربية ، وبدا واضحاً أن المنطقة تدخل عهداً جديداً تحت راية الإسلام .

وكان زعماء القبائل العربية المحيطة بمكة يراقبون تطورات الأحداث . بعضهم فرح بها وفهم نتائجها الكبرىٰ ، وعلىٰ رأسها تعزيز موقع الجزيرة العربية كمصدر إشعاع وهدىً في العالم بأسره . وبعضهم لم يسلّم بما جرىٰ ، وفضل المعاندة والمكابرة على الاستجابة لنداء الحياة والحرية .

وفي صفوف المسلمين سرت أجواء نشوةٍ كبيرةٍ وحماسةٍ غامرةٍ بعد الفتح ، وكثيراً ما تحصل بعض التَّجاوزات وترتكب بعض الأخطاء في مثل هـٰذه الظُّروف ، من هـٰذه التَّجاوزات ما كان من أمر خالد بن الوليد عندما بعثه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع قبائلَ من العرب إلىٰ منطقة أسفل تهامة لتعريف النَّاس بالإسلام ، فقتل عدداً من سكَّان قبيلة بني جذيمة بن عامر من بعد أن أمَّنهم ، وعندما بلغ الخبرُ إلى النَّبيِّ رفع يديه إلى السَّماء وقال : « اللهم ؛ إنِّي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

ودعا النَّبيُّ عليّ بن أبي طالب وقال : « يا علي ؛ اخرج إلىٰ هـٰؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمرَ الجاهليَّة تحت قدميك » ، فخرج علي حتَّىٰ جاءهم ومعه مالٌ قد بعث به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فودىٰ لهم الدِّماء وما أصيب لهم من الأموال ، حتَّىٰ إنه ليدي لهم مِيلَغَة الكلب ـ (أي : إنه يعوِّضهم حتَّىٰ عن المسقاة الخشبيَّة التي تصنع ليشرب فيها الكلب) ـ حتَّىٰ إذا لم يبق شيءٌ من دم ولا مال إلاَّ وداه ؛ بقيت معه بقيَّةٌ من المال ، فقال لهم عليٌّ

رضوان الله عليه حين فرغ منهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنِّي أعطيكم هـٰذه البقيَّة من المال احتياطاً لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ممَّا يعلم ولا تعلمون ، ففعل .

ثمَّ قام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فاستقبل القبلة شاهراً يديه حتَّىٰ إنه ليُرَىٰ ممَّا تحت منكبيه يقول : « اللهم ؛ إنِّي أبرأ إليك ممَّا صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات[1] .

وبعث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم سرايا أخرىٰ إلىٰ مناطق مجاورة لمكَّة هدمت الأصنام التي كان النَّاس يعبدونها شركاً مع الله عز وجل ويعتقدون فيها النَّفع والضُّر ، ويرون أنها تقربهم إلى الله زلفىٰ ، ومن هـٰذه السَّرايا سريَّةٌ قادها عمرو بن العاص لهدم صنم سُوَاع الذي كان يعظِّمه أهل هذيل في الضَّواحي المجاورة لمكَّة ، وعندما وصل عمرو بن العاص إلىٰ مكان الصَّنم سأله سادنه : ماذا تريد ؟ قال عمرو : أمرني رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أهدمه ، قال السَّادن : لا تقدر علىٰ ذلك ، قال عمرو : لِمَ ؟ قال السادن : تُمْنَع ، يقصدُ : أنَّ الصَّنم يحمي نفسه ويمنع ابن العاص من أن يصيبه بسوء .

فردَّ عمرٌو : ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثمَّ دنا فكسره ، ولم يستطع الصَّنم أن يمنع نفسه بشيء ، وكيف يستطيع وما هو إلاَّ حجر ، ثمَّ قال عمرو بن العاص للسَّادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله[2] .

إنَّ انتصار الإسلام في الجزيرة العربيَّة كان كما تدلُّ هـٰذه القصَّة المعبِّرة انتصاراً للعقلانيَّة على الجهالة والشعوذة ، وللحرِّيَّة علىٰ مذاهب الخوف والخضوع للأصنام والأوهام الفاسدة ، وللإيمان بالله الواحد الأحد علىٰ عقائد الشِّرك والوثنيَّة .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٩) .

(٢) الرحيق المختوم (ص٤٧٨) .

وعلىٰ بعد نحو عشرين ميلاً من مكَّة من جهة جبل عرفات غلب التَّعصُّب علىٰ أهل هوازن وثقيف ، فاجتمع العديد من فروعهم القبليَّة في حشد كبيرٍ للعدوان على المسلمين ، كان من هـٰذه الفروع نصر وجشم وسعد بن بكر بالإضافة إلىٰ قلة من بني هلال ، وتصدَّىٰ لزعامة هـٰذا الجيش وقيادته مالك بن عوف النَّصريُّ من زعماء هوازن .

خرج جيش هوازن وثقيف في حملته ضدَّ المسلمين ونزل بوادٍ يسمَّىٰ أوطاس ، وكان في الجيش وجهٌ بارز من زعماء بني جشم اسمه دريد بن الصِّمَّة قد فقد البصر وكَبِرت به السِّنُّ ، لكنَّ النَّاس كانوا يحترمونه ويحرصون علىٰ مشورته ؛ لتجاربه الكثيرة وخبراته في الحرب ، وعندما نزل الجيش بأوطاس واجتمع النَّاس ومنهم دريد بن الصِّمَّة حول زعيمهم مالك بن عوف ؛ قال دريد : بأيِّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزنٌ ضرس ، ولا سهلٌ دهس ؛ أي : ليس مرتفعاً كثير الحجر ، ولا سهلاً ليِّن التُّراب ، وتساءل دريد : ما لي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشَّاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع النَّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

لم يرتح الشَّيخ المجرِّب لما سمع ، فنادىٰ مالكاً وجادله وسأله لِمَ ساق مع النَّاس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ؟ أجاب مالك : أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فغضب دريد وزجر قائد الجيش وقال : راعي ضأن والله ، وهل يردُّ المنهزم شيءٌ ؟ إنَّها إن كانت لك ؛ لم ينفعك إلاَّ رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك ؛ فضحت في أهلك ومالك ، ثمَّ سأل دريدٌ عن كعب وكلاب ، وهما فرعان من قبيلة هوازن ، فقيل له : إن أهل هـٰذين الفرعين قاطعوا حملة العدوان على المسلمين ولم يشاركوا فيها ، فعلَّق

بقوله : غاب الحَدُّ والجِدُّ ، ولو كان يوم علاء ورفعة ؛ لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنَّكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذانك الجذعان ـ (يقصد : أنهما في عمر الشباب وتنقصهما الخبرة) ـ لا ينفعان ولا يضران .

الآن وقد اكتملت المعطيات الرئيسة لدىٰ دريد بن الصُّمَّة صاحب الخبرة والتَّجربة والرَّأي ، فقد أصبح بوسعه أن يقدِّم نصيحةً محدَّدةً لزعيم الحملة ، قال له : إنَّك لم تصنع بتقديم البيضة ـ (يقصد الجماعة) ـ بيضة هوازن إلىٰ نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلىٰ متمنع بلادهم وعليا قومهم ، ثم ألق الصباة ـ (يقصد المسلمين) ـ علىٰ متون الخيل ، فإن كانت لك ؛ لحق بك من وراءك وإن كانت عليك ؛ ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك .

وانتفض مالكٌ غاضباً ، وكره أن ينافسه دريدٌ برأيٍ أو مشورة في قيادة هـٰذه الحملة ، فقال له بحدَّة : والله ؛ لا أفعل ذلك ، إنَّك قد كَبِرت وكَبِر عقلك ، والله ؛ لتطيعنَّني يا معشر هوازن أو لأتَّكئنَّ علىٰ هـٰذا السَّيف حتَّىٰ يخرج من ظهري ، فقال له النَّاس : أطعناك .

إنَّها حرب عدوانية إذن علىٰ مذهب مالك بن عوف النَّصريِّ وتدبيره ، وقد وصل خبرها إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقرَّر التَّصدِّي لها ، وخرج يوم السَّبت السَّادس من شهر شوَّال في السَّنة الثَّامنة للهجرة علىٰ رأس جيش فيه المسلمون الذين جاؤوا معه في حملة تحرير مكَّة ، وهم عشرة آلاف وألفان من المسلمين الجدد أسلموا بعد الفتح ، فكان المجموع اثني عشر ألفاً .

ثبات القائد وقت الشِّدَّة

هـٰذا أكبر جيش قاده النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة قبل ثمان سنوات ، ولا شكَّ أنَّ كثيراً من المشاركين في الحملة أحسُّوا بالزُّهوِّ

والأمان والاطمئنان ، حتَّىٰ جزم بعضهم بالنَّصر واعتبروه مضموناً دون شكٍّ ولا ريبٍ .

وقد تحقَّق النَّصر بالفعل ، ولكن بعد مفاجأةٍ خطيرةٍ وامتحانٍ قاسٍ ، حدَّث بها جابر بن عبد الله رضي الله عنه وهو من صحابة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : لما استقبلنا وادي حُنَين ؛ انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوفَ حَطوط[1] ، إنَّما ننحدر فيه انحداراً في عماية الصُّبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيَّؤوا وأعدُّوا ، فوالله ؛ ما راعنا ونحن منحطُّون إلاَّ الكتائب قد شدُّوا علينا شدَّة رجلٍ واحدٍ ، وانشمر النَّاس راجعين لا يلوي أحدٌ علىٰ أحدٍ[2] .

مفاجأة عسكريَّة لم يحتط لها المسلمون أدَّت إلى ارتباكهم وانكسارهم وتراجعهم ؛ طلباً للنَّجاة من عدوٍّ سبقهم إلىٰ ساحة المعركة واختار أفضل المواضع فيها وانقضَّ عليهم بالسِّهام والسيوف في طرفة عين ، أكثر النَّاس أذهلتهم المفاجأة فتراجعوا لا يلوي أحد علىٰ أحد كما قال جابر ، أكثر النَّاس فعلوا ذلك إلا أشجعهم وأكثرهم ثقة بالله وبالحقِّ الذي جاء به هدىً للنَّاس النبيُّ محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد انحاز إلىٰ يمين الوادي وهتف في جنوده المتراجعين : « أين أيها النَّاس ؟ هلمُّوا إليَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمَّد بن عبد الله » .

كثير من المتراجعين ما سمعوا أو ما رغبوا في سماع النِّداء ، لكنَّ عدداً من المهاجرين والأنصار لبَّوا النِّداء وثبتوا مع قائدهم ، ومنهم أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعليُّ بن أبي طالب ، والعبَّاس بن عبد المطلب ، والمغيرة أبو سفيان بن الحارث ، وابنه جعفر ، والفضل بن العبَّاس ،

---

(١) أي : متسع ومنحدر ، وانظر « فقه السيرة » (ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٢) .

وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد الذي استشهد ذلك اليوم.

ونظر بعض الذين أسلموا في حملة تحرير مكَّة إلىٰ ما يجري أمام أعينهم من تراجع المسلمين وهزيمتهم فكشفوا عما بقي في نفوسهم ضدَّ الإسلام وأهله ، كان من هٰؤلاء أبو سفيان بن حرب ومعه الأزلام في لمعة كنانته لم يتخلَّص منها رغم أنَّها مخالفة لتعاليم الإسلام ، فقال : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية الذي أعطاه النَّبي صلى الله عليه وسلم الأمان بعد أن كان يفكِّر في ركوب البحر والهجرة من بلاده قال : ألا بطل السِّحر اليوم ، ويحمد لصفوان أنَّه لم يشمت بالمسلمين مثل أخيه ولو كان ذلك لاعتباراتٍ قبليَّةٍ بحتةٍ ، فقد ردَّ علىٰ أخيه : اسكت فضَّ الله فاك فوالله ؛ لأن يربني رجل من قريش أحبُّ إليَّ من أن يربني رجلٌ من هوازن[1] .

لكن شماتة أبي سفيان وكلدة بن الحنبل كانت متسرِّعة ، فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الشُّجاع المتوكل علىٰ ربه والمعول علىٰ نصره وتأييده صمد ومعه نخبة من المؤمنين الصَّادقين ، ويروي عمُّه العبَّاس تفاصيل تلك اللَّحظات الصَّعبة : كنت امرأً جسيماً شديدَ الصَّوت ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول حين رأىٰ من النَّاس : « أين أيُّها النَّاس ؟ » فلم أر النَّاس يلوون علىٰ شيء ، فقال : « يا عبَّاس ؛ اصرخ يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمرة » فأجابوا : لبيك ، لبيك ، فيذهب الرَّجل ليثني بعيره فلا يقدر علىٰ ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤمُّ الصَّوت حتَّىٰ ينتهي إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، حتَّىٰ إذا اجتمع إليه منهم مئة ؛ استقبلوا النَّاس فاقتتلوا ، وكانت الدَّعوىٰ أوَّل ما كانت : يا للأنصار ثم خلصت أخيراً : يا للخزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه ، فنظر إلىٰ مجتلد

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٤) .

القوم وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حمي الوطيس »[1] .

ثبت القائد الشجاع رغم وطأة الصَّدمة لم يتزعزع ، فعادت الثِّقة إلىٰ أصحابه ، وعلىٰ رأسهم قادة المهاجرين وصناديد الأنصار الذين ناداهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يخيِّبوا ظنَّه ، ثمَّ سرعان ما عاد المتراجعون من المسلمين إلىٰ ساحة الدِّفاع عن الحقِّ وعن نبيِّهم ، فاستقام الأمر لهم ، ودارت الدَّائرة علىٰ جيش المعتدين من هوازن وثقيف .

انتصر المسلمون إذن بعد امتحان عسيرٍ أوَّل الأمر ، ونزل من السَّماء قرآن كريم يبيِّن نعمة الله علىٰ عباده من بعد أن غرَّتهم كثرتهم وكادوا يهزمون : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٥ـ٢٦] .

دعاء النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لخصومه

تراجع المنهزمون مدحورين بعد خسائر ثقيلة لحقت بهم ، وتوجَّهوا إلىٰ مدينة الطَّائف فأغلقوا عليهم أبوابها ، وتحصَّنوا فيها ، واستعدُّوا لجولةٍ جديدةٍ من القتال ثم لحقهم المسلمون وحاصروهم لأكثر من أسبوعين ، فلمَّا لم يقدروا علىٰ دخول المدينة لضخامة تحصيناتها ؛ تركوها وعادوا إلىٰ مكَّة المكَّرمة مروراً بمنطقة الجعرَّانة ، وقال مسلمٌ غاضب من أهل ثقيف للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ ادع عليهم ، فقال الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم : « اللَّهم ؛ اهد ثقيفاً وأت بهم »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٥) .

(٢) الرحيق المختوم (ص ٤٨٩) .

هـٰذا هو أهمُّ ما في نفس النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي نفس كلِّ مسلمٍ مخلص بعده ، مغانم الدُّنيا كلُّها لا تساوي جناح بعوضة بالقياس إلىٰ هداية النَّاس لنعمة الإيمان بالله وتحريرهم من الخضوع للأصنام ولأيِّ قوَّة أخرىٰ علىٰ وجه الأرض ، لم يدع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالخسران والدَّمار علىٰ ثقيف ، وإنَّما دعا لهم بالهداية ؛ تأكيداً لحقيقة ما في قلبه الشريف من محبَّة للنَّاس أجمعين .

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في منطقة الجعرَّانة عندما جاءه وفد من هوازن يطلب منه أن يعفو عنهم ويصفح ويردَّ عليهم ما خسروه في الحرب ، فأجابهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ ما طلبوا وحثَّ أصحابه على الاقتداء به ، فردَّ المسلمون إلىٰ أهل هوازن جميع أسراهم .

وسأل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وفد هوازن عن زعيمهم مالك بن عوف الذي حشدهم للحرب ضدَّ المسلمين فأخبروه أنَّه مقيمٌ بالطَّائف في حماية ثقيف ، فقال لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أخبروا مالكاً أنَّه إن أتاني مسلماً ؛ رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل » فلمَّا وصل الخبر إلىٰ مالك ؛ أخفاه عن ثقيف ؛ كي لا يمنعوه من السَّفر ، وجهَّز نفسه للخروج من الطَّائف ، ثمَّ خرج منها ليلاً علىٰ فرسه ووجد راحلة أخرىٰ له تنتظره خارج الطَّائف فركبها ، وتوجَّه نحو النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فلقيه في الجعرَّانة ، فأكرمه وردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل ، وأسلم مالك بن عوف وحسن إسلامه ، وولاَّه النبي علىٰ من أسلم من قومه[1] .

وأعطى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عدداً من زعماء قريش الذين أسلموا حديثاً مثلما أعطىٰ لمالك بن عوف يقصد بذلك تكريمهم ويتألف بها قلوبهم وقلوب أقوامهم ، وهـٰذا مما يصنعه القادة المحنكون الذين يعرفون أقدار

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩١) .

الزُّعماء ، حتَّىٰ لو كانوا من ألدِّ خصومهم ، وكان ممَّن نال هـٰذه الأعطيات أبو سفيان بن حرب ، وابنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن كلدة ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أميَّة ، وآخرون ، وأعطىٰ لآخرين كثيرين أيضاً دون المئة من الإبل .

هـٰذا هو النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وسط قومه الذين مالوا أخيراً إلى الإسلام وانفتحت صدورهم له ، بحرٌ من المحبَّةِ للنَّاس والرَّأفةِ بهم ، والحرص علىٰ هدايتهم لنور الإيمان بالله وتحريرهم من أغلال الجهل والخوف والاستبداد ، وقائد شجاع لا يخشى الموت ولا يتراجع أمام الأعداء وإن تراجع من حوله صناديد الرِّجال ، وزعيمٌ يكرم النَّاس وإن كانوا من خصومه الأشدَّاء ، ويعطي للنَّاس عطاء من لا يخشى الفقر ، ولو كانت مغانم الدُّنيا هي مطلبه من الدعوة التي نذر لها حياته ؛ لكان جعل من نفسه كسرىٰ أو قيصر ، ولأسرف في الإنفاق علىٰ نفسه قبل أيِّ إنسانٍ آخر ، ولكنه بنىٰ حياته كلَّها على التَّواضع وعلى الزُّهد في الدُّنيا ، فلم تخدعه ببريقها قطُّ رغماً أنَّها براقة مغرية ولطالما خدعت القادة والزُّعماء علىٰ مرِّ التَّاريخ .

حوار صريح بين النَّبيِّ والأنصار

كانت عطايا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم موجهةً لحديثي العهد بالإسلام من قريش ومن القبائل العربيَّة المجاورة ، ولم يكن للأنصار نصيبٌ منها ، وأدىٰ هـٰذا إلىٰ تململٍ وقلقٍ في صفوفهم ، وظنَّ بعضهم أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم مال إلىٰ بني قبيلته بعد أن فتح الله عليه مكَّة وما جاورها ونسيَ الأنصار ، جاء سعدُ بن عبادة إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يبلغه هـٰذه الشَّكوىٰ باسم قومه ، وقال : يا رسول الله ؛ إنَّ هـٰذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هـٰذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت

عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هٰذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ .

قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » فأجاب : يا رسول الله ؛ ما أنا إلاَّ من قومي ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فاجمع لي قومك في هٰذه الحظيرة » ، فلما اجتمع الأنصار ؛ جاءهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال : « يا معشر الأنصار ؛ ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وَجِدةٌ ـ شكوىٰ ـ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلَّالاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم ؟! » .

قال الأنصار : بلىٰ ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل .

إنَّ الأنصار متردِّدون لا يستطيعون مصارحة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بكلِّ ما في نفوسهم ؛ لذلك سألهم من جديد وهو يعرف سبب انزعاجهم : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟! » .

وما زال الحياء يغلب الأنصار وهم الذين اشتهروا في التاريخ بأخلاقهم الكريمة وبما حملته نفوسهم من محبَّةٍ عميقةٍ صادقةٍ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ .

أما وقد غلب الحياء على الأنصار فلم يجرؤ أحدٌ منهم علىٰ عرض ما دار بينهم بصراحة ؛ فقد آن أن ينطق باسمهم أشهر من أحبهم علىٰ مدى التَّاريخ كلِّه ، ومن علَّمهم وعلَّم الإنسانية كلَّها معاني العدل في أسمىٰ مظاهره ، إن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو من سيجيب وينطق بما في نفوسهم ، وها هو يقول لهم بعدما رأىٰ صمتهم وتردُّدهم : « أما والله ؛ لو شئتم ؛ لقلتم ـ فلصَدَقْتُم ولصُدِّقتُم ـ : أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك » .

تحدَّث النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم هنا كأنَّه المحامي الأول للأنصار ، فينطق بما في نفسه هو من صدقٍ وشفافيةٍ وتواضعٍ واعترافٍ بالجميل ، إنَّه لم ينس قطُّ

فضلَ الأنصار على الإسلام وعلىٰ نبيِّه ، وها هو قد لخصه في جملةٍ قصيرة يحتاج الآخرون إلىٰ كتب مطوَّلة لشرحها ، ويعرضه بقوَّةٍ ووضوحٍ ومن دون أيِّ ذرَّةِ تحفُّظ ، كِرَام النَّاس وحدهم هم من يعترف بالجميل وبالفضل لأهله .

ثمَّ أضاف النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا ـ أي : بعض نعيم الدُّنيا ـ تألَّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلىٰ إسلامكم ؟! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النَّاس بالشَّاة والبعير وترجعوا برسول الله إلىٰ رحالكم ؟ فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيده ؛ لولا الهجرة ؛ لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ؛ لسلكتُ شعب الأنصار ، اللهم ؛ ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى الأنصار حتَّى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قَسْماً وحظّاً ، ثمَّ انصرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتفرَّقوا[1] .

أيُّ قَسْمٍ وحَظٍّ أفضل من صحبة آخر الأنبياء ومجاورته ؟! وأيُّ شرفٍ أعظم لأهل يثرب من أن تصبح مدينتهم مدينةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يرتبط اسمه بها وبهم إلىٰ يوم القيامة ؟! وأيُّ مكانةٍ أرفع من أن تعود جيوش الإسلام الظَّافرة التي حرَّرت مكَّة وما حولها إلى المدينة المنوَّرة ؛ تأكيداً لمكانتها كعاصمةٍ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّةٍ في التَّاريخ ، كلُّ مسلمٍ يقرأ تاريخ ذلك الحوار بين النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والأنصار يغبط الأنصار علىٰ ما قيل فيهم ، ويعلم يقيناً أنَّهم كانوا أكبر الفائزين .

حان الوقت الآن للعودة إلى المدينة ، ومن منطقة الجعرِّانة توجَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلىٰ مكَّة معتمراً ، وبعد أداء المناسك توجَّه نحو المدينة المنوَّرة ، وعين قبل انصرافه عتَّاب بن أَسِيد والياً علىٰ مكَّة ، وكلَّف معاذ بن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) .

جبل أن يبقىٰ معه هناك يعلِّم النَّاس القرآن وتعاليم الإسلام ، وكان مرتَّب عتاب بن أسيد درهماً في اليوم ، وقد حجَّ بالمسلمين في ذلك العام ، وهو العام الثَّامن للهجرة ، وحجَّ مع المسلمين كثيرٌ من العرب علىٰ ما كانوا يحجُّون عليه من قبل فتح مكَّة .

في نهاية الشَّهر الحادي عشر من العام الهجريِّ الثَّامن عاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مع جيش التَّحرير الذي صاحبه في حملة تحرير مكَّة ، ووصلوا المدينة ظافرين ، لقد تغيَّرت المعطيات وانقلبت موازين القوىٰ لصالح معسكر الإيمان والحرِّيَّة ، قبل ثمان سنواتٍ كان المسلمون قلَّةً مستضعفةً مستهدفةً ومهدَّدةً بالاستئصال ، قبل ثمان سنوات كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مهدّداً بالقتل ، وكان طريق هجرته إلى المدينة غير آمن وتمنح الجوائز المالية المغرية لمن يأتي به إلىٰ طغاة قريش حيّاً أو ميتاً ، وخلال السَّنوات الثَّمان المنصرمة جرت معارك بدر وأحد والخندق ، وفي كلِّ واحدةٍ من هـٰذه المعارك كان عدد المشركين أضعاف عدد المسلمين ، وكان الهدف الاستراتيجي لطغاة قريش ومن تحالف معهم من القبائل ومراكز التَّأثير في الجزيرة العربية استئصال الإسلام وتصفية نبيِّه والمؤمنين به .

لكنَّ إرادة الله سبحانه كتبت النَّصر للإيمان على الشِّركِ والكفرِ ، وللحرِّيَّة علىٰ الاستبداد والطُّغيان ، وكَلَّلت بالتَّوفيق والنَّجاح جهودَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه وكافأتهم علىٰ إخلاصهم لدعوة الإسلام وتضحياتهم الجسيمة ؛ من أجل مبادئهم ، وتمسُّكِهم بقيم الحقِّ والشرف والأمانة في أوقات الحرب وأوقات السِّلم علىٰ حدٍّ سواء ، والحقُّ أنَّ نصر المسلمين لم يكن هزيمةً لمكَّة ، فمكَّة انتصرت أيضاً ، ووُلِدت ولادةً جديدةً ، تخلَّصت عبرها من إرث الشِّرك وطبائع الاستبداد وسوءات الظُّلم والعنصريَّة ، وانفتح لها بابٌ عريض على الماضي تستعيد به هويتها الحقيقية كحاضنة لأوَّل مسجدٍ

يعبد فيه الله علىٰ مرِّ الدُّهور ، وباب أكبر وأعرض على المستقبل تثبت به موقعها قبلةً للمسلمين ومهوىً لأفئدة الملايين من البشر في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، يقصدونها للحجِّ والعمرة ، ويرونها أحبَّ البلاد إليهم ، ويعلمون أيضاً أنَّها أحبُّ البلاد إلى الله عز وجل .

إسلام الشَّاعر كعب بن زهير

بعد العودة من مكة المكرمة أقام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فترة يستقبل وفود القبائل التي أعلنت دخولها في الإسلام ، ويرسل إليها وإلىٰ غيرها من المناطق الدُّعاة والمبلِّغين الذين يشرحون للنَّاس تعاليم الإسلام وأركانه ومستحبَّاته ، ويبيِّنون لهم شريعةَ الله التي أُنزِلت علىٰ محمَّد ليتمِّم بها مكارم الأخلاق .

وقدم إلى المدينة أيضاً في تلك الفترة كعب بن زهير ، وهو شاعر كبير من أشهر الشعراء العرب ، وكان ممن نظموا الشِّعر من قبل في هجاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين وإذايتهم ، قبل قدومه بأيام تلقَّىٰ كعب رسالة من أخيه بجير وهو من صحابة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ينصحه فيها باللُّجوء إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّه لا يردُّ من جاءه تائباً أو بالنجاة والفرار إلىٰ أقاصي الأرض بعد أن امتدَّ سلطان الدَّولة الإسلاميَّة واتَّسع في أنحاء الجزيرة العربيَّة ، وصلت الرِّسالة إلىٰ كعب ، واشتدَّ خوفه ممن كانوا محيطين به ، وظنَّ أنَّ المسلمين سيقبضون عليه ويعاقبونه علىٰ ما سبق من عداوته لهم ، وقد كان الشِّعر قديماً وحديثاً من أشدِّ وسائل الحرب الإعلاميَّة والنَّفسيَّة والسِّياسيَّة عند العرب والمسلمين ، ولعلَّ في هـٰذا دليلاً علىٰ تقديرهم للأدب والشِّعر وتأثُّرهم البالغ بهما .

اختار كعب أن يلجأ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بدل الفرار في

أقاصي الأرض ، فسافر إلى المدينة ودخلها متنكِّراً ونزل عند رجلٍ يعرفه من قبيلة جهينة ، حتَّىٰ إذا دخل وقت صلاة الفجر توجَّه مع النَّاس إلى المسجد وصلَّى الصُّبح خلف النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وبعد الصَّلاة اقترب كعبٌ من الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده في يده ، ولم يكن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرف هيئته من قبل ، قال كعب : يا رسول الله ؛ إنَّ كعبَ بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به ؟ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « نعم » ، قال كعب : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

سمع رجلٌ من الأنصار اسم الشاعر المعروف فقام منتفضاً : يا رسول الله ؛ دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه ، وكان الأنصاريُّ عليماً بعنف الهجاء الذي لحق النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من كعب بن زهير ، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ردَّ عليه : « دعه عنك ؛ فإنَّه قد جاء تائباً ، نازعاً عمَّا كان عليه » .

ثمَّ استأذن كعبٌ في إلقاء قصيدةٍ أعدَّها في مدح النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فأذن له ، فألقىٰ قصيدةً مشهورة في الأدب العربيِّ يقول في مطلعها : (من البسيط)

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

ثم قال يصف حاله قبيل قدومه المدينة وقراره باللُّجوء إلىٰ أمان الإسلام :

تَسْعَى ٱلْغُوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... إِنَّكَ يَا ٱبْنَ أَبِي سُلْمَىٰ لَمَقْتُولُ

وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ آمُلُهُ ... لاَ أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

فَقُلْتُ خَلُّو سَبِيلِي لاَ أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَدَّرَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَفْعُولُ

كُلُّ ٱبْنِ أُنْثَىٰ وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ ... يَوْماً عَلَىٰ آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَوْعَدَنِي ... وَٱلْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ مَأْمُولُ

مَهْلاً هَدَاكَ ٱلَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ ٱلْـ ... ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ ٱلْوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ ٱلأَقَاوِيلُ

إِنَّ ٱلرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ مَسْلُولُ

هٰذه أبيات قليلة من قصيدة كعبٍ الطَّويلةِ وقد مدح فيها أيضاً المهاجرين الذين قدموا مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من مكَّة إلى المدينة دفاعاً عن الإسلام ، لكنَّه لم يقل شيئاً في الأنصار ؛ لأنه غضب من الأنصاريِّ الذي أراد قتله عندما عرف هويَّته في المسجد ، فقال له الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ فإنَّهم لذلك أهل[1] .

فاستجاب كعب وقال في قصيدة طويلة هٰذه بعض أبياتها :

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ ٱلْحَيَـاةِ فَـلاَ يَـزَلْ　　فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِ ٱلأَنْصَارِ

وَرِثُوا ٱلْمَكَارِمَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ　　إِنَّ ٱلْخِيَـارَ هُـمُ بَنُـوا ٱلأَخْيَـارِ

وَٱلْبَـائِعِيـنَ نُفُـوسَهُـمْ لِنَبِيِّهِـمْ　　لِلْمَـوْتِ يَـوْمَ تَعَـانُـقٍ وَكِـرَارِ

ونال كعبٌ أمان النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بقصيدةٍ جميلةٍ أعجبت من سمعها ، وأعجبت نُقَّاد الشِّعر العربيِّ ومحبِّيه في كلِّ الأجيال ، وبقيت قصَّتها رمزاً لسماحة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وسماحة أصحابه .

غزوة تبوك

مع أنَّ فتح مكَّة وتحريرها ودخول أهلها في الإسلام عزَّز مكانة الدَّولة الإسلاميَّة في الجزيرة العربيَّة وأعطاها الهيبة والقوَّة في نفوس كل من كانت تحدِّثه نفسهم بالشَّر والعدوان ؛ فإنَّ الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة في الشَّام بسلطانها وبنفوذها الممتد إلىٰ شمال الجزيرة العربيَّة بقيت تمثل تهديداً حقيقيّاً للدَّولة الإسلاميَّة ، كانت معركة مؤتة التي استشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة قد شغلت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة ومراكز النُّفوذ التَّابعة لها عن التَّحرش بالمسلمين فترة من الزَّمن ، لكنَّ أخباراً وصلت إلىٰ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعد عودته من تحرير مكَّة تفيد بأنَّ الرُّومان يخططون

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٥) .

لعدوان جديدٍ ، وأنَّ زعيمهم هرقل أعدَّ جيشاً ضخماً من أربعين ألف مقاتل يريد به القضاء على الإسلام والمسلمين ، شاع هـٰذا الخبر أيضاً بين النَّاس ، إلىٰ درجة أن بعضهم توقَّع أن يرىٰ جيوش الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة عند أطراف المدينة المنوَّرة ، من ذلك مثلاً أن رجلاً جاء إلىٰ عمر بن الخطاب يريد أن يخبره بأن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم آلىٰ من زوجاته ، فلما رأىٰ عمر الجزع علىٰ وجهه ؛ ظن أن الرومان وأعوانهم هجموا ، وسأله : هل جاء الغساني ؟! والغساني ملك من ملوك غسان العاملين تحت إمرة وحماية الإمبراطورية الرومانية في منطقة الشام .

كان الخطر حقيقياً ؛ لأن الإمبراطورية الرومانية قوة عظمىٰ في النظام العالمي السائد آنذاك ، والتهديد الذي تمثله يمس مصير الدولة الإسلامية بشكل حاسم ، كما أن الانتصار الحاسم داخل الجزيرة العربية يمكن أن يتبدد ويختفي أثره ، إذا شعرت القبائل العربية وغيرها أن بقاء دولة المدينة ظرفي ومؤقت، وأنها عاجزة عن حماية نفسها أمام أطماع الرومان وحلفائهم في الشام .

اختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد علىٰ هـٰذه المخاوف ويقلب المعادلة بقرار استراتيجي تمثل في الإعلان عن حملة عسكرية كبيرة تخرج تحت قيادته إلىٰ مراكز المعتدين المتربصين ، وتعلن للجيوش الرومانية والقبائل المتحالفة معها ولأهل الجزيرة العربية كلها أن الدولة الإسلامية وجدت لتبقىٰ وأن لأهلها من الثقة بأنفسهم ورسالتهم وإمكانياتهم ما يجعلهم قادرين على الدفاع عن أنفسهم ورد أي خطر أو عدوان .

لكنَّ الوقت الذي قرَّر فيه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم التَّحرك نحو تبوك في شمال الجزيرة العربية وافق فترة عُسْرٍ وضيقٍ وشدَّةٍ من الحَرِّ وجدب من البلاد ، وكانت ثمار المزارع قد طابت لأصحابها ونضجت وآن أوان قطافها ، والنَّاس يتجنَّبون الخروج لشدَّة الحرِّ ويحبُّون الاستمتاع بثمارهم وظلال

مزارعهم ، في هٰذا الظَّرف الصَّعب أبلغ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه بالاستعداد للخروج في غزوةٍ جديدةٍ ، وأعلمهم أن مقصده تبوك ، وأنَّ العدوَّ المراد صدُّه أقوىٰ وأخطر من كل عدوٍّ سابقٍ ؛ لأنَّه جيش القوَّة الدوليَّة الرَّئيسة في المنطقة ؛ أي : جيش الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة ، ولم يكن له من منافس جدِّيٍّ آنذاك إلا جيش الإمبراطوريَّة الفارسيَّة .

تبرُّعات أبي بكر وعمر وعثمان

سمِّيت هٰذه الحملة بغزوة العسرة نظراً لخطورة العدوِّ وشدَّة الحرِّ ونقص الموارد المتاحة لها ، وأيضاً بسبب التَّحرُّكات التي قام بها عددٌ من المنافقين داخل المدينة ؛ لتثبيط النَّاس عن المشاركة فيها ، حتَّىٰ قال بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر ، وحثَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه المخلصين من أصحاب الغنىٰ والسَّعة على التَّبرُّع للحملة والمساهمة في تجهيز الجيش ، فاستجاب كثيرٌ منهم ، وكان أكثرهم في العطاء والسخاء عثمان بن عفَّان ، صهر النبي صلى الله عليه وسلم وثالث الخلفاء الراشدين ؛ فقد أنفق ألف دينار ، حتَّىٰ قال عنه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهم ؛ ارض عن عثمان فإني عنه راض »[(١)] .

وقيل عن عثمان : إنه كان جهَّز قافلةً تجاريَّة للشَّام فيها مئتا بعيرٍ فتصدَّق بها وبما فيها للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتصدَّق بمئة بعير أخرىٰ بما عليها من بضائع بالإضافة إلى الألف دينارٍ التي نثرها في حجر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل :

إنه تصدَّق بالمزيد ، حتَّىٰ بلغ ما وفَّره للحملة تسع مئة بعير ، ومئة فرس ، بالإضافة إلى الأموال .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٧ـ٥١٨) .

وجاء أبو بكر الصِّدِّيق بماله كلِّه ، وكان أربعة آلاف درهم ، فتصدَّق بها للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعندما سأله الرَّسول صلى الله عليه وسلم عمَّا ترك لأهل بيته أجابه : تركت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطَّاب بنصف ماله ، وجاء العبَّاسُ بن عبد المطَّلب عمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمالٍ كثيرٍ ، وتصدَّق آخرون كثيرون غيرهم .

ومع كلِّ هـٰذه الصَّدقات فإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يستطع تأمين كل حاجيَّات الحملة سواء من جهة الزَّاد أو المراكب ، فقد كان في جيش المسلمين نحو ثلاثين ألف مقاتل بينما كان عدد الإبل المتاحة لهم قليلاً ، وبلغ بهم الأمر أنَّ البعير الواحد عندهم يتعاقب عليه ثمانية عشر رجلاً ، كما أنَّهم اضطرُّوا لأكل أوراق الشَّجر ، وواجهوا صعوباتٍ شديدةٍ في تأمين ما يحتاجونه من الماء خلال رحلتهم الصَّعبة .

بعض المسلمين جاؤوا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل خروجه يطلبون منه راحلة يركبونها للمشاركة معه في الحملة ولما اعتذر لهم ؛ لأنَّه لا يجد ما يحملهم عليه ؛ تولَّوا وأعينهم تفيض من الدَّمع حزناً بسبب عدم قدرتهم على الخروج مع بقية المسلمين والمساهمة في إنجاح الحملة ، من هـٰؤلاء : عبد الرحمـٰن بن كعب ، وعبد الله بن مغفل ، وجدهما ابن يامين بن عمير يبكيان فسألهما : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوَّىٰ به على الخروج معه ، فتبرَّع لهما ابن يامين بجملٍ وزاد من التَّمر فخرجا في الحملة شاكرين مسرورين .

حماس الفقراء ، وقصَّة أبي خيثمة وأبي ذرٍّ

مقابل حماس الأغلبية الساحقة من المؤمنين للمشاركة في حملة تبوك ، ومشاعر الحزن الشديدة التي كانت تتملك الواحد منهم إذا لم يجد راحلة يركبها

للخروج مع الناس ؛ كان المنافقون ، بسبب قلوبهم المريضة وسوء طويتهم ، يبحثون عن أي عذر للقعود وعدم الخروج ، وقد بخلوا بأموالهم ولم ينفقوا في تمويل الحملة ، كما أنهم سخروا من المنفقين والمتصدقين ، ثم لم يكفهم ذلك ، وإنَّما حاولوا أيضاً تخويف المسلمين وتثبيطهم ، حتَّىٰ قال بعضهم لبعض المؤمنين : أتحسبون جِلاد بني الأصفر ـ يعنون الروم ـ كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله ؛ لكأنَّا بكم غداً مقرنين في الحبال ، وعندما سأل عمار بن ياسر بأمر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعض المروِّجين لهٰذه الإشاعات والمخاوف ؛ اعتذر منهم رجل يدعىٰ مخشن بن حمير فعفىٰ عنه ، وغيَّر اسمه وسأل الله أن يرزقه الشَّهادة وألا يعلم بمكانه ، فكان من خبره أنَّه استشهد يوم اليمامة ولم يعثر له علىٰ أثر .

وكان ممن همَّ بالقعود وعدم المشاركة في الحملة صحابيٌّ يدعىٰ أبا خيثمة ، وقد عاد ظهراً إلىٰ بيته في يوم حارٍّ بعد خروج النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ تبوك بمدَّةٍ قليلةٍ ، ووجد زوجتيه جهَّزتا له عريشاً يستظلُّ به ، ورشَّتاه بالماء ، وأعدَّتا طعاماً شهيّاً وماءاً بارداً يروي ظمأ العطشان في مناخ صحراويٍّ جافٍّ وصيفٍ شديدِ الحرِّ ، فلمَّا رأىٰ ما أعدَّ له من نعيم ؛ تذكَّر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال : رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في الضَّح ـ الشَّمس ـ والرِّيح والمطر ، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ وطعامٍ مهيَّأ وامرأةٍ حسناء ، في ماله مقيم ، ما هٰذا بالنَّصَف ـ أي : بالعدل ـ وتوجَّه بالخطاب إلىٰ زوجتيه : والله ؛ لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّىٰ ألحق برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فهيِّئا لي زاداً ، وما هي إلا هنيهة قصيرة حتىٰ ركب أبو خيثمة جمله وسلك الطريق مسرعاً يلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إلىٰ أن أدركه في تبوك .

في الطَّريق لقي أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحي فترافقا ، ولما أصبحا علىٰ مسافةٍ قليلةٍ من جيش النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ طلب أبو خيثمة أن

يسبق ويتقدم إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وحده ، فأذن له صاحبه ؛ ولمَّا اقترب ؛ قال النَّاس هـٰذا راكب على الطَّريق مقبلٌ ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يا رسول الله ؛ هو والله ؛ أبو خيثمة ، فلمَّا وصل وأناخ جمله وسلَّم علىٰ صاحب الرِّسالة ؛ قال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أولىٰ لك يا أبا خيثمة » أي : هـٰذا هو مكان مسلم صالح مثلك مع المؤمنين في كل حال وليس مع القاعدين والمخلفين ثم سمع النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قصة أبي خيثمة ، وقال له خيراً ودعا له بخير .

ومن أخبار تلك الحملة أيضاً : أنَّ النَّاس قالوا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أثناء أيام المسير الأولىٰ من المدينة إلىٰ تبوك : يا رسول الله ؛ قد تخلَّف أبو ذرٍّ وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه ، فإن يكن فيه خيرٌ ؛ فسيُلْحِقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك ؛ فقد أراحكم الله منه ، وأبو ذرٍّ الغفاريُّ صحابيٌّ مشهورٌ من صحابة النَّبيِّ اسمه جندب بن جنادة ، وكان قد ركب بعيراً ثقيل الخطو ، فلمَّا أبطأ به وبعد المسافة بينه وبين الحملة ؛ أخذ متاعه من فوق الجمل وحمله علىٰ ظهره ومشىٰ علىٰ قدميه يتبع أثر الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، حتَّى اقترب منه في منزل من المنازل ، ونظر ناظرٌ من المسلمين فأخبر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بأمر رجل يمشي على الطَّريق وحده باتِّجاه معسكر المسلمين ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كن أبا ذرٍّ » فلمَّا اقترب ؛ وعرفه المسلمون ، قالوا : يا رسول الله ؛ هو والله أبو ذر ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذرٍّ يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده »[١] .

كانت مسيرة الجيش المسلم محفوفةً بصعاب كثيرةٍ وقد أصابهم في حملتهم تلك إلىٰ تبوك تعبٌ شديدٌ وجوعٌ وعطشٌ ، لكنَّهم صبروا ، وكان أكثرهم شجاعةً وتحمُّلاً زعيمهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولمَّا وصلوا إلىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٣ـ ٥٢٤) .

تبوك ؛ عسكروا هناك ، واستعدُّوا لمواجهة جيش الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة إن أقبل ، لكنَّ الرُّومان تراجعوا عن خيار الحرب وفقدوا حماسهم له بعد أن عرفوا أنَّ المسلمين مستعدُّون للدِّفاع عن أنفسهم وليس في نفوسهم خوفٌ أو تفكير في الخضوع والاستسلام .

أمان الله ورسوله لغير المسلمين

رغم كل المشاق والصعوبات ، أثمرت حملة تبوك ووصلت رسالتها القوية لكل من يهمه الأمر ، وخلاصتها أن الدولة الإسلامية الوليدة قوية وقادرة على الدفاع عن نفسها والتصدي لكل المعتدين ، وعرف حكَّام الجهات المجاورة لتبوك أنَّ قوة الإسلام صاعدةٌ ، فجاء حاكم منطقة أيلة يطلب الصُّلح والأمان ، وجاء أهل جرباء وأذرح يطلبون الصُّلح والأمان ، وكلُّهم يقبل بدفع ضرائب للدُّولة الإسلامية مقابل تلك الحماية ، فأجابهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ ما طلبوا وأعطاهم ذمَّة الله وذمَّة رسوله ، وكان كتابه ليحنة بن رؤية حاكم أيلة ضامناً لهٰذه الذمَّة ؛ أي : لهٰذا الأمان وهٰذه الحماية ، وفيه : « بسم الله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، هٰذه أمنة من الله ومحمَّد النَّبيِّ رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة ، سفنهم وسيَّارتهم في البرِّ والبحر ، لهم ذمَّة الله وذمَّة محمَّد النَّبيِّ ، ومن كان معهم من أهل الشَّام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ؛ فإنَّه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنَّه طيِّب لمن أخذه من الناس ، وإنَّه لا يحلُّ أن يمنع ماءً يريدون ولا طريقاً يريدون من برٍّ أو بحرٍ »[1] .

ذمَّة الله ورسوله أمانٌ من المسلمين لغيرهم ، فيها السَّلام والحماية واحترام الحقوق وأداء الأمانة والوفاء بالعهد ، وهٰذا ما ناله أهل أيلة بمصالحتهم للنَّبيِّ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٥ـ٥٢٦) .

صلى الله عليه وسلم ، وهو ما ناله أيضاً أكيدر بن عبد الملك ملك دومة الذي جاء به خالد بن الوليد إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واستمرَّ مقام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في تبوك قريباً من عشرين يوماً ، أثبت خلالها للمتربِّصين به شرّاً في عاصمة الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة وفي صفوف حلفائها وكذلك في صفوف من بقي مرتاباً أو معادياً من القبائل العربيَّة أنَّ دولة الإيمان والتَّوحيد والحرِّيَّة التي قامت في المدينة المنوَّرة وجدت لتبقىٰ ، وأنَّها قادرة على الدِّفاع عن نفسها أمام كلِّ صنوف الظُّلم والعدوان .

وبعد حوالي خمسين يوماً من خروجه من المدينة المنوَّرة عاد النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع من خرج معه في تلك الحملة الشَّاقَّة الصَّعبة إلىٰ مواقعهم ظافرين منصورين ، وقد زادت عزَّتهم وهيبتهم ومكانتهم إقليميّاً ودوليّاً ، وكانت تلك آخر غزوة قادها نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وسلم في حياته .

وعندما لاحت للعائدين معالم مدينتهم بعد ذاك السَّفر الطَّويل ؛ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم متحدِّثاً عنها وعن جبل أُحُد : « هـٰذه طابا ، وهـٰذا أُحُد ، جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه »[1] .

وخرج أهل المدينة من النِّساء والأطفال وعموم من لم يخرج في الحملة بعذرٍ شرعيٍّ ، خرجوا يستقبلون الجيش العائد وينشدون : (من مجزوء الرمل)

طَلَعَ ٱلْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ ٱلْوَدَاعِ
وَجَبَ ٱلشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعِ

وثمَّة كتَّابٌ ومؤرِّخون يرون أن هـٰذه الأبيات أنشدت في استقبال الرَّسول صلى الله عليه وسلم عند وصوله إلى المدينة مهاجراً ، لكن تاريخ إنشادها أمر ثانويٌّ ؛ لأنَّ جوهر ما فيها ـ أي : الارتباط الوثيق بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) الرحيق المختوم (ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧) .

والمدينة وأهلها ـ أمرٌ لا يختلف عليه اثنان ولا يمكن أن ينكره إنسان .

وممَّا جرىٰ في طريق العودة أيضاً : أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أمر بهدم مسجد ضرار ، وهو مسجدٌ بناه عدد من المنافقين الذين يضمرون العداوة للإسلام وأهله ، وأرادوه مركزاً يتجمَّع فيه من يحمل مثلهم هٰذه العداوة تحت ستار القدوم إلى الصلاة والذكر والعبادة في بيت من بيوت الله ، وهٰذا دليلٌ علىٰ أن أقدس الأماكن وعلىٰ رأسها المساجد يمكن أن تُتَّخذ مراكز تآمر وإفسادٍ إذا انقادت النَّفس البشريَّة لنوازع الشَّرِّ والحقد والكراهية ، وقد نزل في أمر هٰذا المسجد قرآنٌ كريمٌ جاء فيه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٧ـ١٠٨] .

وفي المسجد النَّبويِّ الشَّريف جاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كثيرٌ من المنافقين يختلقون المبرِّرات ويعتذرون له عن تخلفهم وعدم مشاركتهم في الحملة فقبل منهم ظاهرَ أعذارهم ، لكنَّ سوء نواياهم كان واضحاً ومعلوماً له ، وكان معلوماً قبل ذلك لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور .

قصَّة المخلَّفين الثَّلاثة

لكن ثلاثة من المخلَّفين لم يكذبوا ولم يختلقوا الأعذار ، هٰؤلاء ثلاثة لم يعرفوا بنفاقٍ فاختلف وضعهم عن بقيَّة المعتذرين ، وحماهم إيمانهم أن يتشبَّهوا بالمنافقين وأن يخترعوا أسباباً كاذبة لموقفهم المُشِين ، وكذلك أيضاً : اختلف موقف النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم معهم ، فهو قبل أعذار المنافقين الكاذبة وأوكل نواياهم إلىٰ من يعلم خائنة الأعين وما تخفي

الصدور ، لكنَّه أمر أصحابه بمقاطعة هٰؤلاء الثلاثة الذين اعترفوا بأخطائهم وبأنَّهم تخلَّفوا من دون عذرٍ ولا سببٍ ، وكانوا في ذلك صادقين .

الإيمان يزيد وينقص ، وقد يضعف الإنسان المؤمن في مواجهة بعض اختبارات الحياة المختلفة . وقد وجه القرآن الكريم المؤمنين إلىٰ تعهد إيمانهم وتجديده بالذكر والطاعة ومكافحة الهوىٰ ، وأكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في عدد من أحاديثه ووصاياه . لكن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه المؤمن هو الكذب ؛ لأنَّ الكذب خصلة ذميمة ، وقد نزل الوحي يوصي المؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

كما أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم حث على الصِّدق وحذَّر من الكذب ، وقال : « عليكم بالصِّدق ؛ فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة ، ولا يزال الرَّجل يَصْدُق ويتحرَّى الصِّدق حتَّىٰ يكتب عند الله صدِّيقاً ، وإيَّاكم والكذبَ ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار ، ولا يزال الرَّجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتَّىٰ يكتب عند الله كذّاباً »[١] .

وهٰؤلاء المؤمنون الصَّادقون الثَّلاثة تخلَّفوا في لحظة ضعفٍ ، لكنَّهم لم يسقطوا في الاختبار الآخر عندما عاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، وإنَّما اعترفوا بتقصيرهم وصدَقُوا فيما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لهم شأنٌ آخر يرويه واحدٌ منهم في هٰذه القصَّة المؤثِّرة :

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : لم أتخلَّف عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ ولم يعاتب أحداً تخلَّف عنها ، إنَّما خرج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يريد عير قريش حتَّىٰ جمع الله بينهم وبين عدوِّهم علىٰ غير ميعاد ، ولقد شهدت مع

---

(١) رواه البخاري حديث رقم (٦٠٩٤) ، ومسلم حديث رقم (٢٦٠٧) .

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في النَّاس منها .

وأضاف كعب : كان من خبري أنِّي لم أكن قطُّ أقوىٰ ولا أيسرُ حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة ، والله ؛ ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتَّىٰ جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يريد غزوة إلاَّ ورىٰ بغيرها ، حتَّىٰ كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حرٍّ شديدٍ واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدوّاً كثيراً ، فجلَّىٰ للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كثير ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ ـ يريد الدِّيوان ـ فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفىٰ ما لم ينزل فيه وحي الله .

وغزا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تلك الغزوة حين طابت الثِّمار والظِّلال ، وتجهَّز رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادرٌ عليه ، فلم يزل يتمادىٰ بي حتَّى اشتدَّ بالنَّاس الجدُّ ، فأصبح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت : أتجهَّز بعده بيومٍ أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا ـ تحركوا باتجاه تبوك ـ لأتجهَّز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثمَّ غدوت ، ثمَّ رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتَّىٰ أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يقدَّر لي ذلك .

فكنت إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فطفت فيهم ؛ أحزنني أنِّي لا أرىٰ إلاَّ رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق ، أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّىٰ بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعبٌ ؟ » فقال رجلٌ من

بني سلمة : يا رسول الله ؛ حبسه برداه ونظره في عطفه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ؛ ما علمنا عليه إلاَّ خيراً ، فسكت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

فلمَّا بلغني أنَّه توجه قافلاً ؛ حضرني همِّي ، وطفقت أتذكَّر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ، واستعنت علىٰ ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد أظلَّ قادماً ؛ زاح عنِّي الباطل ، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذب فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر ؛ بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثمَّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك ؛ جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووَكَل سرائرهم إلى الله .

فجئته ، فلمَّا سلمت عليه ؛ تبسَّم تبسُّمَ المغضب ، ثم قال : « تعال » ، فجئت أمشي حتَّىٰ جلست بين يديه ، فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » فقلت : بلىٰ ، إنِّي والله ؛ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ؛ لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنِّي والله ؛ لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم حديث كذب ترضىٰ به عنِّي ؛ ليوشكنَّ اللهُ أن يسخطك عليَّ ، ولئن حدَّثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه ؛ إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ؛ ما كان لي من عذرٍ ، والله ؛ ما كنت قطُّ أقوىٰ ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنك ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أمَّا هـٰذا ؛ فقد صدق ، فقم حتَّىٰ يقضي الله فيك » فقمت .

وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله؛ ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هـٰذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه

وسلَّم بما اعتذر إليه المتخلِّفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لك ، فوالله ؛ ما زالوا يؤنِّبوني حتَّىٰ أردت أن أرجع فأكذِّب نفسي ، ثمَّ قلت لهم : هل لقي هـٰذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الرَّبيع العمري ، وهلال بن أميَّة الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين من تخلَّف عنه فاجتَنَبَنا النَّاسُ ، وتغيَّروا لنا ، حتَّىٰ تنكَّرت في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف ، فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحباي : فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا : فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصَّلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ ، وآتي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه بردِّ السَّلام عليَّ أم لا ؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه فأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت علىٰ صلاتي ؛ أقبل إليَّ ، وإذا التفت نحوه ؛ أعرض عنِّي ، حتَّىٰ إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النَّاس ؛ مشيت حتَّىٰ تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه فوالله ؛ ما ردَّ السَّلام ، فقلت : يا أبا قتادة ؛ أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتولَّيت حتَّىٰ تسوَّرت الجدار .

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشَّام ممن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلُّ علىٰ كعب بن مالك ؟ فطفق النَّاس يشيرون له ، حتَّىٰ إذا جاءني ؛ دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان ؛ فإذا فيه : أمَّا بعد : فإنه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ ، فالحق

بنا ؛ نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهـٰذا أيضاً من البلاء ، فتيمَّمت بها التَّنور فسجرته بها .

حتَّىٰ إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ؛ إذا رسول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأتيني فقال : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلىٰ صاحبيَّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتَّىٰ يقضي الله في هـٰذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت : يا رسول الله ؛ إنَّ هلال بن أمية شيخٌ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » ، قالت : إنَّه والله ما به حركةٌ إلىٰ شيء ، والله ؛ ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلىٰ يومه هـٰذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه ؟ فقلت : والله ؛ لا أستأذن فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟

فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتَّىٰ كملت لنا خمسون ليلة من حين نهىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن كلامنا ، فلمَّا صلَّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا علىٰ ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ؛ سمعت صوت صارخٍ أوفىٰ علىٰ جبل سلع بأعلىٰ صوته : يا كعب بن مالك ؛ أبشر ، فخررت ساجداً وعرفت أنَّه جاء فرج وآذن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبة الله علينا حين صلَّىٰ صلاة الفجر ، فذهب النَّاس يبشروننا وذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون ، وركض إليَّ رجل فرساً ، وسعىٰ ساعٍ من أسلم فأوفىٰ على الجبل وكان الصَّوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ؛ نزعت له ثوبيَّ

فكسوته إيَّاهما ببشراه ، والله ؛ ما أملك غيرهما يومئذ .

واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيتلقَّاني النَّاس فوجاً فوجاً يهنُّوني بالتَّوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، حتَّىٰ دخلت المسجد ؛ فإذا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جالس حوله النَّاس ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتَّىٰ صافحني وهنَّاني ، والله ؛ ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، فلمَّا سلَّمت علىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يبرق وجهه من السُّرور : « أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » ، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا سُرَّ ؛ استنار وجهه حتَّىٰ كأنَّه قطعة قمر ، وكنَّا نعرف ذلك منه .

فلمَّا جلست بين يديه ؛ قلت : يا رسول الله ؛ إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلىٰ رسول الله ، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قلت : فإنِّي أمسك سهمي الذي بخيبر ، فقلت : يا رسول الله ؛ إنَّ الله إنَّما نجَّاني بالصِّدق ، وإنَّ من توبتي ألا أحدِّثَ إلاَّ صدقاً ما بقيت ، فوالله ؛ ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أحسن مما أبلاني ، ما تعمَّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلىٰ يومي هـٰذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، وأنزل الله علىٰ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة : ١١٧ـ ١١٩] .

فوالله ؛ ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن لا أكون كذبته ؛ فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ فقال تبارك وتعالىٰ[1] : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

[سورة التوبة : ٩٥ـ ٩٦] .

وهكذا اكتملت قصة غزوة تبوك بانتصار الصِّدق على الكذب ؛ تأكيداً علىٰ نقاء الرِّسالة التي جاء بها محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تماماً لما سبق به إبراهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ وسائرُ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام الذين اتفقوا جميعاً على الدَّعوة للإيمان بالله وطاعته والالتزام بالشَّرف والأمانة والعدل والصِّدق ومكارم الأخلاق .

* * *

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤١٨) .

الفَصْلُ الخَامِسُ عَشَرَ
إسْلامُ ثَقِيفٍ ، دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

كان النبي صلى الله عليه وسلم محباً لأهل الطائف عطوفاً عليهم ، رغم سوء استقبالهم له أيام زيارته الشهيرة لهم في المرحلة المكية من الدعوة الإسلامية . ولم يتغير موقفه عندما ترك حصار الطائف بعد تحرير مكة ومعركة حنين . قال له رجل من أصحابه بعد فك الحصار : يا رسول الله ؛ ادع عليهم ، يعني : ثقيفاً أهل الطائف ، فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم دعوة خير وهداية : « اللَّهم ؛ اهد ثقيفاً وأت بهم » .

وفي طريق العودة من تلك الرِّحلة المظفرة ، وقبل الوصول إلى المدينة المنوَّرة لحق بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عروة بن مسعود الثَّقفيُّ من زعماء ثقيف ، وأعلن دخوله في الإسلام ، وطلب موافقته ليعود إلىٰ قومه داعياً إلى الدِّين الجديد ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم حذَّره من تعنُّت أهله في الطَّائف ، وذكره بما في طبعهم من العناد والمكابرة ، وأنهم ربما يقتلونه ، فرد عروة بلهجة الواثق المطمئن : يا رسول الله ؛ أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم ، وكان عروة فعلاً زعيماً محبوباً مبجلاً من طرف عامة ثقيف ، وكانت له فيهم منزلةٌ رفيعةٌ وشرفٌ ومقامٌ كبيران .

لكن هـٰذا كله لم ينفع عروة بن مسعود عندما وصل الطَّائف ونادىٰ أهلها من مكان مرتفع وأشهر إسلامه ودعاهم للاقتداء به والدخول في الدين الجديد ، فوجىء أهل الطائف بهـٰذا الإعلان ورفضوه رفضاً قاطعاً ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما تمادوا وارتكبوا ما كان حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد سارع عدد منهم من غلاة المتعصبين والمتطرفين إلى استخدام العنف ، وصوبوا

سهامهم ونبالهم إلى الداعية المسلم فقتلوه في مكانه ، ثم اقترب واحد منهم من عروة بن مسعود رضي الله عنه وهو يحتضر وسأله : ما ترىٰ في دمك ؟ فأجاب : كرامةٌ أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليَّ ، فليس فيَّ إلاَّ ما في الشُّهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قبل أن يرحل عنكم ، فادفنوني معهم ، وقيل : إن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عندما بلغه الخبر ؛ شبَّه عروة بن مسعود بالنَّبيِّ الذي ورد ذكره في (سورة يس) ، والذي جادل قومه ودعاهم بحرارة وإخلاص إلى اتباع المرسلين ، لكن قومه عاندوه وقتلوه[1] .

وفد ثقيف إلى المدينة المنوَّرة

لقي عروة بن مسعود الشهادة وبدا أن دعوته أهل الطائف للدخول في الإسلام ذهبت سدىٰ ، لكن حقائق تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الإنسانيَّة كانت أقوىٰ من طبع العناد ونزعة التَّكبر والطُّغيان عند ثقيف ، فقد جاءت إليهم الأخبار بعد ذلك الحادث متواترةً عن تنامي قوَّة الدَّولة الإسلاميَّة ونفوذها ، وانتشار مهابتها في نفوس القبائل العربيَّة والقوى الإقليميَّة والدُّوليَّة المجاورة ، وعرف زعماء ثقيف أنَّهم أصبحوا محاصرين معزولين وسط الجزيرة العربيَّة التي تخلَّت عن الشِّرك والأصنام وآمنت بالله وحدَه وبشريعة الإسلام .

وبعد مشاورات مكثَّفة بين هـٰؤلاء الزُّعماء توصلوا إلىٰ قرار جامع بالدُّخول في الإسلام والتخلي عن الشرك وعبادة الأصنام ، وقرَّروا إرسال وفد من ستِّ شخصيَّاتٍ بارزةٍ بقيادة عبد ياليل بن عمرو بن عمير إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المدينة المنوَّرة لمبايعته على الإسلام ، وبالفعل وصل الوفد في أيام قليلة إلى المدينة المنورة ، ونطق أفراده بالشهادتين أمام النبي صلى الله عليه وسلم ودخلوا في دين الإسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣٧ـ٥٣٨) .

غير أنهم فاجؤوا النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بثلاث مطالب : طلبوا منه أن يدع لهم صنم اللاَّت لا يهدمه لثلاث سنين ، وأن يعفيهم من الصَّلاة ، وألاَّ يطلب منهم كسر أوثانهم بأيديهم ، فقبل النَّبيُّ أن يعفيهم من كسر أوثانهم بأيديهم ، لكنَّه رفض لهم الطَّلبين الآخرين ، وواضح أن النَّبيَّ ترفَّق بهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام ، وعدم درايتهم بما فيه من خير وأمن وسكينة تملأ قلوب معتنقيه ، وعدم درايتهم أيضاً بما في الصَّلاة من خير ونعمة للإنسان الحرِّ الذي يؤدِّي هـٰذه الفريضة فيكون قريباً جدّاً من خالقه ، يسجد له فيدعوه من دون وسيط ، ويخلص في دعائه فيحسُّ لذَّة القرب من الله وجمال الأنس به وروعة التَّوكُّل عليه .

كان وفد ثقيف قد وصل المدينة المنوَّرة في شهر رمضان من العام التَّاسع للهجرة بأيام قليلة بعد عودة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من غزوة تبوك ، وبقي فيها فترة يتعلَّم المزيد عن الإسلام ، ويشارك المؤمنين صيامهم في رمضان ، وخلال تلك الفترة ، تعرف أبو بكر الصديق علىٰ عثمان بن أبي العاص ، أحد أعضاء الوفد ، ولمس منه حرصاً كبيراً علىٰ تعلم القرآن والتفقه في الدين ، فزكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فعينه أميراً علىٰ ثقيف .

ثمَّ عاد الوفد إلى الطَّائف ودخلت ثقيف كلُّها في الإسلام ، وجاء أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة بتكليف من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يشرفان علىٰ هدم صنم اللاَّت ، وانطوت بذلك صفحة الشِّرك في تاريخ هـٰذه المدينة الجميلة من مدن الجزيرة العربيَّة ، وانفتحت لها صفحةٌ جديدة تحت راية الإيمان بالله رباً لا شريك له والتصديق برسالة خاتم النَّبيِّين والمرسلين محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهـٰكذا استجاب الله لدعاء نبيِّه صلى الله عليه وسلم فهدىٰ ثقيفاً وجاء بزعمائهم إلى المدينة أحراراً مهتدين .

أبو بكر يحجُّ بالنَّاس

ثمَّ أقبل موسم الحجِّ للعام التَّاسع من الهجرة فاختار النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أبا بكر الصِّدِّيق ليكون أميراً علىٰ بعثة الحجِّ وإماماً للحجَّاج في مناسكهم ، وفي ذلك دلالة مهمة علىٰ مكانة الخليفة الرَّاشد الأول عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وضمن قيادات الدَّولة الإسلاميَّة الأولىٰ في التَّاريخ ، وبعد خروج أبي بكر، نزل الوحي على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بـ(سورة التَّوبة) ، وفيها توجيهات محدَّدة تنظِّم العلاقة بين المسلمين ومن بقي من المشركين وتبتُّ في مصير العهود القائمة بين النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعدد من القبائل العربيَّة ، فأمر النَّبيُّ عليّاً ابن أبي طالب ـ وهو الخليفة الرَّاشد الرَّابع في تاريخ الإسلام ـ باللَّحاق ببعثة الحجِّ وإعلان تلك التَّوجيهات التي جاءت في (سورة التَّوبة) للنَّاس .

لحق عليٌّ بأبي بكرٍ وهو في طريقه إلىٰ مكَّة المكَّرمة ، وعندما سأله أبو بكر : أأميرٌ أم مأمور ؟ أجاب عليٌّ : بل مأمور ، فسارا معاً وأدَّىٰ أبو بكر مهامَّه أميراً للحجِّ ، فلمَّا كان يوم عيد الأضحىٰ ؛ هتف عليُّ بن أبي طالب في الوفود الحاضرة من مسلمين ومن بقيَّة من المشركين : أيُّها النَّاس ؛ إنَّه لا يدخل الجنَّة كافرٌ ، ولا يحجُّ بعد العام مشركٌ ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عهد ؛ فهو له إلىٰ مدَّته ، وأعطىٰ عليٌّ بأمر النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للنَّاس أجلاً مدَّته أربعة أشهر من عيد الأضحىٰ حتَّىٰ يعود كلُّ قومٍ إلىٰ أهلهم وقبائلهم ، وكان ذلك الموسم آخر موسمٍ يحجُّ فيه إلىٰ بيت الله مشركٌ ، أو يطوف فيه بالكعبة المشرفة عريان[1] .

إنَّ الفرق واضح هنا بين تعامل الإسلام مع الوثنيَّة وتعامله مع الدِّيانات السَّماويَّة الأخرىٰ ، فهو أعطىٰ أهل الوثنيَّة وثقافة الشِّرك وعبادة الأصنام مهلةً

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤٥) .

أخيرة مدَّتها أربعة أشهر للخروج من ظلمات الجهل والعبودية لآلهة زائفة يصنعها هٰؤلاء النَّاس بأيديهم ثمَّ يعتقدون فيها القدرة على النَّفع والضُّر ويعبدونها ، وهٰذا السلوك أقرب إلى المرض الذي يجب أن يعالج كي لا يستشري بين البشر الذين خصَّهم الله بالكرامة ومتَّعهم بنعمة العقل وجعل الحرِّيَّة حقّاً مقدَّساً لهم ، حتَّىٰ إن الإسلام نفسه لا يصح ولا يقبل إلاَّ ممَّن آمن به عن إرادة حرَّة ، وبالفعل تجاوبت القلَّة المتبقِّية من المشركين العرب مع هٰذا التوجيه فما حضر موسم الحجِّ المقبل مشركٌ ، وكان ذلك انتصاراً كبيراً للإسلام ولكلِّ الدِّيانات السَّماويَّة التي دعت النَّاس علىٰ مرِّ العصور لترك عبادة الأصنام والأوثان وعبادة الله وحدَه لا شريك له .

وهكذا فإن العهد الذي قرأه علي بن أبي طالب علىٰ من حج في العام التاسع للهجرة ؛ كان انتصاراً للإيمان وللعقل وللمنطق أيضاً . وكما قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : ليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل إنساني نبيل ، وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنىٰ لها السمو والكرامة . وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء . ولم يفعل ذلك إعزازاً لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره ، فقل من يسفهون أنفسهم ، ويتركون الله العظيم ، إلىٰ صورة من حجر أو خشب أو طعام . فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء ، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ؛ لم يبق لتركهم من حكمة[١] .

ذاك هو شأن الإسلام مع الوثنيَّة وثقافة الشِّرك وعبادة الأصنام ، أمَّا شأنه مع أهل الدِّيانات السَّماويَّة من اليهود والمسيحيين ؛ فمختلف تماماً ؛ إذ اعتبرهم أهل كتاب ، وأحلَّ للمسلمين أكل طعامهم ، والزَّواج من نسائهم ، وأمر

---

(١) فقه السيرة (٤٦٦ـ ٤٦٧) .

بمجادلتهم بالتي هي أحسن ، وأعطى المقيمين ، أو المواطنين منهم في الدول الإسلامية الأمان والحماية من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكفل لهم حرياتهم الدينية .

وفود العرب تتَّجه إلى المدينة

سمِّيت السَّنة الهجرية التَّاسعة عام الوفود ، ذلك أنَّ القبائل العربية لمَّا رأت الانتصار العظيم الذي حقَّقه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من خلال تحرير مكَّة والتَّصدي لتحرُّشات جيوش الإمبراطوريَّة الرومانيَّة في تبوك وشمال الجزيرة العربيَّة ؛ أيقنت كلُّها أنَّ راية الإسلام قد ضربت بجذور عميقة في أرض الجزيرة العربيَّة ، وقبل ذلك في نفوس الغالبيَّة السَّاحقة من أبناء الجزيرة العربيَّة ، فكان الخيار الرَّاجح والعاقل لكلِّ هـٰذه القبائل عندئذٍ هو الدُّخول في دين الله أفواجاً والانضمام إلىٰ معسكر الإيمان والحرِّيَّة ومكارم الأخلاق .

وفي هـٰذا السِّياق قدم وفد ثقيف معلناً إسلام أهل الطَّائف ، وجاء عطارد بن حاجب علىٰ رأس وفدٍ من أشراف بني تميم ، فأعلنوا إسلامهم بعد مناظرةٍ خطابيَّة وشعريَّة ممتعة ، قالوا في نهايتها : إنَّ هـٰذا الرجل ـ يعنون : النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ لمؤتىٰ له ـ أي : موفق ـ لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولشاعره أشعرُ من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلىٰ من أصواتنا ، وقد فرح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بإسلامهم وأحسن وفادتهم .

ووصل إلى المدينة المنوَّرة ضِمام بن ثعلبة موفداً من قبيلة بني سعد ، وأقبل إلى المسجد النَّبويِّ حيث وجد النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في جمع من أصحابه ، قال ضِمام : أيُّكم ابن عبد المطَّلب ؟ فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « أنا ابن عبد المطَّلب » قال ضِمام : أمحمَّد ؟ قال : « نعم » ، قال : يا ابن عبد المطلب ؛ إنِّي سائلك ومغلِّظٌ عليك في المسألة ؛ فلا تجدنَّ في

نفسك ، قال : « لا أجد في نفسي ، فسل ما بدا لك » قال ضِمام : أنشدك اللهَ إلـٰهكَ وإلـٰهَ من كان قبلك وإلـٰهَ من هو كائن بعدك ؛ آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « اللَّهمَّ نعم » قال : فأنشدك اللهَ إلـٰهكَ وإلـٰهَ من كان قبلك وإلـٰهَ من هو كائن بعدك ؛ آلله أمرك أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً وأن نخلع هـٰذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : « اللَّهمَّ نعم » قال : فأنشدك اللهَ إلـٰهكَ وإلـٰهَ من كان قبلك وإلـٰهَ من هو كائن بعدك ؛ آلله أمرك أن نصلِّي هـٰذه الصَّلوات الخمس ؟ قال : « اللَّهمَّ نعم » .

وكرَّر ضِمام السؤال عن بقية فرائض الإسلام وتشريعاته من زكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وغيرها ، حتَّىٰ إذا انتهىٰ من سؤاله ؛ قال : فإنِّي أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً رسول الله ، وسأؤدِّي هـٰذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثمَّ لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف بعد ذلك إلىٰ بعيره الذي كان قد أناخه وعقله عند باب المسجد وسلك طريق العودة إلىٰ بني سعد ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم معلِّقاً : « إن صدق ذو العقيصتين ؛ دخل الجنة »[1] .

ثمَّ وصل ضِمام بن ثعلبة إلىٰ قومه وجمعهم ليبلغهم نتائج رحلته ، فقال لهم : بئست اللاَّت والعزَّىٰ ، قالوا في نبرة استنكار وشفقة عليه أيضاً لاعتقادهم أنَّ آلهتهم التي صنعوها بأيديهم ستغضب من ضِمام وتنتقم منه : مه يا ضِمام ، اتَّق البرص ، اتَّق الجنون ، قال لهم : ويلكم ، إنَّهما والله لا يضرَّان ولا ينفعان ، إنَّ الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليكم كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنِّي أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه ، ثم شرح ضِمام بن ثعلبة لبني سعد فرائض الإسلام وشرائعه ، فوجدوا فيها ما يشهد به

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٧٣ـ ٥٧٤) .

كلُّ عاقل من الخير العميم ، وما ينفع النَّاس في الدُّنيا والآخرة ، فرائض وشرائع توصي ببرِّ الوالدين ، وإكرام الضَّيف ، واحترام الجار ومودته ومساعدته ، والبرِّ باليتيم ، وإكرامِ المرأة ، والمساواة بين النَّاس ، ونبذ العنصريَّة والتَّفاخر بالجاه والمال ، فرائض وشرائع تحرم المخدِّرات والخمر والميسر وكلَّ ما يذهب عقل الإنسان وهيبته وماله ، وتأمرُ بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربىٰ ، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وكلُّ تعاليمها الأخرىٰ متَّسقة مع هـٰذه القيم الجميلة التي يقبل بها كلُّ عاقلٍ منصفٍ علىٰ وجه الأرض ، فلم يُمْسِ في ذلك اليوم رجلٌ ولا امرأة من قبيلة بني سعد سمع مقالة ضِمام بن ثعلبة إلاَّ دخل في الإسلام[١] .

وجاءت وفودٌ أخرىٰ كثيرةٌ إلى المدينة المنوَّرة لتسمع من النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مباشرة ، ولتحدِّثه بما عندها من أسئلة واستفسارات من دون وسيط ، ثمَّ لتدخل مع الدَّاخلين في دين الإسلام ، ومن هـٰذه الوفود : وفود أهل اليمن ، والأزد ، وبني سعد ، وهذيم من قضاعة ، وبني عامر بن قيس ، وبني أسد ، وبهراء ، وخولان ، ومحارب ، وبني الحارث بن كعب ، وغامد ، وبني المنتفد ، وسلامان ، وبني عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزبيد ، وكندة ، وذي مرَّة ، وغسان ، وبني عيش ، ونخع ، وقد حلَّت أكثر هـٰذه الوفود بالمدينة في العامين التَّاسع والعاشر للهجرة ، وتأخَّر وصول بعضها إلى العام الحادي عشر[٢] .

ومن أخبار تلك الفترة التي سبقت حجَّة الوداع أيضاً أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعث اثنين من أصحابه أبا موسى الأشعريَّ ومعاذ بن جبل إلى اليمن يدعوان للإسلام ويعلِّمان النَّاس شرائعه ، وأوصاهما : « يسِّرا ولا تعسِّرا ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٧٤ـ ٥٧٥) .

(٢) الرحيق المختوم (ص ٥٢٧) .

وبشِّرا ولا تنفِّرا »[1] ، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل بما يصنع إذا استجاب أهل الكتاب في اليمن لدعوة الإسلام : « إنَّك ستأتي قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم ؛ فادعهم إلىٰ أن يشهدوا أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ؛ فإن هم طاعوا لك بذلك ؛ فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم طاعوا لك بذلك ؛ فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ علىٰ فقرائهم ، فإن هم طاعوا لك بذلك ؛ فإيَّاك وكرائم أموالهم ، واتَّق دعوة المظلوم ؛ فإنَّه ليس بينه وبين الله حجاب »[2] .

وفد يأتي ووفدٌ يغادر ، وأجيالٌ من البشر تهتدي إلى الحقِّ الذي تواترت الرُّسل علىٰ مدى التَّاريخ لتبلغه للنَّاس ، ومركز كلِّ هـٰذه الحركة مدينة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، قبل عشر سنوات كانت مكاناً قليل الأهميَّة في جغرافيا الجزيرة العربيَّة وفي تاريخ الإنسانيَّة ، أهلها كانوا مشركين مثل عامَّة أهل الجزيرة العربية ، منقسمين متناحرين يقتتلون لأتفه الأسباب ، ثمَّ يعاودون القتال انتقاماً لثارات معاركهم الأولىٰ غير المبرَّرة ، لكنَّ كلَّ هـٰذا الأمر تغيَّر عندما بايع زعماء يثرب خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ، وكافحوا مع إخوانهم من المهاجرين تحت قيادته ، للتصدي للظالمين والمعتدين ، ولإعلاء راية التوحيد والعدل ومكارم الأخلاق ؛ فإذا يثرب تصبح عاصمة الدولة الإسلامية الأولىٰ في التاريخ ، وإذا أنوار الوحي تشع منها إلى الدنيا بأسرها .

لقد أصبح للمدينة المنورة مكانها العظيم الفريد المتميز في التاريخ والجغرافيا علىٰ مر الزمان .

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٠٣٨) .
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٤٩٦) .

الفَصْلُ السَّادِس عَشَرَ
حَجَّةُ الوَدَاعِ

في العام العاشر للهجرة أعلن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه ينوي الحجَّ وتجهز له ، وأمر النَّاس أن يتجهَّزوا له وجاء آلاف النَّاس إلىٰ عاصمة الدَّولة الإسلاميَّة يتسابقون إلىٰ نيل شرف الحجِّ تحت قيادة رسول الله إلى الإنسانيَّة قاطبة ، وفي الأسبوع الأخير من ذي القعدة تحرَّك موكب المؤمنين من المدينة المنوَّرة يقصد مكَّة المكرَّمة ، وقد استغرقت الرِّحلة قريباً من تسعة أيام .

أحرم النبي صلى الله عليه وسلم بنية الحج والعمرة من وادي ذي الحليفة ، ولبس ثوبي الإحرام الأبيضين البسيطين اللذين يلبسهما كل الحجاج والمعتمرين ، في مظهر يرمز للمساواة بين البشر قاطبة ، ولتواضع العبد الضعيف أمام ربه وخالقه ، ولتجرده للعبادة وإدراكه لحقيقة الدُّنيا وأنَّها لا تعني شيئاً من دون الإيمان بالله واليوم الآخر .

في صباح اليوم الرَّابع من شهر ذي الحجَّة من العام العاشر للهجرة دخل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المسجد الحرام ، فطاف بالكعبة المشرَّفة ، وسعىٰ بين الصَّفا والمروة ، وأقام بعد ذلك في موضع بأعلىٰ مكَّة يسمى الحَجُون إلى اليوم الثَّامن من الشَّهر ، يسمَّى اليوم الثَّامن يوم التَّروية ، وفيه توجَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومعه بقية الحجَّاج إلىٰ منىٰ ، هناك صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، وأقام إلىٰ فجر اليوم التاسع .

حتىٰ إذا طلعت الشمس ذاك اليوم المبارك ، التاسع من ذي الحجة ؛ نفر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جميع الحجاج إلىٰ جبل عرفة ، وقضوا اليوم

كله في ذكر الله وعبادته والتضرع إليه بالدعاء . كما اهتم النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بتعليم المسلمين مناسك الحج وشرائع دينهم ، وكان معه من الحجاج يومئذ ما يقرب من أربعين ومئة ألف شخص .

الخطبة الشهيرة يوم عرفة

بعد زوال شمس ذلك اليوم العظيم من أيَّام الحجِّ ركب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ناقته وخطب في النَّاس خطبة جامعة ذكَّرهم فيها بأصول الإسلام ، وشدَّد فيها علىٰ تحريم الظُّلم والقتل والاعتداء علىٰ أموال النَّاس ، وحثَّ علىٰ أداء الأمانة ، وترك الرِّبا ، والحذر من كيد الشَّيطان ، وأوصىٰ بالنِّساء خيراً ، وأمر بالاعتصام بكتاب الله ، وبالوفاء بحقوق الأخوَّة الإسلاميَّة .

بدأ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم خطبته بتنبيه النَّاس إلىٰ أنَّ وقوفه بينهم في مثل هـٰذا اليوم العظيم قد لا يتكرَّر : « أيُّها النَّاس اسمعوا قولي ؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هـٰذا بهـٰذا الموقف أبداً »[١] .

وهـٰذا القول أيضاً مما يضاف إلىٰ دلائل صدق نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه مات بعد شهور قليلة من إلقائه لهـٰذه الخطبة العظيمة .

ثم وجه النبي صلى الله عليه وسلم تحذيراً شديداً من الاعتداء على الأنفس أو الأموال ، وأمرهم بأداء الأمانة إلىٰ أهلها ، وقال لعشرات الألوف من المسلمين الذين نالوا شرف الحج معه ، ولعموم المسلمين والإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان :

« إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلىٰ أن تلقوا ربَّكم كحرمة يومكم هـٰذا ، وكحرمة شهركم هـٰذا ، وإنَّكم ستلقون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم ،

---

(١) هـٰذه الفقرة والفقرات الآتية من خطبة الوداع من الرواية التي أوردها ابن هشام في « السيرة النبوية » (٢/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤) .

وقد بلَّغت ، فمن كان عنده أمانة ؛ فليؤدِّها إلىٰ من ائتمنه عليها » .

بعد ذلك انتقل النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ بيان حرمة الرِّبا في الإسلام ، ودعوة المسلمين إلى التَّخلِّي عن ثارات الجاهليَّة وتعظيم قيمة النَّفس الإنسانيَّة مقدِّماً المثال بمن هم أقرب النَّاس إليه :

« إنَّ كلَّ رباً موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون ، قضى الله أنَّه لا ربا ، وإنَّ ربا العباس بن عبد المطلب ـ عمِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذا من تطبيق تعاليم الإسلام على الأقربين قبل الأبعدين ـ موضوعٌ كلُّه ، وإنَّ كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوعٌ ـ يقصد : وقف الثَّارات المتوارثة من عهد الجاهليَّة وحقن دماء النَّاس ـ وإنَّ أوَّل دمائكم أضع دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ ابن عمِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ كان مسترضعاً في بني ليث ، فقتله ناس من قبيلة هذيل ـ فهو أوَّل ما أبدأ به من دماء الجاهليَّة » .

ثمَّ ذكَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من كان حاضراً من المؤمنين وكلَّ مؤمنٍ علىٰ مدى الأزمان بأنَّ الشَّيطان للإنسان عدوٌّ مبين :

« أيُّها النَّاس ؛ فإنَّ الشَّيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هـٰذه أبداً ، ولكنَّه إن يطع فيما سوىٰ ذلك ؛ فقد رضي به ممَّا تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه علىٰ دينكم » .

ثمَّ بيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم للنَّاس أنَّ عدَّة الشُّهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حُرُمٌ ، وفي تعاليم الإسلام أنَّ هـٰذه الأشهر لا يجوز فيها ظلمٌ ولا بغيٌ ولا قتالٌ ، إلاَّ أن يكون القتال ردّاً لعدوان ، وهي : ذو القَعْدة ، وذو الحِجَّة ، ومحرم ، ورجب الذي يكون بين جمادى الثَّانية وشعبان ، ثمَّ أوصى النَّبي صلى الله عليه وسلم بالنِّساء خيراً ، وبيَّن للنَّاس ما يعصمهم من الضَّلال والانحراف بعده فقال :

« فاعقلوا أيُّها النَّاس قولي ؛ فإنِّي قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً ، أمراً بيِّناً ؛ كتاب الله وسنَّة نبيِّه »[1] .

كتابُ الله هـٰذا هو كنز المؤمن في كلِّ عصر ، ومصدر الهدىٰ لكلِّ جيل ، وقد بين الله تعالىٰ فضل القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، منها ما جاء في (سورة المائدة) : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة : ١٥ـ١٦] ومع أنَّ طائفة من الفلاسفة والمفكِّرين في كلِّ عصرٍ من العصور يشكِّكون في كلِّ شيءٍ ، ويتساءلون عن أصل الوجود ومصدره وغايته ، ويختلفون مذاهب شتَّىٰ بين مؤمنٍ بالله وملحدٍ به ، ومؤمنٍ باليوم الآخر ومنكرٍ له ؛ فإنَّ القرآن الكريم ما زال يتحدَّىٰ هـٰؤلاء المشكِّكين في كلِّ عصرٍ بحجَّته التي لا تبلىٰ ، ونوره الذي يبدِّد وحشة النَّفس وشكوك العقل وظلمات الحياة ، فيحيل كلَّ ذلك إلىٰ بهجةٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ ويقينٍ ، ويوضح مهمَّة الإنسان المؤمن بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله المتَّبع لنهج محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهي عمارة الدُّنيا بالعدل والتَّقوىٰ والعمل الصَّالح ، وعبر ذلك عمارة الآخرة التي هي خير وأبقىٰ .

ولأنَّ الإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ بطبعه فإن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ذكَّر سامعيه في ذلك اليوم وفي كلِّ عصرٍ بعده بأنَّ أسمى الرَّوابط بين النَّاس هي روابط الفكر والقيم السَّامية ، وأسمى القيم على الإطلاق هي الإيمان بالله تعالىٰ وما يبنىٰ عليه من مكارم الأخلاق ، فقال :

« اسمعوا قولي واعقلوه ؛ تَعْلَمُنَّ أنَّ كلَّ مسلم أخٌ للمسلم ، وأنَّ المسلمين

---

(١) « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٠٤) ، وفي « صحيح مسلم » لا توجد إشارة للسنة ، حديث رقم (١٢١٨) .

إخوة ، فلا يحلُّ لامرىء من أخيه إلاَّ ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنَّ أنفسكم » .

كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يلقي خطبته وبقربه ربيعة بن أمية رضي الله عنه يعيد كلماته للناس ويلقيها بأعلىٰ صوته ؛ لكي يسمعها كلُّ من حضر ذلك الموقف التَّاريخيَّ العظيم .

وقال النَّبي صلى الله عليه وسلم في نهاية خطبته يسأل السَّامعين :

« اللهمَّ ؛ هل بلغت ؟ » .

قال النَّاس : اللهم نعم .

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « اللهم ؛ فاشهد » .

اليوم في الرُّبع الثَّاني من القرن الهجريِّ الخامس عشر ، الموافق للرُّبع الأول من القرن الحادي والعشرين للميلاد ؛ يشهد ما يقرب من ألف وخمس مئة مليون إنسان أنَّ محمَّداً بن عبد الله بن عبد المطَّلب رسولُ الله وخاتم النَّبيِّين ، وأنه بلَّغ الرِّسالة العظيمة من ربِّه تعالىٰ ، وأنَّه أرشد إلى الخير ودلَّ عليه ، وبيَّن الباطل وحث النَّاس على اجتنابه ، وانتصر للإيمان والحرِّيَّة والعدالة والمساواة ومكارم الأخلاق .

تمام النعمة واكتمال الرسالة

في يوم عرفة من العام العاشر للهجرة اكتملت الرِّسالة الإسلاميَّة ، وانتهت تماماً أيامُ الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، وزالت معها تقاليدُ الظُّلم والاستبداد والثَّأر والعصبيَّة للعرق أو اللَّون ، وثقافة الانحياز للقبيلة حتَّىٰ لو كان أهلها علىٰ باطل ، ونزل الوحي من عند الله على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد خطبة عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣] .

تلا النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام هـٰذه الآية الكريمة التي نزلت عليه ، ولما سمعها عمر بن الخطَّاب الخليفةُ الرَّاشد الثَّاني الذي ضَرَب المثل في العدل والإخلاص في خدمة المواطنين ؛ فبكىٰ ، فاستغرب النَّاس موقفه وسألوه ، ما يبكيك ؟ قال : إنَّه ليس بعد الكمال إلاَّ النُّقصان[١] .

كانت هناك مؤشِّرات أخرىٰ تدلَّ علىٰ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد استكمل أداء المهمَّة الجليلة التي شرَّفه الله بها في هـٰذه الدُّنيا ؛ منها : قوله عند وقوفه عند جمرة العقبة : « خذوا عنِّي مناسككم ؛ فلعلِّي لا أحجُّ بعد عامي هـٰذا »[٢] وعمر بن الخطَّاب رجلٌ جمع بين الذَّكاء ومحبَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأدرك من مضمون الآية الكريمة أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يوشك أن يغادر الدُّنيا فبكىٰ .

بعد أن ألقى الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشَّهيرة في عرفة ، صلَّىٰ بالناس صلاتَي الظُّهر والعصر جمعاً ، ثمَّ استغرق في الذِّكر والدُّعاء والتَّضرُّع إلىٰ ربِّه حتَّىٰ غربت الشَّمس ، عندئذٍ أردف معه علىٰ ناقته أسامة بن زيد بن حارثة وتوجَّه إلىٰ مزدلفة ، فصلَّىٰ فيها المغرب والعشاء جمعاً ، ثمَّ نام فيها إلى الفجر ، وصلَّىٰ فيها صلاة الصُّبح .

من مزدلفة توجَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم والحجَّاج معه إلىٰ منىٰ ، وإلىٰ منطقة الجمرات تحديداً ، فرمى الجمرة الكبرىٰ بسبع حصيات ؛ رمزاً ليقظة المسلم وحذره من كيد الشَّيطان ، وفي منىٰ نفسها نحر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أضاحيه للعيد ؛ إحياءً لسنَّة أبي الأنبياء إبراهيم ، واحتفالاً بفداء ابنه النَّبيِّ إسماعيل عليهما السَّلام .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مدركاً في كلِّ لحظةٍ أنَّه يحجُّ لنفسه

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢١٥) .

(٢) البداية والنهاية (٥/ ١٨٤) ، والحديث رواه مسلم (١٢٩٧) .

وللمسلمين في عصره وفي كلِّ عصرٍ ، ومهتمّاً أشدَّ الاهتمام بتعليم النَّاس مناسكهم ، وبالتَّيسير علىٰ من حجَّ معه وعلىٰ من سيأتي للحجِّ بعده كلَّ عامٍ ، ففي عرفة قال : « هـٰذا الموقف ـ مشيراً إلىٰ محلِّ وقوفه فيه ـ وكلُّ عرفة موقف » ، وحين وقف علىٰ جبل قزح في مزدلفة قال : « هـٰذا الموقف ، وكلُّ مزدلفة موقف » وعندما نحر هديه بمنىٰ قال : « هـٰذا المنحر ، وكلُّ منىٰ منحر »[1] .

وخطب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في المسلمين يوم العيد أيضاً ، وكان ممَّا قاله لهم :

« يا أيُّها النَّاس ؛ أيُّ يومٍ هـٰذا ؟! » قالوا : يومٌ حرامٌ ، قال : « فأيُّ بلدٍ هـٰذا ؟! » قالوا : بلدٌ حرامٌ ، قال : « فأيُّ شهرٍ هـٰذا ؟! » قالوا : شهرٌ حرامٌ ، قال : « فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هـٰذا في بلدكم هـٰذا في شهركم هـٰذا » ، وأعاد النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قولته هـٰذه مراراً ؛ لتأكيد الأهمِّيَّة الدِّينيَّة الكبرىٰ لحرمة النَّفس البشريَّة ، وحرمة الملكيَّة الفرديَّة للإنسان ، وحرمة عرضه وسمعته ، ثمَّ رفع رأسه وقال : « اللَّهم ؛ هل بلغت ، اللَّهم ؛ هل بلغت ؟! »[2] .

وقال أيضاً : « ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلاَّلاً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، ألا ليبلِّغ الشَّاهدُ الغائبَ ، فلعلَّ بعض من يبلغه أن يكون أوعىٰ له من بعض من سمعه »[3] .

كان عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد المشاركين في حجة الوداع ، وقد تحدث عن سر التسمية فقال : (وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦) .
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٧٣٩) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٠٦) .

الجمرات في الحجة التي حج بها ، وقال : « هـٰذا يوم الحج الأكبر » ، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم ؛ اشهد » ، وودع الناس ، فقالوا : هـٰذه حجة الوداع)[1] .

لا نصَّ علىٰ وريثٍ للحكم أثناء حجَّة الوداع

يلاحظ النَّاظر في الرِّوايات الصَّحيحة لخطب النَّبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم أثناء حجَّة الوداع أنَّها لم تتطرَّق إلىٰ جوانب الحكم والسُّلطة السِّياسيَّة ، وهناك روايةٌ واحدةٌ لابن ماجه وابن عساكر ترد فيها عبارة : « وأطيعوا ولاة أمركم » . لكنَّها غير مرويَّة في « صحيح البخاريِّ » أو « صحيح مسلم » .

وإذا نظر الباحث في خطبة النَّبيِّ يوم عرفة أو خطبته يوم النَّحر وأراد أن يلخِّص ما جاء فيهما حسب الرِّوايات الواردة في الصَّحيحين وفي « سيرة ابن هشام » ؛ فإنَّه يجد أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أكَّد من جديد ما أولته الرِّسالة الإسلاميَّة من مكانةٍ عظيمةٍ وحرمةٍ كبيرةٍ للإنسان رجلاً كان أو امرأةً ، دمه حرام علىٰ أيِّ إنسان آخر ؛ فلا يجوز العدوان عليه وقتله ظلماً أبداً ، وماله وأملاكه الخاصَّة حرام علىٰ أيِّ إنسان آخر ؛ لا يجوز أبداً سلبها أو مصادرتها أو سرقتها ، وعرض الإنسان من الأمور العظيمة عند الله ؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يعتدي عليه بالباطل أبداً ، كما أوصى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمرأة ؛ لأنَّ الرِّجال قابلون لأَنْ يتأثَّروا بالتَّقاليد التي نشأت عبر التَّاريخ وظلمتها وانتقصت من حقوقها ، وحثَّ على الوحدة والأخوة بين المسلمين كافة ، بقطع النَّظر عن أعراقهم وألوانهم ، كما أوصىٰ بأركان الإسلام الكبرىٰ مثل الصَّلاة والصَّوم والزَّكاة والحجِّ ، ونهىٰ عن الرِّبا واستغلال فقر النَّاس وحاجتهم .

ومع أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خطب يوم عرفة وخطب يوم العيد وبقي

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٧٤٢) .

في منىٰ أيَّام التَّشريق يعلِّم النَّاس دينهم ؛ فإنَّ المصادر التَّاريخيَّة الموثوقة لم تنقل عنه نصّاً حول الجوانب السِّياسيَّة باستثناء دعوته لطاعة ولاة الأمر بشكل عامٍّ ، ولم ينقل عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حجَّة الوداع نص واحد قاله في حجة الوداع حول هويَّة من يخلفه في الحكم وفي قيادة الدَّولة الإسلاميَّة بعد وفاته ، مع أنه قال للناس أنه قد لا يلقاهم بعد عامه ذاك بعرفة أبداً ، وكان يوصي النَّاس صراحة أن يأخذوا عنه مناسكهم لعلَّهم لا يلقونه بعد عامه ذاك .

وأكثر المؤرخين يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص بالحكم بعده لأحد من أصحابه ، وترك الأمر شورىٰ بين المسلمين . وكما هو معروف ؛ فإنَّ نزاعاً حادّاً على الحكم والسُّلطة نشب في العقد الهجريِّ الثَّالث أدَّىٰ إلى انقسامات في صفوف الأمَّة الإسلاميَّة ، وتسبَّب بعد ذلك في ظهور عدد من الفرق والطَّوائف التي ما تزال موجودة حتَّى اليوم .

إنَّ السِّياسة والتَّنافس على الحكم والسُّلطة من الأمور التي تثير النِّزاعات والانقسامات في المجتمعات البشريَّة علىٰ مدى التَّاريخ كلِّه ، وأكثر المسلمين يرون أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم انتصر للشُّورىٰ والدِّيمقراطيَّة بعدم استخلافه لحاكم من بعده ؛ ليكون الأمر للأمَّة ، كما يرون أنَّه بذلك الموقف ميَّز تمييزاً واضحاً بين صفته كنبيٍّ مرسلٍ من عند الله وحاكم لأوَّل دولة إسلاميَّة علىٰ وجه التَّاريخ ، وبين كلِّ الحكَّام المسلمين الذين جاؤوا من بعده ، وهم بشر لا يأتيهم الوحي من عند الله ، ذلك أنه لو أنَّه صلى الله عليه وسلم عيَّن واحداً منهم ؛ لربَّما نالته قداسة خاصَّة علىٰ أساس أن تعيينه جاء من عند النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ويمكن القول أيضاً : إن المعاني التي أكَّد عليها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حجَّة الوداع أكَّدت طبيعة الإسلام ، وأبرزت أركانه الأساسية ، وبيَّنت أنَّ الحكم علىٰ أهميَّته للمجتمع المسلم ولكلِّ مجتمع بشريٍّ

ليس شرط صحَّة ولا شرط وجودٍ للدِّين والتَّديُّن .

بمعنىٰ آخر : أنَّه حتَّىٰ لو كان المسلم يعيش في مجتمع أغلبيته لا تدين بالإسلام ولا يعتبر الإسلام مرجعيَّة للدولة وقوانينها ؛ فإنَّه يستطيع أن يؤدِّي التَّكاليف الشَّرعيَّة الرَّئيسة التي تقوده إلىٰ مرضاة الله وجنَّته ؛ أن يقيم الصَّلاة ، ويؤتي الزَّكاة ، ويصوم رمضان ، ويحجَّ البيت ، ويطيع الله في سائر أوامره ونواهيه التي جاءت في القرآن الكريم وبلَّغها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبينها للناس ، أمَّا إن كان في مجتمع مسلم ؛ فإن الأصل في الأشياء ، والأمر الموافق لهدي الإسلام ، هو أن تحتكم الدولة في دستورها وقوانينها إلى الشريعة الإسلامية العادلة السمحاء ، وأن تسود الشورىٰ وتكون السلطة القضائية حرة ومستقلة .

فإن اختلف المسلمون حول الحكم أو تنازعوا كما حصل في التَّاريخ وما زال يحصل في هـٰذا العصر للأسف ؛ فإنه يبقىٰ بوسع المسلم دائماً أن يؤدِّي التَّكاليف الشَّرعيَّة الرَّئيسة التي تقوده إلىٰ مرضاة الله وجنَّته ؛ أن يقيم الصَّلاة ، ويؤتي الزَّكاة ، ويصوم رمضان ، ويحجَّ البيت ، ويطيع الله في سائر أوامره ونواهيه التي جاءت في القرآن الكريم وبلَّغها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبيَّنها للناس ، وحتَّىٰ إن عطَّل الحاكم تطبيق أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة في البلاد الإسلاميَّة ، فإنَّ بوسع الفرد أن يطبِّقها في الكثير من شؤون حياته ، وبوسع المجتمع أن يحترمها ويلتزم بها ويطبِّقها في الكثير من وجوه الحياة العامَّة ، هـٰذا مع التَّأكيد مرة أخرىٰ علىٰ أن نصوص الشَّريعة الإسلاميَّة توجب على الفرد والمجتمع السَّعي لأَنْ تلتزم الدَّولة في المجتمعات الإسلامية بالمرجعية الإسلاميَّة في نظام الحكم وفي سياساتها في المجالات المختلفة ، والحرص علىٰ ألا تطبِّق الدَّولة سياسات أو تعتمد قوانين معارضة لتعاليم الإسلام .

إنَّها الطَّبيعة السَّهلة السَّمحة للإسلام ، وهي التي تجعله ديناً للفرد وللمجتمع وللأمَّة ، وتجعله قابلاً للتَّطبيق في كلِّ الظُّروف وكلِّ الأزمنة ، ولا ترهنه للسُّلطة السِّياسيَّة بالرَّغم من الأهميَّة الدِّينيَّة للسُّلطة السِّياسيَّة العادلة وللوحدة السِّياسيَّة للأمَّة ، وبهٰذا التَّوجُّه يبقى الإسلام أمام الأمَّة وأمام المجتمع دائماً فرصة التَّحرر الرُّوحيِّ من السُّلطات الظَّالمة المستبدَّة في كلِّ وقت ، ويبقي للمجتمع والأمَّة أيضاً فرصة وواجب السَّعي لإقامة الحكم السِّياسيِّ المبنيِّ علىٰ تعاليم الإسلام ؛ أي : على الشُّورىٰ والعدل واحترام حقوق الإنسان ، وذلك مهما كانت سطوة المستبدِّين المحليِّين ، أو الغزاة الأجانب المحتلِّين في أيِّ مرحلة من مراحل التَّاريخ .

هٰذه الطبيعة السهلة السمحة والتحررية للإسلام ، هي التي تجعله ديناً للفرد وللمجتمع وللأمة ، وتجعله قابلاً للتطبيق في كل الظروف وكل الأزمنة . ولعل هٰذه الرؤية تساعد علىٰ وضع الأمور في نصابها عندما يتعلق الأمر بمناقشة دور الإسلام في المجتمع وعلاقته بالدولة والسياسة ، وذلك من خلال تقديم مسؤولية المجتمع ومسؤولية الأمة في رعاية الدين علىٰ مسؤولية الحكومة ، وتنبيه بعض المسلمين الذين يتطرفون ويجعلون السياسة والحكم أعظم شؤون الدين أنهم يخطئون في فهم جوهر الرسالة ، ويضيقون أمراً عظيماً واسعاً ، ويرهنون الدين من غير ضرورة لنقطة ضعف رئيسة عند الإنسان منذ قديم الزمان ؛ شهوة الحكم والميل الفطري للتسلط والاستبداد .

ومن الواضح أن الأمة إذا قامت بمسؤوليتها في رعاية الدين وتمثله في حياتها ، كأفراد وكجماعة ؛ فإن نظامها السياسي سيعبر حتماً عن التزامها الديني هٰذا ، خاصة إذا كانت الحكومة القائمة مختارة من قبل الشعب وليست مفروضة بالقوة من قبل طغمة متسلطة أو قوة محتلة .

طواف الوداع

قبل الإفاضة إلى المسجد الحرام من جديد والطَّواف بالكعبة المشرَّفة تحلَّل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من إحرامه وتطيَّب ، ثمَّ أقام بقيَّة أيَّام التَّشريق ، وهي يوم العيد واليومان اللاَّحقان له في منىٰ يعلِّم النَّاس دينهم ، وفي اليوم الثَّالث عشر من ذي الحجة نفر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من منىٰ إلىٰ منطقة الأبطح في مكَّة ، وهناك صلَّى الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثمَّ رقد رقدة بالمحصَّب ، ثمَّ ركب إلى البيت فطاف به[1] وذاك هو طواف الوداع ؛ ودَّع خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بيت الله الحرام بالطواف والذكر والعبادة ، وتلك سنة كريمة سنها للحجاج من بعده في كل عصر ، ألا يغادروا المدينة المقدسة حتىٰ يطوفوا طواف الوداع حول الكعبة المشرفة .

وبعد ذلك تحرك موكب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم عائداً إلى المدينة المنورة ، وكان وداعه لمكة وداعاً حقيقياً بكل معاني الكلمة ، فالنَّبيُّ الكريم الذي نزل عليه الوحي وبلغه باكتمال الرِّسالة وتمام النِّعمة كان يرىٰ مكَّة للمرَّة الأخيرة في حياته .

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٧٦٤) ، وينظر « الرحيق المختوم » (ص ٥٣٧) .

الفَصلُ السَّابِع عَشَر
من أخلاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

قائد موكب المؤمنين العائدين من حجة الوداع إلى المدينة المنوَّرة نبي مرسلٌ وزعيم متوَّجٌ ، أمره نافذ في كلِّ أنحاء الجزيرة العربيَّة ، جيشه هو الأكبر في المنطقة ، وأصحابه يحبِّونه أكثر مما يحبُّون أنفسهم ، وهيبته أصبحت أمراً مسلَّماً به حتَّىٰ من قبل قادة الإمبراطوريَّتين الرُّومانيَّة والفارسيَّة ، فهل أثَّرت هٰذه السُّلطة الرُّوحيَّة والسِّياسيَّة الفريدة على الإنسان النَّبيّ محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ هل جعلته يسير فيما سارت فيه الأغلبيَّة السَّاحقة من الملوك والحكُّام والقادة العظام قبله وبعده من نزوعٍ للتَّمتُّع بالجاه والسُّلطان والمال والتَّحكم في الرَّعايا والمواطنين ؟ هل ظهر منه ما يمكن أن يستخدمه خصومه القدامىٰ والمعاصرون حجَّة للتَّشكيك في نبوَّته أو في مقاصده ؟

أم أنَّه لم يتأثَّر أبداً بهٰذا النُّفوذ الهائل والسُّلطان الكبير ، وبقي مضرب المثل للبشريَّة كلِّها في الخُلُق النَّبيل الكريم ؟

الجواب الصريح والمباشر : هو أنَّ انتصارات المسلمين على المشركين وعلىٰ قوى الظلم والاستبداد في الجزيرة العربية لم تغيِّر أبداً من أخلاق نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وأنَّه بقي طيلة حياته مثلاً أعلىٰ للخُلُق الكريم من كلِّ وجوهه .

تعطينا كتب الحديث والسِّيرة الموثوقة المعتمدة لدى المسلمين وغيرهم إضاءات كثيرة عن شخصيَّة نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم في كلِّ مراحل حياته ، ولعلَّ من المناسب الآن أن نعرض عناوينها الرئيسة بعد أن ساد الإسلام في مكَّة المكرَّمة وفيما حولها من أجزاء الجزيرة العربيَّة ، مع الإشارة إلىٰ أنَّ

هٰذا العرض سيكون مختصراً موجزاً ؛ لأنَّ الوفاء بالموضوع كاملاً يستحقُّ وحده أكثر من كتاب من مئات الصفحات .

كان محمَّد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كريماً يعطي بسخاء ، وقد روىٰ عبد الله بن عبَّاس : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أجود النَّاس بالخير ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان[١] .

وقال أنس بن مالك : ما سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على الإسلام شيئاً إلاَّ أعطاه ، قال : فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلىٰ قومه ، فقال : يا قوم ؛ أسلموا فإنَّ محمَّداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وأضاف أنس معلِّقاً : إنْ كان الرَّجل ليسلم ما يريد إلاَّ الدُّنيا ، فما يسلم حتَّىٰ يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها[٢] .

وقال جابر بن عبد الله ـ وهو من مشاهير صحابة النَّبيِّ ـ : ما سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم شيئاً قطُّ فقال : لا[٣] ، وقد رأى العرب صنيعه بعد حنين وأعطياته الجزيلة لأبي سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، والحارث بن كلدة ، ومالك بن عوف ، وآخرين .

كان نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وسلم مضرب المثل في الجود والكرم مع عامَّة النَّاس ، ولكنَّه لم يكن يستخدم المال العامَّ للإنفاق علىٰ نفسه والصَّرف علىٰ رغبات أهل بيته ، حتَّىٰ إنه كان يمرُّ الشَّهر والشَّهران من دون أن توقد نارٌ لطبخ الطَّعام في بيت النَّبيِّ ، قالت عائشة أمُّ المؤمنين تحدِّث عروة ابن أختها : والله يا ابن أختي ؛ إنَّا كنَّا ننظر إلى الهلال ثمَّ الهلال ثلاثة أهلَّة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم نار ، قال عروة :

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٨) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٣٠٨) .

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣١٢) .

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣١١) .

يا خالة ؛ فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان ؛ التمر والماء ، إلاَّ أنَّه كان لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ـ مواشي إبل أو غنم ـ وكانوا يرسلون إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من ألبانها فيسقينا[١] .

كانت حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كلُّها كفاحاً من أجل نشر عقيدة التوحيد ، عقيدة الإيمان بالله وحده رباً وخالقاً ومعبوداً لا شريك له ، وتبليغ رسالة الإسلام للنَّاس أجمعين ، وكان قلبه دائماً متعلِّقاً بالآخرة ، فهي الحياة الحقيقيَّة الدَّائمة ، والتَّعلق بها يعطي الحياة الدُّنيا وزنها الحقيقيَّ ؛ فلا يبيع الإنسان قيم الخير والفضيلة من أجل مكسب صغير من مكاسبها الوقتيَّة الزَّائلة ، دخل عمر بن الخطَّاب يوماً على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فوجده جالساً علىٰ حصيرٍ عليه إزار ليس عليه غيره ، ورأى الحصير قد أثَّر في جنبه ، ورأىٰ قليلاً من الشَّعير في مسكنه ، فبكىٰ ، وعندما سأله النَّبي صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه ؛ قال : يا نبيَّ الله ؛ ما لي لا أبكي وهٰذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهٰذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ ، وذاك كسرىٰ وقيصر في الثِّمار والأنهار ، وأنت نبيُّ الله وصفوته وهٰذه خزانتك ، وكان جواب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم له : « يا ابن الخطاب ؛ أما ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدُّنيا ؟ » .

وليس معنىٰ هٰذا أنَّ نبيَّ الإسلام لم يكن مهتمّاً بالدُّنيا ، فهو قضىٰ حياته كلَّها في تعليم الناس ، كيف يعمّرون الدنيا من دون أن يضيعوا الآخرة ، وكيف يسعدون في حياتهم الدنيا بعقيدة التوحيد ، وبمبادىء العدالة والحرية ومكارم الأخلاق . وحث الإنسان المؤمن في كل زمان ومكان على العلم والعمل الصالح إلىٰ آخر رمق في حياته ، وأوصاه أنه إذا قامت الساعة وفي يده فسيلة ؛

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم (ص ٥٨) .

فليغرسها . قال عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح أخرجه البخاري : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا يقوم حتىٰ يغرسها ؛ فليغرسها فله بذلك أجر » .

ولكن معنىٰ جوابه لعمر بن الخطَّاب أنَّه يقبل أن ينشغل الحكام الآخرون المشار إليهم بمباهج الدنيا ، ويرضىٰ هو أن يتنازل عنها ، وأن يكون متواضعاً متقشِّفاً ، لا يبدِّد موارد المسلمين على القصور والمزارع ، وسائر المباهج الأخرى التي يطلبها الملوك والزعماء والأغنياء ، يقدِّم المثل والقدوة لمن يخدم النَّاس من موقع القيادة ، ويرضىٰ بالشَّرف والمقام الرَّفيع الذي وعد به الله عزَّ وجلَّ أنبياءه والحكَّام العادلين المتواضعين في الآخرة .

التَّواضع كان سمتاً أصيلاً في خلق نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وللذين يتكبَّرون علىٰ من يخدمونهم ويظنُّون أنفسهم من طينةٍ أرفع من طينة البشر قصة تحرجهم كثيراً من سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم رواها أنس بن مالك ، قال : خدمت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عشر سنين ، والله ؛ ما قال لي : أفٍّ ـ علامة تأفف وضيق وتبرم ـ قطُّ ، ولا قال لي لشيءٍ فعلت : لم فعلت كذا ؟ وهلاَّ فعلت كذا ؟[1] .

وكان نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وسلم متواضعاً للنَّاس كافَّة ، طلبت امرأة من عامَّة النَّاس أن تحدِّثه في أمر يهمُّها دون أن يسمع كلامها بقية النَّاس فأجابها إلىٰ طلبها ، وسمع منها قولها في مكان على الطَّريق العامِّ ، حتَّىٰ فرغت من عرض مسألتها[2] .

وروي عن أنس بن مالك أيضاً أنَّه قال : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا صافح أو صافحه الرَّجل ؛ لا ينزع يده ، وإن استقبله بوجهه ؛

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم (ص٦٩) .
(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٢٦) .

لا يصرفه عنه حتَّىٰ يكون الرَّجل ينصرف عنه ، ولا يُرَىٰ مقدِّماً ركبتيه بين يدي جليس له[1] .

كان تواضع النَّبيِّ طبعاً لا تطبُّعاً ، وسلوكاً يوميّاً في حياته ، جاءه رجل فارتبك من مهابته ، فهوَّن عليه ، وذكَّره بأنَّه ـ أي : النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ـ ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، وكان يزور المرضىٰ ويخالط الفقراء والمساكين ، وأشدَّ النَّاس بعداً عن التَّكبُّر والرِّياء والتَّفاخر ، قالت زوجته عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته ، وكان بشراً من البشر يفلِّي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه[2] .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المثل الأعلىٰ في الأدب والخلق الرفيع في أمره كلِّه ، حتَّىٰ في شأنٍ تفصيليٍّ لا ينتبه إليه كثير من النَّاس ، قال أبو هريرة : ما رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عاب طعاماً قطُّ ، كان إذا اشتهاه ؛ أكله ، وإن لم يشتهه ؛ سكت[3] .

وقالت أمُّ المؤمنين عائشة : ما ضرب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم شيئاً قطُّ بيده ، ولا امرأة ولا خادماً إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قطُّ فينتقم من صاحبه إلاَّ أن يُنْتَهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله عزَّ وجلَّ[4] .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم محبّاً للصِّغار عطوفاً عليهم ، وكان يسلِّم عليهم إذا مرَّ بهم في الطَّريق ، روىٰ أبو هريرة ـ وهو من مشاهير رواة الحديث النَّبويِّ ـ : أن صحابيّاً يسمى الأقرع بن حابس أبصر النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقبِّل حفيده الحسن بن عليِّ بن أبي طالب ، فقال الأقرع : إنَّ لي عشرة من

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم (ص٦١) .
(٢) الرحيق المختوم (ص٥٦١ ـ ٥٦٢) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٥٤٠٩) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٠٦٤) .
(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٢٨) .

الولد ما قبَّلت واحداً منهم ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنَّه من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم » ، وقال النَّبيُّ أيضاً : « من لا يرحم النَّاس ؛ لا يرحمه الله عزَّ وجلَّ »[1] .

وكان نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وسلم يوصي بالتَّيسير ويأخذ بالأيسر ما لم يكن إثماً ، قالت عائشة أمُّ المؤمنين : ما خُيِّر رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بين أمرين إلاَّ أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ؛ فإن كان إثماً ؛ كان أبعد النَّاس منه ، وما انتقم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لنفسه إلاَّ أن تنتهك حرمة الله عزَّ وجلَّ[2] .

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إنساناً يفرح ويحزن مثل عامَّة البشر ، حضر وفاة ابنه إبراهيم وحضرها أنس بن مالك فقال : لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فدمعت عينا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربَّنا ، والله يا إبراهيم ؛ إنَّا بك لمحزونون »[3] .

وكان نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وسلم مشهوراً بالحياء واحترام النَّاس والبعد عن القول الفاحش ، وكان يحثُّ النَّاس على الخُلُق الكريم ، ويعتبر الأخلاق الفاضلة وجهاً رئيساً للدِّين الإسلاميِّ ، قال أبو سعيد الخدريِّ : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أشدَّ حياء من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً ؛ عرفناه في وجهه[4] .

وقال عبد الله بن عمرو : إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن فاحشاً

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣١٨) .

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣١٩) .

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣١٥) .

(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٢٠) .

ولا متفحِّشاً ، وأضاف : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنَّ من خياركم أحاسنكم أخلاقاً »[1] .

وكان يعلِّم النَّاس ألاَّ ينخدعوا بالمظاهر ولا يعبؤوا بها كثيراً ويقول لهم : «إنَّ الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»[2] .

وكان نبي الإسلام يوصي بمودَّة الجار والإحسان إليه ، وبإكرام الضَّيف ويقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليحسن إلىٰ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليقل خيراً أو ليسكت »[3] .

وكان يوصي ببرِّ الوالدين ويعتبره من أفضل الأعمال عند الله ويقول : « أفضل الأعمال : الصَّلاة لوقتها وبرُّ الوالدين »[4] .

وكان ينبذ العدوان على النَّاس بالسِّلاح وينبذ الغشَّ ويقول : « من حمل علينا السِّلاح ؛ فليس منا ، ومن غشَّنا ؛ فليس منا »[5] .

وكان ينهىٰ عن الظُّلم ويقول عن ربِّه تعالىٰ في حديثٍ قدسيٍّ : « يا عبادي ؛ إنِّي حرَّمت الظُّلم علىٰ نفسي ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تظالموا »[6] كما كان يحثُّ المؤمنين علىٰ أن يعين بعضهم بعضاً ويقول : « من كان في حاجة أخيه ؛ كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة ؛ فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة »[7] .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٢١) .
(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٦٤/ ٣٣) .
(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٤٨) .
(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٨٥/ ١٤٠) .
(٥) صحيح مسلم حديث رقم (١٠١) .
(٦) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٧٧) .
(٧) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٨٠) .

وكان نبيُّ الإسلام يوصي أصحابه بالكرم وبذل المعروف والعفو والتواضع ، قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاَّ عزّاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله »[1] .

وكان ينهىٰ عن اللَّعن والسَّب والغيبة والنَّميمة ، وينهىٰ أيضاً عن لعن الحيوانات ، قيل له يوماً : يا رسول الله ؛ ادع على المشركين ، قال : « إني لم أبعث لعَّاناً وإنَّما بعثت رحمةً »[2] .

وكان ينصح بالرِّفق ويقول لزوجته أمِّ المؤمنين بنت الصِّديق : « يا عائشة ؛ إنَّ الله رفيق يحبُّ الرِّفق ، ويعطي على الرِّفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي علىٰ ما سواه »[3] .

وكان يحبُّ الصِّدق ويوصي به ، ويكره الكذب ويحذِّر منه ، قال : « إن الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة ، وإنَّ الرَّجل ليَصْدُق حتَّىٰ يكتب عند الله صدِّيقاً ، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النَّار ، وإن الرَّجل ليكذب حتَّىٰ يكتب عند الله كذَّاباً »[4] .

وكان ينهىٰ عن تعذيب النَّاس ويحذِّر منه تحذيراً شديداً ويقول : « إنَّ الله يعذِّب الذين يعذِّبون النَّاس في الدُّنيا »[5] .

وكان يحثُّ النَّاس علىٰ فعل الخير وخدمة بعضهم بعضاً ، ويجعل لبعض ما يبدو ظاهرياً علىٰ أنَّه أمرٌ بسيط للغاية من أمور الخير شأناً دينيّاً مهمّاً ؛ كمثل قوله : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوكٍ على الطَّريق فأخَّره ،

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٨٨) .
(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٩٩) .
(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٩٣) .
(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٢٦٠٧) .
(٥) صحيح مسلم حديث رقم (٢٦١٣) .

فشكر الله له فغفر له »[1] ، وقوله أيضاً في الحثِّ على المودَّة بين النَّاس : « لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقىٰ أخاك بوجهٍ طلق »[2] .

وفي كلِّ هٰذه التَّوجيهات كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يقدِّم المثل الأعلىٰ في تطبيقها والالتزام بها ، كان بشوشاً ودوداً ، صديقاً للفقراء والمساكين ، وكان يَحِدبُ على اليتامىٰ والأرامل ، يقول لأصحابه : إنه رفيق لكافل اليتيم في الجنَّة ، ويحثُّهم على الإنفاق على الأرامل والمساكين ، ويعتبر ذلك من أبواب الجهاد في سبيل الله ، وكان معيناً للنَّاس علىٰ حوائجهم ، يربِّي أمَّته بأحسن وسائل التَّربية ، لا يهين ولا يجرح أحداً ، ولا يتكبَّر علىٰ أحدٍ ، في سفرة من أسفاره مع بعض أصحابه اتفقوا علىٰ طبخ شاةٍ لطعامهم ، فقال رجل : عليَّ ذبحها ، وقال آخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ طبخها ، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم : « وعليَّ جمع الحطب » فقالوا : نحن نكفيك ، فقال : « قد علمت أنَّكم تكفوني ، ولكنِّي أكره أن أتميَّز عليكم ؛ فإنَّ الله يكره من عبده أن يراه متميِّزاً بين أصحابه » وقام وجمع الحطب[3] .

وكان إلىٰ هٰذا كلِّه شجاعاً لا يهاب ، عاداه طغاة قريش وحاربوه أشرس الحروب فلم يتراجع عن تبليغ رسالته ولم يضعف أمامهم قط ، وفرَّ أصحابه من حوله يوم حنين فلم يهرب ولم يتراجع شبراً واحداً ، وصمد في إباء وهمَّة عالية فعاد الهاربون من حوله وتحقق النَّصر الكبير ، ومن قبل في أُحُد حين انقلبت الدَّائرة على المسلمين لم يجزع ولم يخف ، ويوم الأحزاب عندما حوصرت المدينة وبلغت القلوب الحناجر كان هو الرُّكنَ الشَّديدَ الذي يستلهم منه صناديد المسلمين الثِّقة بالنَّفس والقدرة على التَّحمل .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (١٩١٤) .

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٦٢٦) .

(٣) الرحيق المختوم (ص٥٦٦) .

وكان مهاباً شديد الاحترام ، سأل الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب أباه عن مجلس رسول الإسلام ، فقال : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لا يجلس ولا يقوم إلاَّ علىٰ ذكر ، وإذا انتهىٰ إلىٰ قومٍ ؛ جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطي كلَّ جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أنَّ أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه في حاجةٍ ؛ صابره حتَّىٰ يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة ؛ لم يردَّه إلاَّ بها أو لميسورٍ من القول ، وقد وسع النَّاس منه بسطه وخُلُقه فصار لهم أباً وصاروا له أبناء عنده في الحق سواء ، مجلسُه مجلسُ حلمٍ وحياءٍ وصبرٍ وأمانةٍ ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن ـ تعاب ـ فيه الحرم ، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوىٰ ، متواضعين يوقِّرون فيه الكبير ، ويرحمون الصَّغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب ، وقال عليُّ بن أبي طالب عن سيرة النَّبيِّ مع جلسائه : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم دائم البشر ، سهل الخلق ، ليِّن الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخَّاب ولا فحَّاش ولا عيَّاب ولا مزَّاح ، يتغافل عمَّا لا يشتهي ، ولا يوئس منه راجيه ولا يخيب فيه ، وترك النَّاس من ثلاث ، كان لا يذمُّ أحداً ولا يعيِّره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلَّم إلاَّ فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلَّم ؛ أطرق جلساؤه كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطَّير ، وإذا تكلَّم ؛ سكتوا ، وإذا سكت ؛ تكلَّموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجَّب مما يتعجَّبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، ولا يقطع علىٰ أحدٍ حديثه حتَّىٰ يجوز[1] .

وكان نبيُّ الإسلام نظيفاً يحبُّ النَّظافة ويوصي بها ويجعلها من وجوه الإيمان ، وكان يحبُّ الطِّيب ، ويبقي فمه الشَّريف دائماً عطراً بالسِّواك .

وقد اتَّفق علماء الأدب العربي والمختصون في البلاغة أنَّ نبيَّ الإسلام أوتي

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم (ص ٥٦ـ ٦٦) .

جوامع الكلم ؛ يقصدون أنه أوتي القدرة علىٰ أن يقول في كلمات قليلة ما يحتاج عامَّة النَّاس إلىٰ عرضه في مقالاتٍ طويلةٍ ، وأحاديثه دالَّة علىٰ هـٰذه الموهبة العجيبة المؤثِّرة ، ومنها في هـٰذا السِّياق هـٰذه العبارة الموجزة التي جمع فيها قواعد كثيرة من تعاليم الرِّسالة الإسلاميَّة : « أمرني ربِّي بتسعٍ : خشيةِ الله في السِّرِّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرِّضا ، وأن أصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأعفو عمَّن ظلمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبرةً ، وآمر بالمعروف »[1] .

وقد مدح ربُّ السَّماوات والأرض نبيَّ الإسلام في كتابه الكريم ، فقال يخاطبه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] .

هـٰذا إذن فصلٌ موجزٌ مختصر عن أخلاق رسول الله وخاتم النبيِّين صلى الله عليه وسلم ، وإلاَّ ؛ فالأمر يحتاج إلىٰ كتبٍ ومجلَّداتٍ كثيرةٍ ، أمَّا هيئته وصورته ؛ فقد تحدَّث عنها البراء ، وهو من صحابته فقال : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رجلاً مربوعاً ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمَّة إلىٰ شحمة أذنيه ، عليه حلَّة حمراء ، ما رأيت شيئاً قطُّ أحسن منه[2] ، وقال البراء أيضاً : كان رسول الله أحسن النَّاس وجهاً وأحسنهم خلقاً ، ليس بالطَّويل الذَّاهب ولا بالقصير[3] .

وسئل أبو الطُّفيل وكان آخر من مات من أصحاب النَّبيِّ : أرأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ قال : نعم ، كان أبيض مليح الوجه[4] .

إذا ما تأمَّل الإنسان المنصف في أخلاق هـٰذا الإنسان النَّبيل الكريم

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم (ص١١١) .
(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٣٧/ ٩٣) .
(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٢٣٤٠/ ٩٨) .
(٤) الرحيق المختوم (ص ٥٦٠) .

ما عرضنا منها هنا وما فاتنا عرضه ؛ فإنَّه يدرك علىٰ وجه اليقين أنَّه أصدق الخلق ، وأنَّه نقل بأمانةٍ عن ربِّه دستوراً لسعادة النَّاس في الدُّنيا والآخرة .

اعرض علىٰ أهل أي مجتمع في الدنيا ، وفي أي عصر من العصور أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، فسيقرون ـ إن التزموا بالعدل والإنصاف ـ أنه القدوة الحسنة ولا ريب .

هـٰذا الإنسان النبي يمجِّد الصِّدق ويمقت الكذب ، يأمر بالبرِّ وينهىٰ عن الفجور ، يوصي بالأمانة ويجرِّم الغشَّ والخيانة ، يصون النَّفس عن المخدرات وكلِّ أنواع الفساد ويحبِّبها في الخير والكرم ومساعدة المحتاجين ، وهو يرىٰ أنَّ سيِّد النَّاس خادمهم ؛ فيتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، ويقضي حاجاتهم ، إنه يعتبر الابتسامة صدقة ، وإماطة الشَّوك عن الطَّريق عبادة ، وينهىٰ عن الغيبة والنَّميمة ، ويرفض حتىٰ لعن الحيوان .

محمد صلى الله عليه وسلم يجعل الإحسان إلى الجار وحسن معاملته من شرائع الدين ، ويجمع بين توحيد الله وبر الوالدين ، ويعظم كثيراً من شأن الوالدين وصلة الرحم ؛ حرصاً منه علىٰ وضع أساس قوي متين لعائلة سعيدة مترابطة متكاتفة .

محمد صلى الله عليه وسلم يجعل كفالة اليتيم باباً للجنَّة ، ويجعل رعاية الأرامل جهاداً في سبيل الله ، ويعتبر النَّظافة من الإيمان ، وهو يتواصل مع النَّاس بالفكرة والحجَّة والخُلُق الرَّفيع ، ولم يعرف عنه أنَّه ضرب شيئاً قطُّ بيده ولا امرأة ولا خادمة .

أقول للقارىء الكريم : قدِّم هـٰذا النَّموذج لأهل مجتمعٍ وستجد أنَّ كثيراً من النَّاس ربما يبلغ بهم الإعجاب والتقدير والحب إلىٰ حد العبادة ، لكنَّ نبيَّ الإسلام صلى الله عليه وسلم حذَّر النَّاس من أن يغالوا فيه ، وأمرهم بعبادة الله وحده ، وبيَّن لهم الأسلوب الذي يجعل الإنسان العادي في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

قادراً على الالتزام بمثل هٰذا الدُّستور الأخلاقيِّ السَّامي في حياته .

إنَّ أخلاق محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم التي مدحها القرآن الكريم مفتاحٌ أساسيٌّ في فهم سرِّ انتشار الإسلام في قلوب النَّاس شرقاً وغرباً ، وفي فهم استمرار انتشاره علىٰ مرِّ العصور .

❊ ❊ ❊

الفَصْلُ الثَّامِن عَشَر

تعريف الإسلام وإضاءات عن آل إبراهيم

قبل الختام ، أقترح على القارىء الكريم التوقف عند بعض المعطيات أو الخلاصات الأساسية عن الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ودعا جميع الناس إليه ، وعن علاقة خاتم النبيين بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم يوم عرفة يؤكد اكتمال رسالة الإسلام : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣] .

الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالىٰ لعباده ، واختاره لهم منهاجاً يوصل إلىٰ مرضاته وجناته ويحقق السعادة والسكينة والفوز للمؤمن في الدنيا والآخرة .

وقد نال النبي محمد صلى الله عليه وسلم شرف تبليغه للناس ، فأدى الأمانة بحقها ، وأزاح الظلمة والضلالة عن أعين الناس ، وجسد مبادىء الدين في أخلاقه وسلوكه .

وقد تبين من الفصول السابقة أن الإسلام هو أن يشهد الإنسان أنه لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً . تلك أركان الإسلام الخمسة .

ومن مقتضيات صحة الإيمان أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر .

ومن مقتضيات صحة الإيمان أيضاً أن يؤمن الإنسان بالقدر خيره وشره ، ومن معاني ذلك أن يؤمن بأن الله تعالىٰ عليم بكل شيء ، بما كان وما يكون في كل زمان ومكان ، ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وأن قدرته وإرادته ظاهرتان علىٰ كل شيء ، لا يحدث أمر أو يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته عز وجل ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

وقد عرف بعض أهل العلم هـٰذا البند من بنود الإيمان بأنه : الإقرار بأن الله تعالىٰ علم كل شيء وكتب مقادير كل شيء ، وكل شيء بإرادته ومشيئته ، وأنه خالق كل شيء ؛ يخلق ما يشاء ، فعّال لما يريد ، ما شاءه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، بيده ملكوت كل شيء ، يحيي ويميت ، وهو علىٰ كل شيىء قدير . يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، خلق الخلق ، وقدر أعمالهم وأرزاقهم وحياتهم وموتهم .

فالإيمان بالقدر يبعث في النفس اليقين والرضا ، والطمأنينة ، والأمن ، والسعادة ، والركون إلى الله العلي العظيم . (ورد هـٰذا التعريف في موقع الإسلام في الشابكة « الانترنت » التابع لوزارة الأوقاف السعودية) .

وحول هـٰذه الأركان الخمسة : الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، تتكامل بقية تشريعات الإسلام ، من أوامر ونواهٍ ، من حلال وحرام ، ومن سنن ومستحبات ومكروهات .

أمر الإسلام بكل خير ؛ من ذلك : بر الوالدين وصلة الرحم ، وإكرام الجار ونجدة الملهوف ، والصدق في القول والوفاء بالوعد ، والإحسان للمحتاجين والتواضع ، والرفق بالحيوانات ، والتبسم في وجوه الناس وإفشاء السلام ، وإماطة الأذىٰ عن الطريق . إنه دين الحب والسلام ومكارم الأخلاق .

ونهى الإسلام عن شرب الخمر والميسر وأكل الميتة ، ونهىٰ أيضاً عن الكذب والغيبة والنميمة والغدر والتكبر والفحش في القول وعن كل خلق ذميم .

جعل الإسلام الإباحة أصل الأشياء في أمور الحياة والدنيا ، ونهىٰ عن أمور محددة ذكرنا أمثلة لها ، وحرم أموراً أخرىٰ عدها من كبائر الذنوب ؛ مثل الشرك بالله والقتل والزنا والسرقة وعقوق الوالدين وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقتل المعاهد ، أي : من كانت له ذمة الله ورسوله من غير المسلمين .

ويوجد تفصيل لهٰذه المسائل في عدد من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . من ذلك ما جاء في (سورة الأنعام) :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١ـ١٥٣] .

وأمر الإسلام بالشورىٰ ، وجعل كرامة الإنسان حقاً إلـٰهيّاً وليس منحة من حاكم أو زعيم ، وكرّم المرأة وأعطاها حقوقها ، وأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء العمال حقوقهم ، وأوصى المسلمين بالوحدة والتضامن ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بين القرآن الكريم ، وأكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأعماله ، أن الله تعالىٰ رحيم بعباده ، يريد لهم الخير ، وأنه غفور رحيم .

الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله عز وجل هو الشرك به ، ولذلك كان التوحيد أهم أمر دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا إليه الأنبياء والرسل من قبله عليهم الصلاة والسلام .

دليل ذلك ما جاء في قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٤٨] كما جاء أيضاً في نفس السورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء : ١١٦] .

ودليله أيضاً ما أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني جبريل ، فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك ؛ دخل الجنة » . قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟! قال : « وإن زنىٰ وإن سرق » . قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟! قال : « وإن زنىٰ وإن سرق » . قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟! قال : « وإن زنىٰ وإن سرق وإن شرب الخمر » . وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الثالثة : « وإن رَغِم أنف أبي ذر » .

باختصار : المفتاح الأهم للنجاة يوم القيامة هو التوحيد الخالص ، وليس أي شيء آخر مما نعظمه اليوم في حياتنا ونعطيه أكبر جهدنا ووقتنا .

فإن قال قائل : نعرف أهمية التوحيد منذ أن عرفنا الإسلام ، فما الداعي لتكرار الحديث عنه ؟ أجبته بأنني أرى اليوم أعداداً كبيرة من المسلمين يؤمنون

بالله عز وجل ، ويقولون له في كل صلاة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ويقرؤون في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [سورة غافر : ٦٠] ، ومع ذلك ، يدعون غيره في أوقات الشدة ، وينسبون قدرات عظيمة خارقة لبعض البشر من المنسوبين لأهل الصلاح ، فيأتونهم في قبورهم ، أو يدعونهم من بعيد ، يخاطبونهم بأسمائهم عند الدعاء ، يطلبون منهم الغوث والمال والنجاح وقضاء الحاجات وتفريج الكرب ، وينذرون لهم النذور ، ويعتقدون بيقين أنهم يسمعون دعاءهم ويقدرون علىٰ تلبية حاجاتهم .

وعندما ينبه هٰؤلاء المسلمون إلىٰ أن ما يفعلونه غير صحيح ، يقولون : إن هٰؤلاء الصالحين وسطاء لنا عند الله بسبب مقامهم الرفيع عند ربهم ، وإننا نعرف أنهم إنما ينفعون ويستجيبون للدعاء بإذن الله ، فلا داعي للقلق إذن أو الاعتراض .

بعض الكتاب والمفكرين والدعاة يرون في هٰذه الظاهرة مسألة ثانوية غير مهمة ، ولا تستحق أن توضع ضمن أولويات الشعوب أو الحركات الإصلاحية أو أعلام الفكر والتجديد والتنوير .

لكنني أخالف هٰذا الرأي ، وأرىٰ مما تعلمته من القرآن الكريم والسنة النبوية ، أن هٰذا السلوك الذي يسلكه كثير من المسلمين بدعاء الأئمة والأولياء الصالحين ، مخالف لأعظم التوجيهات والتعاليم التي جاءت في القرآن الكريم ، وشرحها محمد صلى الله عليه وسلم ، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من قبله ، وأرىٰ أن من مقتضيات التوحيد الخالص لله تعالىٰ ، الذي يقود لمرضاته وجناته إن شاء الله ، أن يتوجه المؤمن

إلى الله تعالىٰ وحده في أوقات الرخاء والشدة ، وألاَّ يطلب الغوث والمدد وصلاح الذرية ونجاحهم وقضاء الحاجات وتفريج الكرب إلا من الله سبحانه وتعالىٰ وحده .

الشجرة الكريمة

حاولت فيما سبق تلخيص أهم أركان الإسلام ومبادئه ، وألفت نظر القارىء الكريم أن عبارة (الإسلام) تستخدم أيضاً للدلالة علىٰ جميع ما جاء به الأنبياء والمرسلون من أول الدنيا إلىٰ خاتم النبيين محمد عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وقد أكد نبي الإسلام ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، هـٰذا التواصل والترابط بينه وبين من سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله :

« مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنىٰ بنياناً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هـٰذه اللبنة ؟! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[١] .

يقودنا هـٰذا الحديث النبوي الشريف إلى الاهتمام بالشجرة المباركة ، أو النسب الكريم ، من الأنبياء والمرسلين ، الذين اختارهم الله بعلمه وحكمته ، ليبلغوا رسالته إلى العالمين ، وليهدوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته ، وإلىٰ طريق الحق والسعادة في الدنيا والآخرة .

يعود نسب المسلمين ، مثل اليهود والنصارىٰ من قبلهم ، إلىٰ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، الذي شرفه الله بحمل رسالة التوحيد قبل آلاف السنين ، وقبل نزول التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام بفترة طويلة . عاش إبراهيم عليه السلام متنقلاً بين مصر والعراق ، وبنى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة .

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٢٨٦) .

وفي القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مدح كثير لفضائل إبراهيم وإخلاصه وشجاعته في قول الحق وحرصه علىٰ هداية الناس إلى الصراط المستقيم .

صورة إبراهيم عليه السلام في النصوص الإسلامية ، هي صورة القائد الكبير ، والزعيم والإمام الموجه الذي يعدل بعطائه وتفانيه في طاعة ربه وخدمة الناس عطاء أمة كاملة من الناس . ولنستعرض الآن مباشرة نموذجاً من نماذج وصف إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٠_١٢٣] .

مكارم إبراهيم عليه السلام تعرض في هـٰذه الآيات باختصار ، لكن شرحها قد يحتاج لفصول تضيق بها هـٰذه المقدمات المختصرة من كتابنا . وفي رأس هـٰذه المكارم جهده الكبير في تبليغ الرسالة ، مما جعله إماماً مقدماً يهدي إلى الخير والفلاح . ثم يأتي إخلاصه الكامل لله ، وتفانيه في العبادة ، ومداومته عليها بلا كلل ، من منطلق المحبة للمعبود ، والخضوع له ، وتوحيد الاعتقاد به خالقاً للكون ورباً للعباد دون شريك .

ومن الصفات الجميلة الأخرىٰ في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، أنه كان شاكراً لله ؛ فنبوته نعمة ، وحفظه من قبل الله في أصعب الظروف التي مرت به نعمة ، وذريته المؤمنة المطيعة نعمة . وهـٰذه النعم كلها غيض من فيض ، وقطرة من بحر . يعرف إبراهيم عليه السلام ذلك جيداً ؛ لذلك كان من الشاكرين .

من هنا أيضاً نفهم سر المكانة الخاصة لإبراهيم عليه السلام عند ربه ، فقد

اختاره الله ليكون رسوله إلى الناس ، وضمن له مقاماً وجيهاً رفيعاً عنده وعند الناس علىٰ مدى الأزمان ، وجعله من عباده المقربين المصطفين الذين هداهم للصراط المستقيم ؛ أي : لنهج الإيمان الحق ، الذي يكفل الفوز والسعادة للإنسان في الدنيا والآخرة .

ولا شك أن من أبرز هـٰذه النعم التي من الله بها علىٰ إبراهيم عليه السلام ، أنه جعل من آله وذريته أجيالاً من المؤمنين بالله الداعين إلىٰ توحيده وطاعته وعبادته : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٥٤] .

وتذكرنا نعمة الملك العظيم هنا باثنين من الملوك الأنبياء من ذرية إبراهيم : الملك داوود والملك سليمان عليهم السلام جميعاً .

وإذا عدنا إلى الآية (١٢٣) من (سورة النحل) التي استشهدنا بها قبل قليل في عرض فضائل إبراهيم عليه السلام ؛ فإننا نجد أنفسنا منبهرين أمام القدرة المعجزة لله تعالىٰ في عرض الرابطة التاريخية الوثيقة بين رسول الإسلام محمد بن عبد الله وأبي الأنبياء إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . فقرة موجزة من ثلاثة أسطر تضمنت وصفاً شاملاً لإبراهيم ولنعم الله عليه ، وتضمنت أيضاً هـٰذه العبارة : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

هنا نقطة الارتكاز الأولى التي ينبغي ألا يغفل عنها أي مسلم وأي دارس للإسلام . فالرسالة التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم متصلة اتصالاً وثيقاً لا يمكن فصمه بأي وجه من الوجوه مع إبراهيم عليه السلام وملته . وأما الشعار الأول والأساس لهـٰذه الرابطة الإبراهيمية ؛ فهو نبذ الشرك ، والإقرار بأن للكون خالقاً واحداً لا شريك له ، هو رب العباد وسائر المخلوقات الأخرىٰ ، وهو وحده الذي تجب عبادته وطاعته ومحبته .

وباختصار شديد : نحن المسلمين ننتمي ونفتخر بانتمائنا إلىٰ آل إبراهيم عليه السلام .

* * *

مضىٰ إبراهيم عليه السلام إلىٰ ربه بعد أن بلغ الرسالة للناس . ثم حمل آل إبراهيم الراية من بعده ، وحفظ التاريخ مكانتهم كمنارات للهدىٰ والخير .

في التصور الإسلامي ، يبرز بشكل خاص من هٰذه المنارات المؤثرة علىٰ مجرى التاريخ اسمان لامعان ، هما موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] .

موسىٰ عليه السلام من أعظم الأنبياء والرسل ، وفي القرآن الكريم تبجيل كبير له ، وحفاوة قوية به . كما أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أوصى المسلمين بالاحتفال بذكرىٰ عبوره من البحر الأحمر إلىٰ فلسطين في الشهر الأول من كل سنة هجرية .

إن كفاح موسىٰ عليه السلام لتخليص اليهود من طغيان فرعون وظلمه واستبداده ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الإسلام في مقاومة الظلم .

كتاب موسىٰ عليه السلام وكتاب اليهود هو (التوراة) . هٰذه حقيقة يثبتها القرآن الكريم ، ولذلك اعتبر الإسلام اليهود من أهل الكتاب . والمسيحيون كذلك من أهل الكتاب ، وكتابهم هو الإنجيل . ومع أن المسلمين رغبوا وما زالوا في أن يدخل اليهود والنصارىٰ في دينهم عندما بعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام برسالة الإسلام ، وهٰذا أمر طبيعي منهم ومن أهل كل ديانة ؛ فإن القرآن الكريم ألزمهم باحترام اليهودية والمسيحية ، وتبجيل موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام .

وفي القرآن الكريم أيضاً شهادات أخرىٰ لأتباع موسىٰ عليه السلام :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٩] .

إن ما يجمع بين موسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام هو أنهما ينهلان من نفس المورد العذب الصافي الذي نهل منه إبراهيم عليه السلام . كلهم أوحي إليهم من ربهم ، بالقول الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

كلهم من الصفوة التي اختارها الله سبحانه لإبلاغ الناس رسالة التوحيد .

وفي اليهودية والإسلام تشابه كبير جداً في مفهوم التوحيد وفي كثير من الشرائع .

وقد مر بنا في (الفصل الخامس) من هـٰذا الكتاب العهد الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة ، والذي كفل فيه حقوق يهود المدينة وحرياتهم الدينية ، ووصفهم بأنهم أمة مع المؤمنين ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

لذلك ، وبالرغم من الهزات العنيفة التي أصابت علاقات المسلمين باليهود في القرن العشرين بسبب القضية الفلسطينية ؛ فإن السمة الأقوى التي تميز تاريخ اليهود والمسلمين هي سمة التعايش السلمي والاحترام المتبادل . ذلك ما يجده الباحث في تاريخ الدولة الإسلامية بأطوارها الأموية والعباسية والعثمانية ، ذلك أن الإسلام أمر المسلمين باحترام أهل الكتاب ، من يهود ومسيحيين ، وقرر أنه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٦] ، أي : نهىٰ عن إدخال غير المسلمين في الإسلام بالقوة ، وأعطى اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية ذمة الله ورسوله ، وجعل قتل المعاهد كبيرة من الكبائر .

هـٰذه التشريعات الواضحة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ألزمت المسلمين بحماية حقوق اليهود ؛ لذلك عاشوا في أمان وسلام في جميع الدول الإسلامية الكبرىٰ ، الأموية والعباسية والعثمانية ، ولم يتعرضوا أبداً لما تعرضوا له في مجتمعات أخرىٰ من تنكيل وقمع ومن جرائم ، مثل جريمة

الهولوكوست المروعة التي وقعت في أوروبا في القرن العشرين . مثل هـٰذه الممارسات الظالمة والجرائم البشعة بحق اليهود لم تحدث أبداً في أي بلد إسلامي ، ولم يحدث أي أمر شبيه بها في أي بلد إسلامي .

عيسى المسيح عليه السلام في القرآن الكريم

لا يمكن للمسلم في أي زمان أو مكان أن يكون معادياً للسامية ، علماً بأن العرب أنفسهم ساميون ، ولا مبغضاً لليهودية والتوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ عليه السلام .

وكذلك لا يمكن للمسلم في أي زمان أو مكان أن يكون معادياً للمسيح عليه السلام أو عدواً لتعاليمه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] .

إن إيمان المسلم بنبوة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام شرط من شروط صحة إيمانه كمسلم ، وأي شيء غير هـٰذا لا يقبل منه كما تدل علىٰ ذلك بقوة عقائد الإسلام وتقاليده ، ثم إن موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام فرعان بارزان في شجرة الرسل الكرام الذين أرسلهم الله بالهدي الصحيح إلى الأمم السابقة ، كلهم يدعون إلى التوحيد الخالص وإلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، كما تدل هـٰذه الآية الكريمة : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة الشورىٰ : ١٣] والآية الكريمة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

ترد قصة عيسىٰ عليه السلام في مواضع كثيرة في القرآن الكريم . أما الخاصية المشتركة بين هـٰذه المواضع : فهي التبجيل الكبير للمسيح عليه السلام . اختاره الله بعلمه وحكمته لمهمة جليلة ، فكانت البشارة به لأمه حدثاً

ضخماً في تاريخ الإنسانية . وكلما نظر الباحث عن الحقيقة في القرآن الكريم ؛ فإنه سيجد آيات كثيرة توضح بشكل جلي المكانة العظيمة لعيسىٰ عليه السلام عند المسلمين ، وتحدد جوهر دعوته التي جاء بها ، وتؤكد ما خصه الله به من فضل وكرامة .

وفي مقدمة الدلائل علىٰ فضل عيسى المسيح عليه السلام وكرامته : معجزة ميلاده من غير أب ؛ إذ قدر الله وأراد واختار أن يرسل الملاك جبريل لمريم العذراء عليهما السلام ، لينفخ فيها بأمر الله ، فتتحقق من ذلك إرادة الله في خلق رسوله عيسىٰ عليه السلام ، إنه مخلوق من مخلوقات الله ، عبد من عبيده ، ورسول كريم منه يبلغ دعوة الحق والتوحيد ، أمر الله بقدرته أن يكون فكان . ويعرف المؤمنون والعقلاء من كل ملة وحضارة أن الله لا يعجزه شيء ، وأنه علىٰ كل شيء قدير .

وهٰذا الآن مثال للآيات القرآنية الكريمة ، التي تتحدث عن عيسى المسيح عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ❁ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ❁ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ❁ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ❁ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ❁ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ❁ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٤٥ـ٥١] .

في هٰذه المعجزات التي تحف بعيسىٰ عليه السلام ، تكمن وجوه كثيرة من رحمة الله ولطفه بالناس . إن الرسالة الأصلية لعيسىٰ عليه السلام لم تتغير عما كانت عليه عند موسىٰ وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين .

رسالتهم جميعاً كانت دعوة الناس لعبادة الله وحده لا شريك له ، وتذكيرهم بأن هٰذا الكون الفسيح الجميل البديع ، بما فيه من كواكب وأجرام ومخلوقات وجبال وبحار ووديان وسهول ، لم يخلق صدفة ولا عبثاً . كما أن الإنسان الذي شرفه الله وميزه بنعمة العقل عن سائر المخلوقات الأخرىٰ ، لم يخلق صدفة ولا عبثاً . الكون وما فيه ، والإنسان ، من خلق الله القادر علىٰ كل شيء ، والإنسان العاقل هو من يصدق ما جاء به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وسائر الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام ، من دعوة إلىٰ عبادة الله وحده دون شريك . وبالطبع فإن الدعوة إلىٰ عبادة الله هي المدخل لتعاليم أخرىٰ تفصيلية كثيرة ، أبرزها تلك التي تحث المؤمنين على التمسك بالأخلاق الرفيعة ، ومعاملة الآخرين أفضل معاملة ، وأداء الحقوق الىٰ أصحابها ، وتنهاهم عن الظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

أيد الله تعالىٰ رسوله عيسىٰ عليه السلام بمعجزات كثيرة تأييداً لدعوة الحق التي كلفه الله بإبلاغها لقومه . وعندما أحاط به خصومه وتآمروا عليه ليقتلوه صلباً ؛ تقرر العقيدة الإسلامية أن الله توفاه ورفعه إليه مطهراً مكرماً .

الذين تآمروا علىٰ عيسىٰ ممن كفروا به وضاقوا بدعوته ، روجوا أنهم قتلوا المسيح ، لكن القرآن الكريم يثبت غير هٰذا ، ويبين أن الذي صلب وقتل إنسان آخر ، ألقى الله عليه شبهاً قوياً جداً من عيسىٰ عليه السلام ، وذلك حفظاً منه للمسيح عليه السلام وتثبيتاً لقدره العالي الرفيع عند خالقه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء : ١٥٧] .

هٰذا هو عيسىٰ عليه السلام في القرآن الكريم . نبي كريم ، ورسول من

أولي العزم من الرسل ، دعا قومه للتوحيد الخالص وعبادة الله وحده لا شريك له . والمسلمون يؤمنون به ويحبونه ويتولونه .

والمسلمون يعتبرون المسيحيين من أهل الكتاب . وفي القرآن الكريم توجيه صريح للمسلمين في هٰذا الشأن : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٦] .

وواضح أن استثناء الذين يظلمون في الحوار من المجادلة بالتي هي أحسن أمر يقبله العقلاء من كل ملة ؛ لأن الذي يظلمك ويعتدي عليك لا يترك لك مجالاً لحوار موضوعي يلتزم أصول الأخلاق الكريمة ، وإنما يشغلك بالدفاع عن نفسك لرد عدوانه وظلمه . أما الأصل الذي يبني عليه المسلمون حوارهم مع أهل الكتاب فهو : مجادلتهم بأفضل العبارات وأحسن الأساليب ، وتذكيرهم بأن التوراة والإنجيل والقرآن كلها منزلة من عند الله ، وبأن رب اليهود والنصارىٰ والمسلمين هو إلٰه واحد مهما اختلفت تسمياتهم له ، وهو رب الناس أجمعين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ودياناتهم ، وهو وحده المعبود بحق ، له الأسماء الحسنىٰ ، لا إلٰه إلا هو ، يحيي ويميت ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

ولا شك أن من الأمور التي لا يوجد خلاف بشأنها بين المسيحيين والمسلمين هي أن عيسى المسيح عليه السلام لقي تكريماً هائلاً في القرآن الكريم ، مثلما هو الأمر مع موسىٰ وإبراهيم خاصة ، وبقية الأنبياء والمرسلين الذين سبقوا بعثة رسول الإسلام محمد بن عبد الله عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم .

كما أنه لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين علىٰ أن مريم العذراء عليها السلام ، أم المسيح عليه السلام ، لقيت تكريماً مماثلاً في القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٤٢ـ٤٣] .

ومن كرامات عيسىٰ عليه السلام أن الله تعالىٰ آتاه الإنجيل : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [سورة الحديد : ٢٧] .

الإنجيل كتاب سماوي آخر يضاف إلى الكتاب الذي سبقه ؛ أي : التوراة ، وفي عقيدة المسلمين : أن المسيحيين أيضاً هم من أهل الكتاب ، كما هو شأن اليهود أيضاً ، وفي أهل الكتاب عابدون ذاكرون يمدحهم القرآن الكريم ، مربياً بذلك أتباعه على الحكم على المخالفين في الدين بالعدل والإنصاف :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣ـ١١٥] .

إن المسلم يجد نفسه في موضع فريد ؛ لأن صلته العقائدية قوية بكل الأنبياء والرسل . واليهودية والمسيحية معاً جزء أصيل من تراثه . ولا يكون المسلم مسلماً ، ولا تكون عقيدته صحيحة ، حتىٰ يقر بكل ما ذكرناه من معاني التبجيل والتكريم لموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام ، ولرأس الشجرة الإبراهيمية إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولبقية الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٤] .

هـٰذا بيان صريح من القرآن الكريم عن جذور العقيدة الإسلامية ، وهو

يتضمن أمراً للرسول محمد عليه الصلاة والسلام بإعلانه للناس كافة ، بما يضع العقيدة الإسلامية في سياقها التاريخي والمنهجي الصحيح .

والأمر هنا واضح ومنطقي يقبل به الباحث المنصف ، ويجد عليه أدلة قوية كثيرة . إن العقيدة الإسلامية صدرت من ذات النبع الكريم الذي صدرت منه عقيدة إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقية الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، والحكمة الإلهية التي اختارت التوقيت المناسب لظهور الرسل والأنبياء في أقوامهم ، هي ذات الحكمة التي اختارت أن تكون دعوة الإسلام تكملة وتتويجاً لما سبقها من دعوات ، وأن يكون محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعاً .

المولود الذي غير وجه التاريخ

الطريق إلىٰ معرفة الله ونيل رضاه ، يحتاج إلىٰ أدلة ومرشدين ، رغم أن التوق إلىٰ هـٰذا المقصد النبيل الشريف جزء من شخصية الإنسان علىٰ مر التاريخ ، جزء من تكوينه وفطرته ؛ ولذلك كان الدين دائماً عاملاً أساسياً في حياة البشرية ومقوماً رئيسياً من مقومات الحضارة والتاريخ علىٰ مر العصور .

ومع أهمية هـٰذا المعطى الفطري في شخصية الإنسان ، فإنه لا يكفي لوحده ، ونحن نحتاج الدليل في رحلة قصيرة داخل لندن ، أو بين مدينة وأخرىٰ في أوروبا أو آسيا . فكيف إذا كان القصد أعلىٰ شأناً وأشرف وأنبل من أي مقصد آخر يخطر علىٰ بال بشر ؟ كيف إذا كان القصد معرفة خالق الإنسان وكل ما في الكون ، وعبادته بالمنهج الذي يرضيه ويقرب إليه ؟

من هنا تأتي أهمية الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعاً . اختارهم الله بحكمته ليقولوا للناس : هـٰذا طريق الله وصراطه المستقيم ،

فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأطيعوه فيما أمر به ونهىٰ عنه لتنالوا الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .

وقد مر بنا الدور المحوري لإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام في تبليغ هٰذه الرسالة ، وكذلك فعل عدد كبير آخر من أنبياء الله ، ويبين القرآن الكريم للمسلمين أن ما دعا إليه هٰؤلاء جميعاً هو الدين الحق ـ ويسميه الإسلام ـ عند المسلمين إذ أن دينهم هو دين إبراهيم وآله ، وليس في ذلك غرابة ؛ لأن الذي أوحىٰ لإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ هو من أوحىٰ لمحمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام . ملة إبراهيم إذن وملة الأنبياء من بعده هي ملة الحق ، وهي ملة الإسلام :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٣٠ـ١٣٣] .

ويدل تتابع الأنبياء من بعد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام أن الناس كانوا ينحرفون عن الطريق الحق الذي يرضي الله ، وينزعون إلىٰ مسالك الشرك أو الفساد . وهٰكذا قضت حكمة الله أن يرسل رسله في فترات متعاقبة من تاريخ الإنسانية ، وكذلك قضت حكمته أن تكون منطقة (الشرق الأوسط) مركز ظهور إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام . لعلها ليست الشرق الأوسط إذن إلا بمعيار من نظر إليها من الغرب البعيد أو الشرق البعيد . ولعلها هي الأصل الذي يحسب به الغرب غرباً والشرق شرقاً ، وهي مركز الكرة الأرضية ، بدليل أن الرسالات التي جاء بها الرسل في تلك المنطقة

استطاعت أن تصل إلىٰ أبعد أركان المعمورة في أقصى الشرق وأقصى الغرب ، وفي أقصى الشمال وأقصى الجنوب .

وفي مكة المكرمة وما حولها ، في قلب الجزيرة العربية ، كان يفترض أن يكون سكان العقود الأخيرة من القرن السادس بعد ميلاد المسيح موحدين لله مطيعين لما نزل من شرائعه السابقة في (التوراة) و(الإنجيل) . وكان هناك أقليات يهودية ومسيحية بالفعل . لكن الصبغة العامة التي طغت علىٰ أغلبية سكان تلك الحقبة المهمة من حقب التاريخ كانت صبغة الشرك ، وعبادة الأصنام . وبالإضافة إلىٰ ذلك : شاع الظلم والطغيان في المجتمعات التي سيطرت عليها القوى الكبرىٰ في تلك المنطقة ، وربما جاز تشبيه الاستقطاب والصراع في تلك الفترة بالحرب الباردة التي شهدها العالم في النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد ، بل لعله كان أكثر عنفاً وحدة .

في تلك الفترة ؛ أي : في القرن السادس الميلادي ، كان التنافس علىٰ أشده بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية الفارسية ، وكان الإسلام بمعناه الواسع ، الذي يشمل رسالات إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام ، محاصراً مضيقاً عليه وقليل التأثير في حياة الناس .

في الجزيرة العربية بالتحديد ، انتشر الشرك إلىٰ درجة أن الأصنام نصبت داخل الكعبة المشرفة ، أول بيت من بيوت الله ، أول بيت بني في التاريخ ليعبد فيه الله وحده . هٰكذا ينظر المسلمون إلى الكعبة المشرفة ، وهٰكذا يقص القرآن الكريم تاريخ تأسيسها علىٰ يد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام :

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ

﴿أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة : ١٢٥ـ١٢٩] .

ها هو التاريخ يعرض أمام أعيننا في هٰذه الآيات بسرعة البرق ، لكن الصورة ترسخ في الذهن أشد الرسوخ ، إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تعاونا في بناء أقدس مكان لدى المسلمين ، وأول مسجد عبد فيه الله وحده ، ودعوا الله أن يحفظ دعوة التوحيد في ذريتهما ، وأن يبعث فيهم رسولاً يهديهم سبيل الرشاد والنجاح . وقد استجاب الله لدعوتهما ؛ ففي السنة السبعين من القرن السادس للميلاد، ولدت آمنة بنت وهب، زوجة عبد الله بن عبد المطلب، ولداً ذا شأن عظيم . في الثاني عشر من الشهر العربي (ربيع الأول) من عام (٥٧٠) بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، ولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ليتغير مجرى التاريخ معه ، ولتكتمل رسالات الله إلىٰ خلقه ، ولتعلو راية جديدة للتوحيد ، وتشيع في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب ، دعوة للعدل والحرية وكرامة الإنسان والأخوة بين بني البشر .

لا يستطيع مخلوق أن يشترط شيئاً علىٰ خالقه ، ولكنه فقط يجتهد ويحاول أن يفهم مجريات الأمور وسنن التاريخ ، وقد كان ظلماً كبيراً أن تضل الملايين من بني البشر عن دعوة التوحيد بعد الجهود العظيمة التي بذلها إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وبقية الأنبياء عليهم السلام جميعاً . وكانت رايات الشرك والضلال البعيد عن طريق الله ، ورايات الظلم السياسي والاجتماعي مرفوعة بقوة وخفاقة في القرن الميلادي السادس ، في منطقة ما يسمى الآن (بالشرق الأوسط) ومناطق أخرىٰ من العالم .

لذلك فإن تكليف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، في الأربعين من عمره ، بتجديد رسالات الأنبياء عليهم السلام من قبله وإبلاغها للعالم مجدداً في شريعة الإسلام ، كان ذلك نقطة تحول حاسمة في مجرى التاريخ البشري ؛ لأنها رمزت إلى اكتمال البناء الذي تعاقب علىٰ تشييده أنبياء الله السابقين ، وأمنت الرابطة الروحية الوثيقة بين دعوات إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ والدعوة الجديدة ، وهي دعوات متصلة مضمونها واحد هو الإسلام ؛ أي : توحيد الله وطاعته ومحبته ، وبناء الحضارة في توافق مع شريعته وهداه :

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران : ٨٤] .

كما أن تكليف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ الرسالة الإسلامية ، كان رمزاً لانتصار الدين في تاريخ الإنسانية . فالذين ظنوا أن جهود إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام ضاعت وتبددت كانوا واهمين . والطغاة الذين ظنوا أن بإمكانهم استعباد البشرية وإخضاعها لهم لتعبدهم بدلاً من خالقهم كانوا واهمين .

وقد رأينا في هٰذا الكتاب وفي غيره من كتب السيرة النبوية كيف رفع نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلَّم راية التوحيد والحق وكرامة الإنسان ، متمماً جهود من سبقوه من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، إنها راية لم يرفعها بقرار شخصي منه ، أو بتأمل معرفي خاص ، ولكن الأمر يعود إلى الله عز وجل ، الذي تفضل علىٰ عباده بإرسال الأنبياء والرسل إليهم ، واختار إبراهيم إماماً وقدوة ، واختار موسىٰ مخلّصاً لبني إسرائيل ، واختار عيسى المسيح واحداً من أولي العزم من الرسل . والله عز وجل اختار محمداً ليكون رسول الإسلام ، أو ليجدد دعوة الإسلام ، وليكون خاتم النبيين ، وفي هديه

الحق والهدىٰ والنور ، وأحرىٰ بالناس جميعاً في كل زمان ومكان ، أن يؤمنوا به وبالنور والخير الذي جاء به .

وقد أجمع علماء المسلمين علىٰ هٰذا المعنىٰ ، وسعى الدعاة المسلمون في تبيينه للناس علىٰ مر العصور ، وأوضحوا أن الواجب علىٰ كل إنسان عاقل أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدق بدعوته ، مستندين إلىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] .

وقد أصاب الحافظ ابن كثير ، وهو من أشهر المفسرين للقرآن الكريم في التاريخ الإسلامي ، ولخص القول الصحيح الفصل والنهائي في هٰذه المسألة عندما قال في تفسير هٰذه الآية :

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] إخباراً منه تعالىٰ بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتىٰ ختموا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم . فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدينٍ علىٰ غير شريعته ؛ فليس بمتقبلٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] الآية . وقال في هٰذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] . انتهى النقل[(١)]

إن ختم النبوة يعني ضمن ما يعنيه أن البشرية أصبحت راشدة قادرة على التمييز وعلىٰ مقاومة تيارات الإلحاد والشرك والاستبداد . جاء ذلك متسقاً أيضاً مع تطور الحضارة البشرية ، ورسوخ موقع الكتابة في هٰذه الحضارة ، بحيث أصبح بوسع الناس أن يدونوا ويحفظوا رسالة الله إليهم من دون تحريف ، وأن يضمنوا للأجيال التي تأتي من بعدهم استلام هٰذه الرسالة

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٤) .

واضحة نقية كما نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم أول مرة .

كما أن ختم النبوة في التصور الإسلامي تصديق لعهود سابقة في (التوراة) و(الإنجيل) . ففي الكتابين إشارات قوية لبعثة نبي الإسلام ، ويرى المسلمون في ذلك دليلاً إضافياً علىٰ قوة الرابطة بين آل إبراهيم جميعاً ، بين اليهود والمسيحيين والمسلمين .

هكذا جاءت الرسالة التي ابتعث بها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام عنواناً لاكتمال الرسالات السماوية ؛ ولذلك فإن خطابها ، وإن أبدىٰ حفاوة خاصة وثابتة بأهل الكتاب ؛ فإنه كان في جوهره خطاباً موجهاً للعالمين . لم يكن خطاباً لقريش قبيلة نبي الإسلام وحدها ، ولا لسكان الجزيرة العربية فقط ، ولا للعرب وحدهم ، ولا لمنطقة (الشرق الأوسط) دون غيرها من المناطق . لقد كان خطاباً للناس كافة ، في كل مكان ، وفي كل زمان .

قال الله عز وجل في كتابه العزيز :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦ـ١٥٩] .

هـٰذا هو الإطار الذي نزلت فيه الرسالة الإسلامية ، وبطبيعة الحال فإن المؤرخين المتخصصين يستطيعون أن يضيفوا تفصيلات سياسية واجتماعية

واقتصادية كثيرة لما ذكرنا ، لكننا اخترنا التركيز على الأهم ، وعلى الإطار العقائدي والتاريخي الصحيح لكل مؤمن بوجود الله وكل مؤمن بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام جميعاً .

التاريخ الذي يهم هٰذا المؤمن عندما يتعلق الأمر بخاتم الأنبياء والمرسلين هو تاريخ آل إبراهيم ، هو تاريخ موسىٰ وعيسىٰ وبقية الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، ونبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يأخذ موقعه في تاريخ البشرية في هٰذا السياق ، ومع هٰذه الكوكبة المختارة من الأفراد الذين اصطفاهم الله وشرفهم بإبلاغ كلمته للناس أجمعين .

وقد عرضت الكثير من الأدلة في ما سبق من فصول هٰذا الكتاب لأبين علىٰ أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ولم يبخل بشيء أبداً من أجل خدمة الناس ، والدفاع عن العدالة والمساواة والحرية ، وهداية البشر مجدداً لطريق الإيمان والسعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

وفي الحقيقة ، لا يجد الباحث وصفاً أفضل من التشبيه الذي استخدمه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وهو يصف موقعه وموقع الإسلام في تاريخ الرسالات السماوية ، وهو الوصف الذي بدأنا به هٰذا الفصل : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنىٰ بيتاً ، فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هٰذه اللبنة ؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم ، حديث رقم (٢٢٨٦) .

الفَصلُ التَّاسِع عَشَرَ
مُهِمَّةٌ أُنْجِزَتْ بِنَجَاحٍ

بعد العودة من حجَّة الوداع وصل إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم خبر قتل السُّلطات الرُّومانية لوالي معان في جهة الأردن وفلسطين فروة بن عمرو الجذاميِّ بسبب دخوله في دين الإسلام ، إنه سلوك عدائي ينمُّ عن استهتارٍ كبيرٍ بمبادىء حرِّية العقيدة وعن استخفاف بالإسلام والمسلمين ، واستهتار بمبادىء حقوق الإنسان ، وكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم تجهيز جيشٍ يتحرَّك إلىٰ تلك المنطقة لتأكيد قدرة الدَّولة الإسلاميَّة على الدِّفاع عن نفسها وعن عقيدتها وعن أنصارها .

اختار النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لرئاسة الجيش أسامة بن زيد بن حارثة وكان عمره آنذاك دون العشرين بسنتين ، الأمر الذي أثار استغراب قلَّة من النَّاس في المدينة ممَّن لم يستوعبوا بعد أنَّ الدِّين لكلِّ الفئات الاجتماعيَّة ، وأنَّ العمل العامَّ ليس حِكْراً على الكهول والشُّيوخ فقط ، وإنَّما للشَّباب فيه أيضاً دورٌ كبيرٌ .

بدأ النَّاس يتجهَّزون للخروج في جيش أسامة بن زيد في الأيَّام الأخيرة من صفر الشَّهر الثَّاني من العام الهجريِّ الحادي عشر ، الموافق للعام الثَّاني والثَّلاثين بعد ست مئة عام من ميلاد السَّيد المسيح عليه السَّلام ، لكنَّ الخبر الأهم الذي شغل المدينة كلَّها في تلك الأيَّام كان خبر الوعكة الصِّحيَّة التي ألمَّت بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

كان أبو مويهبة من العاملين في بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ناداه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في اللَّيلة الأخيرة من الشَّهر أو اللَّيلة التي قبلها ودعاه إلى

الخروج معه لزيارة مقبرة البقيع والدُّعاء لمن دفن فيها من موتى المسلمين في المقبرة ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لمرافقه : « يا أبا مويهبة ؛ إنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلد فيها ثمَّ الجنَّة ، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربِّي والجنَّة » فقال أبو مويهبة : بأبي أنت وأمِّي ؛ فخذ مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلد فيها ثمَّ الجنَّة ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا والله يا أبا مويهبة ؛ لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة » ثمَّ استغفر للموتىٰ وانصرف إلىٰ بيته[1] .

أصبح الصُّبح على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد ألمَّ به صداعٌ شديدٌ في رأسه وارتفعت حرارة جسمه ، فاستأذن من أهل بيته أن يعالج في بيت زوجته أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنها وعن أبيها ، كان عليه الصلاة والسلام يحب عائشة ، وقد قضىٰ أيامه الأخيرة في هـٰذه الدنيا في بيتها ، وهي نقلت عنه عدداً كبيراً من أحاديثه الشريفة .

ودخل ربيع الأوَّل من العام الحادي عشر للهجرة ، وحرارة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تزداد ومرضه لا يخفُّ .

خطب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في يوم من تلك الأيَّام في المسجد فقال : « إنَّ عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدُّنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله »[2] ، فما فهم النَّاس مغزىٰ كلامه إلاَّ أبا بكر الصِّدِّيق قرأ فيها نعي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لنفسه ، فبكىٰ وقال : نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فهدَّأ النَّبيُّ من روعه قائلاً : « علىٰ رسلك يا أبا بكر » ثم قال : « انظروا هـٰذه الأبواب اللاَّفظة ـ النافذة ـ في المسجد فسدُّوها إلاَّ بيت أبي بكر ؛ فإنِّي لا أعلم أحداً كان أفضل في الصُّحبة عندي يداً منه » ، وقال أيضاً : « فإنِّي لو كنت متَّخذاً من العباد

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٩) .

خليلاً ؛ لاتَّخذت أبا بكرٍ خليلاً ، ولكن صحبةٌ وإخاءٌ وإيمانٌ حتَّىٰ يجمع الله بيننا عنده »[1] .

وحثَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه علىٰ إنفاذ جيش أسامة بن زيد فأسرعوا في إعداد أنفسهم ، ثمَّ خرج الجيش وعسكر غير بعيد من المدينة المنوَّرة وبقي منتظراً هناك بعد أن وصله خبر اشتداد المرض بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

وأوصى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالأنصار خيراً ، وحثَّ المهاجرين على الإحسان إليهم تقديراً لدورهم النَّبيل والعظيم في نُصْرة الإسلام ونبيِّه عليه الصلاة والسلام .

وعندما اشتدَّ الوجع بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولم يعد قادراً على الخروج إلى المسجد وإمامة المؤمنين في الصَّلاة ؛ أمر أبا بكر الصِّديق بأن يصلِّي بهم[2] ، ولم تكن عائشة أم المؤمنين مسرورة بأن يقوم أبوها مقام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بين النَّاس في إمامة الصَّلاة ، فقالت : لقد راجعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك وما حملني علىٰ كثرة مراجعته إلاَّ أنَّه لم يقع في قلبي أن يحبَّ النَّاس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، ولا كنت أرىٰ أنَّه لن يقوم أحدٌ مقامه إلا تشاءم النَّاس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن أبي بكر[3] .

وفي فجر الإثنين (١٢) ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة أحسَّ النَّبيُّ بتحسُّن صحَّته ، فخرج إلى المسجد عاصباً رأسه وأبو بكر يصلِّي بالنَّاس ، ولما عرفه المسلمون ؛ أفسحوا له المجال ، فعرف أبو بكر أنَّهم

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٠) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٢) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٤٥) .

ما فعلوا ذلك إلا لنبيِّهم ، فتراجع عن موقع الإمامة يريد أن يتركه للنَّبيِّ ، لكنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دفعه في ظهره وأمره أن يصلِّي بالنَّاس ، وصلَّىٰ هو قاعداً عن يمينه ، فلمَّا فرغوا من الصَّلاة ؛ تكلَّم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحاضرين بصوتٍ قويٍّ كان يسمع من خارج المسجد ، وقال لهم : « إنِّي لم أحلَّ إلاَّ ما أحلَّ القرآن ، ولم أحرِّم إلاَّ ما حرَّم القرآن »[1] .

هناك في « صحيح البخاري » رواية لعبد الله بن عباس عن مناقشة جرت في بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل هـٰذه الخطبة من النَّبيِّ بأربعة أيَّام ، قال : لمَّا حضر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وفي البيت رجالٌ ؛ فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « هلمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده » ، فقال بعضهم : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، منهم من يقول قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده ، ومنهم من يقول غير ذلك ، فلمَّا أكثروا اللَّغو والاختلاف ؛ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « قوموا »[2] .

ذهب علماء بعض الفرق الإسلامية إلىٰ أنَّ تلك الوصيَّة التي رغب النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في كتابتها تتعلَّق بالحكم والخلافة من بعده ، ولكنَّ المنطق يفرض نفسه علىٰ كلِّ منصفٍ ، لقد كان بوسع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يوجِّه بأمر فينقله النَّاس عنه كما نقلوا أوامره الأخرىٰ وتلقوها بالسَّمع والطَّاعة ، كان بوسعه صلى الله عليه وسلم أن يبتَّ في أمر الحكم من بعده أثناء حجَّة الوداع أو في أيِّ مرحلة من مراحل حياته بعد نزول الوحي إليه ، وكان بوسعه أن يدعو من شاء من أعيان الصَّحابة ويوجِّههم بما يريد ، وكان متاحاً أيضاً أن ينزل في الأمر وحيٌ يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٣٢) .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ مع المسلمين فجر الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وتحدث فيهم رافعاً صوته حتىٰ خرج صوته من باب المسجد كما يروي ابن اسحاق المشايع لسيدنا علي رضي الله عنه ، فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم ينوي إخبار المسلمين بشيء من أمور الحكم بعده ، أو استخلاف أي صحابي من بعده ؛ لكان بوسعه أن يحدث بها الناس في مسجده ، ولقالوا له : سمعنا وأطعنا ، كما فعلوا طيلة صحبتهم له . لكنه لم يفعل .

قال ابن اسحاق معلقاً على اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وتفضيله له علىٰ عمر ، كي يصلي بالناس عندما اشتد به المرض :

حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن القاسم بن محمد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين سمع تكبير عمر في الصلاة : « أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . فلولا مقالة قالها عمر عند وفاته ؛ لم يشك المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استخلف أبا بكر ، ولكنه (أي : عمر) قال عند وفاته : (إن أستخلف ؛ فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أتركهم ؛ فقد تركهم من هو خير مني) فعرف الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحداً ، وكان عمر غير متهم علىٰ أبي بكر[1] .

وعلىٰ كل حال ، فإن الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم صباح يوم الاثنين لم يكونوا يفكرون في أمر الخلافة ، وإنما كانوا فرحين مستبشرين بما رأوه من دلائل تعافي النبي صلى الله عليه وسلم من مرضه . كانوا يريدونه أن يبقىٰ معهم ، يهديهم إلى البر ويقودهم إلى الخير ، ولم يكونوا منشغلين بمن يحكمهم بعده .

فرح المسلمون بتحسن صحة نبيهم صلى الله عليه وسلم وظنوا أنه تعافىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٣) .

من مرضه ، حتىٰ إن أبا بكر الصديق قال له : يا نبي الله ؛ إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة (إحدىٰ زوجاته) ، أفآتيها . قال : « نعم » . ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر إلىٰ أهله بالسنح[1] .

إن تسلسل الأحداث في الأيام الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، يقود الباحث إلىٰ رد ما يزعمه البعض ، بأن ما جرىٰ يوم الخميس ، قبل أربعة أيام من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان المراد منه حسم أمر الحكم والخلافة من بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

ها هو النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الفجر مع أصحابه في المسجد فجر الاثنين ويعظهم ويخطب فيهم بصوت قوي يسمع خارج المسجد ، فهل كان بوسع أحد أن يمنعه من أن يقول لهم قولاً في أمر الحكم من بعده ؟ الجواب المباشر : أنه لا أحد يمنعه ، ولكنه لم يكن يريد أن يستخلف أحداً .

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما هو من روىٰ قصة ما جرىٰ يوم الخميس والإمام البخاري أورد الرواية في « صحيحه » . وفي « صحيح البخاري » أيضاً وردت رواية أخرىٰ عن عبد الله بن عباس ، تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعين خليفة يحكم المسلمين من بعده .

قال عبد الله بن عباس : إنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفِّي فيه ، فقال النَّاس : يا أبا حسن ؛ كيف أصبح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده عبَّاس بن عبد المطَّلب فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنِّي والله ؛ لأرىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم سوف يتوفىٰ من وجعه هـٰذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطَّلب عند الموت ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٤) .

اذهب بنا إلىٰ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فلنسأله فيمن هـٰذا الأمر ، إن كان فينا ؛ علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا ؛ علمناه ، فأوصىٰ بنا ، فقال علي : إنَّا والله ؛ لئن سألناها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فمنعناها ؛ لا يعطيناها النَّاس بعده ، وإنِّي والله ؛ لا أسألها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم[١] .

ولا شكَّ أنَّ رأي عليٍّ بن أبي طالبٍ هنا كان أصوب من رأي عمِّه العبَّاس ، وهـٰذا ليس غريباً عن زعيمٍ كبيرٍ من زعماء الإسلام ورابع الخلفاء الراشدين ، فطلب وراثة السلطة السياسية من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قد يجعلها شأناً دينياً مقدَّساً إن صدر الترشيح لصالح أيِّ إنسانٍ ، وقد يمنعه عنه تماماً إذا صدر توجيه نبويٌّ كريم بذلك ، وقبل هـٰذا وبعده فعدم تعيين حاكم للمسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم أقرب لهدي الإسلام الذي يجعل أولي الأمر ـ أي : الحكام ـ من المسلمين ، والذي يوصي بالشورىٰ كما يوصي بالصلاة والزكاة .

أما ما أصاب فيه العباس بن عبد المطَّلب : فهو تشخيصه للحالة الصِّحيَّة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إنَّ ما ظنَّه أبو بكر وكثير معافاةً تامّةً من المرض كان ظنّاً في غير محله ، وما قاله عليٌّ عن أن النَّبيَّ : (أصبح بحمد الله بارئاً) كان تقديراً في غير محلِّه أيضاً .

ذلك أنَّه لمَّا اشتد الضُّحىٰ من يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة ؛ اشتدَّ المرض مجدّداً بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقد دعا ابنته فاطمة فحدَّثها بما أبكاها وما سرَّها ، قالت: سارَّني النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه يقبض في وجعه الذي توفِّي فيه فبكيت ، ثمَّ سارَّني فأخبرني أنِّي أوَّل أهله يتبعه فضحكتُ[٢] ، ثمَّ جاء الحفيدان الكريمان ؛

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٤٧) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٣٦٢٦) .

الحسن والحسين ابنا عليٍّ من فاطمة الزَّهراء فقبَّلهما وأوصىٰ بهما خيراً ، ودعا أزواجه فوعظهنَّ وذكَّرهن[1] .

لم يكن النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم جَزِعاً من الموت حتَّىٰ عندما بدا واضحاً لكلِّ من حوله أنَّه يحتضر ، كان جنبه إناء ماء ، فكان يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إلـٰه إلاَّ الله ، إنَّ للموت سكرات »[2] .

وقالت فاطمة الزهراء الابنة الصَّالحة العطوفة وقد تقطَّع قلبها علىٰ أكرم النَّاس علىٰ أبيها : واكرب أباه ، فقال لها : « ليس علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم »[3] .

وكان يقول أيضاً في تلك اللَّحظات : « اللَّهم ؛ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرَّفيق الأعلىٰ »[4] .

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مستنداً إلىٰ صدر زوجته عائشة في لحظاته الأخيرة في هـٰذه الدُّنيا ، قالت عائشة : دخل عليَّ رجلٌ من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إليه في يده ، فعرفت أنَّه يريده ، فقلت : يا رسول الله ؛ أتحبُّ أن أعطيك هـٰذا السِّواك ؟ قال : « نعم » فأخذته فمضغته له حتَّىٰ ليَّنته ، ثمَّ أعطيته إيَّاه ، فاستنَّ به كأشدِّ ما رأيته يستنُّ بسواكٍ قطُّ ، ثمَّ وضعه ، ووجدت رسول الله يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه ؛ فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بل الرَّفيق الأعلىٰ من الجنَّة » فقلت : خُيِّرت فاخترت والذي بعثك بالحقِّ ، وقبض رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم[5] .

---

(١) الرحيق المختوم (ص٥٤٦ ـ ٥٤٧) .
(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٦٥١٠) .
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٦٢) .
(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٤٠) .
(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥) .

والرَّفيق الأعلىٰ في هـٰذا السياق عبارة مستوحاة من آية قرآنيَّة كريمة ، قالت عائشة أمُّ المؤمنين : إن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ذكرها في مرض وفاته : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء : ٦٩] .

هكذا مات نبيُّ الإسلام وخاتم الأنبياء والمرسلين وإمامهم وأكرم الخلق عند الله .

مات ولم يترك خلفه ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا أمة ، إلاَّ بغلته البيضاء التي كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السَّبيل صدقة[١] .

مات أقوىٰ زعماء الجزيرة العربية وأكثرهم نفوذاً وسلطاناً وموارد ودِرْعُه مرهونةٌ عند شخص يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير[٢] .

أين منه سائر الزُّعماء ؟!

أين منه سائر القادة والعظماء ؟!

عرضت عليه الدُّنيا كلُّها من أوَّل أن نزل عليه الوحي وأبلغ الدنيا رسالة التَّوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد ، وعرض عليه الجاه والمال والسُّلطان فلم تغره العروض ولم يَحِد قطُّ عن طريقه ولا عن رسالته .

حاربه طغاة قريش سنواتٍ طويلة فلم يجزع ولم يخف ولم يتراجع عن جهاده من أجل الحرِّيَّة والعدالة وكرامة الإنسان .

انتصر علىٰ ألدِّ خصومه فأكرمهم وقال لهم : « اذهبوا ، فأنتم الطُّلقاء » .

دانت له الجزيرة العربيَّة فلم ينخدع بمظاهر الدُّنيا الزَّائفة قطُّ ، وبقي طول عمره صديقاً للفقراء واليتامىٰ والمساكين ، متواضعاً للنَّاس أجمعين .

نزل عليه الوحي في الأربعين من عمره وظلمات الشِّرك والطُّغيان

---

(١) من رواية عمرو بن الحارث في « صحيح البخاري » حديث رقم (٤٤٦١) .

(٢) من رواية عائشة أم المؤمنين في « صحيح البخاري » حديث رقم (٢٩١٦) .

والاستبداد تسود وجه العالم ، ومات في الثَّالثة والسِّتين بعد أن غيَّر وجه الدنيا وتاريخ العالم كلِّه ، دحض الشِّرك ، وانتصر انتصاراً عظيماً لمبادىء التوحيد والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان ومكارم الأخلاق ، وبين للناس جميعاً أهمية الدين في حياة الإنسان ، وبأن اليوم الآخر حق ، وبأن الإنسان يملك حريته بأمر الله ، وأنه مكرم من قبل خالقه ، ومحاسب علىٰ أفعاله أمام الله الحكم العدل .

فتح عينيه على الدُّنيا وتراث الأنبياء الكرام من قبله قد تراكم عليه الغبار وشعوب كثيرة تجهله تماماً ، أو تتجاهله . ومات بعد أن أعاد هـٰذا التراث إلىٰ قلب الحركة العقائدية والسياسية والفكرية والاجتماعية في العالم ، فإذا تعاليم إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام هي الأساس الصلب للرسالة السماوية الخاتمة التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا تعاليم الأنبياء جميعاً من نوح إلىٰ محمد عليهم الصلاة والسلام تتكامل تحت عنوان واحد هو الإسلام . رسالة واحدة هي الإسلام ، ومصدرها واحد ، الله عز وجل ربُّ إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمَّد عليهم السَّلام وربُّ النَّاس أجمعين .

مات إمام الأنبياء وخاتمهم ، مات زعيم الزُّعماء ، مات قائد القادة ، مات أتقىٰ خلق الله لله ، فاهتزَّت المدينة المنورة علىٰ وقع الخبر المحزن الأليم ، وأظلمت الدُّنيا في عيون أهلها .

نادت فاطمة الزهراء بنت خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام حزينة باكية : يا أبتاه ؛ أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ؛ مَن جنَّة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ؛ إلىٰ جبريل ننعاه[١] .

بلغ الخبر إلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق فجاء مسرعاً من مسكنه في السِّنح ودخل

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٦٢) .

على ابنته عائشة ، فوجد النَّبيَّ مسجَّىً في بيتها وهو مغشَّىً ببُرُد حِبَرة ، كشف أبو بكر عن وجه النَّبيِّ الكريم صلى الله عليه وسلم وأكبَّ عليه وقبَّله وبكىٰ ، ثمَّ قال : بأبي أنت وأمِّي ، والله ؛ لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتة الأولى التي كتبت عليك ؛ فقد متَّها ، ثمَّ لن تصيبك بعدها موتةٌ أبداً[1] .

ودخل أبو بكر المسجد ، فوجد النَّاس في حالة ذهول واضطراب ، وعمر بن الخطَّاب قد عصف به هول الصَّدمة ؛ فإذا هو يحدِّث المسلمين بأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ما مات ، ولكنَّه ذهب إلىٰ ربِّه كما ذهب النَّبيُّ موسى بن عمران عندما غاب عن قومه أربعين ليلةً ثمَّ عاد إليهم من بعد أن ظنُّوه مات ، وتوَّعد عمر القائلين بوفاة نبيِّ الإسلام بأنَّه سيرجع كما رجع موسىٰ فيقطع أيدي وأرجلِ رجال زعموا أنَّه مات .

طلب أبو بكر من عمر أن يصمت وينصت لما سيقول ، لكنَّه لم يستجب ، فانطلق يتحدَّث في النَّاس ، فلمَّا رأوه يخاطبهم أقبلوا إليه وتركوا عمر ، بدأ أبو بكر حديثه بحمد الله والثَّناء عليه ، ثمَّ قال : أيُّها النَّاس ؛ إنَّه من كان يعبد محمَّداً ؛ فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ؛ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، ثمَّ قرأ من القرآن الكريم قول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

أخرج البخاري في « صحيحه » عن الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عباس رواية عن تفاصيل هـٰذا الموقف في المسجد النبوي وفيها هـٰذه العبارة : « والله ؛ لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هـٰذه الآية حتىٰ تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٦) .

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٥٤) .

آبَ النَّاس إلىٰ رشدهم عندما تحدَّث إليهم صاحبُ رسول الله في الغار وفي رحلة الهجرة وإمام النَّاس في صلواتهم يوم اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ ، قال عمر بن الخطَّاب : والله ؛ ما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت ـ تسمَّرت من الدَّهشة ـ حتَّىٰ وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد مات[1] .

مات النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ودفن يوم الثُّلاثاء في حجرته التي توفِّي فيها ، في مكان فراشه الذي توفِّي عليه ، بعد أن صلَّىٰ عليه المسلمون أفواجاً أفواجاً ، وقبره اليوم مشهودٌ معروفٌ في زاويةٍ من زوايا المسجد النَّبويِّ الشَّريف في المدينة المنوَّرة إلىٰ يسار المحراب .

مات النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، لكنَّ رسالته لم تمت ، ودولته التي أسَّسها لم تسقط ، فقد اجتمع صحابته علىٰ عجلٍ في سقيفةٍ لبني ساعدة ، وجرىٰ بينهم حوارٌ حول أفضل الشَّخصيَّات المؤهَّلة لقيادة الدَّولة في المرحلة الجديدة ، واقترح أبو بكر على النَّاس مبايعة عمر بن الخطَّاب أو أبي عبيدة عامر بن الجرَّاح ، لكنَّ البيعة تمَّت لأبي بكر الصِّدِّيق ، بدأ بها عمر فلحق به الآخرون من المهاجرين والأنصار ، واتَّحدت الأمَّة من حوله ، وألزم الحاكم الجديد نفسه بقيم الإسلام قائلاً للناس : (إنِّي قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت ؛ فأعينوني ، وإن أسأت ؛ فقوِّموني ، الصِّدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتَّىٰ آخذ الحقَّ منه إن شاء الله) ، وبيَّن أبو بكر للنَّاس أنَّ سلطته ستكون مدنية وخاضعة للشريعة ، ولن تكون حكماً دينياً متحرِّراً من المساءلة والمراقبة ، وقال : (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ؛ فلا طاعة لي عليكم)[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٦) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦١) .

كانت تلك المعاني في خطبة أبي بكر تعبيراً أميناً عن معاني الحكم الصَّالح الرَّشيد في الإسلام ، وكانت أيضاً ثورةً مدوِّيةً في العالم من حول المدينة المنوَّرة ، مَن مِن أباطرة ذلك الزَّمان وطغاته يقبل من مواطنيه أن يحاسبوه ويقوِّموه ويكفُّوا عن طاعته إذا خالف العهود والقوانين المنظِّمة لعمل الدَّولة ؟! مَن مِن حكَّام ذلك الزَّمان يقول للنَّاس : إنَّه ليس أفضلهم ؟!

إنَّ تلك المعاني التحررية المستندة إلىٰ عقيدة الإسلام وشرائعه سرعان ما انتشرت خارج الجزيرة العربيَّة ، وتغلَّبت علىٰ ما واجهها من صعوبات ومؤامراتٍ واعتداءاتٍ ، فاستوطنت قلوب الملايين من بني البشر في الشَّرق والغرب ، وفي الشَّمال والجنوب ، واعتنقها الملايين بعد ذلك جيلاً من بعد جيل في كل مكان من الكرة الأرضيَّة ، وما زالوا يفعلون .

حتَّىٰ عندما ضعفت الدَّولة الإسلاميَّة قديماً أو حديثاً ، وعندما انقسمت أو خضعت للاحتلال الأجنبيِّ فإنَّ العقيدة والتَّعاليم الإسلاميَّة حافظت علىٰ نقائها وجاذبيَّتها في كلِّ الأحوال .

ذلك أنَّها رسالةُ الله لخلقه .

وأنَّ مَن بلَّغها للنَّاس هو الصادق الأمين الذي تمثلت فيه أجمل الأخلاق وأحسنها .

وأنَّ صحابته الذين أيَّدوه وناصروه كانوا جيلاً فذّاً عظيماً نادر المثال في التَّاريخ ، قدَّموا المثال في سلوكهم وأخلاقهم علىٰ عظمة الرِّسالة الإسلامية ونبلها ، فانتشرت الرِّسالة بأخلاقهم ، وانتصر الإيمان بتضحياتهم ، وأحبَّهم النَّاس في كلِّ مكان ، ورحَّبوا بما بشَّروا به من مبادىء التوحيد والعدل والحرية والكرامة وحقوق الإنسان .

وقد ورثت الأمانة بعد ذلك أجيال كثيرة أجاد بعضها وتفوَّق ، وقصَّر بعضها وتهاون ، لكنَّ التقصير والتَّهاون وإن ألحقا الضَّرر بالمقصِّرين ؛ فإنَّ

تأثيرهما على الرِّسالة نفسها قليلٌ ؛ لأنَّ معدنها وجوهرها من عند الله عز وجل خالق الأكوان كلها ورب الناس كافة وجميع الخلائق .

رسالة كالمصباح المنير المتوهِّج المتألِّق في دياجير اللَّيل ، حتَّىٰ عندما يغطِّي السَّحاب القمر والنُّجوم ، وتشتدُّ الظُّلمة من حوله ؛ يزداد هو نوراً وتوهُّجاً وتألُّقاً .

انظر من حولك حيثما كنت تقرأ هـٰذا الكتاب ، إنَّ عينيك لن تخطىء هـٰذا النُّور أبداً في نفسك أو في مكانٍ قريبٍ منك جداً وغير بعيد .

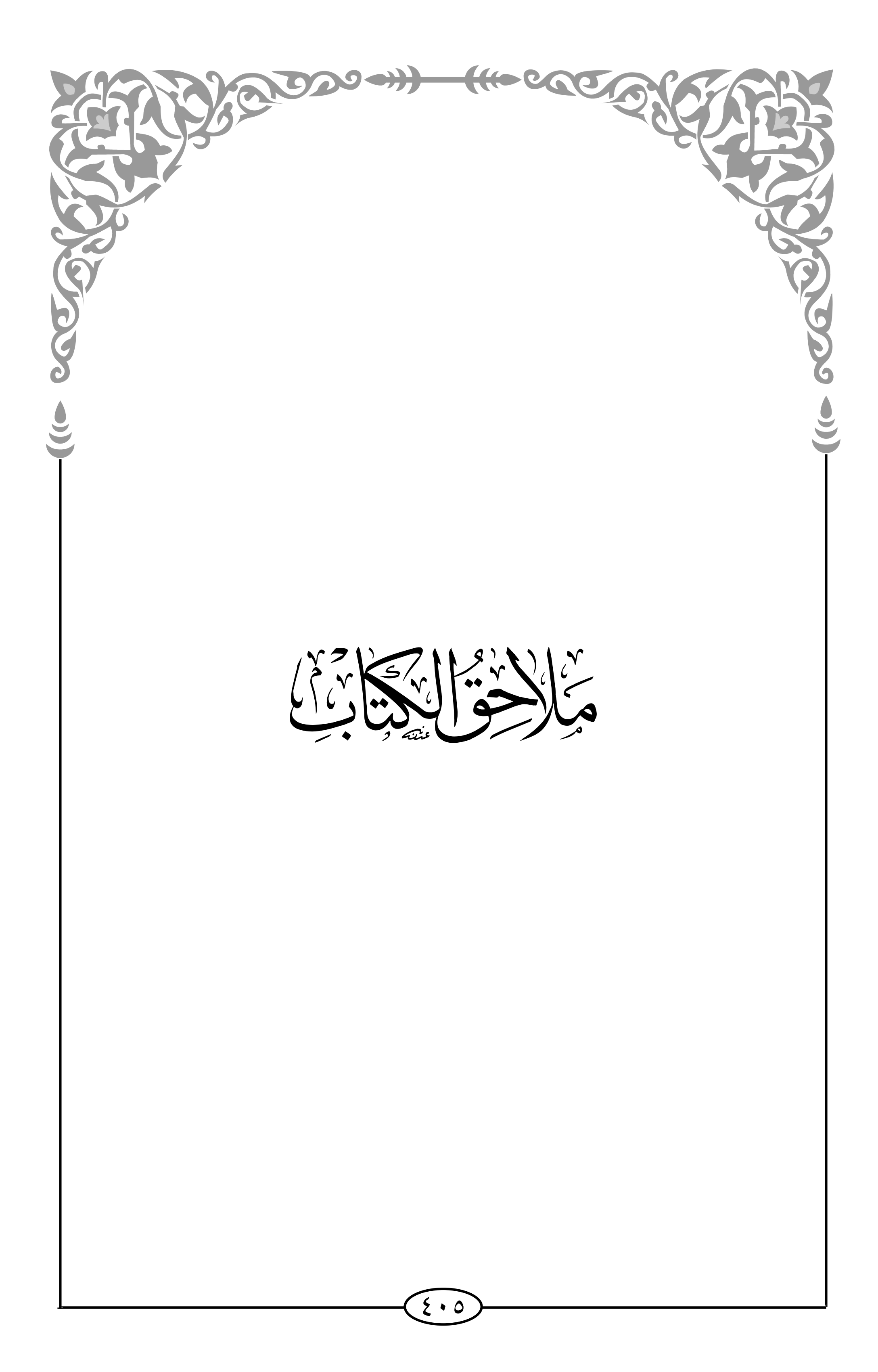
فإذا فعلت وانشرح صدرك ؛ فصلِّ علىٰ من اختاره الله لحمل رسالة الإيمان والهدىٰ والنُّور والعدالة والحرِّيَّة .

صلِّ علىٰ محمَّد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

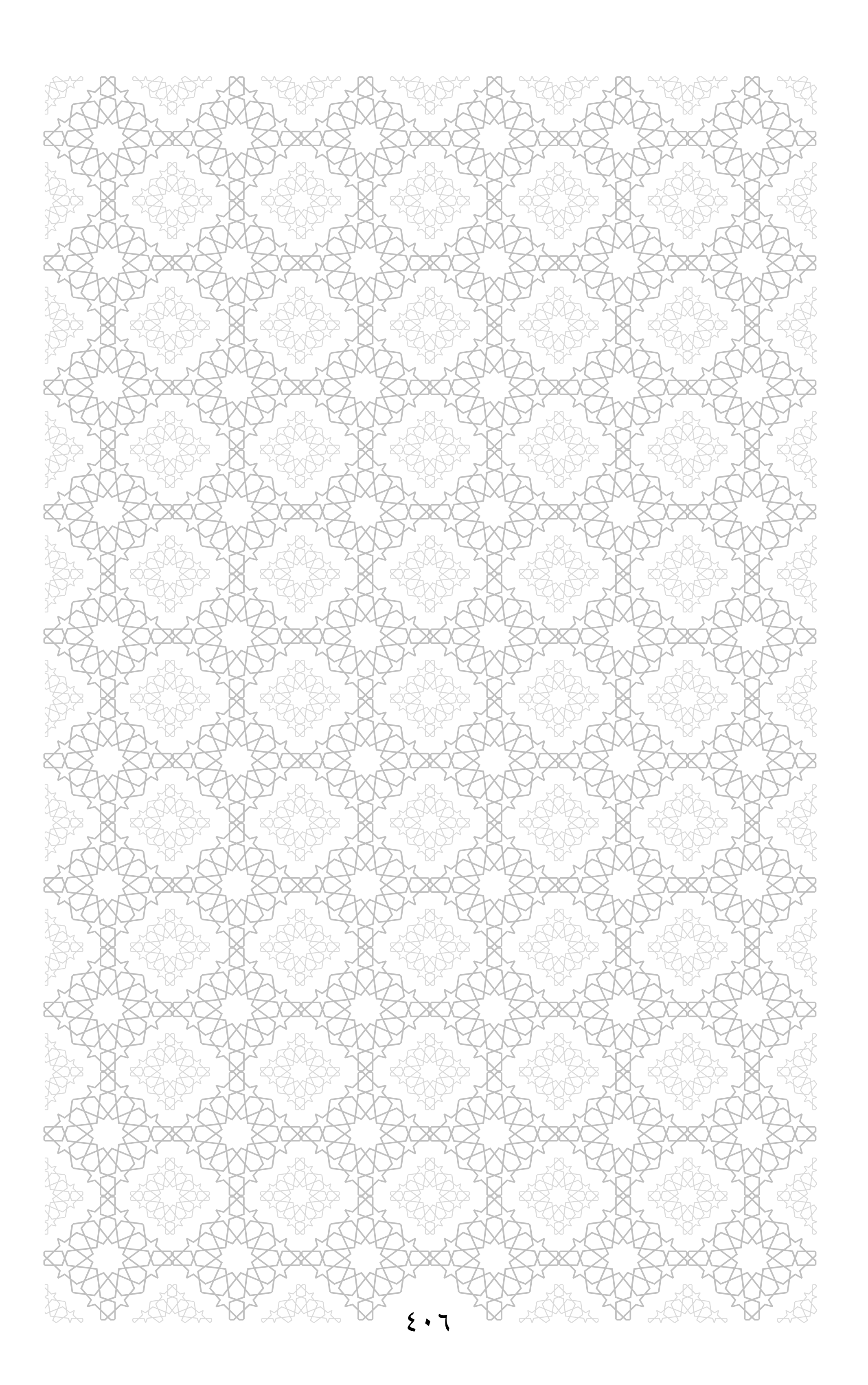
اللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد ، كما صلَّيت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ .

اللَّهمَّ ؛ بارك علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد ، كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ .

❊ ❊ ❊



ملاحق الكتاب



بقلم الدكتور عائض القرني

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه .

وبعد : فلو استطعتُ أن أعصر شرايين قلبي لأكتب بدمها هـٰذه المقدِّمة ؛ لفعلت ، ولو قدرت على استدرار دموعي لأسطِّر بها هـٰذا الحديث ؛ لقمت بذلك ، ولكن حسبي أنَّني أقدم لكتاب عن أكرم إنسان ، وأفضل مخلوق ، وأطهر بشر ، مرجعي في ذلك دفتر الحبِّ المحفوظ في قلبي ، ومصدري في ذلك الودِّ ديوانُ الإعجاب المخطوط في ذاكرتي ، فكأنِّي أكتب بأعصاب جسمي ، وكأنَّ مدادي دمي ودموعي ، وكما قلتُ عن المعصوم صلَّى الله عليه وسلَّم في قصيدة « تاج المدائح » :

إِنْ كَانَ أَحْبَبْتُ بَعْدَ ٱللهِ مِثْلَكَ فِي ... بَدْوٍ وَحَضْرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمِ
فَلاَ ٱشْتَفَىٰ نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ... وَلاَ تَفَوَّهَ بِٱلْقَوْلِ ٱلسَّدِيدِ فَمِي

إنَّ هـٰذا الكتاب الذي بين يديَّ لا يتكلم عن شاعر هدَّارٍ ، أو خطيبٍ ثرثار ، أو متكلم متكلِّف ، أو فيلسوف هائم ، أو روائيٍّ متخيِّل ، أو كاتبٍ متصنِّع ، أو ملكٍ جبَّارٍ ، إنَّما يتكلَّم عن نبيٍّ خاتم ، ورسول مصطفىٰ ، وقدوةٍ مجتبىٰ ، وصل سدرة المنتهىٰ ، وأكرم بالشَّفاعة الكبرىٰ ، وخُصَّ بالوسيلة العظمىٰ ، صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللِّواء المعقود .

وكتاب محمد صلَّى الله عليه وسلَّم للقرية العالمية للدكتور محمَّد الهاشميِّ الحامديِّ المثقَّف الأصيل ، والإعلاميِّ البارع ، الذي عرفناه وجالسناه ، ورأيناه وشاهدناه عبر شاشة قناة المستقلة ، صاحب الثقافة الواسعة ، والضَّمير

الحيِّ المؤيَّد بأمانة النَّقل ، وروح المسؤوليَّة ، واحترام الفضيلة ، وتقديس القيم ، هٰذا الكتاب وثيقة صادقة جمعت بين عذوبة اللَّفظ ، وجلال المعنىٰ ، وحسن الانتقاء ، ودقَّة الفهم ، فجاء لوحة هائمة بالحسن ، مدْمَجة بآيات الجمال .

والدُّكتور الهاشميُّ من خلال كتابه البديع الرائع يرسل للنَّاس رسالة ملؤها المحبَّة والمودَّة لرسول النَّاس وأفضل النَّاس وهادي النَّاس صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأنت حينما تطالع كتابه تقرأ آثار هٰذا الحبِّ الصَّادق العميق ، والودِّ الرَّاسخ المتين ، عن صفوة الله من خلقه وحبيبه من عباده ، فاستحقَّ الدُّكتور الهاشميُّ بهٰذا العمل تاج القبول ، ووسام الشَّرف ، وتحيَّة الإجلال علىٰ طهر الضَّمير ، وصحَّة النَّهج ، وصدق العاطفة ، شكر الله صبره علىٰ إظهار الحقِّ في زمن الغربة ، والدِّفاع عن إمام المُثُل العليا في عصر التَّنكُّر ، وإظهار نور النُّبوَّة في ليالي انحراف الجيل وغفلة الأمة ، وأقول له كما قال أبو الطيِّب المتنبي لابن العميد :

مَنْ مُبْلِغُ ٱلأَعْرَابَ أَنِّي بَعْدَهَا ... جَالَسْتُ رِسْطَالِيسَ وَٱلإِسْكَنْدَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا
قَطَفَ ٱلرِّجَالُ ٱلْقَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ ... وَقَطَفْتَ أَنْتَ ٱلْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم / الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل
جامعة الطائف

تحدَّث كتابُ الحامدي عن سرِّ جاذبيَّة الإسلام ، وكشف عن عوامل صموده ، ودانَ من يخدش صفاءَ الإسلام ومحاسنَ تشريعاته ، في أسلوب المتمكن ، وإقناع الواثق ، وبيان الرَّاسخ ، ومجَّ الدَّخيل وأشادَ بالأصيل ؛ فهو لهـٰذه السِّمات يأْطِرك على الحقِّ أَطْراً ، ويوجِّهك شطرَ الصِّراط المستقيم .

وقيمةُ كلِّ كتاب متوقِّف علىٰ ما حواه من أدبٍ جمٍّ ، أو نفوذٍ في أعماق الحياة بنظراتِ حكيم ، وكلا الرُّكنين برز في صفحاته وسطوره أنجم هداية ومعالم دراية .

فهـٰذا السِّفر المتميِّز المنير يعدُّ صرحاً شامخاً في البناء الدَّعوي ، وقد ولد في وقتٍ عصيب وأَسْهُمُ العداءِ المستحكمِ ترشُق جسمَ الحنيفيَّة من كل حَدَبٍ وصوب ، وأبالسةُ السِّياسة ترسُم مجازات ليست لها حقائق ؛ مكراً وحيلة لهدف واحد ، هو غمزُ الإسلام ولمزُ تعاليمه العليا ، وقاموسهم يتموَّج بكلِّ شيءٍ إلاَّ الرَّحمة والإنصاف ، وترامت جعجعاتهم إلى المسامع حتىٰ تبلبلت أفكار ، والتبس الحال علىٰ أذهان ، فكان المسلمون في حاجة ملحَّة إلىٰ إضاءات إسلاميَّة متينة القوادم والخوافي تستمد إشعاعاتها من المصدرين النَّيِّرين ؛ كتاب الله الفرقان ، وسنَّة المجتبى المأمور بالبيان .

فوقع هـٰذا الكتاب موقعه ، فاحتضنه الألبَّاء ، وسامرهُ أولو المعرفة ،

وأشاد به ذوو المكانة العلميَّة ، وما أسرع أن نفدت طبعته الأولىٰ ، « فالمنهل العذب كثير الزِّحام » .

فقد عجَّ بالإضافات الجديدة ، وردَّ جحافل التَّشكيك علىٰ أعقابها ناكصةً بمنطقٍ سليمٍ ونهج مستقيم موارده الوحي ، وأبان نقاء المنهج الحقِّ من الأدران التي حاول الغير إلصاقها بالصَّفاء الإيمانيِّ ، فخامر بيانُه شِغَاف الأفئدة ، فأنارتها وأنعشتها ، وزادتها ثباتاً على الحقِّ ، وإيماناً علىٰ إيمانهم ، والتحمت معانيه بالفطرة التحاماً يأبىٰ على الانفكاك ، واستنْطِقْ صفحاتِ الكتاب ؛ ترفدك بذلك ، كيف لا وقد عانق القديم الحديث ، واستبان بأن خاتمة الرِّسالات السَّماوية هي قطب الرَّحىٰ للخروج من كلِّ المصاعب والمصائب التي أزكمت أنوف المصلحين ؟! ففيها يكمن نجاح القرية العالميَّة بأسرها إن هي استهدت بهدى الله تعالىٰ ، ولفظت معطف العصبيَّة البغيض .

وزبدة القول : أنه كتاب سيرةٍ ودعوةٍ ومنهجٍ مضيء ودفاعٍ عن الإسلام الذي وقع بين كيد أعدائه وجهل أبنائه .

هَـٰذِي ٱلْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالاَ

ولم تقف يراعة الكاتب البارع عند كشف اللِّثام عن تلك الحملة الشَّرسة التي تشنُّ ضدَّ الإسلام وأهله ، بل تجاوز عرض مصائب الأمَّة إلىٰ تبيان المخارج من المحن ، فقد طال عهد الأمة بالسُّبات ، وتكالبت عليها قوى المتجبِّرين في الأرض ، واحتلَّت شعوباً ، وسقوهم كأس الحمام عَللاً بعد نَهَل ، فلا ترىٰ في تلك الأقطار إلاَّ يداً مشلولة ، أو قلباً واجفاً ، أو وجهاً يلطم ، أو قفاً يصفع ، ويقاد بزمام الهوان ، ويساق بسوط الذُّل ، أعجز من أرملة ، وأضيع من يتيم .

وربَّما مررت علىٰ رسوم منازل ، لم ترحِّلهم أياديهم الآثمة دفعة واحدة إلىٰ وطن آخر ، ولكن إلىٰ دار البقاء بالجملة ، وكان كتابنا هـٰذا بمثابة صرخة

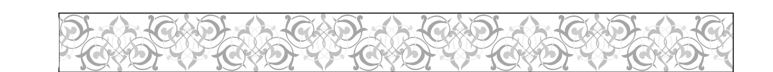
مدوِّية في أنحاء المغربين ، ليدلَّنا علىٰ مهيع الخلاص ، فأسمع الأحياء ، وبصَّر النُّبلاء ، ووضع الحقَّ في نصابه ، وقارع خصومه بالحجج ، ودمغ الباطل بالحق الأبلج ، ولا غرو فقد سكب الكاتب في طروسه روح عظمة الإسلام ، ونبَّه الحسَّ الدِّينيَّ إلى اعتناق معالي الأمور ، وكرَّه إليه سفاسفها ، والمحجَّة البيضاء لا يزيغ عنها إلاَّ أعمىٰ فكر يتخبَّط في ليل الحيرة ، إنه العواصم من القواصم التي يسببها التعصب والتطرف والتأويلات المنحرفة للإسلام وخطاب العنف والكراهية والصراع بين الحضارات ؛ لأن المتضرر الأكبر من خطاب التطرف والتشدد والعنف إنما هو الإسلام ، والمسلمون الذين هم في غالبيتهم الساحقة المطلقة أعداء التطرف والعنف والإرهاب ، وبسبب الأعمال الشاذة لقلة قليلة منهم ، وبسبب تنامي خطاب التعصب والشك وسوء الظن في العالم ، أصبح حالهم كما قال الشاعر :

غَيْرِي جَنَىٰ وَأَنَا ٱلْمُعَذَّبُ دُونَهُ ... فَكَــأَنَّنِــي سَبَّــابَــةُ ٱلْمُتَنَــدِّمِ

طغت سموم الحقد على الحقائق النَّاصعة ، ونزعةُ العصبيَّة لا تعرف الرَّحمة ، ولا تعترف بالضَّمير الإنسانيِّ ، وإذا عصفت ريح العواطف ؛ تنحَّى المنطق جانباً ، ولو وجد الحقُّ من الأنصار بعضَ ما يجد الباطل ؛ لعاش العالم بسلام ، علىٰ أنَّ الحق لا يعدم نصيراً ، وللباطل صولة ثم لا يلبث أن يزهق ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨١] .

فدونك طالبَ المعرفة هٰذا الكتاب نبراس حقيقة ، وإكسير سعادة في الدَّارين ، محَّضك النُّصح ، وأنار المعالم ، وفضح مخطَّطات المستعمر ، ودافع عن قيم الإسلام العليا ، « ووجه العدل أبيض ، ووجه الظُّلم أسود ، فإذا خلَّطوا عليك ؛ فقد حسبوك أعمىٰ » .

* * *



اجتهادٌ جديدٌ

بقلم عبد الله زنجير

من أجواء الضَّباب تشرق للقرية العالميَّة هـٰذه الصَّفحات الصَّالحات من مدرسة السِّيرة وسيرة الضِّياء ، فهي اجتهادٌ جديدٌ ولهجةٌ غير مسبوقة ، في مطالعة المصادر الأولىٰ لهـٰذا الدِّين ، أصَّلت لتوأمة المبادىء الإنسانيَّة العميقة ، التي تمارسها المجتمعات المتطوِّرة ، مع التَّعاليم العريقة للإسلام ونموذجها الواقعيِّ واليقظِ المتمثِّلِ بسلوك الرَّسول محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ودولته النَّبويَّة الرَّاشدة ، المؤسَّسة على السِّلم والعلم .

وحين يبرع المؤلِّف بتجاوز الثُّنائيَّات الظَّنيَّة ، مثل الأصالة والمعاصرة ، والولاء والبراء ، والإيمان والكفر ، والأبيض والأسود ، ليستعرض القضيَّة الكبرىٰ في حياة المسلم ، وعلاقته بعالمه المعيش من خلال ثقافة السِّيرة وفقهها المقاصديِّ الحيويِّ ، وليحكي عن الشَّجرة الإبراهيميَّة الوارفة العطاء ، والرَّابطة الوثيقة بين رسول الإسلام وأبي الأنبياء ؛ فإنه يكون قفز من سلطة الأسطورة إلىٰ سلطان السمع والبصر والفؤاد ، ومن تركة الماضي التراثيَّة إلى الوظيفة المعرفيَّة للحاضر والحضارة .

والذي ظهر من دراسات عربيَّة وأعجميَّة عن السِّيرة السَّمحاء في العقود الأخيرة لا يكاد يلبِّي نهم النَّاس ، بل بعضه يلقي ظلالاً ومآرب تتعلَّق بأمانة الاستنساخ ، وسلامة الاستنتاج .

إن السِّيرة ليست نصّاً تاريخيّاً نسرده في احتفالات المولد .

وليست كتاباً عن ألف ليلةٍ وليلةٍ .

وليست هي الظَّاهرة الأوحد في قراءة الأشياء والحقائق إذا دخلنا بستان الشَّريعة ؛ لأنَّ الحديث والسُّنة يسبقانها .

السِّيرة المباركة باختصار :

رؤيةٌ متحرِّرة تدعو للعقل ، وتحترم مدركاته ، ولا بديل عنها في تفسير أسباب النُّزول ، ولن نفهم القرآن الكريم المصدر الأوَّل للإسلام في شتَّىٰ مستوياته دون اعتماد علىٰ حركة الحياة في المدينة والجزيرة بامتثالها العمليِّ وصدقيتها العالية .

والوحي الذي تفاعل مع الشُّروط الموضوعيَّة التَّاريخيَّة ولم يقف عندها هو الذي دعانا للتَّأسِّي برسول الله في دعوته وعبوديَّته وسلوكه الرَّاقي ، وكمال عقله وأخلاقه هو ما جعل النُّفوس تستميل وتستريح إليه ، وجاذبيَّة الإسلام اليوم تتأثَّر بتخلُّف أتباعه وزهدهم بالدِّين والدُّنيا ، وإن كان المستقبل محسوماً له .

يقول جاك ريسلر : (إنَّ المنتصرين سيعتنقون دين المغلوبين الذين أنهكوهم ، وسوف يجعلون من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هٰذا الدِّين .

وتثير هٰذه الظاهرة العجب ، لكنَّها ليست من النُّدرة في تاريخ العالم الإسلاميِّ ، لقد كان هٰذا بالنَّسبة للأتراك السلجوقيِّين ، ثمَّ بالنِّسبة لأبناء عمومتهم المغول بعد ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، وأخيراً بالنِّسبة للأتراك العثمانيِّين في القرن الرَّابع عشر ، وسيظفر الدِّين الإسلاميُّ بألمع انتصار طيلة الأزمنة الممعنة في ظلال الفشل والغزو) .

وفي كلِّ عصر فرض علينا إعادة فهم الماضي ونقده وتقويمه بناء على المصلحة المترتِّبة ، وتوفيقاً ما بين الحكمة والشَّريعة مثلما فعل ابن رشد العربي ، إلاَّ أنَّ للانحطاط دورته التَّاريخيَّة الطبيعيَّة التي كشفها ابن خلدون

والتي لا تقرُّ تماماً بجديد العالم وأطره وأطواره ، وبالتَّالي هي مهمَّة ليست هيِّنة أن تهمل النُّقطة الحرجة في تعطُّل المنظومة الثَّقافيَّة الإسلاميَّة المستقلَّة والمستقيلة عن العصر ، لتعيد روح الحرارة إلىٰ جدلية التَّواصل المعرفي والمعلوماتي مع هويتنا غير المزوَّرة وشخصيتنا التي كانت ، كلُّ ذلك من أجل النُّهوض والتَّبصُّر والمصَالحة العتيدة القريبة مع مقدِّمات الخير والحقِّ والجمال ، وضمانة في عدم انزلاق مسار التَّطوُّر إلىٰ تطرُّف المادِّيَّة ومعانقة الإلحاد .

قديماً في القرن الثاني عشر قام بطرس المبجَّل بترجمة القرآن إلى اللاَّتينيَّة في جرأة استشراقيَّة لها وعليها .

ولئن فشلت في سدِّ الفجوة إلاَّ أنَّها أشارت لرأس الأمر .

ومن وسط النِّزاعات والأيدلوجيَّات نُهدي هـٰذه الطَّبعة حمامة بيضاء في أفق الأحزان ، ودعامة تجديدٍ وعمادَ تشييد في مجال السِّيرة والدِّين ، كتبها بأسلوبٍ سهلٍ ممتنعٍ ممتعٍ يتَّفقُ مع الصَّحيح والصَّريح إعلاميٌّ ألمعيٌّ رقيق الجانب ، هو د . محمَّد الهاشميُّ الحامديُّ ، كتبها إحياء لفرض كفاية ، وتكييفاً لحاجات البحث والجيل .

إنَّه فنَّانٌ يتمحور حول الرؤية القرآنيَّة في الزَّمان والمكان ، ولا يستأثر بالدَّوح وحده يحاول في هـٰذا الكتاب أن يفعل شيئاً من أجل الله والإنسان ، ومن أجل التَّغيير النَّظيف النَّبيل .

والدَّكتور الهاشمي غيورٌ محبٌّ بكلِّ عقله وقلبه للجد العظيم وآله وأصحابه البررة ، وعدم اكتراثه بعقد التقليد والخواجة تجعل من كتابه أكثر علميَّة وحرِّيَّة ونزاهة وحقيقة حلوة ، فالإسلام فطرة بذاته ولم يعد وارداً أن يبقىٰ أسير المصالح والأنا ، وانفتاحه وعالميَّته هما صمام الأمان والأمل .

الأعراف الأكليروسية ستذوب تحت توهج الأقمار الصناعية ، نحن مع

الدكتور محمَّد الهاشميّ الحامديّ نصلّي ونسلّم علىٰ هـٰذا الرَّسول الباني ، الذي لو عاد الآن ؛ لحل مشاكل العالم ريثما يحتسي فنجاناً من القهوة كما قال برنارد شو .

ندعو المسلمين وغير المسلمين لمحبَّة من أرسله الله رحمة للعالمين ، ففي محبَّته طمأنينة وإنقاذ وزورق نجاة وإسعاد وإسعاف في عالم الغيب والشَّهادة .

روى الشيخان عن أنس بن مالك قال : بينما أنا ورسول الله صلَّى الله تعالىٰ عليه وسلَّم خارجين من المسجد فلقينا رجل عند سدَّة المسجد ، فقال : يا رسول الله ؛ متى الساعة ؟ فقال رسول الله : « ما أعددت لها ؟ » قال : فكأن الرجل استكان ، ثمَّ قال : يا رسول الله ؛ ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ ، ولكنِّي أحبُّ الله ورسوله .

قال : « فأنت مع من أحببت » .

يقول أنس : فما فرحنا بأكثر من ذلك .

وعلى الواجهة النَّبويَّة في طيبة المنورة نقرأ بخشوع وتؤدة :

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِٱلْقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ ٱلْقَاعُ وَٱلأَكَمُ
نَفْسِي ٱلْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ ٱلْعَفَافُ وَفِيهِ ٱلْجُودُ وَٱلْكَرَمُ

ٱللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّد وآل محمَّد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد ، كما باركت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنَّك حميدٌ مجيدٌ .

إنَّ مهمة هـٰذا الكتاب تعريف كلِّ ضميرٍ بالحقل الذي نضجت فيه تأثيرات الإسلام ، وذلك من منظور ما رأيناه من ترجمات عن سيرة إمام الأئمة وتفاصيلها النَّاصعة الرَّائعة نتوقع أن يفعل الكثير .

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليكم أيها القراء الكرام ورحمة الله وبركاته :

يسرني أن أُدوِّن هٰذه الكلمة الموجزة تصديراً للطبعة الثالثة من كتابي في السيرة النبوية المباركة ، وقد غيرت عنوانه الأصلي : « محمد صلى الله عليه وسلم للقرية العالمية » إلىٰ : « **السيرة النبوية للقرية العالمية** » لتأكيد التواصل الرمزي بين هٰذا الجهد المتواضع والأعمال الجليلة السابقة في كتابة سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم .

إن إقبال القراء علىٰ كتب السيرة النبوية ـ ومنها هٰذا الكتاب ـ شهادة أخرىٰ تضاف لشهادات كثيرة تثبت الجاذبية القوية الدائمة لمبادىء خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ورسالة الإسلام التي توَّجتْ ما تعاون علىٰ تبليغه للناس علىٰ مدى الأزمان كوكبةٌ عظيمة من الرسل الكرام ؛ منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ويعقوب ، وموسىٰ ، وعيسىٰ . . . وأسماء أخرىٰ كريمة مشهورة من الأنبياء ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

تبين الدراسات العلمية والموضوعية في حياة نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنه أبلغ الناس بأمانةٍ وصدقٍ رسالةَ خالق الأكوان كلها ، وخالق الناس أجمعين لعباده في كل مكان وزمان ، وأن هٰذه الرسالة هي الدستور الأفضل للسعادة الفردية والجماعية في كل العصور .

إنها رسالة تقوم على الإيمان الصادق القوي بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتوحيد الله تعالىٰ ، وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له ، وعلىٰ أن الحياة الدنيا دار عمل واختبار للإنسان ، ثم يأتي يوم الحساب يوم القيامة ، فيجازي الله عز

وجل عباده المؤمنين الصالحين ، ويدخلهم جنات النعيم ، ويعاقب الذين أعرضوا عن ذكره ، وكذَّبوا رسله ، وكفروا بما جاؤوا به من الآيات والتعاليم .

عندما يؤمن الإنسان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطبق تعاليمه ؛ فإنه يختار لنفسه دستور السعادة في الدينا والفوز في الآخرة .

تعاليمه هي باختصار : مكارم الأخلاق ، الصدق ، وبر الوالدين ، والحب الصادق بين أفراد العائلة ، وإكرام الجار ، وصلة الرحم ، ومساعدة المحتاج ، والتواضع ، والتبسم في وجوه الناس ، وتجنب ما يسيء لعقل الإنسان وبدنه من مسكرات ومخدرات .

وكل أركان الإسلام من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، وحج ، وكل ما فيه من واجباتٍ ، أو من أعمال محرمة ومنهي عنها ؛ إنما تتضافر جميعاً ؛ لتهدي الإنسان وتقوده إلىٰ عالم من السكينة والحب والسعادة .

ويجد القارىء في ثنايا هـٰذا الكتاب أدلة ملموسة كثيرة ؛ قولية وعملية ، تؤكد كلها أن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم قدَّم نموذجاً أخلاقياً رفيعاً يمجد الصدق ، ويمقت الكذب ، يأمر بالبر ، وينهىٰ عن الفجور ، يوصي بالأمانة ، ويجرم الغش والخيانة ، يصون النفس عن المخدرات وكل أنواع الفساد ، ويحببها في الخير والكرم ومساعدة المحتاجين .

إنه نموذج يرىٰ أن سيد الناس خادمهم ، فيتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، ويقضي حاجاتهم .

نموذج يعتبر الابتسامة صدقة ، وإماطة الشوك عن الطريق عبادة .

نموذج ينهىٰ عن الغيبة والنميمة ، ويرفض حتىٰ لعن الحيوان .

نموذج يعطي للجار حقا دينياً من المودة والإحسان .

نموذج يرى الزواج مصدراً للسكينة والمودة والرحمة ، ويجعل بر

الوالدين قاعدة صلبة لعائلة سعيدة مترابطة متكاتفة .

نموذج يجعل كفالة اليتيم باباً للجنة ، ويجعل رعاية الأرامل جهاداً في سبيل الله .

نموذج يجعل النظافة من الإيمان .

نموذج يتواصل مع الناس بالفكرة والحجة والخُلُق الرفيع ، ولم يعرف عنه أنه ضرب شيئاً قط بيده ؛ لا امرأة ولا خادمة .

وأجمل ما في سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم : أن تعاليمه قابلة للتطبيق ؛ كل إنسانٍ أسود أو أبيض ، من أفريقيا ، أو من أوربا ، ومن كل قارات العالم ، فقير أو غني ، يستطيع أن يطبقها ، وأن ينعم بفضلها بحياة سعيدة ، وبجسم سليم معافىٰ من الآثار الضارة للمخدرات والمسكرات وما شابهها .

وهي تعاليم لا تقوم على التشكيك فيما سبقها من تعاليم الأنبياء السابقين ؛ مثل : إبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ عليهم السلام ، وإنما هي تعززها وتؤكدها وتتوجها ؛ لأنها تعاليم تأتي من مصدر واحد ، من عند رب إبراهيم ، وموسىٰ ، وعيسىٰ ، ومحمد ، وسائر إخوانهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

تلك هي مبادىء نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وتلك تعاليم الرسالة الخاتمة والمتممة والمتوجة لكل ما سبقها من رسالات ، فليس بعد الإسلام رسالة أخرىٰ ، ولا بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي آخر .

وهٰذا الكتاب بحث تاريخي في حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، يقدم الروايات الموضوعية ، والأدلة الصحيحة الموثوقة علىٰ أن سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم كانت تطبيقاً عملياً لمبادىء الإسلام ؛ ولذلك نجح في مهمته رغم الصعوبات الضخمة الهائلة التي واجهته ، واستطاع أن

يُدخِل السعادة لقلوب آلاف الناس في حياته ، ومئات الملايين الملايين من البشر بعد وفاته علىٰ مرِّ القرون .

هـٰذا الكتاب أعز وأهم ما كتبت إلى اليوم ـ في نظري ـ وأحب ما ألفت إلىٰ نفسي ، عشت خلال تأليفه في عالم إنسان عظيم لا مثيل له في التاريخ ، وفي عالم إخوانه من الرسل الكرام ، صلى الله عليه وعليهم وسلم صلاة وسلاماً كثيرين متلازمين إلىٰ يوم الدين .

وإنني لأرجو أن يلقىٰ جهدي هـٰذا تقدير القراء الكرام ، وأن يكون فيه نفع وفائدة لهم ، وسبب من أسباب البهجة والسعادة .

وقبل هـٰذا وبعده ، فإنني أدعو الله تعالىٰ ـ أكرم الأكرمين ـ أن يتقبل جهدي هـٰذا خالصاً لوجهه الكريم ، وينفعني به يوم العرض الأكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ألاحظ قبل ختام هـٰذه المقدمة أن الطبعة الثالثة لكتابي في السيرة النبوية تصدر عن دار المنهاج للنشر والتوزيع في المملكة العربية السعودية ، لصاحبها الأخ عمر سالم باجخيف ، نائب رئيس اتحاد الناشرين السعوديين ، وهو رجل كريم تعرفت عليه قبل أشهر فقط ، ولمست منه حماسة كبيرة للثقافة العربية والعلوم الإسلامية ، وحرصاً كبيراً علىٰ إتقان عمله ، وتواضعاً وبشاشة وحسن معاملة ، فله مني الثناء والتقدير وخالص الدعاء بالمزيد من النجاح والتوفيق .

أما كلمة الختام ؛ فأرغب أن أسجل فيها أصدق عبارات العرفان والامتنان والوفاء لشخصٍ آزرني بقوة خلال العقدين الماضيين ، وشجعني علىٰ تأليف هـٰذا الكتاب ، وعلىٰ أكثر المشاريع المهمة والأعمال الكبرىٰ في حياتي ؛ مثل : تأسيس (جريدة المستقلة) ، وتأسيس قناتي المستقلة ، والديمقراطية ، وساعدني مساعدة حاسمة وكبيرة في القيام علىٰ هـٰذه المشاريع وتطويرها وما يزال ، إضافة إلىٰ دوره الأساس في تنشئة الأبناء الأعزاء :

سامي ، ويوسف ، وزينب ، ونورا التنشئة الكريمة الطيبة ؛ إنني أعني زوجتي العزيزة زبيدة ؛ التي تستحق مني أضعاف هـٰذا الثناء .

لقد قال العرب : الشيء من مأتاه لا يستغرب ، وزوجتي بنت الفقيد عمار قمادي ، وقد كان رحمه الله من مجاهدي جيش التحرير الوطني في الجزائر ، بينما لقي أخوه عم زوجتي الشهادة أثناء ثورة التحرير الجزائرية المجيدة . وهي جزائرية ، والجزائريون عامة من خيار العرب والمسلمين ، جزاها الله عني خير الجزاء ، وأسعدها هي وأبناءها وأهلها ومن تحب بكرمه الفياض في الدنيا والآخرة .

هـٰذا ؛ وصلى الله وسلم علىٰ خاتم النبيين ، داعية التوحيد والعدالة والحرية ؛ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وعلىٰ إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وصحابته المكرمين ، وعلىٰ من تبع هداه إلىٰ يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

محرم (١٤٢٩) هجرية / يناير (٢٠٠٨) ميلادية

بقلم الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

السلام عليكم أيها القراء الكرام ورحمة الله وبركاته : إنه لفضل كبير من الله عز وجل أن يسَّر إخراج الطبعة الثانية من هٰذا الكتاب بعد فترة قصيرة جداً من صدور طبعته الأولىٰ .

تتوافق هٰذه الطبعة الثانية مع الضجة العالمية الكبرى التي سببها نشرُ إحدى الصحف الدِّنماركية لرسومٍ كارتونية تسيءُ لشخصية نبيِّ الإسلام عليه الصلاة والسلام ، وتربط بينه وبين الإرهاب ، وقد أُعيد نشرُ هٰذه الرُّسوم في بعض الصحف الأوروبية ، بينما تظاهر المسلمون في عواصمَ وبلدانٍ كثيرة في شتىٰ أرجاء المعمورة ، واحتجَّت حكومات عربية وإسلامية ، بالإضافة إلىٰ علماء الدِّين ومنظمةِ المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية ، كما انتقدت بعضُ الحكومات الغربيَّة نشرَ هٰذه الرُّسوم أو إعادةَ نشرها ؛ مثل الحكومتين الأمريكيَّة والبريطانيَّة ، وانتقدها الفاتيكانُ أيضاً ، والأمينُ العام للأمم المتحدة كوفي عنان .

عكست الرسوم الكارتونية جهلاً حقيقيّاً بشخصية نبيِّ الإسلام وبتعاليم الإسلام ، فهو لم يكن إرهابياً بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، وإنَّما كان داعيةً للحريَّة ، ومجدِّداً ومتمِّماً لتراث الأنبياء العِظَام من قبله ؛ إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ وسائرِ المرسلين عليهم جميعاً وعلىٰ محمدٍ أتمُّ الصَّلاة وأزكى التسليم .

نزل الوحيُ علىٰ نبيِّ الإسلام وهو في الأربعين من عمره ، فقضىٰ ثلاثةَ عشرَ عاماً يدعو أهل مكة للإيمانِ بالله الواحد ، والكفِّ عن عبادة الأصنام والأوثان ، والقبولِ بمبادىء المساواة بين البشر ، وإقامةِ العدل ، وتحريرِ المرأة ، والكفِّ

عن كلِّ أنواع الظُّلم السِّياسيِّ والاجتماعيِّ ، والالتزام بمكارم الأخلاق .

لكن المستبدِّين من أصحاب النُّفوذ في مكَّةَ حاربوا النَّبيَّ الخَاتَم ، واضطهدوا أصحابه وعذَّبوهم ؛ فكانت الهجرةُ الأولىٰ إلى الحبشة ، ثمَّ الهجرةُ الثَّانية إلى المدينة ، وهناك أسَّس النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أولَ دولةٍ إسلاميَّة في التاريخ ، وبناها علىٰ دستور موثَّق ومحفوظ ، يضمن العدل والمساواة لكل سكَّان تلك الدولة ؛ من مسلمين ويهود .

إلاَّ أنَّ الطغاةَ المستبدِّين في مكَّة الذين اعتبروا أنَّ رسالة الإسلام تهدِّدُ مصالحهم السِّياسيَّةَ والتجاريَّةَ ، وتساوي بينهم وبين الطَّبقاتِ التي كانوا يستغلُّونها ويستعبدونها ؛ صمَّموا علىٰ مواصلة محاربة الإسلام وأهله ، حتىٰ في المدينة ؛ ولذلك جرَّدوا الجيوش ، وعقدوا التحالفات العدوانيَّة ، وخاضوا أكثرَ من حرب لاستئصالِ الإسلام ، لكنَّهم فشلوا في مسعاهم مثلما فَشِل أعداءُ إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السَّلام من قبلُ في مساعيهم لإخماد شعلة الإيمان بالله في نفوس بني البشر .

وفي العام الثَّامن بعد الهجرة إلى المدينة تمكَّن نبيُّ الإسلام وأصحابُه من تحرير مكَّة ، وإزالةِ الأصنام والأوثان من المسجدِ الحرام أولِ معبدٍ بُنِيَ في التَّاريخ الإنسانيِّ ، وَرفْعِ الأذانِ للصَّلاة من فوق الكعبة المشرَّفة يشهدُ أنَّ النَّاسَ جميعاً أحرارٌ كرامٌ ، ليس لهم إلا إلـٰهٌ واحدٌ ، هو الله خالقُ السماواتِ والأرضِ ، وربُّ النَّاس أجمعين .

على امتداد هـٰذه السَّنوات وهـٰذه الحملات والمعارك المتَّصلةِ المتكرِّرة على الإسلام قُتِل قرابة ألف إنسانٍ من المسلمين ومن أعدائهم ، قارن هـٰذا بعدد ضحايا الحروبِ الأخرىٰ في أوروبا وآسيا قبل بعثة نبيِّ الإسلام ، وفي عهده ، ومن بعده ، وقارنه بعدد ضحايا الحربين العالميَّتين في القرن العشرين ، وقارنه بأحدث حروب القرن الحادي والعشرين .

والنَّتيجة : أن المعارك التي اضطر الإسلام لخوضها من أجل حريَّةِ النَّاس وحريَّةِ العقيدة ؛ كانت أقلَّ الحروب في التَّاريخ من جهة كُلْفتِها البشريَّة ؛ إذ قُتِل فيها عددٌ قليل جداً من النَّاس ، من المسلمين ومن المعتدين عليهم .

السَّببُ الرئيس لهـٰذه الظَّاهرة الملفتة أنَّ الإسلام دينٌ للحياة ، كرامةُ الإنسان فيه مقرَّرةٌ من عند الله ، وهي ثابتة محفوظة للإنسان في كلِّ زمان ومكان ، بقطع النَّظر عن عقيدته ولونه وعِرْقه ولغته وجنسيَّته ، والسَّلام هو الخِيار الأوَّل للإسلام بتوجيهٍ قرآنيٍّ واضحٍ .

وقد جسَّد النَّبيُّ محمدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام هـٰذه المبادىء عندما حرَّر مكَّة ، وبسط السَّلام والأمان لخصومه الذين اضطهدوه وقاتلوه وشرَّدوه قائلاً لهم : « اذهبوا ؛ فأنتم الطُّلقاء » .

وجسَّده قبل ذلك عندما اختار مواجهة الطُّغاة المتعصِّبين بالكلمة وبالصَّبر الجميل علىٰ ظُلمهم ، وثبت تاريخيّاً أنَّهم هم الذين تجاوزوا الظُّلم والتَّعذيب إلى التَّهجير والتَّشريد ، ثمَّ إلىٰ إعلان الحرب على المسلمين وتبنِّي خِيارِ اجتثاثِهم واستئصالهم .

إنَّ الذين يتَّهمون الإسلام ونبيَّه بالتَّعصُّب والإرهاب ينقُصُهم العلمُ بحقيقة الإسلام وبسيرة نبيِّه ، هـٰذا إذا كانت نواياهم حسنة في الأساس .

أمَّا إن كانوا من ذوي النَّوايا السَّيِّئة من المتطرِّفين المتعصِّبين دعاةِ الصِّراع والكراهية بين الثَّقافات والحضارات ؛ فإنَّ عليهم أن يكونوا أكثرَ مسؤوليَّة ، ويجنِّبوا العالم شرَّ نزعاتِ التَّعصُّب والتَّطرُّف ، عليهم أن يعلموا ويتذكَّروا حجمَ الشَّرِّ والدَّمار الذي ألحقه المتطرِّفُون والمتعصِّبون بالعالم في التَّاريخ ؛ ففي القرن العشرين تعمَّد النَّازيُّون بثَّ ثقافةِ الكراهيةِ بحقِّ اليهود تمهيداً لجريمة الهولوكوست المروِّعة ، ثمَّ أدخلوا العالم كلَّه في حرب كونيَّةٍ قُتِل فيها أكثرُ من خمسين مليون إنسان .

والمسلمون الذين يحترمون المسيحيِّين واليهودَ والهندوس والبوذيِّين وسائرَ شعوب العالم الأخرىٰ لا يرغبون مطلقاً في أن يكونوا هم ضحايا هولوكوست جديد ، ولا وقوداً لحربٍ عالميَّة ثالثة ، ويكرهون نظريَّة الصِّراع والصِّدام بين الحضارات ، ويؤمنون بأن البشرَ كلَّهم عائلةٌ واحدةٌ كبيرةٌ وموسَّعةٌ ، يجب أن يعيش كلُّ فردٍ فيها وكلُّ شعبٍ وكلُّ أمةٍ في سلام وأمان وحريَّة ، من دون تمييز بينهم علىٰ أساس الانتماء الدِّينيِّ أو العِرْقي أو الثَّقافي .

والمسلمون يزعجهم ويقلقهم أن تنخرط جهاتٌ كثيرةٌ ، بعضُها عن جهلٍ ، وبعضُها عن مكرٍ وسوءِ نيَّة ، لترويج ثقافة الكراهية بحقِّ الإسلام ومعتنقيه ، وتصويرِ رسول الإسلام علىٰ أنَّه داعيةٌ للإرهاب ، وتصويرِ المسلمين علىٰ أنَّهم أتباعٌ لشخصيَّةٍ إرهابيَّةٍ ، وهـٰذا كذبٌ فاضح ، وقلبٌ للحقائق ، وتشويهٌ بالغٌ لسمعةِ ما يقرب من مليارٍ ونصفِ مليارِ إنسان ، وتحريضٌ على الإسلام وأهله ، وتبريرٌ مباشر لما قد يصيبهم من عنف وعدوان ، ومن ترسانة القوانين الجديدة التي تضيِّق عليهم وتصادر حرِّيَّاتهم الدِّينيَّةَ والشَّخصيةَ .

يشعر المسلمون بالألم العميق لهـٰذا التشويه المتعمَّد لسُمعتهم وسمعةِ نبيِّهم وتعاليمِ دينهم ، لكنَّهم لا يقبلون أيضاً أن يعبِّر بعضهم عن هـٰذا الغضب برفع ساطورٍ ، أو إحراقِ سفارة ، أو تبنِّي شعاراتٍ وأفعال مخالفةٍ للقانون وأخلاقِ الإسلام ، وكلُّ سلوك من هـٰذا القبيل مرفوضٌ رفضاً تامّاً من دون أدنىٰ تحفُّظ ، ويجب علىٰ قادة المسلمين وعلمائِهم التَّصدِّي له ورفضُه وإدانتُه بشدَّةٍ ومن دون تردُّد .

ويشعر المسلمون بالألم أيضاً عندما يُتَّهمون بمعاداة حرِّيَّة التَّعبير من طرفِ بعض الكتَّابِ والسَّاسةِ الغربيِّين .

الحقيقة أنَّ حرِّيَّة التَّعبير مبدأٌ شريفٌ ونبيلٌ ينحاز له المسلمون بأغلبيَّتهم

السَّاحقة ، ويكافحون ويقدِّمون التَّضحيات من أجله في بلدانهم وفي السَّاحة العالميَّة .

والحرِّيَّةُ أيضاً : هدفٌ من أعظم أهداف الإسلام ، ومن عظم شأنها في الإسلام : أنَّ شرط قبول إيمان الرَّجل أو المرأة : هو أن يكون هـٰذا الإيمان مبنيّاً على الإرادة الحرَّة لصاحبه ؛ لأنَّه لا إكراه في الدِّين ، لكنَّ الحرِّيَّة لا تعني الشَّتمَ ، وإشانةَ السُّمعة ، والتحريضَ علىٰ كراهية المسلمين أو السودِ أو اليهودِ أو أيِّ عِرْق آخر .

وفي القوانين المعمول بها حاليّاً في العديد من الدُّول الغربيَّة تمييزٌ واضح بين الحرِّيَّة وبين التَّحريض عل العنف والكراهية ، والمسلمون لا يريدون التَّميز بحقٍّ أو معاملة خاصَّة علىٰ حساب الملل والشُّعوب الأخرىٰ ، إنَّهم يريدون فقط : أن تكون لهم الحقوقُ نفسُها والحماية ذاتُها المكفولة للشُّعوب والدِّيانات الأخرىٰ .

هـٰذا هو كلُّ ما يريدونه لا أكثرَ ولا أقلَّ .

وقد آنَ الأوانُ من أجل أن تتجاوب الأسرة الدُّوليَّة مع هـٰذه المطالب العادلة ؛ فتسنَّ قانوناً دُوليّاً ملزماً يحمي الإسلامَ وسائرَ الدِّياناتِ الأخرىٰ في العالم من الحملات الظَّالمة التي تستهدف تشويهَ السُّمعة والتَّحريضَ علىٰ كراهية الشُّعوب بسبب انتمائها الدِّينيِّ .

ولن يكون هـٰذا القانون بدعةً تُختَرع بسبب إلحاح المسلمين ، وإنَّما هو أمرٌ معمولٌ به اليوم في بريطانيا ؛ حيثُ يوجد قانونٌ يحمي المسيحيَّة ، وقانونٌ آخرُ يضمن حماية اليهود والسِّيخ ، ولن يُضارَّ أحدٌ في العالم إذا استفاد العالمُ كلُّه من التجربة البريطانية ، ووسَّعها لتكفل حماية الإسلامِ وسائر الدِّيانات الأخرىٰ .

هـٰذا القانون أصبح اليوم مطلباً ضروريّاً ومستعجلاً ، ليس فقط من أجل

حماية الإسلام والمسلمين من خطاب التَّحريض والكراهية ضدَّهم ، ولكن أيضاً : من أجل حماية بقيَّة الأديان ، ومن أجل حماية حرِّيَّة التَّعبير ، والحيلولةِ دون استخدامها شعاراً تتستَّر به النَّزعات العنصريَّةُ ، وأيضاً : من أجل السَّلام العالميِّ ، ومن أجل إتاحة الفرصة لتنمية علاقاتِ الصَّداقة والتَّعاونِ بين المسلمين وأوروبا ، وبينهم وبين الغرب بشكل عامٍّ .

سَنُّ مثل هـٰذا القانون على الصَّعيد الدُّوليِّ ، وتأييدُ الأوروبيِّين للمساعي الإسلامية المبذولة من أجل هـٰذا الهدف ؛ سيكون الحلَّ المنطقيَّ والمشرِّفَ لجميع الأطراف ، وسيكون دليلاً على انتصار خطاب العقل والاعتدال والحُرِّيَّة علىٰ حساب خطاب التعصُّب والعنف والكراهية .

في هـٰذه الظُّروف الدُّوليَّة التي تتنازعها تياراتٌ ومطامعُ متعدِّدةٌ ومختلفةٌ ، ويتحدَّث النَّاس فيها عن شخصية نبيِّ الإسلام بعلمٍ وبغير علمٍ ، وينتعش بعض المتشدِّدين من دُعاة صراع الحضارات علىٰ وقع يوميَّات الأزمة التي نشأت بعد صدور الرُّسوم الكارتونية المسيئة للنَّبيِّ محمَّد عليه الصلاةُ والسَّلام تصدرُ الطَّبعة الثَّانية من كتاب : « السِّيرة النَّبويَّة للقرية العالمية » .

هـٰذا الكتاب ينفع الذين يريدون أن يعرفوا المزيد عن الإسلام وشخصيَّة نبيِّ الإسلام ؛ لأنه يعرض سيرة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام استناداً إلىٰ أوثق المصادر العلميَّة في التَّاريخ الإسلاميِّ .

وينفع الذين ينحازون لفكرة التَّعايش السِّلميِّ بين الثَّقافات والحضارات من مسلمين وغير مسلمين ؛ لأنه يبرهن بالأدلَّة والبراهين السَّاطعة علىٰ قوَّة وعمق الرَّوابط بين الإسلام وما سبقه من ديانات سماويَّة ، وبين المسلمين وأهل الكتاب ، ويوضح الأرضية الصُّلبة للتَّفاهم والتَّقارب بين الأمَّة الإسلاميَّة وبين بقيَّة الأمم والملل في كلِّ أنحاء العالم .

وهو كتاب للمؤمنين في كلِّ مكان ، يحتفي بمبادىء الإيمان بالله الواحد ،

وبالنَّزعة الإنسانيَّة العميقة والأصيلة والخالدة للرَّبط بين الغيب والشَّهادة ، ولإقامة الحضارة الإنسانيَّة علىٰ أساسٍ متينٍ من مبادىء العدل والحرِّيَّة ومكارم الأخلاق .

كلُّ هـٰذه القيم والمعاني يستنتجها الكتابُ من سيرة خاتَم الأنبياء والمرسلين ، وبوسع كلِّ باحثٍ مسلمٍ أو غير مسلمٍ أن يصل إلىٰ مثلها إذا قرأ سيرة خاتَم الأنبياء والرُّسل بنزاهةٍ وموضوعيَّةٍ وروحٍ علميَّةٍ خالصةٍ .

لِنَحتكِم للعلم إذن وللتاريخ من مصادره الموثوقة ، ولنبن علاقاتِنا الدُّوليَّة على العلم لا الجهل ، وعلى المعرفة لا على الأوهام وأدبياتِ التَّعصُّب والكراهية .

أرجو أن تلقىٰ هـٰذه الطَّبعة الثَّانية من كتاب « السِّيرة النبويَّة للقرية العالمية » ما لقيته الطَّبعة الأولىٰ من حفاوةٍ واهتمام وقبول ، وأن تتاح لي فرصة للتَّرحيب بقراء الطَّبعة الثَّالثة من الكتاب في وقت غير بعيد .

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لندن ٦/ ١/ ٢٠٠٦م

* * *



بقلم الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

بدأت تأليف هـٰذا الكتاب بغرض بيان أسرار جاذبيَّة الإسلام لمئات الملايين من البشر علىٰ مرِّ التَّاريخ ، ووضعت في مقدِّمة هـٰذه الأسرار وأعلاها شأناً وأكثرَها تأثيراً بعد القرآن الكريم سيرةَ نبيِّ الإسلام محمَّدِ بن عبد الله بن عبد المطَّلب صلى الله عليه وسلم .

القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرىٰ ومعجزة نبيه ، وعند التَّأمُّل في هـٰذه المعجزة ؛ نجد أنفسنا أيضاً أمام الأهمِّيَّة المحوريَّة للشَّخصيَّةِ التي أُوحِي إليها كلامُ الله ونقلته إلى النَّاس أجمعين ، شخصيةِ محمَّدٍ رسول الله وخاتَم النَّبيِّين كما يعتقد بذلك المسلمون كافة ، وحَسِبتُ في البداية أنَّني سأعرض السِّيرة النَّبويَّة في فصل موجز من فصول كتاب جاذبيَّة الإسلام ، لكنَّني وجدت اختصارَ قصَّة نبيِّ الإسلام المتميِّزة والمثيرة في فصلٍ واحد أمراً في غاية الصُّعوبة ، بل مستحيلاً .

فكانت النَّتيجةُ أن قرَّرت التَّوسُّع في عرض سيرة نبيِّ الإسلام ، وعرضها في كتاب واحد يكون الأوَّل ضمن سلسلة كتبٍ أعرض فيها أسرار جاذبيَّة الإسلام ، وهـٰذا الكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز هو خلاصةُ ما توصَّلت إليه من دراسة حياة نبيِّ الإسلام ، وثمرةُ ما بذلته من جهدٍ لعرضها بأسلوبٍ معاصرٍ مبسَّطٍ وعلميٍّ وموثَّقٍ ومشوِّقٍ في آنٍ واحدٍ ، ويتوجَّه لسكان القرية العالميَّة التي أنتمي إليها وأؤمن بفكرتها .

وقد جعلت عنوان الكتاب مُعبِّراً عن فكرة جميلةٍ آمنت بها وتحمَّست لها كثيراً منذ زمن طويل ، العنوان هو « السيرة النَّبويَّة للقرية العالميَّة » ، والقريةُ العالميَّة حقيقة تتشكَّل تدريجيّاً ، ومن خلالها تتواصل أمم الأرض وتتوثَّق

الرَّوابط بينها بطريقة لا سابقَ لها في تاريخ الإنسانيَّة ، وأشعر أنَّه كلَّما تقدَّمنا خطواتٍ أكبرَ نحو القرية العالميَّة الواحدة التي ننتمي إليها جميعاً ، والتي نحتفل فيها بالتعدديَّة الجغرافيَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة والحضاريَّة في العالم ؛ اقتربنا من توجيهات ومعاني الآية القرآنية الكريمة العظيمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

لماذا الحديث عن جاذبيَّة الإسلام

ليس من المبالغة في شيء أن يقرِّر الباحثُ الموضوعيُّ المنصفُ أن الإسلام هو أكثر الأديان تعرُّضاً للاتِّهام والتشكيك والثَّلب والتَّجريح ، ليس فقط منذ سنتين أو ثلاثة ، لكن على الأقلِّ منذ قرنين أو ثلاثة .

إذا تجاوزنا حروب الفِرنجة أو الحروب الصليبيَّة ضدَّ العالم الإسلامي فيما يسمِّيه الأوروبيُّون بالقرون الوسطىٰ ؛ فإن الحروب الأوروبيَّة الاستعماريَّة ضدَّ العالم الإسلاميِّ ، والتي بدأت بحملة نابليون بونابارت علىٰ مصر في نهاية القرن الثَّامن عشر الميلاديِّ وتطوَّرت خلال القرن التَّاسع عشر إلى احتلالٍ مباشرٍ لأكثر الدُّول الإسلاميَّة ، واستمرَّت في أجزاءٍ كبيرةٍ من القرن العشرين ، وما زالت مستمرَّة في بداية القرن الحادي والعشرين ؛ هـٰذه الحروب الاستعماريَّة كانت ذات أهدافٍ اقتصاديَّةٍ وأطماعٍ استراتيجيَّة ، وبعضها كان لدوافعَ دينيَّةٍ معلنةٍ ، لكن دور الإسلام كإيديولوجيَّة رئيسة لمقاومة الاستعمار والعدوان جعله هدفاً للقُوى الاستعماريَّة ؛ فكانت الحرب علىٰ عقائده وتشريعاته وتراثه وتاريخه ، وعلىٰ صلاحيته للبقاء ، وعلىٰ نبيِّ الإسلام محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

إنَّ من يدرس تاريخ هـٰذه الحروب يحقُّ له القول : إن معجزة الإسلام

ليست فقط القرآن الكريم والنَّجاح الباهر للرَّسول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام في تبليغ الرِّسالة للعالمين ، وإنَّما هي أيضاً بقاءُ الإسلام وصمودُه واحتفاظه بجاذبيَّته القويَّة رغم كلِّ الحروب التي استهدفته في القرون الثلاثة الماضية ولم تتوقف لحد هـٰذه المرحلة .

المرحلة التي نتحدَّث عنها اليومَ في الرُّبع الأوَّل من القرن الخامس عشر للهجرة وفي مطلع الألفيَّة الميلاديَّة الثَّالثة مرحلةٌ معقَّدةٌ وحرجةٌ بالنِّسبة للإسلام وأهلِه ؛ إذ لا يكاد يمرُّ يومٌ واحدٌ من دون أن تنشر وسائل الإعلام في شرق المعمورة وغربها خبراً يربط الإسلام بالعنف والإرهاب هنا أو هناك .

ولا يكاد يمرُّ يومٌ من دون أن يتعرض مسلمٌ في الشَّرق أو الغرب للمضايقة ، أو للظُّلم بسبب انتمائه الدِّينيِّ ، ولا يكاد يمرُّ شهرٌ أو شهران من دون أن يصدر تشريعٌ ما في الغرب أو الشَّرق يؤدي في النِّهاية إلى التَّضييق على الحرِّيَّات الدِّينيَّة للمسلمين .

الحجابُ الذي قبلت به المرأة المسلمة توجيهاً دينيّاً عن حريَّةٍ وطواعيةٍ ؛ أصبح خطراً على الاستقرار في بعض البلدان بمباركةٍ محزنةٍ من المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان .

ومناهجُ التَّعليم التي تؤمِّن لأبناء المسلمين المعلوماتِ الضَّروريَّةَ عن دينهم ؛ غدت هدفاً مشروعاً لدولٍ ومنظماتٍ وشخصيَّاتٍ غير مسلمةٍ ولنزعاتٍ متطرِّفةٍ في خصومتها للمبادىء الإسلامية ، نزعاتٍ تتصيَّد أخطاءَ هـٰذه المناهج في فِقْرةٍ هنا وفِقْرةٍ هناك من أجل أن تصادرها جملةً وتفصيلاً في نهاية المطاف .

إنَّ على الباحث المنصف وطالب الحقيقة أينما كان في مدينة أمريكيَّةٍ أو أوروبيَّةٍ أو آسيويَّةٍ أو أفريقيَّةٍ ، ومهما كان دينه ومركزه الاجتماعي ، ومن أحزاب السلطة كان أو من أحزاب المعارضة ؛ أن يضع نفسه أو دينه في الموقع الذي يوجد فيه المسلم والإسلام اليوم ؛ ليعرف شراسة الحملة التي يواجهها

هـٰذا الدِّين ومعتنقوه اليومَ ومنذ ثلاثة قرون على الأقل .

وعليه أيضاً أن يكتشف عنفَ الحملة التي يواجهها الإسلام من أقليَّة متطرِّفةٍ متشدِّدة من الكُتَّاب والسَّاسة المسلمين في كلِّ الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة ؛ ففي كثيرٍ من هـٰذه البلدان لا يسمح أبداً بنقد الحاكم أما التجريح في الإسلام والانتقاد العنيف لتشريعاته ونصوصه التأسيسية في القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فأمر متاح دون قيود ، وبتشجيع معلنٍ ومبطَّنٍ من السُّلطات .

وغالباً ما يسمح لهـٰؤلاء المتطرِّفين الذين تخلَّىٰ أكثرُهم عن أداء أركان الإسلام المعروفة ؛ مثل الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة والحجِّ ، والذين يقفون في الغالب علناً أو بشكلٍ مبطَّنٍ مع الدِّيكتاتوريَّة والاستبداد ، غالباً ما يسمح لهم بالهيمنة على السَّاحة الفكريَّة والثَّقافيَّة والإعلاميَّة في بلدانهم ، مع التَّضييق الشَّديد والمتعمَّد على العلماء المسلمين القادرين على الدِّفاع عن عقائد الإسلام وتشريعاته .

هـٰذه كلها وجوه لما يصِحُّ أن نسمِّيَه بحملة شرسة ضدَّ الإسلام ، إنها حملةٌ دينيَّةٌ وسياسيَّةٌ وقانونيَّةٌ وثقافيَّةٌ وتعليميَّةٌ وإعلاميَّةٌ ، وقد يسمِّيها البعضُ حرباً لاحملة ، لكنَّ العِبرة بالمضمون لا بالتَّسميات .

صحيحٌ أنَّ ما فعلته قلَّة من المجرمين أو الإرهابيِّن المسلمين في السَّنوات الماضية وفَّر غطاءً ومبرِّراً لتجدُّد الحملة على الإسلام في أنحاءَ كثيرةٍ من العالم ، علماً بأن هـٰذه الحملة قديمةٌ جدّاً كما ذكرنا ، وليس صحيحاً أبداً أنَّها بدأت بعد الهجمات الإرهابيَّة التي تعرَّضت لها الولايات المتحدة في (١١) سبتمبر (٢٠٠١م) .

ورغم أن الأغلبيَّة السَّاحقة والمطلقة من أبناء الإسلام وعلمائه وساسته وكتَّابه وشعرائه وأدبائه أدانوا الأعمال الإرهابيَّة التي ارتكبتها تنظيمُ القاعدة ، أو التي تبنَّتها جماعاتٌ أخرىٰ تنسب نفسها للإسلام ، رغم ذلك فإنَّ التَّيَّار

الغالب في السِّياسة والإعلام في الغرب خاصة وفي أنحاء أخرىٰ كثيرة من العالم ؛ يميل إلىٰ تجاهل هـٰذه الإدانة ، ويميل إلىٰ تجريم الإسلام نفسِه ، واتِّهام عقائده وتشريعاته .

والغريب أنَّ الإسلام وحده يعامل بمثل هـٰذه المعاملة ؛ فالتَّفجيراتُ الإرهابيَّة لنمور التَّاميل لا تنسب لدينهم أو ثقافتهم ، وتفجيراتُ الجيش الجمهوريِّ الإيرلنديِّ لم تنسب للكاثوليكيَّة ، والأعمالُ الإرهابيَّة التي لم يرتكبها مسلمون ووقعت في الولايات المتَّحدة ودولٍ أخرىٰ لم تنسب لثقافة مسيحيَّةٍ أو رأسماليَّة أو غيرها .

وحدَه الإسلام مطالبٌ بأن يدخل قفص الاتهام قهراً بسبب جرائم مجموعة قليلةٍ جدّاً من المنتسبين له ، مجموعةٍ متشدِّدة متعصِّبةٍ سعت إلىٰ خطف الإسلام وفرض نفسها في صفة المتحدِّث باسمه ، فتصدَّت لها الأمَّة الإسلاميَّة ونبذتها ، وتصدَّىٰ لها علماء الإسلام وأدانوها دون تردُّد ، وتبرَّؤوا منها ومن أفعالها المنكرة الخسيسة .

ومما يزيد من حزن المسلم واستيائه واستغرابه من هـٰذه المعاملة ؛ الحقائقُ النَّاصعة الأخرى التي توجب علىٰ متزعِّمي الحملة على الإسلام اليومَ أن يكونوا أكثرَ تواضعاً وإنصافاً .

فالإسلامُ المتَّهم بالتَّعصُّب والتَّشدُّد وتشجيع النَّزعات الإرهابيَّة لم يكن وراء أيِّ كارثة من كوارث العصر الكبرىٰ في القرن العشرين علىٰ سبيل المثال ، لم يكن الإسلام سبباً في إشعال الحرب العالمية الأولىٰ ، أو الحرب العالميَّة الثَّانية ، وهما حربان قُتل فيهما عشرات الملايين من الناس ، ولم يكن للإسلام صلةٌ بجريمةِ القرن الماضي المروِّعة ، جريمةِ الهولوكوست التي قُتِل فيها ملايينُ البشر بسبب اعتناقهم للدِّيانة اليهوديَّة ، لم يدعم الإسلامُ من قريبٍ أو من بعيد نُظمَ التمييز العنصريِّ التي قامت في أفريقيا وشُرِّعت للتمييز بين البشر

علىٰ أساس اللَّون كما لم يكن للإسلام علاقةٌ بأيٍّ من الكوارث النَّوويَّة الهائلة التي شهدها القرن الماضي .

مع كلِّ هـٰذا فإنَّ الإسلامَ وحدَه يهاجمُ اليومَ بشراسةٍ وعنفٍ كأنَّه هو المسؤول عن هـٰذه الأعمال الشَّنيعة في تاريخ البشريَّة وفي تاريخ أصحابها ، وممَّن يهاجمُ الإسلام في أغلب الأحيان من أولـٰئك الذين لا يحبُّون أن يُسألوا أبداً عن جرائم القرن الماضي المروِّعة أو يطلبَ منهم تحديدُ هويَّة المسؤولين عنها .

غيرَ أنَّ هـٰذه السُّطور التي ينوي كاتبُها أن تكون مقدِّمَة كتابٍ موضوعيٍّ مفيدٍ يُنشرُ باللُّغات العربيَّة والانجليزيَّة والفرنسيَّة ؛ ليس من أهدافها أن تتوقَّف عند رثاء أوضاع الإسلام والمسلمين بسبب الحملة التي يتعرَّض لها الطَّرفان منذُ مدَّةٍ طويلةٍ ، وليس منطلقها الكُرْهُ أو الحِقدُ على الذين يقودون الحملات ضدَّ الإسلام ويشوِّهون صورتَه وسمعةَ أهله ، على العكس إنَّ منطلقها هو المحبَّةُ والرَّغبة في إزالة سوء الفهم والمراهنة علىٰ نزعة العدالة ومحبَّة الإنصاف عند الإنسان بقطع النظر عن عِرْقه ولونه وجنسيَّته ودينه .

إنَّ هدفَ هـٰذا الكتاب وهدفَ الكتب التي آمَلُ أن أولِّفها في سياق سلسلة « جاذبيَّة الإسلام » ؛ هو البحثُ في أسباب صمود الإسلام الأسطوريِّ في وجه الحملات العاتية التي استهدفته وما زالت تستهدفه ، والسعيُ للكشف عن سرِّ احتفاظ الإسلام بجاذبيَّته الآسرة لمئات الملايين من مُعتنقيه ، ولعشرات الألوف من الوافدين الجُدد إلىٰ خيمته .

جاذبيَّة الإسلام التي تجعله بوَّابة السَّعادة والأمن والاستقرار النَّفسي والعائليِّ والحرِّيَّة لأكثر من مليار إنسان ؛ هي موضوع هـٰذا الكتاب والكتب التي تليه إن شاء الله ، وأملي أن أتوصَّل إلىٰ فكِّ ألغازها من خلال بحثٍ علميٍّ نزيه ، ثم عرضِها بلغةٍ جميلةٍ وسهلةٍ في آنٍ واحدٍ .

أمَّا الجمهور الذي تتوجَّه إليه هـٰذه الأطروحة : فإنَّه أبعدُ من الأكاديميِّين

وطلابِ الجامعات ، وإن كان الأمل قويّاً بأن ينتهيَ هـٰذا الجهد إلىٰ تقديم مرجعٍ أساسيٍّ لكلِّ الباحثين الأكاديميِّين في الشَّأن الإسلاميِّ .

هـٰذا الكتابُ موجَّه أيضاً إلىٰ مئات الملايين من النِّساء والرِّجال الطَّيِّبين الباحثين عن الحقيقة في العواصم الكبرىٰ وفي المدن والأرياف في الغرب والشَّرق في الشَّمال والجنوب ، والذين لا يريدون أن تكون وسائل الإعلام الشَّعبيَّة مصدَرهم الوحيد لمعرفة الإسلام وأهله .

والكتابُ موجَّه لعموم المسلمين طبعاً في كلِّ مكان ، وخاصَّةً للشَّباب منهم مهما كانت جنسياتهم ولغاتهم وبلدانهم ؛ لأنه يبحث في سرِّ الجاذبيَّة التي تبني أساساً قويّاً راسخاً لرابطةٍ نبيلةٍ لاتنقطع بين فلاَّحٍ في السِّينغال ومهندس في أندونيسيا ، وبين طبيبة في جنوب أفريقيا وربة منزل في أوزبكستان .

كما أنَّه كتابٌ موجَّه لصنَّاع القرار في الأحزاب والحكومات في كلِّ أنحاء العالم ؛ لأن فهمَ الإسلام علىٰ حقيقته ومعرفةَ أسرار جاذبيَّته لم يعد ترفاً فكريّاً لا مبرر له ، أو شأناً ثانويّاً يضيق به وقتُ الملوك والرُّؤساء والوزراء ، لقد غدا هـٰذا الأمر اليومَ شأناً يتَّصل مباشرة بالسَّلام العالميِّ ، وبالجهود المبذولة لتجنيب العالم خطرَ الدُّخول في حروبٍ داميةٍ باسم الدِّين أو باسم صراع الحضارات .

الإسلام في اللغة العربية مصطلح متصل بالسَّلام ، وتحيَّةُ الإسلام التي يلقيها المسلم علىٰ كلِّ إنسان ويقرؤها في صلاته خمس مرات في اليوم هي السَّلام .

والسَّلام هو ما يحتاجه عالمنا ؛ من أجل أن يعيش اليهوديُّ والمسيحيُّ والمسلمُ والبوذيُّ والهندوسيُّ وغيرُهم من أتباع الدِّيانات والعقائد الأخرىٰ في وئام وسلام ، يتعاونون علىٰ بناء الحضارة وإسعاد أنفسهم وأبنائهم ، ويتنافسون في خدمة الله الواحد الأحد ، الذي خاطبهم جميعاً في القرآن الكريم

بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

إن هـٰذه الأطروحة تطمح إلىٰ أن تصبَّ في هدف التَّعارف الذي حثَّ القرآن الكريم عليه بني البشر ، ومنذ عدَّة سنوات أتاحت لي أجواء مدينتي الجميلة لندن أن أبذلَ جهوداً متنوِّعة في هـٰذا الإطار ؛ لذلك أسَّستُ مجلَّة « الديبلوماسي » للحوار بين الثَّقافات والحضارات باللُّغتين العربية والإنجليزية عام (١٩٩٦م) ، وعقدت ندوةً كبرىٰ لهـٰذا الغرض في العام نفسه ، وفي يناير (١٩٩٧م) نظَّمتُ أوَّل ندوةٍ من نوعها للحوار بين المسلمين واليهود ، ونشرتُ العديد من المقالات والحوارات الدَّاعية للتَّسامح في صحيفة « المستقلَّة » الأسبوعية التي أسَّستُها عام (١٩٩٣م) ، وكنتُ أكتب فيها زاويةً أسبوعيّةً باسم (يوميات مواطن عالمي) ، ثم نقلتُ هـٰذه الحوارات من الصَّحيفة والمجلَّة إلى الملايين من مشاهدي « قناة المستقلة الفضائية » التي أسَّستها عام (١٩٩٩م) ، وهي تبثُّ برامجها في العالم العربيِّ وأوروبا وأجزاء من أفريقيا وآسيا .

في استوديوهات « **قناة المستقلة** » أدرتُ حواراتٍ عديدةً بين الكتَّاب والسَّاسة العرب والأمريكيِّين ، واستضفت أوَّل ندوةٍ تلفزيونية من أجل الحوار والتَّفاهم بين اليهود والمسلمين ، ورسَّختُ هـٰذا كلَّه عام (٢٠٠٤م) من خلال برنامجي التِّلفزيونيِّ الجديدِ (آلُ إبراهيم) ، الذي يدور فيه الحوار بشكل شهريٍّ بين علماء اليهوديَّة والإسلام والمسيحيَّة ؛ لبيان الأرضيَّة المشتركة بينهم ، وبحثِ سُبُل توسيع هـٰذه الأرضيَّة ، والتعرُّفِ على المنهج الأفضل للتَّعامل مع الخلافات من دون عنف أو حروب .

وإني لآمَل أن تواصل القناةُ الجديدةُ التي أسَّستُها هـٰذا العام (٢٠٠٥م) « قناة الدِّيمقراطيَّة الفضائيَّة » خدمةَ فكرة التَّعاون والتَّعارف والسَّلام بين بني

البشر ، مواطني القرية العالميَّة الواحدة .

جاذبيَّة الإسلام تبدو لي في بدايات هـٰذا البحث رديفةً لجاذبيَّة السَّلام والمودَّة والأخوَّة بين بني البشر ، وآمَل أن يجد القارىء مصداقيَّة هـٰذا الحكم بالأدلة المقنعة والحجج القويَّة عندما يقرأ السَّطر الأخير من هـٰذا الكتاب ، ثمَّ من الكتب الأخرى التي أنوي نشرها بعون الله وتوفيقه ومشيئته ضمن هـٰذه « السلسلة » .

من البديهيِّ ومن والواجب أن أثبت هنا أنَّ ما كتبتُه عن سيرة نبيِّ الإسلام صلَّى الله عليه وسلَّم لا يحيط أبداً بكلِّ أبعادها وجوانبها ، مثلُ هـٰذا الأمر بعيد المنال عنِّي ، ولعله بعيدٌ أيضاً عن منال كلِّ كاتب ومؤرِّخ ؛ لأنَّ الأمر يتعلق بسيرة أعظم رجل في تاريخ الإنسانية ، إنَّ هـٰذه الفصول هي حصيلة اجتهادي المتواضع في قراءة السِّيرة ، كتبتُها للأجيال الجديدة المعاصرة باعتباري مواطناً في القرية العالميَّة التي ينتمي إليها البشر كافَّةً ، واعتمدتُ فيها على المصادر الرئيسة الموثوقة في التَّاريخ الإسلاميِّ ، وإنِّي لآمَلُ أن تكون إضافةً علميّةً وأكاديميّةً وتاريخيّةً طيبةً ومفيدةً ، تُثري المكتبة العربيَّة والإسلاميَّة والعالميَّة .

لقد كتبتُ السُّطور الأولىٰ من هـٰذا الكتاب في لندن ، يوم الإثنين (١٧) جمادى الأولىٰ (١٤٢٥) هجرية ، الموافق لـ(٥) جويلية (٢٠٠٤) ميلادية ، وانتهيتُ منه بتوفيق الله وفضله يوم السبت (١٤) ربيع الأول (١٤٢٦) هجرية ، الموافق لـ(٢٣) أبريل (٢٠٠٥) ميلادية .

أرجو للجميع قراءةً ممتعةً ومفيدة لهـٰذا الكتاب ، وعلىٰ أمل اللِّقاء بك قارئي العزيز في الكتاب الثَّاني من سلسلة كتب « جاذبيَّة الإسلام » إن شاء الله ، أحييك بالسَّلام تحية الإسلام : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الدّكتور محمّد الهاشميّ الحامديّ

الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

سيرة ذاتية

ـ ولد الدكتور محمد الهاشمي بن يوسف بن علي الحامدي في محافظة سيدي بوزيد ، جنوب القيروان ، وسط الجمهورية التونسية .

ـ نال شهادة الإجازة (الباكالوريوس) في اللغة والآداب العربية من كلية الآداب بجامعة تونس عام ١٩٨٥ .

ـ أكمل دراساته العليا في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، ونال منها درجة الماجستير عام ١٩٩٠ متخصصاً في الآداب العربية والتاريخ والدراسات الإسلامية المعاصرة .

ـ نال درجة الدكتوراه من قسم دراسات الشرق الأوسط في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٩٦ متخصصاً في مجال الدراسات الإسلامية المعاصرة .

ـ عمل في الميدان الإعلامي منذ عام ١٩٨٣ . بدأ مسيرته الإعلامية في صحف « الرأي » ، و« المغرب العربي » ، و« الصباح » التونسية ، ثم انتقل إلىٰ لندن وأشرف علىٰ تحرير صفحة الدين والتراث اليومية بجريدة الشرق الأوسط لعدة سنوات .

ـ أسس في لندن جريدة المستقلة الاسبوعية ، في يناير ١٩٩٣ ، وأشرف علىٰ تحريرها منذ ذلك الوقت لعدة سنوات .

ـ أسس مجلة الديبلوماسي الفصلية للحوار بين الثقافات والحضارات عام ١٩٩٦ وأصدر منها ستة أعداد باللغتين العربية والانجليزية ، كما نظم باسمها مؤتمر لندن للحوار بين الثقافات والحضارات في يونيو ١٩٩٦ بمشاركة

مفكرين وعلماء بارزين من مختلف أنحاء العالم .

ـ أسس قناة المستقلة الفضائية في لندن عام ١٩٩٩ .

ـ أسس قناة الديمقراطية الفضائية في لندن عام ٢٠٠٥ .

ـ شارك في العديد من الندوات الفكرية والمهرجانات الثقافية العربية والعالمية .

ـ نشر في عام ١٩٩٢ مقالة موسعة دعا فيها الكتاب والمفكرين المسلمين للتوافق علىٰ وثيقة حضارية أسماها « الميثاق الإسلامي للعدل والشورىٰ وحقوق الإنسان » .

ـ في العام ٢٠٠٧ أعلن بصفته رئيس قناة المستقلة الفضائية عن تأسيس وتنظيم مسابقة « شاعر العرب » ، أول مسابقة لشعراء اللغة العربية الفصحىٰ في تاريخ القنوات الفضائية العربية ، وذلك تكريماً للشعر ، وخدمة للغة العربية .

ـ رعىٰ وشجع العديد من الندوات المتخصصة في الحوار بين الثقافات والحضارات ، وقدم برنامجاً خاصاً للحوار بين علماء اليهودية والمسيحية والإسلام عنوانه « آل إبراهيم » .

ـ نشر عدة كتب بالعربية والأنجليزية ، منها :

١ـ « السيرة النبوية للقرية العالمية » ، وهو قراءة معاصرة في السيرة النبوية ، صدرت طبعته الثالثة عن دار المنهاج في جدة عام ٢٠٠٨ ميلادية ، وتمت ترجمة الكتاب للانجليزية .

٢ـ رسالة التوحيد ، وهو بحث في مكانة التوحيد والساسة في الإسلام ، صدرت طبعته الأولىٰ عن دار العبيكان عام ٢٠١٠ ميلادية .

٣ـ كتاب مشترك مع الدكتور عايض القرني عنوانه « مودة أهل البيت عند أهل السنة » ، صدر عن مركز الراية للمعرفة الفكرية عام ٢٠٠٦ .

❊ ❊ ❊

مِنْ أَهَمِّ المَرَاجِع

* **مراجع أساسية :**

ـ القرآن الكريم .
ـ البداية والنهاية ، الإمام الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، عني به مجموعة من المحققين بإشراف عبد القادر الأرنؤوط والدكتور بشار عواد معروف ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار ابن كثير ، سورية .
ـ تاريخ الطبري المسمىٰ تاريخ الأمم والملوك ، الإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .
ـ الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية) الشيخ صفي الرحمـٰن المباركفوري (ت١٤٢٨هـ) ، ط١ ، ٢٠٠٥م ، دار المنهاج ، السعودية .
ـ الرسول صلى الله عليه وسلم ، الشيخ سعيد حوىٰ (ت١٤٠٩هـ) ، ط٧ ، (٢٠٠٥م) ، دار السلام ، مصر .
ـ السيرة النبوية ، الإمام عبد الملك بن هشام الحميري (ت٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار ابن كثير ، سورية .
ـ صحيح البخاري المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه (الطبعة السلطانية العثمانية) ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت٢٥٦هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

ـ صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح ، الإمام الحافظ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .
ـ فقه السيرة ، الشيخ المفكر محمد الغزالي (ت١٤١٦هـ) ، ط٢ ، ١٩٩٩م ، دار الدعوة ، مصر .
ـ منهل الواردين شرح رياض الصالحين ، الدكتور صبحي الصالح (ت١٤٠٧هـ) ، ط١ ، ١٩٧٠م ، دار العلم للملايين ، لبنان .
ـ هٰذا الحبيب يا محب ، أبو بكر جابر الجزائري ، ط٢ ، ١٩٩٨م ، دار أضواء المنار ، السعودية .

* **مراجع إضافية :**
ـ أم النبي ، عائشة عبد الرحمٰن بنت الشاطىء ، ط١ ، ١٩٧٠م ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
ـ حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، المؤرخ الكاتب محمد حسين هيكل عضو المجمع اللغوي (ت١٣٧٦هـ) ، ط٣ ، ١٩٣٩م ، دار الكتب المصرية ، مصر .
ـ خاتم النبيين ، الإمام محمد أبو زهرة (ت١٣٨٤هـ) ، ط١ ، ١٩٧٣م ، دار الفكر العربي ، مصر .
ـ الرسول صلى الله عليه وسلم ، للإمام عبد الحليم محمود شيخ الأزهر (ت١٣٩٨هـ) ، ط١ ، ١٩٧٧م ، دار التراث العربي ، مصر .
ـ السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، الكاتب محمد فريد وجدي صاحب دائرة المعارف (ت١٣٧٣هـ) ، ط٣ ، ١٩٩٣م ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر .

ـ السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم ضياء العمري ، ط٣ ، ١٩٩٨م ، مكتبة العبيكان ، السعودية .
ـ الطبقات الكبرىٰ = طبقات ابن سعد ، الإمام الحافظ المؤرخ محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ) ، تقديم الدكتور إحسان عباس ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .
ـ عبقرية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، إمام الأدب عباس محمود العقاد (ت١٣٨٣هـ) ، ط٣ ، بدون تاريخ ، المكتبة التجارية الكبرىٰ ، مصر .
ـ علىٰ هامش السيرة ، طه حسين (ت١٣٩٣هـ) ، ط٩ ، دار المعارف ، مصر .
ـ فجر الإسلام ، الأديب الكاتب أحمد أمين (الطباخ) عضو المجمع العلمي العربي (ت١٣٧٣هـ) ، ط١ ، ١٩٢٨م ، لجنة التأليف والترجمة ، مصر .
ـ في ظلال السيرة النبوية ، علاء الدين آل رشي وخلود إسماعيل معطي ، ط١ ، ٢٠٠١م ، دار الفكر ، سورية .
ـ مع المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ، عائشة عبد الرحمـٰن بنت الشاطىء ، ط١ ، ١٩٧٢م ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

❊ ❊ ❊

محتوى الكتاب